فيرونيكا روث

VERONICA ROTH

الجامحة

دايفرجنت

DIVERGENT



الجامحة
دايفرجنت
DIVERGENT

رواية

فيرونيكا روث

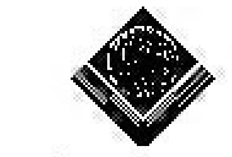
VERONICA ROTH

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Divergent

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Katherine Tegen Books an imprint of HarperCollins Publishers

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ISBN: 978-614-02-2225-0



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

الفصل الأوّل

في بيتنا مرآة واحدة، معلّقة خلف لوح متحرّك في ردهة الطابق العلوي. تسمح لي جماعتي بالوقوف أمامها في اليوم الثاني من الشهر، كل ثلاثة أشهر، وهو اليوم الذي تقصّ لي أمي فيه شعري.

جلست على الكرسيّ، ووقفت أمّي خلفي حاملة المقصّ. وسرعان ما تساقطت خصل الشعر على الأرض في حلقات شقراء بلا حياة.

عندما انتهت، أبعدَت شعري عن وجهي وعقصَته في عقدة. لاحظتُ في تلك الأثناء مدى هدوئها وتركيزها. فهي ماهرة جداً في فنّ نسيان نفسها؛ الأمر الذي لا ينطبق عليّ إطلاقاً.

استرقتُ النظر إلى صورتي المنعكسة أمامي في غفلة منها؛ ليس اغتراراً بذاتي، بل من باب الفضول. فمن الممكن أن تستجدّ أمور كثيرة على مظهر المرء خلال ثلاثة أشهر.

رأيت في المرآة وجهاً نحيلاً، يمتاز بعينين كبيرتين مستديرتين، وأنف طويل ورقيق. ما زلت أبدو فتاة صغيرة؛ مع أنّني بلغت السادسة عشرة منذ عدّة أشهر. كان أفراد الجماعات الأخرى يحتفلون بأيام ميلادهم، أمّا نحن فلا نفعل ذلك، لأنه يعتبر بذخاً.

قالت أمي وهي تثبّت العقدة بالدبابيس: "ها قد انتهينا". فجأة، التقت نظراتنا في المرآة، وفات الأوان على النظر بعيداً. لكن، عوضاً عن توبيخي وجدتُها تبتسم لي، فعبستُ قليلاً. لماذا لم توبّخني على تحديقي إلى صورتي في المرآة؟

قالت: "إذاً، هذا هو اليوم الموعود".

أجبت: "أجل".

"هل تشعرين بالتوتّر؟".

نظرتُ إلى عينيّ للحظة. اليوم هو موعد اختبار الجدارة الذي سيحدّد إلى أيّ من الجماعات الخمس أنتمي. وفي حفل الاختيار الذي سيقام غداً، سأختار جماعة. هكذا سأحدّد مستقبلي؛ سأقرّر إمّا البقاء مع أسرتي أو الرحيل عنها.

أجبت: "كلاّ، لا يجب أن تغيّر الاختبارات قراراتنا".

ابتسمَت مجيبة: "صحيح. هيّا لتناول الفطور".

"شكراً على قصّة الشعر".

قبّلَت خدّي، وسحبَت اللوح فوق المرآة. أظنّ أنّ أمّي يمكن أن تُعتبر جميلة، في زمن آخر. فجسدها نحيل تحت ثوبها الرمادي، وعظام خدّيها عالية، ورموشها طويلة. وعندما تسدل شعرها ليلاً، يتموّج فوق كتفيها. لكن، لا بدّ لها من إخفاء هذا الجمال في جماعة نكران الذات.

ذهبنا معاً إلى المطبخ. في صباح كهذا، عندما يُعدّ أخي الفطور، ويمسح أبي على رأسي وهو يقرأ الجريدة، بينما تدندن أمّي وهي تنظّف الطاولة، في صباح كهذا، يتعاظم شعوري بالذنب بسبب رغبتي في تركهم.

* * *

كانت الحافلة عابقة برائحة الوقود الكريهة. وكلّما مرّت على أرض غير مستوية، اهتززت من جانب إلى آخر، مع أنّني تمسّكت بالمقعد لتثبيت نفسي.

وقف شقيقي الأكبر، كاليب، في الممرّ بين المقاعد، وتمسّك بأحد القضبان فوقه لتثبيت نفسه. نحن لا نشبه بعضنا. فقد ورث شعر والدي الداكن، وأنفه المعقوف، وعيني أمّي الخضراوين، وغمّازتيها. عندما كان أصغر سنّاً، كان يبدو هذا المزيج من الملامح غريباً، بيد أنّه يلائمه الآن. ولو لم يكن ينتمي إلى جماعة نكران الذات، فأنا واثقة أنّه كان سينال إعجاب الفتيات في المدرسة.

ورث كاليب أيضاً عن أمّي حبّ الغير. فقد أعطى مقعده لرجل ينتمي بلا شكّ إلى جماعة النزاهة من دون أيّ تردّد.

كان ذلك الرجل يرتدي بدلة سوداء، ويضع ربطة عنق بيضاء؛ وهو الزيّ المعتمد لدى تلك الجماعة. تقدّر جماعة النزاهة الصدق، وترى الحقيقة بالأبيض والأسود. لهذا السبب، لا يرتدي أعضاؤها سوى هذين اللونين.

تضيق المساحات بين الأبنية، وتصبح الطرقات أكثر استواءً ونحن نقترب من وسط المدينة. يظهر من خلف الضباب المبنى الذي كان يسمّى سيرز تاور، ونسمّيه اليوم المحور، ويبدو مثل عمود أسود في الأفق. مرّت الحافلة فوق السكك المرتفعة. لم يسبق لي أن ركبت القطار يوماً، مع أنّه لم يتوقّف مطلقاً، وسككه موزّعة في كلّ مكان. وحدهم الشجعان يركبونه.

قبل خمس سنوات، تطوّع عمّال بناء من جماعة نكران الذات لإعادة تعبيد بعض الطرقات. فبدأوا من وسط المدينة، وتواصلت الأعمال نحو أطرافها حتّى نفدت منهم الموادّ. لذلك، إنّ طرقات المنطقة التي أعيش فيها ما زالت غير مستوية، والقيادة عليها غير آمنة. على كلّ حال، نحن لا نملك سيّارة.

بدا وجه كاليب خالياً من التعابير، بينما كانت الحافلة تميل وتتأرجح على الطريق. تراجع كمّ ردائه

الرمادي نحو الخلف كاشفاً عن ذراعه وهو يتمسّك بأحد الأعمدة للحفاظ على توازنه. عرفتُ من حركة عينيه الدائمة أنّه يراقب الناس حولنا، محاولاً ألاّ يرى غيرهم وأن ينسى نفسه. فجماعة النزاهة تُقدّر الصدق، أمّا جماعتنا، أي نكران الذات، فتُقدّر حبّ الغير.

توقّفت الحافلة أمام المدرسة، فنهضتُ ومررتُ من أمام رجُل النزاهة. أمسكت بذراع كاليب عندما تعثّرتُ بحذاء الرجل. فسروالي طويل جدّاً، ولم أتمتّع يوماً بالرشاقة.

يُعتبر مبنى المدرسة الثانوية الأقدم بين مدارس المدينة الثلاث: المدرسة الابتدائية، والمدرسة المتوسّطة، والمدرسة الثانوية. وشأنه شأن جميع المباني المحيطة به، فهو مصنوع من الزجاج والفولاذ. تقع أمامه منحوتة معدنية كبيرة يتسلّقها الشجعان بعد الدوام المدرسي، ويتبارون في بلوغ النقطة الأعلى. في العام الماضي، رأيتُ إحداهنّ تسقط وتكسر ساقها. وكنتُ أنا من ذهب لإحضار الممرّضة.

قلت: "اليوم ستُجرى اختبارات الجدارة". بالكاد كان كاليب يكبرني بعام واحد. لذلك، كنّا في الصفّ نفسه.

هزّ رأسه ونحن نعبر البوّابة، وتوتّرت عضلاتي حالما دخلنا. فقد شعرتُ بنهم في الجوّ، وكأنّ كلّ طالب في السادسة عشرة من عمره يحاول أن يلتهم من الوقت قدر ما يستطيع ليتجاوز هذا اليوم الأخير. على الأرجح، لن نعبر هذه الأروقة مجدّداً بعد حفل الاختيار. فما إن يقع اختيارنا على جماعاتنا الجديدة، حتى تتولى هي مهمّة إنهاء تعليمنا.

تمّ اختصار صفوفنا إلى النصف اليوم. سنحضرها كلّها قبل اختبارات الجدارة التي ستجري بعد الغداء. تسارعت نبضات قلبي منذ الآن.

سألتُ كاليب: "ألا تشعر بأيّ قلق حيال ما سيقولونه لك؟".

توقّفنا عند مفترق الطرق في الرواق، قبل أن يذهب باتّجاه صفّ الرياضيات المتقدّمة، وأذهب أنا في الاتّجاه الآخر؛ لحضور صفّ تاريخ الجماعات.

رفع أحد حاجبيه، ونظر إليّ قائلاً: "وهل أنت قلقة؟".

كان بإمكاني إخباره أنّ القلق لم يفارقني منذ أسابيع حيال نتيجة اختبار الجدارة؛ نكران الذات، أم النزاهة، أم المعرفة، أم الوئام، أم الشجاعة؟

ولكنني عوضاً عن ذلك، ابتسمت وأجبت: "ليس حقّاً".

ردّ لي الابتسامة، وقال: "حسناً... أتمنّى لك يوماً سعيداً".

توجّهت إلى صفّ تاريخ الجماعات وأنا أعضّ على شفتي السفلى. لم يُجب عن سؤالي مطلقاً.

كانت الأروقة مزدحمة، مع أنّ الضوء الآتي من النوافذ يعطي انطباعاً بالاتّساع. فالأروقة هي المكان الوحيد الذي تختلط فيه الجماعات في سنّنا. واليوم، كان الحشد يضجّ بطاقة من نوع جديد. إنّه جنون اليوم الأخير.

صاحت فتاة ذات شعر طويل أجعد بالقرب من أذني: "مرحباً!"، ولوّحت لأحد أصدقائها. وارتطم بخدّي كمّ سترة، ثمّ دفعني صبيّ ينتمي إلى جماعة المعرفة ويرتدي قميصاً أزرق. فاختلّ توازني، وسقطتُ بقوّة على الأرض.

قال بصوت لاذع: "ابتعدي عن طريقي، أيّتها المتزمّتة". ثمّ مضى في سبيله.

احمرّ خدّاي من شدّة الحرج. نهضت وأنا أنفض الغبار عنّي. كان عدد من الطلاّب قد توقّف عندما سقطتُ، لكنّ أحداً منهم لم يعرض عليّ المساعدة، بل لاحقوني بنظراتهم حتّى آخر الرواق. كانت هذه الحوادث تقع لأشخاص آخرين في جماعتي منذ أشهر. وذلك لأنّ جماعة المعرفة تنشر تقارير معادية لجماعة نكران الذات منذ مدّة، وقد بدأ هذا الأمر يؤثّر على علاقاتنا في المدرسة. يُفترض بالملابس الرمادية، وتسريحة الشعر العادية، والسلوك المتواضع الذي تتّسم به جماعتي أن تسهّل عليّ نسيان ذاتي، وتسهّل على الآخرين نسياني. لكنّني أصبحت الآن هدفاً لهم.

وقفتُ عند النافذة في الجناح هـ، أنتظر وصول الشجعان. فأنا أفعل ذلك كلّ صباح. فعند الساعة 7:25 تماماً، يُثبت الشجعان شجاعتهم بالقفز من قطار متحرّك.

يسمّي والدي أعضاء جماعة الشجاعة "عفاريت". فهم يضعون أقراطاً، ويزيّنون بشرتهم بالأوشام، ويرتدون ملابس سوداء. هدفهم الأساسي هو حراسة السور المحيط بالمدينة. مِمّ؟ لا أدري.

يُفترض أن يسبّبوا لي الحيرة. ويفترض أن أتساءل عن علاقة الشجاعة – وهي الفضيلة الأكثر تقديراً لديهم – بقرط معدني معلّق في الأنف. لكن عوضاً عن ذلك، تلاحقهم عيناي أينما ذهبوا.

انطلقت صفّارة القطار، وتردّد صداها في صدري. أخذ المصباح المثبّت في مقدّمة القطار ينطفئ ويضيء مع اندفاع القطار من أمام المدرسة، في حين صدر عن السكّة الحديدية صرير قويّ. ومع مرور السيّارات الأخيرة، اندفع شبّان وشابّات بالملابس الداكنة من المقطورات المتحرّكة في خروج جماعي. منهم من سقط وتدحرج، ومنهم من تعثّر بضع خطوات قبل أن يستعيد توازنه. وضع أحد الفتيان ذراعه حول كتفي فتاة، وهو يضحك.

كانت مراقبتهم عادة سخيفة. ابتعدتُ عن النافذة، ورحتُ أشقّ طريقي بين حشود الطلاّب نحو

صفّ تاريخ الجماعات.

الفصل الثاني

بدأت الاختبارات بعد الغداء. جلسنا أمام الطاولات المستطيلة في المقهى، وراح مديرو الاختبارات ينادون كلّ عشرة أسماء معاً؛ لكلّ غرفة اختبار واحد. جلستُ بالقرب من كاليب، مقابل جارتنا سوزان.

كان والد سوزان يتنقّل في أنحاء المدينة بداعي العمل. لذلك فهو يملك سيّارة يقلّها بها من المدرسة وإليها كلّ يوم. عرض علينا إيصالنا نحن أيضاً في طريقه، لكنّ كاليب قال إنّنا نفضّل التأخّر قليلاً، ولا نريد أن نسبّب له الإزعاج.

بالطبع لا.

كان معظم المشرفين على الاختبارات متطوّعين من جماعة نكران الذات. لكن على الرغم من ذلك، ثمّة شخص من جماعة المعرفة في إحدى غرف الاختبار، وشخص من جماعة الشجاعة في غرفة أخرى؛ لاختبار الطلاّب المنتمين إلى جماعة نكران الذات، لأنّ القوانين تمنع قيام شخص من جماعتنا باختبارنا. وتنصّ القوانين أيضاً على عدم الاستعداد للاختبار بأيّ طريقة من الطرق. لذلك لا أعرف ماذا أتوقّع.

انتقل نظري من سوزان إلى طاولات الشجعان في الغرفة. كانوا يضحكون، ويصيحون، ويلعبون الورق. وعلى عدد آخر من الطاولات، جلس طلاّب من جماعة المعرفة يتحدّثون عن الكتب والصحف، في سعي حثيث ومستمرّ إلى اكتساب العلم.

جلست مجموعة من فتيات جماعة الوئام اللواتي يرتدين الأصفر والأحمر في دائرة على أرض المقهى، ولعبن لعبة تتضمّن صفقاً بالأيادي مع أغنية. وكلّ بضع دقائق، كانت تصدر عنهنّ ضحكة جماعية مع خروج إحداهنّ وجلوسها في الوسط. على طاولة مجاورة، كان فتية النزاهة يحرّكون أيديهم في الهواء. بدوا وكأنّهم يتناقشون في موضوع ما، لكنّه ليس جدّياً، لأنّ بعضهم ما زال يبتسم.

جلسنا بهدوء إلى طاولة نكران الذات وانتظرنا. إذ تُملي علينا عادات الجماعة السكون، ولها الأولوية على الأذواق الشخصية. وأنا أشكّ في أنّ كلّ أعضاء المعرفة يرغبون في الدراسة طوال الوقت، أو أنّ كلّ من ينتمون إلى جماعة النزاهة يستمتعون بالجدال الحامي. غير أنّهم ليسوا أكثر منّي قدرة على تحدّي قوانين جماعتيْهم.

ورد اسم كاليب في المجموعة التالية، فتوجّه بثقة نحو الباب. لستُ مضطرّة إلى أن أتمنّى له التوفيق، أو أن أؤكّد له أنّه لا حاجة إلى التوتّر، فهو يعرف إلى أين ينتمي. على حدّ علمي، لقد

عرف دائماً. ترجع أولى ذكرياتي عنه إلى سنّ الرابعة، عندما وبّخني لأنّني لم أعطِ حبل القفز لفتاة صغيرة في الملعب ليس لديها ما تلعب به. لم يعد يعظني بقدر ما كان يفعل في الماضي، لكنّني أذكر جيّداً نظرة عدم الاستحسان لديه.

حاولت أن أشرح له أنّ ميولي مختلفة عن ميوله، لكنّه لم يفهم؛ فأنا لم يخطر ببالي مثلاً أن أقدّم مقعدي لذلك الرجل في الحافلة. كان يقول دائماً: "افعلي ما يُفترض بك فعله وحسب". فهذا الأمر سهل عليه جدّاً، وينبغي أن يكون بهذا القدر من السهولة بالنسبة إليّ.

شعرت بتشنّج في معدتي. فأغمضت عينيّ، وأبقيتهما مغمضتين لعشر دقائق؛ إلى أن أتى كاليب وعاد للجلوس قربي.

بدا شاحباً تماماً. مرّر راحتيه على ساقيه مثلما أفعل عندما أمسح عن كفّي العرق. وعندما رفعهما، كانت أصابعه ترتجف. فتحت فمي لأسأله شيئاً، لكنّ الكلام لم يخرج منه. فمن غير المسموح لي أن أسأله عن نتائجه أو أن يخبرني بها.

نادى متطوّع من جماعة نكران الذات على مجموعة الأسماء التالية. اثنان من الشجاعة، واثنان من المعرفة، واثنان من الوئام، واثنان من النزاهة، ثمّ: "من نكران الذات: سوزان بلاك وبياتريس برايور".

نهضتُ؛ لأنّه يُفترض بي ذلك. لكن، لو عاد الأمر إليّ لبقيت جالسة طوال الوقت. شعرت كما لو أنّ في صدري فقاعة تزداد حجماً مع مرور كلّ ثانية، وتهدّد بتفجيري من الداخل. لحقتُ بسوزان إلى الباب. على الأرجح، لا يمكن للناس الذين مررنا بهم أن يميّزوا بيننا. فنحن نرتدي الملابس نفسها، ونسرّح شعرنا الأشقر بالطريقة نفسها. الفرق الوحيد هو أنّ سوزان لا تشعر بالغثيان، وكما يبدو، إن يديها لا ترتعشان حيث تمسك بطرف قميصها لتثبيتهما.

كان بانتظارنا خارج المقهى صفّ من عشر غرف. لا تُستعمل هذه الغرف سوى لاختبارات الجدارة، لذلك لم تسبق لي رؤيتها من قبل. وخلافاً للغرف الأخرى في المدرسة، لا يفصل بينها زجاج، بل مرايا. رأيت نفسي شاحبة ومرعوبة وأنا أمشي باتّجاه أحد الأبواب. غمزتني سوزان بعصبية وهي تدخل الغرفة 5، بينما دخلت الغرفة 6 التي تنتظرني فيها امرأة من جماعة الشجاعة.

لم تكن تلك المرأة تتمتّع بمظهر حادّ بقدر الشجعان الشباب الذين رأيتهم. فهي قصيرة القامة، سمراء، ذات عينين كبيرتين، ترتدي سترة سوداء مثل سترات الرجال، وسروال جينز. لكن، عندما استدارت لإغلاق الباب، رأيت وشماً على مؤخّر عنقها؛ على شكل صقر باللونين الأبيض والأسود،

مع عين حمراء. لو لم أكن أشعر أنّ قلبـي في حلقي من شدّة التوتّر، لسألتها عن معناه. فلا بدّ أنّه يرمز إلى شيء ما.

كانت الجدران الداخلية للغرفة مكسوّة بالمرايا. رأيت صورتي منعكسة من كلّ الزوايا، رأيت القماش الرمادي الذي يطغى على ظهري، وعنقي الطويل، ويديّ الحمراوين، وعقد أصابعي البارزة. أمّا السقف الأبيض فكان يشعّ بالضوء. وُضع في وسط الغرفة مقعد طويل، مثل مقعد طبيب الأسنان، مع آلة قربه. فبدا وكأنّ أشياء رهيبة تحدث في هذا المكان.

قالت المرأة: "لا تخافي، هذا غير مؤلم".

كان شعرها أسود وأملس، لكنّني رأيت الشيب يتخلّله تحت الضوء الساطع.

قالت: "اجلسي واستريحي. أنا أدعى توري".

جلستُ على الكرسي بارتباك، وتمدّدت، ثمّ أسندت رأسي إلى المسند المخصّص لذلك. أزعجني الضوء، أمّا توري فانشغلت بالآلة إلى يميني. حاولت أن أركّز عليها، وليس على الأسلاك التي تمسكها بيديها.

سألتُها من دون تفكير، وهي تعلّق قُطباً كهربائياً بجبيني: "ما القصد من الصقر؟".

أجابت وهي ترفع حاجبيها باستغراب: "لم ألتقِ من قبل شخصاً فضولياً من جماعة نكران الذات".

أحسست بقشعريرة تسري في ذراعي. كان فضولي خاطئاً، ويتّسم بالخيانة لقيم نكران الذات.

أخذت تدندن وهي تضغط بقطب آخر على جبيني، وتشرح قائلة: "في بعض أجزاء العالم القديم، يرمز الصقر إلى الشمس. وعندما وضعتُ هذا الوشم، فكّرت أنّني لو حملت الشمس معي دائماً، فلن أخشى الظلام".

حاولت أن أمنع نفسي من طرح سؤال آخر، لكنّني لم أستطع المقاومة: "وهل تخافين من الظلام؟".

صحّحت قائلة: "كنتُ أخاف من الظلام". ضغطَت القطب التالي على جبينها، وعلّقت به سلكاً. هزّت كتفيها مضيفة: "الآن، هو يذكّرني بالخوف الذي تغلّبت عليه".

وقفت خلفي، فضغطتُ بقوّة على ذراعَي الكرسي، حيث ابيضّت عقد أصابعي. شدّت الأسلاك نحوها، وعلّقتها بـي وبها، وبالآلة خلفها. بعد ذلك، أعطتني كأساً تحتوي على سائل صافٍ.

قالت: "اشربـي هذا".

ازدردت لعابـي، وسألتها: "ما هذا؟ ماذا سيحدث؟".

"لا يمكنني إخبارك، ثقي بـ.ي وحسب".

أخذتُ نفساً عميقاً، ثمّ أفرغت محتويات الكأس في فمي، وأغمضتُ عينَيّ من دون أن أشعر.

* * *

فتحتهما بعد قليل، لكنّني كنت في مكان آخر. كنت أقف في المقهى مجدّداً، لكنّ كلّ الطاولات كانت خالية. رأيت من خلال الجدران الزجاجية الثلج يتساقط. كانت على الطاولة أمامي سلّتان. إحداهما تحتوي على قطعة كبيرة من الجبن، والأخرى على سكّين بطول ساعدي.

خلفي، سمعت صوت امرأة تقول: "اختاري".

سألتها: "لماذا؟".

فكرّرت: "اختاري".

التفتُّ إلى الخلف، لكنّني لم أرَ أحداً، فنظرت مجدّداً إلى السلّتين. "ماذا سأفعل بما سأختاره؟".

صاحت: "اختاري!".

عندما صرخت بـ.ي، تبدّد خوفي، وحلّ مكانه العناد. فقطّبت جبيني، وشبكت ذراعَي على صدري ممتنعة عن الاختيار.

قالت: "كما تشائين".

اختفت السلّتان، وسمعت صرير باب، فالتفتُّ لرؤية القادم. لكنّ ما رأيته لم يكن شخصاً، بل كلباً شرساً يقف على بعد بضع ياردات منّي. انحنى، وراح يتقدّم باتّجاهي، مكشّراً عن أنيابه البيضاء. زمجر بقوّة، فعرفت بماذا كانت ستفيدني قطعة الجبن، أو السكّين. لكن، فات الأوان.

فكّرت بالهرب، لكنّ الكلب سيكون أسرع منّي، كما أنّني لا أستطيع مصارعته وتثبيته على الأرض. ضجّ رأسي بالأفكار وأنا أحاول اتّخاذ القرار الصائب. ماذا لو تمكّنت من القفز فوق إحدى الطاولات واستعمالها كدرع؛ لكن لا، فأنا قصيرة جدّاً لأقفز من فوق الطاولة، كما أنّني لست قوية بما فيه الكفاية لأقلبها.

زمجر الكلب، وشعرت بصوته يتردّد في جمجمتي.

بحسب كتاب علم الأحياء، يستطيع الكلب أن يشمّ الخوف بسبب مادّة كيميائية تُفرزها الغدد البشرية عندما يكون المرء خائفاً؛ وهي المادّة نفسها التي تُفرزها فريسة الكلب. ورائحة الخوف هي التي تدفع الكلاب إلى الهجوم. أخذ الكلب يتقدّم نحوي، ومخالبه تنهش الأرض.

لا أستطيع الهرب، ولا أقوى على القتال. عوضاً عن ذلك، اشتممت رائحة كريهة انبعثت من فم

الكلب، وحاولت ألاّ أفكّر في ما أكله للتوّ. لم أرَ أيّ بياض في عينيه، بل مجرّد وميض أسود.

ماذا أعرف أيضاً عن الكلاب؟ لا يجب أن أنظر إلى عينيه، فهذا دليل على العدائية. أذكر أنّني طلبت من أب.ي أن يشتري لي كلباً عندما كنت صغيرة. والآن، وأنا أحدّق إلى مخالب هذا الحيوان، لم أعد أذكر سبب رغبتي تلك. اقترب منّي أكثر وهو يزمجر. إن كان التحديق إلى عينيه إشارة عداء، فما هي إشارة الخضوع؟

كانت أنفاسي مسموعة، لكنّها مستقرّة. ركعت على ركبتَيّ. آخر ما أريده هو التمدّد على الأرض أمام كلب، حيث يكون وجهي بمستوى أسنانه؛ لكن ليس أمامي خيار آخر. مددت ساقَيّ خلفي، واتّكأت على مرفقَيّ. فاقترب منّي الكلب أكثر، إلى أن شعرت بنفسه الدافئ على وجهي. كانت ذراعاي ترتجفان.

نبح بالقرب من أذني، فصررتُ على أسناني لأمنع نفسي من الصراخ.

شعرت بشيء خشن ورطب يلمس خدَّي. فجأة، توقّف الكلب عن الزمجرة، وعندما رفعت رأسي ونظرت إليه مجدّداً، كان يلهث. لعق وجهي. فعبستُ ونهضت، ثمّ جلست القرفصاء. وضع الكلب قائمتيه الأماميتين على ركبتَيّ، ولعق ذقني، فانكمشتُ، ثمّ مسحتُ اللعاب عن وجهي وأنا أضحك.

"أنت لست ذاك الوحش المفترس إذاً".

نهضت ببطء لكي لا أخيفه، لكنّه بدا مختلفاً عن ذاك الحيون الذي واجهني قبل ثوانٍ. مددت يدي بحذر، لكي أتمكّن من إبعاده إن احتجت إلى ذلك. فدفع الكلب يدي برأسه. فجأة، شعرت بالسرور لأنّني لم أقم باختيار السكّين.

أغمضت عينَيّ لثوانٍ، وعندما فتحتهما، رأيت طفلة تقف عند الباب، وترتدي ثوباً أبيض. مدّت يديها وهتفت: "بوب.ي!".

عندما اندفعت نحو الكلب الواقف قرب.ي، فتحتُ فمي لأحذّرها، لكنّ الأوان فات. فقد التفت الكلب نحوها، وعوضاً عن الزمجرة بدأ بالنباح، وتوتّرت عضلاته استعداداً للهجوم. لم أفكّر، بل قفزت، ورميت بجسدي عليه، وأحطت عنقه المكتنز بذراعَي.

ارتطم رأسي بالأرض، فقد اختفى الكلب والفتاة الصغيرة. وجدت نفسي بمفردي في غرفة الاختبار الخالية. أخذتُ أدور ببطء، ولم أستطع رؤية نفسي على المرايا. ففتحت الباب، ومشيت في الرواق، لكنّه لم يكن رواقاً، بل حافلة، كلّ مقاعدها محجوزة.

وقفت في الممرّ، وتمسّكت بأحد الأعمدة. كان يجلس بالقرب منّي رجل يقرأ جريدة. لم أستطع

رؤية وجهه من خلف الجريدة، لكنّني رأيت يديه. كانتا مليئتين بالندوب؛ كما لو أنّه تعرّض لحروق، وكان يمسك بالصحيفة وكأنّه يريد تجعيدها.

سألني: "هل تعرفين هذا الرجل؟". أشار إلى صورة على الصفحة الأولى. قرأت العنوان: "إلقاء القبض على قاتل خطير!"، وحدّقت إلى كلمة "قاتل". لقد مضى زمن طويل منذ أن قرأت هذه الكلمة، لكنّ شكلها كان كافياً ليشعرني بالرعب.

تحت العنوان، نُشرت صورة لشابّ عادي الملامح وملتحٍ. شعرت بأنني أعرفه، مع أنّني لا أذكر كيف. في الوقت نفسه، رأيت أنّه من الخطأ إخبار الرجل بذلك.

بدا صوته مشوباً بالغضب وهو يلحّ بسؤاله: "حسناً، هل تعرفينه؟".

إنها فكرة سيّئة، لا بل سيّئة جدّاً. أخذ قلبي ينبض، وتمسّكت بالعمود لأمنع يديّ من الارتعاش، وفضْحِ أمري. إن قلت له إنّني أعرف صاحب الصورة فسأورّط نفسي في أمر مريع. لكن يمكنني إقناعه بأنّني لا أعرفه. بإمكاني أن أتنحنح، وأن أهزّ كتفيّ بلا مبالاة، لكنّني بذلك سأكذب عليه.

تنحنحت.

سألني: "هل تعرفينه؟".

هززت كتفي بلا مبالاة.

"حسناً؟".

سرت رعشة في جسدي. إنّ خوفي غير منطقي، فهذا مجرّد اختبار وليس حقيقياً. قلت بصوت عادي: "كلاّ، ليست لديّ أيّ فكرة عمّن يكون".

وقف، فرأيت وجهه أخيراً. كان يضع نظّارة سوداء، وقد علت وجهه تكشيرة. رأيت خدّيه مكسوَّين بالندوب؛ مثل يديه. انحنى نحوي، فاشتممت رائحة السجائر في أنفاسه. رحت أذكّر نفسي: هذا ليس حقيقياً، ليس حقيقياً.

قال: "أنت تكذبين، تكذبين!".

"لا".

"أرى ذلك في عينيك".

استقمت أكثر. "لا يمكنك".

قال بصوت منخفض: "إن كنتِ تعرفينه، يمكنكِ إنقاذي. يمكنكِ إنقاذي!".

ضاقت عيناي، وقلت بتصميم: "حسناً، أنا لا أعرفه".

الفصل الثالث

عندما استيقظت، كانت راحتاي تنضحان عرقاً، والشعور بالذنب يملأ صدري. وجدت نفسي ممدّدة على المقعد في غرفة المرايا. وعندما التفتّ، رأيت توري خلفي. أطبقت شفتيها وهي تنزع الأقطاب الكهربائية عن رأسينا. انتظرت أن تقول شيئاً عن الاختبار؛ إنّه انتهى، أو إنّني أحسنت فعلاً، مع أنّني لا أفهم كيف يمكن أن يكون أدائي سيّئاً في اختبار كهذا. غير أنّها لم تقل شيئاً، بل اكتفت بنزع الأسلاك عن جبيني.

جلستُ، ومسحتُ راحتَيّ على سروالي. لا بدّ أنّني ارتكبت خطأً ما، حتّى ولو في ذهني. هل هذه التعابير الغامضة التي تعلو وجه توري نتيجة جهلها كيفية إخباري كم أنا إنسانة رهيبة؟ ليتها تتكلّم وحسب.

قالت: "كان هذا محيّراً. المعذرة، سأرجع فوراً".

محيّراً؟!

ثنيت ركبتيّ على صدري، ودفنت وجهي بينهما. ليتني أبكي لأنّ الدموع قد تريحني، لكنّني لم أستطع. كيف يفشل المرء في اختبار لا يُسمح له بالاستعداد من أجله.

مع مرور الوقت، بدأت أشعر بالتوتّر. كنت أمسح يديّ من العرق كلّ بضع ثوان، أو ربّما لكي أهدأ. ماذا لو أخبروني أنّني غير مناسبة لأيّ جماعة من الجماعات؟ في هذه الحالة، سأضطرّ للعيش في الشوارع، مع المنبوذين. غير أنّني لا أستطيع ذلك. فهذا لا يعني مجرّد العيش في الفقر وانعدام وسائل الراحة، بل يعني الطلاق من المجتمع، والانفصال عن أهمّ شيء في الحياة: المجتمع.

قالت لي أمّي مرّة إنّنا لا نستطيع البقاء بمفردنا، وحتّى لو استطعنا، إلاّ أنّنا لن نرغب في ذلك. فمن دون جماعة، لن يكون لدينا هدف أو سبب للعيش.

رحت أهزّ رأسي لأبعد هذه الأفكار عن ذهني. عليّ الحفاظ على هدوئي.

أخيراً، فُتح الباب، ودخلت توري مجدّداً. فتمسّكت بذراعَي المقعد.

قالت توري: "أنا آسفة لأنّني سبّبت لك القلق". وقفَت بجانبي واضعة يديها في جيبيها. بدت متوتّرة وشاحبة.

قالت لي: "بياتريس، نتائجك غير حاسمة. عادة، كلّ مرحلة من الاختبار تستبعد جماعة أو أكثر. لكن في حالتك، لم نستطع أن نستبعد سوى اثنتين".

حدّقت إليها، ثمّ سألتها: "اثنتان؟!". شعرتُ بتشنّج في حلقي يمنعني من التكلّم.

"لو أنّك أظهرتِ نفوراً تلقائيّاً من السكّين واخترتِ قطعة الجبن، لقادك الاختبار إلى سيناريو مختلف، ولأكّد جدارتك للانضمام إلى جماعة الوئام. لكنّ هذا لم يحدث، لذلك استبعدنا الوئام". قامت توري بحكّ مؤخّر عنقها، مضيفة: "عادة، يتقدّم الاختبار بشكل خطّي، حيث يعزل جماعة واحدة من خلال استبعاد ما تبقى. والخيارات التي قمتِ بها تسمح باستبعاد النزاهة، وهي الاحتمال الثاني، لذلك قمتُ بتعديل الاختبار حيث وضعتُك في الحافلة. لكنّ إصرارك على الكذب هناك جعلنا نستبعد هذه الجماعة". ظهرت على وجهها شبه ابتسامة وهي تتابع: "لا تقلقي حيال ذلك. فوحدهم المنتمون إلى النزاهة يقولون الحقيقة في ذلك الاختبار".

شعرتُ بشيء من الارتياح. ربّما لست شخصاً بغيضاً في النهاية.

قالت: "لكنّ هذا ليس صحيحاً تماماً. فمن يقولون الحقيقة هم المنتمون إلى النزاهة... ونكران الذات. وهذا ما يطرح مشكلة".

فتحت فمي مذهولة.

"فمن جهة، رميتِ نفسك على الكلب لكي تمنعيه من الهجوم على الفتاة الصغيرة، وهذه استجابة ذات توجّه لجماعة نكران الذات... لكن من جهة أخرى، عندما قال لك الرجل إنّ الحقيقة ستنقذه، أصررتِ على عدم قولها. وهذه ليست استجابة الناكرين للذات". تنهّدت متابعة: "عدم الفرار من الكلب يوحي أنّك تنتمين إلى جماعة الشجاعة، وهذا أيضاً ما يعنيه أخذ السكّين؛ الأمر الذي لم تفعليه".

تنحنحت، وتابعت: "يشير ردّ فعلك الذكي إزاء الكلب الشرس إلى توافق كبير مع جماعة المعرفة. لا أعرف ما معنى تردّدك في المرحلة الأولى، لكن –".

قاطعتها قائلة: "مهلاً. أنت إذاً لا تعرفين إلى أيّ جماعة أنا جديرة بالانتماء؟".

شرحت قائلة: "نعم ولا. بحسب استنتاجي، أنت مؤهّلة بالتساوي للانتماء إلى نكران الذات، والشجاعة، والمعرفة. والأشخاص الذين يحصلون على هذا النوع من النتائج هم..." نظرت إلى الخلف وكأنّها تتوقّع ظهور أحد خلفها. "... يُدعَون... جامحين". لفظت تلك الكلمة الأخيرة بصوت منخفض حيث بالكاد تمكنت من سماعها، وعادت إلى وجهها تعابير التوتّر والقلق. التفّت حول المقعد، وانحنت نحوي.

قالت: "بياتريس، لا ينبغي لك، تحت أيّ ظرف من الظروف، إخبار أحد بهذه المعلومات. فهذا أمر في غاية الأهمّية".

أومأتُ برأسي قائلة: "لا يُفترض بنا إخبار أحد بنتائجنا، أعرف ذلك".

"كلاّ". ركعت توري بجانب المقعد، ووضعت ذراعيها على ذراعي المقعد. أصبح وجهانا على بعد إنشات. "هذا مختلف. أنا لا أعني أنّه لا يُفترض بك إطلاع أحد عليها الآن، بل أنا أعني أنّه لا يجب إطلاع أحد عليها أبداً؛ مهما حدث. فالجموح أمر في غاية الخطورة. هل تفهمين؟".

لم أفهم؛ كيف يمكن للنتائج غير الحاسمة أن تكون خطيرة؟ ومع ذلك أومأت برأسي موافقة. فأنا لا أريد إطلاع أحد على نتائجي أساساً.

"حسناً". أبعدت يديّ عن ذراعَي الكرسي، وشعرتُ بعدم التوازن.

قالت توري: "أقترح عليك أن تعودي إلى البيت. عليك التفكير مطوّلاً، والانتظار مع الآخرين لن يفيدك".

"يجب أن أخبر أخي أنّني ذاهبة".

"أنا سأخبره".

لمستُ جبيني، وحدّقت إلى الأرض وأنا أغادر الغرفة. لم أحتمل النظر إلى عينيها. ولم أحتمل التفكير في حفل الاختيار غداً.

أنا صاحبة القرار الآن، مهما كانت نتيجة الاختبار.

نكران الذات... الشجاعة... المعرفة.

جامحة.

* * *

قرّرتُ ألاّ أستقلّ الحافلة. فلو وصلت إلى المنزل باكراً، فسيلاحظ والدي ذلك عندما يتحقّق من السجلّ في آخر النهار، وسيتوجب عليّ عندها أن أشرح له ما جرى. عوضاً عن ذلك، قرّرت أن أمشي. عليّ أن ألتقي كاليب قبل أن يذكر شيئاً لأهلي، لكنّ كاليب يحفظ السرّ.

مشيت في وسط الطريق. فالحافلات تميل إلى الاقتراب كثيراً من الحواجز الحجرية عند أطراف الطريق، لذلك السيرُ في الوسط أكثر أمناً. في بعض الأحيان، أرى على الطرقات القريبة من منزلي الأماكن التي كانت الخطوط الصفراء مرسومة عليها في الماضي. لم نعد نستخدمها الآن، لأنّ أعداد السيّارات أصبحت قليلة جدّاً. ولم نعد نحتاج أيضاً إلى الأضواء الكشّافة، غير أنّها تتدلّى في بعض الأماكن من دون استقرار، وكأنّها ستتحطّم على الطريق في أيّ لحظة.

يحدث التجديد ببطء في المدينة التي هي عبارة عن رقع من المباني الجديدة والنظيفة، والمباني

القديمة والمتداعية. تقع معظم المباني الجديدة قرب المستنقع الذي كان بحيرة منذ زمن طويل. وتُعتبر وكالة متطوّعي جماعة نكران الذات التي تعمل فيها والدتي مسؤولة عن معظم أعمال التجديد.

عندما أنظر إلى نمط حياة هذه الجماعة من الخارج، أجدها رائعة. حين أرى أسرتي تعيش بتناغم، وحين نذهب إلى حفلات العشاء ويقوم الجميع بالتنظيف في ما بعد من دون أن يُطلب منهم ذلك، وحين أرى كاليب يساعد الغرباء على حمل مشترياتهم... حين أرى كل ذلك، أقع في حبّ هذه الحياة من جديد. لكن فقط عندما أحاول أن أعيشها بنفسي، أواجه المتاعب. فهي لا تبدو حقيقية أبداً.

إلاّ أنّ اختيار جماعة أخرى يعني التخلّي عن أسرتي بشكل دائم.

خلف المقاطعة التي تعيش فيها جماعة نكران الذات في المدينة، تمتدّ مساحة من هياكل الأبنية والأرصفة المهترئة التي أسير عليها الآن. في بعض الأماكن، انهارت الطريق تماماً، حيث كشفت عن أنابيب التصريف، وأنفاق الترام الخالية التي يجب أن أحرص على تجنّبها، وعن أماكن تفوح منها رائحة المجارير والنفايات بقوّة، حيث يضطرّ المرء إلى سدّ أنفه.

هنا يعيش المنبوذون. فقد فشل هؤلاء في تلقّن مبادئ الجماعة التي اختاروها، لهذا السبب يعيشون في الفقر، ويقومون بالعمل الذي لا يرغب أحد في فعله. إنّهم الحرّاس، وعمّال البناء، وجامعو النفايات. يحيكون القماش، ويشغّلون القطارات، ويقودون الحافلات. ومقابل عملهم، يحصلون على الطعام، والملابس، لكن ليس بما فيه الكفاية؛ على حدّ قول أمّي.

رأيت واحداً منهم يقف عند ناصية الشارع أمامي. كانت ملابسه البنّية بالية، وبشرته متهدّلة عند الفكّ. حدّق إليّ، وحدّقت إليه أنا أيضاً عاجزة عن إشاحة نظري.

قال لي بصوته الحادّ: "المعذرة، هل لديك شيء آكله؟".

شعرت بكتلة في حلقي. حدّثتني نفسي أن أخفض رأسي وأتابع طريقي.

كلاّ، هززت رأسي. لا يجب أن أخاف من هذا الرجل. إنّه بحاجة إلى المساعدة، ويُفترض بـي مساعدته.

قلت: "آه... أجل". ومددت يدي إلى حقيبتي. إذ يطلب منّي أبـي أن أحتفظ دائماً بطعام في حقيبتي لهذا السبب بالضبط. فقدّمت للرجل كيساً صغيراً من شرائح التفّاح المجفّف.

مدّ يده لأخذها، ولكنّه عوضاً عن أخذ الكيس، قبض بيده على معصمي. ابتسم لي، فرأيت فجوة بين أسنانه الأمامية.

قال: "كم عينيك جميلتين! من العار أنّكم لا تهتمون بمظهركم".

أخذ قلبي ينبض بعنف. حاولت أن أسحب يدي، لكنّ قبضته اشتدّت حولها. انبعثت من فمه رائحة أنفاسه الكريهة والحادّة.

قال: "تبدين صغيرة على التجوّل بمفردك يا عزيزتي".

توقّفت عن شدّ يدي، ووقفت على نحو أكثر استقامة. كنت أعرف أنّني أبدو صغيرة، ولا حاجة إلى تذكيري بذلك. فأجبته: "أنا أكبر ممّا أبدو عليه. أنا في السادسة عشرة".

انفرجت شفتاه، وكشفتا عن ضرس رمادي ظهرت في طرفه حفرة سوداء. لم أعرف في الواقع ما إذا كان يبتسم أم يكشّر. "إذاً، أليس هذا اليوم خاصّاً بالنسبة إليك؟ أليس هذا هو اليوم السابق للاختيار؟".

قلت: "اترك يدي". سمعت طنيناً في أذنيّ، وبدا صوتي أكثر وضوحاً وجدّية؛ على عكس ما توقّعت. شعرت كما لو أنّه لا ينتمي إليّ.

أنا جاهزة، وأعلم ما عليّ فعله. تخيّلت نفسي وأنا أُبعد مرفقي إلى الخلف وأضربه، وتراءى لي كيس التفّاح وهو يطير منّي، وسمعت خطواتي وأنا أركض. أنا على أهبة الاستعداد.

لكن، في تلك اللحظة، أطلق يدي وأخذ كيس التفّاح، وقال: "اختاري بحكمة، أيّتها الصغيرة".

الفصل الرابع

وصلت إلى شارع منزلنا قبل خمس دقائق من المعتاد؛ بحسب ساعتي التي تُعتبر الزينة الوحيدة المسموح بها في جماعة نكران الذات، لمجرّد كونها عمليّة. كانت ذات حزام رمادي، وسطح زجاجي. إن أملتُها إلى اليمين، يمكنني تقريباً رؤية صورتي على الزجاج.

كانت المنازل في شارعنا متشابهة بالحجم والشكل. فهي مبنيّة من الإسمنت الرمادي، مع القليل من النوافذ، على شكل مستطيلات لا معنى لها؛ من باب الاقتصاد. حدائقها مزروعة بالأعشاب، وصناديق بريدها من المعدن. بالنسبة إلى البعض، قد يبدو المشهد كئيباً، لكن بالنسبة إليّ، فإنّ بساطتها مريحة.

لا يرجع سبب هذه البساطة إلى ازدراء التميّز؛ كما تفسّره أحياناً الجماعات الأخرى. فكلّ شيء – منازلنا، وملابسنا، وتسريحات شعرنا – يهدف إلى مساعدتنا على نسيان أنفسنا، وحمايتها من الغرور، والطمع، والحسد؛ وهي من أشكال الأنانية. فإن كنّا نملك القليل ونريد القليل، نصبح متساوين، ولا نحسد بعضنا.

أحاول أن أحبّ ذلك.

جلست على درج المدخل، وانتظرت وصول كاليب. لم يستغرق وقتاً طويلاً، فبعد مرور دقيقة، رأيت شابّاً رمادي الملابس يمشي في الشارع. سمعت ضحكة. في المدرسة، نحاول ألاّ نجذب إلينا الانتباه. لكن، ما إن نعود إلى منازلنا حتّى يبدأ اللعب والمزاح. ما زال ميلي الطبيعي إلى السخرية غير مرحّب به. فالسخرية تأتي دائماً على حساب شخص آخر. ربّما كان من الأفضل لي قمع هذا الميل؛ بحسب رغبة جماعة نكران الذات. ربّما لست مضطرّة لترك أسرتي. ربّما إن كافحت للنجاح في هذه الجماعة، فسيتحوّل جهدي إلى واقع.

قال كاليب: "بياتريس! ماذا جرى؟ هل أنت بخير؟".

"أنا بخير". كان مع سوزان وشقيقها روبرت. وكانت سوزان تنظر إليّ باستغراب؛ كما لو أنّني لست تلك التي عرفتها هذا الصباح. هززت كتفيّ بلا مبالاة. "عندما انتهى الاختبار، شعرت بالانزعاج. ربّما بسبب السائل الذي شربناه. غير أنّني الآن أفضل حالاً".

حاولت أن أبتسم لإقناعهم، ويبدو أنّني أقنعت سوزان وروبرت اللذين لم يعودا قلقَين على استقراري الذهني. غير أنّ كاليب ركّز نظراته عليّ؛ مثلما يفعل عندما يشتبه بشخص يكذب.

سألت سوزان وروبرت: "هل أتيتما بالحافلة اليوم؟". لم أكن آبه كيف عادت سوزان وروبرت من المدرسة، لكنّني أردت تغيير الموضوع.

قالت سوزان: "لدى أبـي عمل إضافي، كما قال إنّه علينا أن نمضي بعض الوقت في التفكير قبل حفل الغد".

أخذ قلبـي ينبض عند ذكر الحفل.

قال كاليب بتهذيب: "يمكنكما المجيء لاحقاً، إن أردتما".

ابتسمت سوزان لكاليب قائلة: "شكراً".

رفع روبرت أحد حاجبيه ونظر إليّ. نحن نتبادل النظرات منذ عام، بينما يتغازل كاليب وسوزان بالطريقة التجريبية التي لا تعرفها سوى جماعة نكران الذات. تابع كاليب بنظراته سوزان في الشارع، وكان عليّ أن أمسك بذراعه لأخرجه من شروده. قدته إلى المنـزل، وأغلقت الباب خلفنا.

التفت نحوي، وعقد حاجبيه الداكنين والمستقيمين، حيث ظهرت تجعيدة بينهما. عندما يعبس كان يبدو أكثر شبهاً بأمّي منه بأبـي. خلال لحظة واحدة، استطعت رؤيته وهو يعيش الحياة نفسها التي عاشها أبـي: البقاء في جماعة نكران الذات، وتعلّم حرفة، والزواج بسوزان، وتأسيس أسرة. سيكون هذا رائعاً.

غير أنّني قد لا أرى ذلك.

سألني بصوت منخفض: "هل ستقولين لي الحقيقة الآن؟".

أجبت: "لا يفترض بـي مناقشة الحقيقة، ولا يفترض بك أن تسأل".

"تخالفين كلّ تلك القوانين، وترفضين مخالفة هذه القاعدة! حتّى من أجل شيء بهذه الأهمّية؟!". قطّب جبينه، وعضّ زاوية شفته. ومع أنّ كلامه كان اتّهامياً، إلاّ أنّه بدا كما لو كان يستخرج منّي المعلومات؛ كما لو أنّه أراد منّي جواباً بالفعل.

ضاقت عيناي وأنا أجيبه: "هل ستخبرني أنت؟ ماذا جرى في اختبارك كاليب؟".

التقت نظراتنا. سمعت صفّارة قطار، كانت بعيدة حيث يمكن بسهولة أن يكون ذلك الصوت صوت الرياح وهي تصفر في أحد الأزقّة. لكنّني أعرف صوته. إنّه يبدو مثل الشجعان الذين ينادونني إليهم.

"فقط... لا تُخبر أبويْنا بما جرى، اتّفقنا؟".

ركّز نظراته عليّ بضع ثوان، ثمّ أومأ برأسه موافقاً.

كنت أرغب في الصعود إلى الطابق العلوي للاستلقاء. فقد شعرت بالإرهاق بعد الاختبار، والنزهة التي قمت بها سيراً على الأقدام، ولقائي المنبوذ. لكنّ أخي أعدّ الفطور هذا الصباح، وأعدّت أمّي غداءنا، وكان أبي هو من جهّز العشاء في الليلة الفائتة. لذلك، حان دوري للطهو. فأخذتُ نفساً عميقاً، ودخلت المطبخ للبدء بإعداد الطعام.

بعد قليل، انضمّ إليّ كاليب، فصررت أسناني. كان يساعد في كلّ شيء. وأكثر ما يزعجني فيه هو تلك الطيبة الطبيعية، وعدم أنانيته الفطري.

عملنا معاً من دون أن نتحدّث. فطهوت البازيلاء على الغاز، بينما قام هو بإذابة الجليد عن أربع قطع من الدجاج. معظم طعامنا مجلّد أو معلّب؛ لأنّ المزارع أصبحت نائية في هذه الأيّام. أخبرتني أمّي مرّة أنّ الناس في الماضي كانوا يرفضون شراء المنتجات المعدّلة جينياً لأنّهم يعتبرونها غير طبيعية؛ إلاّ أنّنا الآن لا نملك خياراً آخر.

عندما وصل أبواي إلى المنزل، كان العشاء جاهزاً وموضوعاً على المائدة. أسقط أبي حقيبته على الأرض وقبّل رأسي. يراه بعض الناس شخصاً عنيداً ومتشبّثاً برأيه؛ ربّما على نحو زائد، لكنّه أب حنون. فأنا أحاول ألاّ أرى سوى الجانب الإيجابي فيه؛ أحاول.

سألني بينما كنت أسكب له بعض البازيلاء: "كيف كان الاختبار؟".

أجبت: "جيّد". لا يمكنني الانتماء إلى جماعة النزاهة، فأنا أكذب بسهولة.

قالت أمّي: "سمعتُ أنّهم واجهوا متاعب في أحد الاختبارات". تعمل أمّي – مثل أبي – لحساب الحكومة. غير أنّها تقوم أيضاً بإدارة مشاريع تحسين المنشآت في المدينة. فقد وظّفت بعض المتطوّعين لإدارة اختبارات الجدارة. وفي معظم الوقت، تجمع عمّالاً لمساعدة المنبوذين على تأمين الطعام، والمأوى، وفرص العمل.

قال أبي: "حقّاً!". في الواقع، من النادر مواجهة مشاكل مع اختبارات الجدارة.

"لا أعرف الكثير عن الموضوع، لكنّ صديقي إيرين أخبرني أنّ أحد الاختبارات لم يسر كما هو متوقّع، لذلك سيتمّ الإعلان عن النتائج شفوياً". وضعت أمّي فوطة بالقرب من كلّ طبق على الطاولة. "على ما يبدو، شعر الطالب بالتعب، وعاد إلى البيت باكراً". هزّت أمّي كتفيها مضيفة: "أتمنّى أن يكون كلّ شيء على ما يرام. هل سمعتما بذلك؟".

قال كاليب: "كلاّ". وابتسم لأمّي.

لا يمكن لأخي أن ينتمي إلى جماعة النزاهة هو أيضاً.

جلسنا إلى المائدة. اعتدنا دائماً على تمرير الطعام إلى الشخص الجالس إلى اليمين، وألا يبدأ أحد بالأكل قبل أن يقدَّم الطعام إلى الجميع. مدّ أب.ي يديه نحو أمّي وأخي، ومدّا أيديهما نحوه ونحوي، فشكر أب.ي الله على الطعام، والعمل، والأصدقاء، والأسرة. ليست كلّ الأسر المنتمية إلى نكران الذات متديّنة، لكنّ أب.ي يقول إنّه لا ينبغي علينا رؤية هذه الاختلافات لأنّها ستؤدّي إلى تفريقنا. ولستُ واثقة أنّني أفهمه تماماً.

قالت له أمّي: "إذاً، أخبرني".

أمسكت بيد أب.ي، وحرّكت إبهامها في دوائر صغيرة فوق عقد أصابعه. حدّقتُ إلى يديهما. كان أبواي يحبّان بعضهما، لكنهما نادراً ما يُظهران عاطفتهما أمامنا على هذا الشكل. علّمانا أنّ الاتصال الجسدي قوي، لذلك تجنّبته؛ بما أنّني ما زلت صغيرة.

أضافت: "أخبرني ما الذي يزعجك".

حدّقتُ إلى طبقي. كان حدس أمّي القوي يدهشني أحياناً، إلاّ أنّه أشعرني بالخجل الآن. فقد كانت أفكاري متمحورة حول نفسي، حيث إنّني لم ألاحظ عبوسه والإنهاك الذي بدا عليه. قال: "لقد كان يومي صعباً في العمل. حسناً، في الواقع، ماركوس هو الذي عانى من يوم صعب. لا يحقّ لي أن أنكر عليه ذلك".

ماركوس هو زميل أب.ي في العمل. فكلاهما زعيمان سياسيان. يحكم المدينة برلمان مؤلّف من خمسين عضواً، جميعهم ممثّلون من جماعة نكران الذات. إذ تُعتبر جماعتنا غير قابلة للفساد؛ بسبب التزامنا بحبّ الغير وعدم الأنانيّة. ويتمّ اختيار قادتنا من قِبل نظرائهم لأنّهم يتمتّعون بسمعة أنّهم معصومون عن الخطأ، وبثبات أخلاقي، ومهارات قيادية. بإمكان ممثّلي الجماعات الأخرى التحدّث في الاجتماعات في مسائل معيّنة، إلاّ أنّ القرار النهائي يعود إلى البرلمان. ومع أنّ هذا البرلمان يتّخذ قراراته بالتشاور، إلاّ أنّ ماركوس يتمتّع بنفوذ خاصّ.

سارت الأمور على هذا المنوال منذ بداية السلام الكبير؛ عندما تمّ تشكيل الجماعات. وأظنّ أنّ هذا النظام قد دام حتّى الآن لأنّنا نخاف ممّا قد يحدث في حال انعدامه: الحرب.

سألت أمّي: "هل الأمر يتعلّق بالتقرير الذي نشرته جانين ماثيوس؟". جانين ماثيوس هي الممثّلة الوحيدة لجماعة المعرفة، وقد تمّ اختيارها بناءً على معدّل ذكائها، وغالباً ما يتذمّر والدي منها.

نظرتُ إليهما: "أي تقرير؟".

رمقني كاليب بنظرة تحذير؛ فمن غير المسموح لنا أن نتحدّث ونحن جالسان إلى مائدة العشاء؛ ما

لم يطرح علينا أبوانا سؤالاً مباشراً، وهما لا يفعلان ذلك عادة. يقول أب.ي إنّ آذاننا الصاغية هي هديتنا لهما. وبعد العشاء، يعيراننا آذانهما الصاغية في غرفة المعيشة.

قال أب.ي: "أجل". وضاقت عيناه وهو يضيف: "أولئك المتعجرفون الذين يدّعون الاستقامة –" وصمت، ثمّ تنحنح وقال: "آسف. لكنّها نشرت تقريراً هاجمت فيه أخلاق ماركوس".

رفعتُ حاجبيّ استنكاراً.

سألته: "وماذا قالت فيه؟".

حذّرني كاليب بصوت منخفض: "بياتريس".

طأطأت رأسي، ورحت أقلّب شوكتي مراراً وتكراراً، إلى أن زال الاحمرار عن خدّيّ. فأنا لا أحبّ أن أتعرّض للتأنيب؛ لا سيّما من أخي.

قال أب.ي: "قالت إنّ عنف ماركوس وقسوته تجاه ابنه هما السبب الذي دفعه إلى اختيار الشجاعة عوضاً عن نكران الذات".

قلّة من الأشخاص يختارون ترك جماعة نكران الذات التي نشأوا فيها. وعندما يفعلون ذلك، فإنّنا لا ننسى. منذ عامين، تركنا ابن ماركوس، توبياس، ليلتحق بجماعة الشجاعة؛ الأمر الذي دمّر ماركوس. فقد كان توبياس ابنه الوحيد، وكلّ أسرته؛ لأنّ زوجته توفّيت وهي تلد ابنهما الثاني. غير أنّ المولود مات بعد دقائق.

لم يسبق لي أن التقيت توبياس. فقد كان نادراً ما يحضر المناسبات الاجتماعية، ولم يرافق والده مطلقاً إلى منزلنا لتناول العشاء. غالباً ما أشار والدي إلى غرابة ذلك، لكنّ الأمر لم يعد مهمّاً الآن.

هزّت أمي رأسها، وعلّقت قائلة: "ماركوس قاسٍ!! يا له من مسكين! وكأنّه يحتاج إلى تذكيره بخسارته".

قال أب.ي ببرودة: "تقصدين بخيانة ابنه له. لا يفاجئني ذلك، فجماعة المعرفة تهاجمنا بهذه التقارير منذ أشهر. وهذه ليست النهاية، بل ثمّة المزيد، أؤكّد لك ذلك".

لا يجب أن أتحدّث ثانية، لكنّني لم أستطع أن أتمالك نفسي، فسألت: "لماذا يفعلون ذلك؟".

قالت أمّي بلطف: "لماذا لا تستغلّين هذه الفرصة للإصغاء إلى أبيك بياتريس؟". قالت ذلك على شكل اقتراح، وليس كأمر. فنظرتُ إلى كاليب الذي بدت في عينيه نظرة استياء.

حدّقت إلى حبّات البازيلاء في طبقي. لست واثقة أنّني أستطيع الاستمرار بهذه الحياة المليئة بالالتزامات بعد اليوم؛ فأنا لا أصلح لها.

قال أب.ي: "هل تعرفين لماذا؟ لأنّنا نملك شيئاً يريدونه. فتقدير المعرفة فوق أيّ شيء آخر يؤدّي إلى الرغبة في السلطة، وهذا ما يقود الناس إلى أماكن مظلمة وخالية. يجب أن نشكر الله لأنّنا نعرف ذلك أفضل منهم".

أومأتُ برأسي موافقة. كنت أعرف أنّني لن أختار جماعة المعرفة؛ حتّى لو كانت نتائج اختباري تشير إلى جدارتي بذلك. أنا ابنة أب.ي.

تولّى أبواي تنظيف المائدة بعد العشاء. حتّى إنّهما لم يسمحا لكاليب بمساعدتهما، لأنّه يُفترض بنا البقاء بمفردنا هذه الليلة عوضاً عن الاجتماع في غرفة المعيشة؛ وذلك للتفكير بنتائجنا.

قد تكون أسرتي قادرة على مساعدتي في اختياري، لو كان بإمكاني أن أبوح بالنتائج. لكنّني لا أستطيع. فتحذير توري ما زال يتردّد في أذنيّ كلّما فكّرت أن أفتح فمي.

صعدنا أنا وكاليب إلى الأعلى، لكن قبل أن نفترق ويذهب كلّ منّا إلى غرفته، وضع يده على كتفي وأوقفني.

نظر بجدّية إلى عينيّ وقال: "بياتريس، علينا أن نفكّر بأسرتنا". أحسست بحدّة في صوته. "لكن، علينا أن نفكّر بأنفسنا أيضاً".

حدّقت إليه باستغراب، إذ لم يسبق لي أن رأيته يفكّر بنفسه، أو سمعته يصرّ على شيء غير نبذ الأنانية.

فاجأني تعليقه، حيث لم أستطع أن أقول سوى ما يفترض ب.ي قوله: "لا يفترض بالاختبارات أن تغيّر قراراتنا".

ابتسم قليلاً. "لكن، ألا تفعل؟".

شدّ على كتفي، ودخل غرفته. استرقت نظرة إلى الداخل، ورأيت سريراً غير مرتّب، ومجموعة من الكتب على مكتبه. عندما أغلق الباب، تمنّيت لو استطعت أن أقول له إنّنا نمرّ بالشيء نفسه. تمنّيت لو استطعت أن أتحدّث معه كما أريد، وليس كما يفترض. لكن، من الصعب جدّاً الإقرار أنّني أحتاج إلى المساعدة، لذلك استدرت وانصرفت.

دخلت غرفتي، وعندما أغلقت الباب خلفي، أدركت أنّ القرار قد يكون بسيطاً. سيحتاج الأمر إلى مقدار عظيم من الغيرية لاختيار نكران الذات، أو مقدار عظيم من الجرأة لاختيار جماعة الشجاعة، وربّما مجرّد اختيار واحدة بدلاً من الأخرى سيُظهر تلك التي أنتمي إليها. غداً، ستتصارع هاتان الرغبتان في داخلي، ولا يمكن سوى لإحداهما أن تفوز.

الفصل الخامس

كانت الحافلة التي أقلّتنا إلى حفل الاختيار مليئة بأشخاص يرتدون قمصاناً وسراويل رمادية. تسلّلت أشعّة الشمس الشاحبة من بين الغيوم، وبدت كما لو أنها عقب سيجارة مشتعلة. لن أدخّن السجائر أبداً، فهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالغرور. لكن، كان ثمّة أشخاص من جماعة النزاهة يدخّنون أمام المبنى عندما ترجّلنا من الحافلة.

رفعت رأسي لأرى قمّة مبنى المحور، لكن على الرغم من ذلك، اختفى جزء منه فوق السحب. إنّه أعلى مبنى في المدينة، حيث يمكنني رؤية الأضواء على برجَي السطح من نافذة غرفتي.

ترجّلت من الحافلة وسرت خلف والديّ. بدا كاليب هادئاً، وكذلك كنتُ سأبدو لو عرفت ماذا سأفعل. ولكن، عوضاً عن ذلك، كان لديّ انطباع واضح أنّ قلبـي سينفجر بين أضلاعي في أيّ لحظة. فأمسكت بذراعه لأثبّت نفسي وأنا أصعد الدرجات الأمامية.

كان المصعد مزدحماً، فتطوّع والدي، وأعطى مكاننا لمجموعة تنتمي إلى جماعة الوئام. أمّا نحن فصعدنا السلالم، وتبعناه من دون اعتراض. شكّلنا مثالاً لأعضاء جماعتنا، إذ سرعان ما انضمّت إلينا مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين يرتدون الملابس الرمادية، وصعدنا معاً الدرجات الإسمنتية في الضوء الخافت. عدّلت مشيتي بحسب مشيتهم. جعلني وقع الأقدام المنتظم، وتجانس الناس من حولي أعتقد أنّني أستطيع اختيار هذه الجماعة. يمكنني أن أندرج في عقلية نكران الذات الشبيهة بخلية النحل، وأن أكون موجّهة دائماً إلى الخارج.

لكن، بعد قليل، بدأت قدماي تؤلمانني، ورحت أجاهد لأتنفّس، فعاد تركيزي مجدّداً إلى نفسي. علينا أن نصعد عشرين طابقاً حتّى نصل إلى حفل الاختيار.

فتح أبـي الباب في الطابق العشرين، ووقف كالحارس مع دخول كلّ فرد من جماعة نكران الذات من أمامه. فكّرت بانتظاره، لكنّ الحشد أخذ يدفعني إلى الأمام؛ إلى داخل القاعة التي سأقرّر فيها كيف سأعيش بقيّة حياتي.

كانت المقاعد مرتّبة في دوائر متّحدة المركز. جلس في الأطراف أبناء السادسة عشرة من كلّ الجماعات. فنحن لا نُعتبر أعضاء بعد، وقراراتنا التي سنتّخذها اليوم هي التي ستجعلنا مبتدئين، وسنصبح أعضاء بعد أن نتمّ فترة التلقين.

وقفنا بالترتيب الألفبائي، بحسب شهرتنا التي سنتركها خلفنا اليوم. وقفت أنا بين كاليب ودانيال

بولر، وهي فتاة تنتمي إلى الوئام، ذات خدّين ورديين وثوب أصفر.

احتلّت أسرنا دائرة، وجلس أعضاؤها على صفوف من المقاعد التي تمّ ترتيبها في خمسة أقسام؛ بحسب الجماعات. لم يكن الجميع يأتون لحضور حفل الاختيار، لكن يحضر عدد كافٍ منهم لكي يبدو الحشد كبيراً.

تنتقل مسؤولية تنظيم الحفل من جماعة إلى أخرى كلّ عام. وهذا العام، وقعت المسؤولية على عاتق جماعة نكران الذات. سيلقي ماركوس الكلمة الافتتاحية، وسيقرأ الأسماء بعكس الترتيب الألفبائي. وبالتالي، إنّ كاليب سيختار قبلي.

في الدائرة الأخيرة، كانت هناك خمسة أوعية معدنية كبيرة إلى حدّ أنّه باستطاعتها احتواء جسدي بأكمله؛ إن تكوّرت على نفسي. يحتوي كلّ منها على مادّة ترمز إلى كلّ جماعة: الأحجار الرمادية لنكران الذات، والماء للمعرفة، والتراب للوئام، والفحم المشتعل للشجاعة، والزجاج للنزاهة.

عندما ينادي ماركوس اسمي، سأمشي إلى وسط هذه الدوائر من دون أن أتكلّم، وسيقدّم لي سكّيناً. بذلك السكّين سأشقّ يدي، وأجعل دمي يقطر في وعاء الجماعة التي سأختارها.

سيتساقط دمي على الأحجار، أو سيهسهس على الفحم.

قبل أن يجلس والداي، وقفا أمامي وأمام كاليب. قبّل أب.ي جبيني، وشدّ على كتف كاليب، وقال من دون أيّ شكّ: "أراكما قريباً".

احتضنتني أمّي، فأوشكت أن أفقد ما بقي لديّ من تصميم. شددت فكّيّ، وحدّقت إلى السقف الذي تدلّت منه المصابيح لتملأ القاعة بالضوء الأزرق. احتضنتني طويلاً؛ حتّى بعدما أبعدتُ يديّ عن ظهرها. وقبل أن تبعدني، التفتت وهمست في أذني: "أحبّك، مهما حدث".

عبستُ وأنا أنظر إلى ظهرها وهي تبتعد. لا بدّ أنّها تعرف ما الذي قد أفعله، وإلاّ ما كانت لتقول ذلك.

أمسك كاليب بيدي وشدّ عليها بقوّة، حيث شعرت بالألم، لكنّني لم أتركه. آخر مرّة أمسك فيها أحدنا يد الآخر كانت في جنازة عمّي، وفيها راح أب.ي يبكي. كنّا الآن بحاجة إلى أن نستمدّ القوّة من بعضنا؛ تماماً كما في ذلك الوقت.

أخذ الحاضرون أماكنهم ببطء. يفترض ب.ي أن أراقب الشجعان، وأن أستخلص أكبر قدر من المعلومات، لكنّني اكتفيت بالتحديق إلى مصابيح الغرفة، وحاولت أن أضيع في الوهج الأزرق.

وقف ماركوس على المنصّة بين جماعتي المعرفة والشجاعة، وتنحنح قبل أن يبدأ بالكلام. قال:

"أهلاً بكم، أهلا بكم في حفل الاختيار. أهلاً بكم في هذا اليوم الذي نكرّم فيه الفلسفة الديمقراطية لأجدادنا، والتي تخبرنا أنّ لكلّ امرئ الحقّ في اختيار طريقه في هذا العالم".

أو واحدة من خمس طرق محدّدة مسبقاً، كما فكّرت. شددت على أصابع كاليب، وشدّ هو على أصابعي.

"بلغ أولادنا السادسة عشرة. وهم يقفون الآن على أبواب سنّ الرشد، وعليهم أن يقرّروا بأنفسهم أيّ نوع من الأشخاص سيصبحون". كان صوت ماركوس مهيباً، وأعطى وزناً مساوياً لكلّ كلمة. "قبل عقود، أدرك أجدادنا أنّ اللوم على الحروب لا يقع على عاتق الأيديولوجية السياسية، أو المعتقد الديني، أو العِرق، أو القومية. وعوضاً عن ذلك، رأوا أنّ العيب يكمن في الشخصية البشرية؛ أي في ميل الجنس البشري إلى الشرّ، بكلّ أشكاله. فقسموا العالم إلى جماعات تسعى إلى استئصال تلك الصفات التي اعتبروها مسؤولة عن الفوضى في العالم".

تحوّل نظري إلى الأوعية في وسط الغرفة. ما هو اعتقادي؟ لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف.

"مَن ألقوا اللوم على العدوانية، ألّفوا جماعة الوئام".

تبادل أعضاء الوئام الابتسامات. كانوا يرتدون ملابس مريحة، باللونين الأحمر أو الأصفر. كلّما رأيت أحداً منهم، بدا لي لطيفاً ومحبّاً وحرّاً. لكنّ الانضمام إليهم لم يكن يوماً مطروحاً بالنسبة إليّ.

"ومن ألقوا اللوم على الجهل، أسّسوا جماعة المعرفة".

كان استبعاد المعرفة أسهل جزء في عمليّة اختياري.

"ومَن لاموا النفاق، أسّسوا جماعة النزاهة".

لم أحبّ هذه الجماعة يوماً.

"ومَن نبذوا الأنانية، شكّلوا جماعة نكران الذات".

أنا أنبذ الأنانية، أنبذها حقّاً.

"ومَن كرهوا الجبن، شكّلوا جماعة الشجاعة".

لكنّني لست محبّة للغير بما فيه الكفاية؛ حتّى بعد ستّة عشر عاماً من المحاولة.

شعرتُ بالخدر في ساقيّ؛ كما لو أنّهما أصبحتا بلا حياة، وتساءلت كيف سأسير عندما أسمع اسمي.

"تعاونت هذه الجماعات الخمس وعاشت معاً في سلام لسنوات عديدة، وساهم كلّ منها في قطاع مختلف في المجتمع. لبّت جماعة نكران الذات حاجتنا إلى قادة غير أنانيين في الدولة، وأمدّتنا

جماعة النزاهة بقادة موثوقين في القانون، وزوّدتنا المعرفة بأساتذة وباحثين أذكياء. أمّا جماعة الوئام فمنحتنا مستشارين ومشرفين متفهّمين. كما زوّدتنا جماعة الشجاعة بالحماية من المخاطر في الداخل والخارج على حدّ سواء. إلاّ أنّ امتداد كلّ جماعة لا يقتصر على هذه المجالات. فنحن نعطي بعضنا بعضاً أكثر ممّا يمكن إيجازه بالكلمات. في جماعاتنا، نجد المعنى والهدف والحياة".

فكّرت بالشعار الذي قرأته في كتاب تاريخ الجماعات: الجماعة قبل الدم. فجماعاتنا هي المكان الذي ننتمي إليه؛ أكثر من الأسرة. هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟

أضاف ماركوس: "بعيداً عنها، لا يمكننا البقاء".

كان الصمت الذي تبع هذه الكلمات أثقل من أيّ صمت عرفناه. فهو مثقل بأسوأ مخاوفنا؛ الخوف الذي يفوق الخوف من الموت؛ ألا وهو أن نكون منبوذين.

تابع ماركوس: "بالتالي، يشكّل هذا اليوم مناسبة سعيدة. ففيه سنستقبل المبتدئين الجدد الذين سيعملون معنا لبلوغ مجتمع أفضل، وعالم أفضل".

علا التصفيق، وبدا مكتوماً. حاولت أن أقف جامدة تماماً، لأنّ ركبتيّ كانتا متصلّبتين، شأنهما شأن كلّ جسدي، ولم أكن أهتزّ مطلقاً. قرأ ماركوس الأسماء الأولى، لكنّني لم أميّز المقاطع من بعضها. كيف سأعرف عندما ينادي اسمي؟

راح الشباب يخرجون واحداً تلو الآخر من الصفّ، ويتوجّهون إلى وسط الغرفة. اختارت أوّل فتاة الوئام؛ وهي الجماعة نفسها التي أتت منها. رأيت قطرات دمها تتساقط على التراب، ثمّ وقفت خلف مقاعدهم بمفردها.

دبّت الحركة في الغرفة بشكل متواصل مع كلّ اسم جديد، وكلّ شخص جديد يختار، وكلّ سكّين جديد، وخيار جديد. كنت أعرف معظمهم، لكنّني أشكّ في أنّهم يعرفونني.

قال ماركوس: "جايمس تاكر".

كان جايمس تاكر من جماعة الشجاعة، وهو أوّل شخص يتعثّر في طريقه إلى الأوعية. فمدّ يديه، واستعاد توازنه قبل أن يسقط على الأرض. احمرّ وجهه، ومشى بسرعة إلى وسط الغرفة. عندما وقف في الوسط، انتقل نظره من وعاء الشجاعة إلى وعاء النزاهة. في الأوّل، الوهج البرتقالي الذي يزداد ارتفاعاً في كلّ لحظة. وفي الثاني، الزجاج الذي يعكس الضوء الأزرق.

قدّم له ماركوس السكّين. فتنفّس بعمق، ورأيت صدره يرتفع، ثمّ زفر وأخذ السكّين. مرّرها بعد ذلك على كفّه وانتفض، ثمّ مدّ ذراعه جانباً، فسقطت دماؤه على الزجاج، وكان أوّل طالب بيننا يغيّر

جماعته. كان أوّل منتقل إلى جماعة أخرى. ارتفعت همهمة من جماعة الشجاعة، وحدّقتُ إلى الأرض.

سيعتبرونه خائناً من الآن فصاعداً. سيكون باستطاعة أفراد أسرته زيارته في جماعته الجديدة؛ بعد أسبوع ونصف من الآن، في يوم الزيارة. غير أنّهم لن يفعلوا ذلك لأنّه تركهم. غيابه سيلاحق أزقّتهم، وسيشكّل فراغاً لن يستطيعوا ملأه. لكن مع مرور الوقت، ستزول الثغرة مثل عضو يُبتر، وستتدفق سوائل الجسد في الفراغ الذي تركه. فالبشر لا يستطيعون احتمال الفراغ طويلاً.

قال ماركوس: "كاليب برايور".

شدّ كاليب على يدي مرّة أخيرة، ثمّ ابتعد، وألقى نظرة طويلة عليّ من فوق كتفه. راقبت قدميه وهو في طريقه إلى وسط الغرفة، ويديه الثابتتين وهما تأخذان السكّين من ماركوس، وتضغط إحداهما بها برشاقة على الأخرى. وقف بعد ذلك بيده النازفة وفمه المشدود.

أخذ نفساً عميقاً، ثمّ زفره ومدّ يده فوق وعاء المعرفة. فتساقطت قطرات دمائه في المياه، وزادتها احمراراً.

سمعت همهمات تحوّلت إلى صيحات غاضبة، وتشوّش فكري تماماً. أخي، أخي المحبّ للغير، يغيّر جماعته؟! أخي الذي وُلد في نكران الذات، ينتقل إلى جماعة المعرفة؟

عندما أغمضت عينيّ، تراءت لي مجموعات الكتب على مكتبة كاليب، ويديه المرتجفتين وهما تنزلقان على ساقيه بعد اختبار الجدارة. لماذا لم أدرك أنه عندما طلب منّي أن أفكّر بنفسي أمس كان يقول تلك النصيحة لنفسه أيضاً؟

تأمّلت أعضاء المعرفة الذين كانوا يوجّهون لبعضهم ابتسامات تنمّ عن اعتداد بالنفس، ويكزون بعضهم. أمّا أعضاء نكران الذات – المعروفون عادة بهدوئهم – فراحوا يتهامسون بتوتّر، ويحدّقون إلى الجماعة التي أصبحت عدوّتنا.

قال ماركوس: "المعذرة". غير أنّ أحداً لم يسمعه. فصاح: "هدوء من فضلكم".

عمّ الهدوء القاعة؛ باستثناء صوت طنين لم أعرف مصدره.

سمعت اسمي، فأحسست بقشعريرة تدفعني إلى الأمام. في منتصف الطريق إلى الأوعية، كنت واثقة أنّني سأختار نكران الذات. يمكنني رؤية ذلك الآن. تخيّلت نفسي وأنا أكبر كامرأة في ملابس نكران الذات، وأتزوّج من شقيق سوزان، روبرت، وأتطوّع في العطل الأسبوعية، وأعيش السلام الروتيني، وهدوء الليالي التي نمضيها أمام الموقد. بالتأكيد سأشعر بالأمان، ولا شكّ في أنّني سأكون

أفضل حالاً ممّا أنا عليه الآن.

ثمّ أدركت فجأة أنّ الطنين في أذنيّ.

نظرت إلى كاليب الذي يقف الآن خلف جماعة المعرفة. حدّق إليّ، وهزّ رأسه قليلاً وكأنّه يعرف ما أفكّر فيه، ويوافق عليه. خانتني خطواتي. إن لم يكن كاليب مناسباً لنكران الذات، فكيف سأكون أنا؟! لكن، ما هو الخيار الذي بقي لديّ، بعدما تركَنا وبقيت أنا وحدي؟ لم يترك لي خياراً آخر.

اتّخذت قراري؛ سأكون الابنة التي تبقى. عليّ أن أفعل ذلك من أجل أب.ي وأمّي. عليّ ذلك.

قدّم لي ماركوس السكّين، فنظرت إلى عينيه. كانتا زرقاوين داكنتين، لونهما غير مألوف. أخذت منه السكّين، فهزّ رأسه، والتفتُّ إلى الأوعية. كانت نار الشجاعة، وأحجار نكران الذات إلى يساري، واحدة أمام كتفي والأخرى خلفها. حملت السكّين بيميني، ومرّرت نصلها على كفّي. صررت على أسناني وأنا أضغط بالنصل. تألّمت قليلاً، لكنّني بالكاد لاحظت ذلك. وضعت كلتا يديّ على صدري الذي ارتعد مع خروج النفس التالي وأغمضت عينيّ.

أخيراً، فتحت عينيّ، ومددت يدي. فتساقطت الدماء على السجّادة بين الوعاءين. بعد ذلك، خرجت منّي شهقة لم أستطع منعها، وحوّلت يدي إلى الأمام، فتساقطت دمائي على الجمرات.

أنا أنانية. أنا شجاعة.

الفصل السادس

طأطأت رأسي وذهبت لأقف خلف مبتدئي جماعة الشجاعة الذين اختاروا العودة إلى جماعتهم. كانوا جميعاً أطول منّي قامة. لذلك، حتّى عندما رفعت رأسي، لم أرَ إلاّ أكتافاً مكسوّة بالملابس السوداء. عندما قامت آخر فتاة باختيارها الذي وقع على الوئام، حان وقت الرحيل. فخرج الشجعان أوّلاً. مررت من أمام رجال ونساء بالملابس الرمادية، كنت في الماضي واحدة منهم، وحدّقت بإصرار إلى ظهر شخص أمامي.

لكن، لا بدّ لي من رؤية والدَيّ للمرّة الأخيرة. نظرت من فوق كتفي في اللحظة الأخيرة قبل أن أتجاوزهما، وتمنّيت على الفور لو أنّني لم أفعل. فقد اخترقتني نظرات أبـي الاتّهامية. في البداية، عندما شعرت بالحرارة خلف عينيّ، ظننت أنّه وجد طريقة لإضرام النار بـي، ومعاقبتي على ما فعلته. لكن لا، أنا على وشك البكاء.

بجانبه، جلست أمّي تبتسم.

راح الناس من خلفي يدفعونني إلى الأمام، بعيداً عن أبويّ اللذين سيكونان آخر المغادرين. حتّى إنّهما قد يمكثان لجمع الكراسي وتنظيف الأوعية. التفتُّ إلى الخلف بحثاً عن كاليب بين حشد المعرفة. كان واقفاً خلف بقيّة المبتدئين، يصافح فتى منتقلاً؛ بعدما كان في النزاهة. رأيت في الابتسامة التي ارتسمت بسهولة على وجهه خيانة. انقبضت معدتي، وأشحتُ بنظري. إن كان الأمر سهلاً عليه إلى هذا الحدّ، فقد يكون سهلاً عليّ أنا أيضاً.

نظرت إلى الفتى الواقف إلى يساري. كان في المعرفة، ويبدو الآن شاحباً ومتوتّراً بقدري. أمضيت الوقت وأنا قلقة حيال الجماعة التي سأختارها، غير أنّني لم أفكّر قطّ في ما سيحدث عندما أختار الشجاعة. ما الذي ينتظرني في مقرّ تلك الجماعة؟

توجّهت مجموعة الشجعان إلى السلالم عوضاً عن استعمال المصاعد. لقد ظننت أن ناكري الذات هم وحدهم من يستخدمون السلالم.

بعد ذلك، بدأ الجميع بالركض. رحت أسمع الهتاف والصياح والضحك حولي، وعشرات الأقدام الهدّارة التي تتنقّل بإيقاعات مختلفة. بالنسبة إلى الشجعان، لم يكن نزول السلالم تضحية، بل عملاً جنونياً.

صاح الشابّ قربـي: "ما الذي يجري؟".

اكتفيت بهزّ رأسي، وتابعت الركض. عندما وصلنا إلى الأسفل، كنت مقطوعة الأنفاس. اندفع الشجعان من الباب. في الخارج، كان الهواء قارساً، والسماء برتقالية بفعل الشمس الغاربة التي انعكست أشعّتها على الزجاج الأسود لمبنى المحور.

انتشر الشجعان في الشارع، حيث قطعوا الطريق أمام إحدى الحافلات، فأسرعت للّحاق بهم. تبدّد ارتباكي وأنا أركض. لقد مضى زمن طويل منذ أن ركضت. فجماعة نكران الذات لا تحثّنا على فعل أيّ شيء لمتعتنا الخاصّة، وهذا ما أشعر به الآن. كانت رئتاي تؤلمانني، وعضلاتي تستغيث، بينما أنا أستمتع على نحو بدائي. تبعت الشجعان في الشارع، ثمّ انعطفنا عند الزاوية، وسمعت صوتاً مألوفاً: صفّارة قطار.

تمتم الصبيّ الآتي من جماعة المعرفة: "أوه، كلاّ. هل يفترض بنا أن نقفز داخل ذلك الشيء؟!".

أجبته وأنا ألهث: "أجل".

من الجيّد أنّني أمضيت وقتاً طويلاً في مراقبة وصول الشجعان إلى المدرسة. انتشر الحشد في صفّ طويل. أمّا القطار، فتوجّه نحونا على سكّته الحديدية، بينما كانت مصابيحه تومض وبوقه يزأر. كانت أبواب مقطوراته مفتوحة، تنتظر توافد الشجعان عبرها، وهذا ما فعلوه؛ مجموعة تلو الأخرى، حيث لم يتبقَّ سوى المبتدئين الجدد. كان المبتدئون المنتمون أساساً إلى الشجاعة قد اعتادوا على صعود القطار بهذه الطريقة. لذلك، خلال ثانية، لم يبقَ سوى المنتقلين من جماعات أخرى.

تقدّمت إلى الأمام مع عدد من الأشخاص الآخرين، وبدأت أهرول. ركضنا مع المقطورة بضع خطوات، ثمّ رمينا أنفسنا جانباً. وبما أنّني لم أكن بطول الآخرين وقوّتهم، لم أستطع دفع نفسي إلى داخل العربة. فتمسّكت بمقبض قرب الباب، وارتطمت كتفي بالمقطورة، واهتزّت ذراعاي. أخيراً، أمسكت بـي فتاة من النزاهة، وسحبتني إلى الداخل، فشكرتها وأنا ألهث.

سمعت صيحة فنظرت إلى الخلف. رأيت فتى قصير القامة، أحمر الشعر – من جماعة المعرفة – يمدّ ذراعيه وهو يحاول اللحاق بالقطار. حاولت فتاة من جماعته أن تمسك بيده، لكنّه كان بعيداً جدّاً، فسقط على ركبتيه بالقرب من سكّة الحديد. وبينما ابتعدنا، دفن وجهه بين يديه.

شعرت بالخوف، فقد فشل للتوّ في اختبار التلقين. أصبح منبوذاً الآن. قد يحدث ذلك في أيّ لحظة.

سألتني الفتاة التي ساعدتني: "هل أنت بخير؟". كانت طويلة القامة، وذات بشرة سمراء، وشعر قصير؛ كانت فتاة جميلة.

أومأت برأسي.

قالت وهي تمدّ يدها لمصافحتي: "أدعى كريستينا".

مضى زمن طويل منذ أن صافحت أحدهم أيضاً. فالناكرون للذات يلقون التحية على بعضهم بعضاً بحني رؤوسهم، فذلك دليل احترام. أمسكتُ بيدها وهززتها مرّتين، من دون أن أعرف إن كنتُ قد شددتُ كثيراً، أم لم أفعل بما فيه الكفاية.

قلت: "بياتريس".

"هل تعرفين إلى أين نحن ذاهبون؟". اضطرّت للصياح بسبب صوت الريح التي تهبّ من الأبواب المفتوحة. بدأ القطار يزيد من سرعته، فجلست. سيكون من السهل بالنسبة إليّ أن أحافظ على توازني وأنا منخفضة على الأرض.

نظرت إليّ الفتاة باستغراب، فقلت: "القطار المسرع يعني الرياح، والرياح تعني السقوط. اجلسي".

جلست كريستينا بالقرب منّي، وتراجعت لتستند إلى الجدار.

قلت لها: "أظنّ أنّنا ذاهبون إلى مقرّ جماعة الشجاعة، لكنّني لا أعرف مكانه".

هزّت رأسها، وابتسمت قائلة: "وهل يعرف أحد مكانه؟ يبدو الأمر وكأنهم شقّوا الأرض وخرجوا منها".

فجأة، هبّ الهواء عبر المقطورة، وعصف بالمنتقلين من جماعات أخرى، فسقطوا على بعضهم بعضاً. رأيت كريستينا تضحك من دون أن أسمعها، فابتسمت.

انعكست أشعّة شمس الغروب البرتقالية من زجاج المباني على كتفي اليسرى، واستطعت رؤية صفوف من المنازل الرمادية للحيّ الذي كنت أعيش فيه.

كان اليوم دور كاليب لإعداد العشاء. من سيأخذ مكانه يا ترى، أبـي أم أمّي؟ وعندما سينظّفان غرفته، ماذا سيجدان؟ تخيّلت كتباً مكدّسة بين الخزانة والجدار، وكتباً تحت فراشه. عطش العالم إلى المعرفة يملأ كلّ المخابئ في غرفته. هل عرف دائماً أنّه سيختار المعرفة؟ وإن فعل، فكيف لم ألاحظ ذلك؟

كم كان ممثّلاً بارعاً. أصابتني تلك الفكرة بالغثيان. فمع أنّني تركتهم أنا أيضاً، إلاّ أنّني على الأقلّ لم أكن مدّعية. فجميعهم كانوا يعرفون أنّني لست ناكرة لذاتي.

أغمضت عينيّ، وتخيّلت أمي وأبـي وهما جالسان إلى مائدة العشاء بصمت. هل العقدة التي شعرت بها في حلقي سببها بقيّة من حبّ الغير لديّ لدى تفكيري بهما، أم الأنانية لأنّني أعرف أنّني

لن أكون ابنتهما مرّة أخرى؟

* * *

"إنّهم يقفزون!".

رفعت رأسي، وشعرت بالألم في عنقي. كنت متكوّرة ومستندة إلى الجدار منذ ساعة على الأقلّ؛ أصغي إلى صوت الرياح، وأشاهد المدينة وهي تمرّ من أمامنا. اعتدلت. كان القطار قد أبطأ سيره في الدقائق الأخيرة، ولاحظت أن الفتى الذي صاح كان على حقّ. فقد بدأ الشجعان يقفزون من المقطورات التي أمامنا، مع مرور القطار من أمام أحد السطوح. كانت السكّة على ارتفاع سبعة طوابق.

فكرة القفز من قطار متحرّك إلى سطح مبنى، مع العلم بوجود فجوة بين طرف السطح وطرف السكّة، سبّبت لي شعوراً بالغثيان. دفعت نفسي للوقوف، وتعثّرت وأنا أشقّ طريقي إلى الطرف الآخر من العربة، لأقف في الصف مع بقيّة المنتقلين.

قالت فتاة من جماعة النزاهة: "علينا أن نقفز للنزول أيضاً". كانت ذات أنف كبير وأسنان عوجاء.

أجاب فتى من النزاهة: "عظيم، لأنّ هذا منطقيّ، مولي. القفز من قطار على أحد السطوح".

ذكّرته الفتاة: "هذا ما سعينا إليه، بيتر".

قال صبيّ من الوئام كان يقف خلفي: "حسناً، أنا لن أفعل ذلك". كان أسمر البشرة، ويرتدي قميصاً بنّياً، وهو الوحيد الآتي من الوئام. ولمعت الدموع على خدّيه.

قالت كريستينا: "عليك فعل ذلك، وإلاّ فشلت. هيّا، سيكون كلّ شيء على ما يرام".

قال الصبيّ وهو يهزّ رأسه: "كلاّ، لن يكون كذلك! أفضّل أن أكون منبوذاً على الموت!". بدا مذعوراً، وظلّ يهزّ رأسه وهو يحدّق إلى السطح الذي أخذ يقترب مع كلّ ثانية.

أنا لا أوافقه. أفضّل الموت على العيش في الفراغ مثل المنبوذين.

قلت وأنا أنظر إلى كريستينا: "لا يمكنك إجباره". كانت عيناها البنّيتان كبيرتين. ضغطت على شفتيها إلى أن تغيّر لونهما. ثمّ مدّت إليّ يدها.

قالت: "تعالي". نظرت باستغراب إلى يدها، وكنت على وشك أن أقول لها إنّني لا أحتاج إلى المساعدة، لكنّها أضافت: "أنا... لا أستطيع فعل ذلك ما لم يجرّني أحد".

أمسكتُ بيدها، ووقفنا على طرف العربة. ومع مرورها أمام السطح، أخذت أعدّ: "واحد... اثنان...

ثلاثة!".

عند الرقم ثلاثة، قفزنا من العربة. شعرت للحظة أنّني بلا وزن، ثمّ ارتطمت قدماي بالأرض الصلبة، ونهش الألم عظام رجلَيّ. انبطحت بفعل الهبوط العنيف على السطح، واحتكّ خدّي بالحصى. تركت يد كريستينا التي كانت تضحك.

قالت: "كان هذا ممتعاً".

ستنسجم كريستينا مع الشجعان الساعين إلى الإثارة. مسحت ذرّات الرمل عن خدّي. كان كلّ المبتدئين قد نجحوا في الهبوط على السطح، بمستويات متفاوتة، ما عدا فتى الوئام. رأيت فتاة النزاهة – مولي – ذات الأسنان العوجاء تمسك بكاحلها، وبيتر – فتى جماعة النزاهة – بشعره اللامع، يبتسم بفخر. لا بدّ أنّه هبط على قدميه.

ثمّ سمعت صرخة، فالتفتّ بحثاً عن مصدر الصوت. رأيت فتاة من جماعة الشجاعة تقف على حافّة السطح، وتحدّق إلى الأرض في الأسفل وهي تصرخ. كان خلفها صبيّ من الشجعان يمسك بخصرها لمنعها من السقوط.

قال: "ريتا، ريتا، اهدئي. ريتا –".

وقفت، وألقيت نظرة إلى الأسفل، فرأيت جثّة على الرصيف تحتنا. كانت فتاة، ذراعاها وساقاها منثنية بزوايا غريبة، وشعرها منتشر كالمروحة حول رأسها. غاص قلبي، وحدّقت إلى سكة الحديد. لم ينجح الجميع، حتّى الشجعان ليسوا بأمان.

ركعت ريتا على ركبتيها وهي تبكي. أمّا أنا فأشحت بنظري. إن نظرت إليها أكثر، فمن المحتمل أن أبكي، ولا يمكنني البكاء أمام أولئك الناس.

فكرت في سرّي بجدّية قدر الإمكان، هكذا تسير الأمور هنا. نخاطر بحياتنا، ويموت البعض. يموت البعض، وننتقل إلى المُخاطرة التالية. كلّما فهمت هذا الدرس أكثر، حظيت بفرصة أكبر للبقاء على قيد الحياة خلال التدريب.

في الواقع، لم أعد واثقة أنّني سأبقى على قيد الحياة خلال التدريب.

قلت لنفسي إنّني سأعدّ حتّى الرقم ثلاثة، وعندما أنتهي سأتابع طريقي. واحد. تخيّلت جثّة الفتاة على الرصيف، فسرت رعشة في جسدي. اثنان. سمعت نحيب ريتا، وصوت الشابّ المطمئن خلفها. ثلاثة.

ضغطتُ على شفتيّ، وابتعدت عن ريتا، وعن حافّة السطح.

شعرت بألم في مرفقي، فرفعت كمّ قميصي بيد مرتعشة. كانت طبقة الجلد السطحية متضرّرة، لكنني لم أنزف.

"آه، هذا مخزٍ! متزمّتة جرحت نفسها!".

نظرتُ إلى الأعلى. كانت هذه الصفة تطلق على ناكري الذات، وأنا الوحيدة هنا من تلك المجموعة. أشار بيتر إليّ وهو يبتسم بخبث، فاحمرّت وجنتاي، وأسدلت كمّي.

صاح رجل يقف على الطرف الآخر من السطح: "أصغوا إليّ! اسمي ماكس، وأنا أحد قادة جماعتكم الجديدة!". كان أكبر سنّاً من الباقين، وخطّت بشرتَه السمراء تجاعيدُ عميقة، وظهر الشيب على صدغيه. وقف على حافّة السطح كما لو كانت رصيفاً، وبدا بارد الأعصاب، وكأنّ أحداً لم يلقَ حتفه للتوّ. "تحتنا بعدّة طوابق يقع المدخل إلى مجمّعنا. إن كنتم غير قادرين على تقبّل فكرة القفز، فأنتم لا تنتمون إلى هذا المكان. للمبتدئين الأفضلية في القفز أوّلاً".

سألت فتاة من المعرفة: "أتريد منا أن نقفز عن السطح؟". كانت أطول منّي ببضعة إنشات، وذات شعر بنّي وشفتين كبيرتين. فغرت فاها بدهشة عارمة.

لا أدري لماذا صدمها الأمر.

قال ماكس: "أجل". وبدا أنّه مستمتع.

"هل يوجد في الأسفل ماء أو شيء من هذا القبيل؟".

رفع حاجبيه مجيباً: "من يدري؟".

انقسمت المجموعة أمام المبتدئين بالنصف، مفسحين لنا الطريق. نظرتُ حولي، لم يبد أحد على استعداد للقفز عن سطح المبنى. كانت نظراتهم مسلطة على كلّ شيء، في ما عدا ماكس. نظرتُ إلى بيتر، فوجدته مشغولاً بجرح أصابه. كان يحاول التصرّف بشكل عادي.

أنا فخورة بذاتي. وهذه الصفة قد تسبّب لي المشاكل يوماً ما، إلاّ أنّها جعلتني اليوم جريئة. فمشيت نحو الحافّة، وأنا أسمع الضحكات الساخرة خلفي.

ابتعد ماكس جانباً، وأفسح لي المجال. اقتربت من الحافّة، ونظرت إلى الأسفل. هبّ الهواء عبر ملابسي التي أخذت ترفرف. يشكّل المبنى الذي أقف على سطحه جانب ساحة مع ثلاثة مبانٍ أخرى. توسّطت الساحة فجوة كبيرة في الإسفلت. لكنّني لم أستطع أن أعرف ماذا يوجد في قعرها.

هذا تكتيك تخويفي، سأهبط بأمان في الأسفل. هذه المعرفة هي الشيء الوحيد الذي ساعدني على الصعود إلى الحافّة. اصطكّت أسناني، لكن لم يعد بإمكاني التراجع بعد الآن، ليس أمام كلّ هؤلاء

الذين يراهنون على فشلي. فتّشت في ياقة قميصي عن الزرّ الذي يغلقها. وبعد عدّة محاولات، فككت الأزرار، وخلعت القميص.

كنت أرتدي تحته قميصاً قطنياً رماديّ اللون، أضيق من الملابس التي أرتديها عادة، ولم يسبق لأحد أن رآني فيه. كوّرت القميص الذي خلعته، ونظرت من فوق كتفي إلى بيتر، ورميت عليه كرة القماش بكلّ قوّتي، وأنا أشدّ فكّي. حدّق إليّ عندما ارتطم القميص بصدره، بينما علا الصفير والهتاف من خلفي.

نظرت إلى الفجوة مجدّداً، فاقشعرّ جسمي وانقبضت معدتي. إن لم أقفز الآن، فلن أفعل ذلك أبداً. ازدردت لعابي بصعوبة.

رحت أسمع عويل الرياح في أذنيّ بينما كانت الأرض تقترب منّي، وتكبر وتتمدّد، وأنا أندفع نحوها. كان قلبي يخفق على نحو مؤلم، وتوتّرت كلّ عضلات جسدي مع بلوغ إحساس السقوط معدتي. أحاطت بي الفجوة، وسقطت في الظلام.

ارتطمت بشيء صلب، ما لبث أن انهار من تحتي واحتضن جسدي. قطعت الصدمة أنفاسي، ورحت أجاهد لتنفّس الهواء مجدّداً، بينما أحسست بألم في ذراعيّ وساقيّ.

إنّها شبكة. كانت ثمّة شبكة في أسفل الحفرة. نظرت إلى المبنى في الأعلى، ورحت أضحك ضحكة ارتياح وهستيرية على حدّ سواء. أخذ جسدي يرتجف، فدفنت وجهي بين يدي. لقد قفزت للتوّ عن سطح مبنى.

كنت بحاجة إلى الوقوف على أرض صلبة مجدّداً. رأيت عدداً من الأيدي تمتدّ نحوي من طرف الشبكة، فأمسكت باليد الأقرب إليّ، وجررت نفسي. تدحرجتُ، وكدتُ أسقط على وجهي على الأرض الخشبية لو لم يمسك بي.

أتحدّث هنا عن الشابّ صاحب اليد التي أمسكتُ بها. كانت شفته العليا رقيقة، والسفلى ممتلئة. عيناه عميقتان إلى حدّ أن رموشه تلامس البشرة تحت حاجبيه، لونهما أزرق داكن؛ ذاك اللون الحالم الناعس.

أمسك بذراعيّ، ثمّ أفلتني بعدما وقفت.

قلت: "شكراً".

جلسنا على منصّة على ارتفاع عشر أقدام عن الأرض. كان يحيط بنا كهف مفتوح.

قال صوت من خلفه: "لا أصدّق ذلك". كان الصوت ينتمي إلى فتاة ذات شعر داكن، علّقت ثلاثة

أقراط فضّية في حاجبها الأيمن. قالت لي ساخرة: "أوّل القافزين متزمّتة؟ لم أسمع بهذا من قبل".

قال بصوته العميق: "ثمّة سبب لتركها إيّاهم لورين. ما اسمك؟".

"آه...". لا أدري لماذا تردّدت. لكنّ اسم بياتريس لم يعد يبدو ملائماً بعد اليوم.

قال: "فكّري بالأمر". وظهرت ابتسامة خفيفة على شفتيه وهو يضيف: "لن تحظي بفرصة الاختيار مجدّداً".

مكان جديد، واسم جديد. يمكن أن أولد من جديد هنا.

قلت بنبرة حاسمة: "تريس".

ردّدت لورين وهي تبتسم: "تريس. أعلن وصولها، فور".

نظر الشاب، فور، إلى الخلف وصاح: "القافزة الأولى... تريس!".

ظهر أشخاص من الظلام مع تكيّف عينيّ معه، ثمّ أخذوا يهتفون ويلوّحون بقبضاتهم في الهواء. بعد ذلك، سقطت فتاة أخرى في الشبكة، تبعتها صرختها. كانت كريستينا. ضحك الجميع، ثمّ أتبعوا ضحكهم بمزيد من الهتاف.

وضع فور يده على ظهري، وقال: "أهلاً بك في جماعة الشجاعة".

الفصل السابع

عندما هبط كلّ المبتدئين، قادنا فور ولورين عبر نفق ضيّق، جدرانه من الحجر، وسقفه منحدر. فشعرت وكأنّني هبطت إلى أعماق الأرض. كان النفق مضاءً على مسافات متباعدة، لذلك كنت أخشى أن أضيع في الفراغ المظلم الذي يفصل بين المصابيح، إلى أن يرتطم بـي كتف أحدهم. كلّما تبدّد الظلام، شعرت بالأمان مجدّداً.

توقّف فتى المعرفة أمامي فجأة، فاصطدمت به، وارتطم أنفي بكتفه. تراجعت إلى الخلف، وفركت أنفي وأنا أحاول استعادة إحساسي بالمكان. كان الجميع قد توقّفوا، في حين وقف قادتنا الثلاثة أمامنا، مكتوفي الأذرع.

قالت لورين: "هنا سنفترق. من ولدوا في جماعة الشجاعة سيأتون معي. لا أظنّ أنّكم بحاجة إلى جولة في المكان".

ابتسمت، وأشارت برأسها إلى المبتدئين المنتمين أساساً إلى الشجاعة. فانفصلوا عن المجموعة واختفوا في الظلام. راقبتُ آخر قدم وهي تبتعد عن النور، ونظرت إلى من بقي منّا. كان معظم المبتدئين من الشجاعة، لذلك لم يبقَ سوى تسعة أشخاص. من بينهم، كنت الوحيدة المنتمية إلى نكران الذات، ولم يعد بيننا أحد من الوئام. ما يعني أن الباقين هم من المعرفة والنزاهة، وهذا مثير للاستغراب. لا بدّ أن الالتزام بالصدق طوال الوقت يحتاج إلى الجرأة. لن أعرف أبداً.

بعد ذلك، تحدّث معنا فور. "أنا أعمل في معظم الوقت في غرفة المراقبة، لكن في الأسابيع القليلة التالية، سأكون مدرّبكم. واسمي فور".

سألته كريستينا: "فور؟ أي الرقم أربعة؟".

أجاب: "أجل، هل من مشكلة؟".

"كلاّ".

"حسناً. نحن على وشك دخول السرداب الذي ستحبّونه يوماً ما. فهو –".

قاطعته كريستينا بنبرة ساخرة: "السرداب؟! اسم يدلّ على الذكاء".

اقترب فور من كريستينا، وانحنى نحوها. ضاقت عيناه، وللحظة، اكتفى بالتحديق إليها.

سألها بصوت منخفض: "ما اسمك؟".

أجابت بصوت مسموع بالكاد: "كريستينا".

أصبح صوته كهسيس الأفعى: "حسناً كريستينا، لو كنت أرغب بسماع كلام النزاهة العذب لانضممت إليهم. أوّل درس ستتعلّمينه منّي هو أن تبقي فمك مقفلاً. هل هذا مفهوم؟". أومأت برأسها موافقة.

بدأ فور يسير نحو الجزء المظلم في نهاية النفق، فتبعته مجموعة المبتدئين بصمت.

تمتمَت: "يا له من نذل!".

أجبتها: "أظنّ أنّه لا يحبّ أن يكون موضع سخرية".

من الحكمة على الأرجح أن أكون حذرة مع فور. فقد بدا لي بارداً على المنصّة، لكنّ شيئاً في ذلك الجمود جعلني حذرة الآن".

دفع فور بابا مزدوجاً، ودخلنا المكان الذي سمّاه "السرداب".

همست كريستينا: "آه، فهمت".

"السرداب" هو الاسم الأنسب لهذا المكان. فهو عبارة عن كهف ضخم، لم أستطع رؤية آخره من المكان الذي أقف فيه؛ في القعر. كانت تعلو رأسي جدران صخرية غير مستوية يبلغ ارتفاعها عدّة طوابق. وكانت توجد الجدران أماكن للطعام، والملابس، والمؤونة، والأنشطة الترفيهية، تربط بينها ممرّات ضيّقة ودرجات منحوتة في الصخر. غير أنّه لم تكن ثمّة حواجز تمنع الناس من السقوط عنها.

امتدّ خطّ برتقالي مائل من الضوء على أحد الجدران الصخرية. كان سقف السرداب مصنوعاً من ألواح الزجاج التي يعلوها مبنى يسمح بدخول ضوء الشمس. لا بد أنّه يبدو مثل أيّ مبنى آخر مررنا به حين كنا في القطار.

تدلّت مصابيح زرقاء على مسافات عشوائية فوق الممرات الحجرية، وكانت شبيهة بتلك التي تضيء قاعة الاختيار. كانت تزداد توهّجاً مع غروب الشمس.

رأيت أشخاصاً في كلّ مكان، كلّهم يرتدون اللون الأسود، ويصيحون ويتحدّثون، ويعبّرون بالكلام والأيدي. غير أنّني لم أرَ أيّ مسنّين. ألا يوجد شجعان عجائز؟ ألا يعيشون حتّى يشيخوا، أم إنّهم يُطردون عندما يصبحون عاجزين عن القفز من قطار متحرّك؟

راحت مجموعة من الأطفال تركض على طريق ضيّق من دون درابزين؛ بخطى سريعة جعلت قلبي يخفق، ورغبت في الصياح لهم لكي يبطئوا قبل أن يسقطوا. في تلك اللحظة، عبرت ذاكرتي صورة الشوارع المنظّمة لجماعة نكران الذات: صفّ من الناس إلى اليمين، يمرّ بصفّ من الناس إلى

اليسار، فترتسم ابتسامات طفيفة على الوجوه، وتنحني الرؤوس بصمت. انقبضت معدتي. لكن، ثمّة شيء رائع في فوضى الشجاعة.

قال فور: "اتبعوني لأريكم الهاوية".

لوّح لنا لنتبعه إلى الأمام. يبدو مظهر فور وديعاً من الأمام، ومتلائماً مع معايير الشجاعة، لكن عندما استدار، رأيت وشماً يبدو تحت ياقة قميصه. قادنا إلى الجهة اليمنى للسرداب التي كانت معتمة جدّاً. أغمضت عينيّ نصف إغماضة، فرأيت أنّ الأرض التي أقف عليها تنتهي عند حاجز. مع اقترابنا من الدرابزين، سمعت خريراً. كان الخرير صادراً عن تيار سريع من المياه، التي تتحطّم على الصخور.

نظرت إلى الأسفل. كانت الأرض تنتهي عند زاوية حادّة، ثمّ تنخفض وصولاً إلى نهر يجري على بعد عدّة طوابق تحتنا. كانت المياه المتدفّقة ترتطم بالجدار في الأسفل وتنثر الرذاذ إلى الأعلى. إلى يساري، كانت المياه أكثر هدوءاً. لكن إلى يميني، كانت بيضاء تناطح الصخور.

صاح فور قائلاً: "تذكّرنا الهاوية أنّ خطّاً دقيقاً يفصل بين الشجاعة والغباء. فالقفزة الجنونية من فوق هذه الحافّة ستودي بحياتكم. سبق أن حدث هذا من قبل، وسيحدث مجدّداً. لقد حذّرتكم".

قالت كريستينا ونحن نبتعد عن الدرابزين: "هذا لا يصدّق".

أجبتها وأنا أهزّ رأسي موافقة: "بالضبط".

قاد فور مجموعة المبتدئين عبر السرداب باتّجاه فجوة كبيرة في الجدار. كانت الغرفة التي تقع خلفها مضاءة جيداً، حيث استطعت رؤية المكان الذي نذهب إليه: قاعة عشاء تعجّ بالناس وتضجّ بأصوات الأواني الفضّية. عندما دخلنا، وقف الشجعان الموجودون في الداخل وبدأوا بالتصفيق. راحوا يضربون الأرض بأقدامهم بقوة ويصيحون. أحاطتني الأصوات وملأت أذنيّ. ابتسمت كريستينا، وبعد ثانية، حذوت حذوها.

بحثنا عن مقاعد خالية. فتوجّهت أنا وكريستينا إلى طاولة شبه خالية في طرف القاعة، ووجدت نفسي جالسة بينها وبين فور.

وكزني فور بمرفقه، وقال: "هذا لحم بقر. ضعي هذا عليه". ومرّر لي وعاءً صغيراً من الصلصة الحمراء.

سألت كريستينا متعجّبة: "ألم تأكلي البرغر من قبل؟".

أجبت: "كلا. أهذا هو؟".

قال فور وهو يومئ إلى كريستينا: "المتزمّتون يأكلون الطعام العادي".

سألت: "لماذا؟".

هززت كتفيّ. "يعتبر التبذير ترفاً لا ضرورة له".

ابتسمت قائلة: "لا عجب أنّك تركتهم".

أجبت بسأم: "أجل، فقط من أجل الطعام".

ارتعشت زاويتا فم فور.

فتح بابا المقهى، وخيّم الصمت على القاعة. التفتّ إلى الخلف، فرأيت شابّاً يدخل، وسمعت وقع خطاه في السكون التامّ. كان وجهه مثقوباً في أماكن كثيرة حيث توقّفت عن العدّ، وشعره الطويل داكناً ودهنياً. لكن، ليس هذا ما جعله يبدو مخيفاً، بل البرودة في عينيه وهو يتأمّل القاعة.

همست كريستينا: "مَن يكون؟".

قال فور: "اسمه إريك، وهو أحد قادة جماعة الشجاعة".

"حقاً؟! لكنّه صغير في السنّ".

ألقى عليها فور نظرة حادّة وقال: "لا أهمية للسنّ هنا".

عرفت أنّها على وشك أن تسأله السؤال نفسه الذي خطر ببالي: ما الذي يهمّ إذاً؟ لكنّ إريك توقّف عن مسح القاعة بنظراته، وبدأ يتوجّه إلى إحدى الطاولات. توجّه إلى طاولتنا، وجلس على الكرسيّ المجاور لفور. لم يلقِ التحيّة على أيّ منّا، فلم نفعل ذلك نحن أيضاً.

سأل وهو يومئ نحونا أنا وكريستينا: "ألن تعرّفنا؟".

قال فور: "أقدّم لك تريس، وكريستينا".

قال إريك بابتسامة متكلّفة: "أوه، متزمّتة". مدّدت ابتسامته الثقوب في شفتيه، وجعلتها تبدو أكثر اتّساعاً، فأجفلت. "سنرى كم ستحتملين".

أردت أن أقول له شيئاً، أن أؤكّد له أنّني سأحتمل؛ ربمّا، لكنّ الكلمات خانتني. لم أفهم لماذا، لكنّني لم أشأ أن ينظر إليّ إريك أكثر ممّا فعل. لم أشأ أن ينظر إليّ مطلقاً بعد اليوم.

أخذ يطرق بأصابعه على الطاولة. كانت براجم أصابعه تحمل ندوباً في المواضع التي تنفرج فيها إن ضغط المرء على شيء ما بقوّة.

سأل: "ماذا كنت تفعل مؤخّراً فور؟".

أجاب فور وهو يرفع كتفيه بلا اكتراث: "لا شيء مهمّ".

هل هما صديقان؟ تنقّلت عيناي بين إريك وفور. كلّ ما كان إريك يفعله – من جلوسه إلى طاولتهم، والسؤال عن فور – يوحي أنّهما صديقان. لكنّ طريقة جلوس فور – متوتّراً كالسلك المشدود – تشير إلى أنّ علاقتهما مختلفة تماماً. ربّما كانا متنافسين. لكن، هل هذا ممكن إن كان إريك قائداً وفور لا؟

قال إريك: "أخبرني ماكس أنّه يحاول الاجتماع بك منذ مدّة لكنّه لا يجدك، وطلب منّي أن أعرف ما خطبك".

نظر فور إلى إريك لبضع ثوانٍ، قبل أن يجيبه: "أخبره أنّني راضٍ عن منصبي".

"إذاً، هو يعرض عليك عملاً".

انعكس الضوء على أحد الأقراط التي يعلّقها إريك في حاجبه. ربّما كان إريك يرى في فور تهديداً لمنصبه؛ إذ يقول أبي إنّ من يحبّون السلطة ويحصلون عليها يعيشون في خوف دائم من فقدانها. لهذا السبب، علينا إعطاء السلطة لمن لا يرغبون فيها.

قال فور: "هذا ما يبدو".

"ألست مهتمّاً؟".

"لم أكن مهتماً لسنتين".

قال إريك: "حسناً، لنأمل أن يفهم ذلك".

ربّت على كتف فور بقوّة ثمّ نهض. وعندما ابتعد، استرخيت على الفور. لم أدرك قبل ذلك أنّني كنت متوتّرة إلى ذلك الحدّ.

لم أستطع أن أقاوم فضولي، فسألته: "هل أنتما صديقان؟".

"كنّا في مجموعة المبتدئين نفسها. انتقل هو من جماعة المعرفة".

تبدّد كلّ حذري مع فور. "هل انتقلت أنت أيضاً من جماعة أخرى؟".

أجاب ببرودة: "اعتقدت أن أفراد جماعة النزاهة وحدهم من سيزعجونني بالأسئلة. هل عليّ الآن تحمّل المتزمّتين أيضاً؟".

قلت ببساطة: "ربّما لأنّك ودود جدّاً؛ مثل سرير من المسامير".

حدّق إليّ، لكنّني لم أشح بنظري. صحيح أنّه ليس كلباً، لكنّ القواعد نفسها تنطبق عليه. إن أخفضت نظري، فسأبدو خنوعة. أمّا النظر إلى عينيه فهو تحدٍّ؛ هذا خياري.

اجتاح الاحمرار خدّيّ. ما الذي سيحدث عندما يزول هذا التوتّر؟

غير أنّه اكتفى بالقول: "حذارِ، يا تريس".

انقبضت معدتي، وشعرت كما لو أنّني ابتلعت حجراً. في تلك اللحظة، ناداه أحد أعضاء الجماعة الجالسين إلى طاولة أخرى، فالتفتّ إلى كريستينا. كانت تعبّر عن دهشتها بحاجبيها المرتفعين.

سألتها: "ماذا؟".

"أنا أضع نظرية".

"وما هي؟".

حملت شطيرة البرغر، وابتسمت قائلة: "إنّك تسعين إلى حتفك".

* * *

بعد العشاء، اختفى فور من دون أن يقول شيئاً. فقادنا إريك عبر سلسلة من الأروقة من دون أن يخبرنا إلى أين نحن ذاهبون. لم أفهم سبب كون أحد قادة الشجاعة مسؤولاً عن مجموعة من المبتدئين، لكن ربّما لهذه الليلة وحسب.

ثُبّت مصباح أزرق اللون في آخر كلّ رواق. لكنّ الظلام كان يخيم على المسافة الفاصلة بين المصابيح، حيث اضطررت إلى السير بحذر لكي لا أتعثّر على الأرض غير المستوية. مشت كريستينا بجانبي بصمت. فرغم أنّ أحداً لم يطلب منّا التزام الصمت، إلاّ أنّنا لم نتكلّم.

وقف إريك أمام باب خشبيّ، وشبك ذراعيه، فاجتمعنا حوله.

قال: "بالنسبة إلى من لا يعرفونني منكم، اسمي إريك. أنا أحد قادة هذه الجماعة الخمسة. نحن نأخذ عمليّة التلقين بجدية كبيرة هنا، لذلك تطوّعت للإشراف على الجزء الأكبر من تدريبكم".

سبّبت لي هذه الفكرة شعوراً بالغثيان. فكرة أن يشرف قائد من جماعة الشجاعة على تدريبنا سيّئة بما فيه الكفاية، فما بالك لو كان إريك؟!

قال: "إليكم بعض القواعد الأساسية. عليكم الحضور إلى قاعة التدريب كلّ يوم عند الساعة الثامنة. يجري التدريب يومياً من الساعة الثامنة وحتّى السادسة، مع استراحة غداء. ولكم ملء الحرية في فعل ما تشاءون بعد الساعة السادسة. كما أنّكم ستحصلون على استراحة بين مرحلة وأخرى من مراحل التلقين".

علقت في ذهني عبارة فعل ما تشاءون. ففي بيتنا، لم أكن يوماً حرّة في فعل ما أشاء. إذ عليّ التفكير أوّلاً باحتياجات الآخرين. حتّى إنّني لا أعرف ماذا أحبّ أن أفعل.

أضاف إريك: "لا يُسمح لكم بمغادرة المجمّع إلاّ برفقة أحد أعضاء الجماعة. خلف هذا الباب، تقع

الغرفة التي ستنامون فيها خلال الأسابيع القليلة الآتية. ستلاحظون أنّها تحتوي على عشرة أسرّة مع أنّكم تسعة فقط؛ سبب ذلك أنّنا توقّعنا وصول عدد أكبر إلى هذه المرحلة".

اعترضت كريستينا: "لكنّنا كنّا اثني عشر شخصاً". أغمضت عيني بانتظار التوبيخ. يجب أن تتعلّم الصمت.

قال إريك وهو يعبث بأظافره: "دائماً ثمّة منتقل واحد على الأقلّ لا يصل إلى المجمّع". هزّ كتفيه متابعاً: "على أيّ حال، في المرحلة الأولى من التلقين، نفصل بين المنتقلين من جماعات أخرى والمبتدئين المنتمين أساساً إلى جماعة الشجاعة. لكنّ هذا لا يعني أنّكم ستقيَّمون كلّ على حدة. ففي نهاية التدريب، سيتمّ تحديد مراتبكم بالمقارنة مع مبتدئي الشجاعة. وهم أفضل منكم في الأساس. لذلك أتوقّع –".

سألته فتاة المعرفة ذات الشعر البنّي الواقفة إلى يميني: "مراتبنا!؟ لماذا يتمّ تصنيفنا؟".

ابتسم إريك، وبدت ابتسامته خبيثة في الضوء الأزرق، كما لو أنّها رسمت على وجهه بسكين.

قال: "يتمّ تصنيفكم لهدفين. الأوّل هو لتحديد النظام الذي ستختارون على أساسه وظائفكم بعد التلقين. فالمناصب المتاحة المرغوب فيها معدودة".

تقلّصت معدتي. عرفت من ابتسامته، كما عرفت من اللحظة التي دخلت فيها غرفة اختبار الجدارة، أن أمراً سيّئاً سيحدث.

قال: "أمّا الغرض الثاني، فهو أن المبتدئين العشرة الأوائل فقط هم الذين يصبحون أعضاء".

شعرت بألم في معدتي مثل طعنة الخنجر، بينما وقفنا جامدين كالصخر. فجأة، قالت كريستينا: "ماذا؟".

تابع إريك: "ثمّة عشرة مبتدئين ينتمون أساساً إلى الشجاعة وتسعة منكم. سيتمّ استبعاد أربعة منكم بنهاية المرحلة الأولى، وخمسة آخرين بعد الاختبار النهائي".

هذا يعني أنّنا حتّى لو نجحنا في اجتياز مراحل التلقين، فإنّ بعضنا لن يصبحوا أعضاء في الجماعة. رأيت من زاوية عيني كريستينا تنظر إليّ، لكنّني لم أستطع النظر إليها. كان نظري مثبّتاً على إريك، ولن أحوّل انتباهي عنه.

هذا يعني أنّ حظوظي ليست جيّدة لكوني أصغر مبتدئة، والوحيدة الآتية من نكران الذات.

قال بيتر: "وماذا سيحلّ بنا إن تمّ استبعادنا؟".

قال إريك من دون اكتراث: "ستغادرون المجمّع، وتعيشون منبوذين".

وضعت الفتاة ذات الشعر البنّي يدها على فمها، وشهقت باكية. تذكّرت في تلك اللحظة المنبوذ الذي انتزع كيس التفاح من يديّ. تراءت لي عيناه وهما تحدّقان إليّ بنظرات جامدة. لكن، عوضاً عن البكاء مثل فتاة المعرفة، شعرت أنّني أكثر برودة وتصميماً.

سأصبح عضواً في الجماعة، سأصبح كذلك حتماً.

قالت مولي – فتاة النزاهة – ذات الكتفين العريضتين: "لكنّ هذا... غير عادل!". مع أنّها بدت غاضبة، إلاّ أنّها كانت مرعوبة أيضاً. "لو عرفنا –".

قال إريك بنبرة لاذعة: "هل تقولين إنّك لو عرفت هذا الأمر قبل حفل الاختيار، لَما اخترت الشجاعة؟ إن كان الحال كذلك، فعليك الخروج منذ الآن. وإن كنت واحدة منّا بالفعل، فلن تهتمّي إن فشلت. وإلاّ فأنت جبانة".

فتح إريك باب الغرفة، وقال: "أنتم اخترتمونا، والآن جاء دورنا لنختاركم".

* * *

تمدّدت على السرير وأصغيت إلى أنفاس ثمانية أشخاص.

لم يسبق لي أن نمت في غرفة واحدة مع صبيّ من قبل. لكن، ها أنذا، لا أملك خياراً آخر سوى النوم في الردهة. كان الجميع قد بدّلوا ملابسهم بملابس أخرى أعطتنا إيّاها الجماعة. أمّا أنا، فنمت بملابس نكران الذات التي تفوح منها رائحة الصابون والهواء العذب؛ رائحة البيت.

في منزلنا، كانت لديّ غرفة خاصّة بي تطلّ على حديقة المنزل، ومن ورائها الأفق الغائم. وكنت أنام فيها بهدوء.

أحرقتني عيناي وأنا أفكّر بالمنزل، وعندما رفّتا سالت دمعة. فغطّيت فمي لأخنق شهقة.

لا يمكنني البكاء، ليس هنا. عليّ أن أهدأ.

سيكون كل شيء على ما يرام هنا. يمكنني النظر إلى صورتي في المرآة كلّما أردت. يمكنني أن أصادق كريستينا، وأن أقصّ شعري، وأترك الناس ينظّفون أوساخهم بأنفسهم.

ارتعشت يداي، وتزاحمت الدموع في عينيّ، حيث أصبحت رؤيتي ضبابية.

لا يهمّ إن لم يعرفني والداي عندما أراهما في يوم الزيارة؛ هذا إن أتيا أساساً. لا يهمّ إن كنت أشعر بالألم لدى تخيّلي صورتهما؛ ولو لجزء من الثانية. حتى كاليب يؤلمني التفكير فيه؛ على الرغم من أسراره. حاولت أن أجعل شهيقي متوافقاً مع شهيق بقية المبتدئين، وزفيري مع زفيرهم. لا يهمّ.

قطع تنفّسنا صوت مخنوق، تبعته شهقة ثقيلة. سمعت صرير أحد الأسرّة مع تقلّب جسد كبير،

وشهقات مكتومة بوسادة، لكن ليس بما فيه الكفاية. صدرت تلك الضجّة من سرير بطابقين بجواري؛ عن فتى من جماعة النزاهة يدعى آل، وهو أطول المبتدئين وأعرضهم. كان آخر شخص توقّعت انهياره.

كانت قدماه على بعد إنشات قليلة من رأسي. عليّ أن أخفّف عنه لأنّني تربّيت على ذلك، غير أنّني شعرت بالاشمئزاز. إذ لا ينبغي لشخص يبدو قوياً إلى هذا الحدّ أن يتصرّف بهذا الضعف. لماذا لا يبكي بصمت؛ شأننا جميعاً؟

ازدردت لعابـي.

تخيّلت النظرة التي سترمقني بها أمّي لو عرفت ما أفكّر فيه. تخيّلت زاويتَي فمها الملتويتين، وحاجبيها المنخفضين، من دون عبوس، بل بتعابير أقرب إلى التعب، ومسحت خدّيّ بظاهر يدي.

انتحب آل مجدّداً، وشعرت تقريباً أنّ صوته يخدش حلقي. لم يكن يبعد عنّي سوى بضعة إنشات، عليّ أن أخفّف عنه.

كلاّ، أخفضت يدي واضطجعت على جنبـي، بمواجهة الحائط. لا ضرورة لأن يعرف أحد أنّني لا أريد مساعدته. يمكنني الاحتفاظ بهذا السرّ. أغمضت عينيّ، وشعرت بالنعاس يشدّني. لكن، كلّما أوشكت على الاستسلام للنوم، كنت أسمع آل مجدّداً.

ربّما مشكلتي ليست في عدم قدرتي على الذهاب إلى البيت. صحيح أنّني سأشتاق إلى أمّي وأبـي وكاليب، وإلى نار المدفأة في الأمسيات، وصوت صنانير الحياكة بين يدي أمّي؛ لكن هذا ليس السبب الوحيد للإحساس بالفراغ الذي أشعر في معدتي.

صررت أسناني إثر هذه الفكرة، ولففت الوسادة حول أذنيّ لكي لا أسمع نحيب آل، واستغرقت في النوم، بينما ابتلّت الوسادة تحت خدّي.

الفصل الثامن

"أوّل درس ستتعلّمونه اليوم هو كيفيّة استخدام المسدّس. ومن بعده، ستتعلّمون كيفيّة الفوز في عراك". وضع فور مسدّساً في راحة يدي من دون أن ينظر إليّ، وتابع سيره. "لحسن الحظّ، ما دمتم هنا، فقد صرتم تعرفون كيفية القفز من قطار متحرّك، ولا أحتاج إلى تعليمكم ذلك".

لا يجب أن أستغرب إن توقّع منّا أعضاء جماعة الشجاعة أن نركض على الدوام. لكن، ظننت أنّنا سننال أكثر من ستّ ساعات من الراحة قبل أن نبدأ بالركض من جديد. فما زال جسدي ثقيلاً من شدّة النعاس.

"ينقسم التلقين إلى ثلاث مراحل. سنراقب تقدّمكم ونصنّفكم بحسب أدائكم في كلّ مرحلة. وبما أنّ المراحل ليست متساوية في تحديد مرتبتكم النهائية، فمن الممكن أن تحسّنوا مرتبتكم على نحو متواصل مع مرور الوقت؛ وإن يكن هذا الأمر صعباً".

حدّقت إلى السلاح في راحة يدي. لم أتوقّع أن أحمل مسدّساً في يوم من الأيام، فما بالك باستخدامه. فهو يبدو لي خطيراً، وكأنّي قد أؤذي أحدهم بمجرّد لمسه.

قال فور: "نحن نعتقد أنّ الاستعداد يبدّد الجُبن الذي نعرّفه على أنّه عدم التصرّف عند مواجهة الخطر. وبالتالي، إنّ كلّ مرحلة من مراحل التدريب تعدّكم بطريقة مختلفة. تعتبر المرحلة الأولى جسدية بشكل أساسي، والثانية عاطفية، والثالثة ذهنية".

سأله بيتر وهو يتثاءب بين الكلمات: "لكن، ما... ما علاقة إطلاق النار... بالشجاعة؟".

قلب فور المسدّس بيده، ثمّ ضغط فوهته على جبين بيتر قبل أن نسمع صوت تلقيم فيه. تسمّر بيتر في مكانه فاغراً فاه، وتوقّف عن التثاؤب.

عندئذٍ، وبّخه فور قائلاً: "استيقظ، فأنت تحمل مسدّساً محشوّاً أيّها الغبيّ، لذا تصرّف على هذا الأساس".

أخفض فور المسدّس. بعد زوال الخطر المباشر، أصبحت عينا بيتر الخضراوان أكثر قسوة. فوجئتُ عندما تمكّن من منع نفسه من الردّ بعدما قضى حياته في البوح بما في قلبه في جماعة النزاهة. غير أنّه كبح جماح لسانه، وبدا ذلك واضحاً من احمرار خدّيه.

"سأجيب عن سؤالك... إن كنت مهيّأً للدفاع عن نفسك، فسيقلّ احتمال تلويثك سروالك، وبكائك مطالباً بالعودة إلى أمّك". توقّف فور عند آخر الصفّ، ثمّ استدار على عقبيه. "قد تحتاجون أيضاً إلى

هذه المعلومات لاحقاً في المرحلة الأولى. لذا، راقبوني".

وقف بمواجهة الجدار الذي ثُبّتت عليه الأهداف، وكانت عبارة عن مربّع من الخشب الرقيق لكلّ منّا، عليه ثلاث دوائر حمراء. وقف مباعداً بين قدميه، وحمل المسدّس بيديه الاثنتين، ثمّ أطلق النار. كان الصوت قوياً حيث آلم أذنيّ. أملت رأسي لأنظر إلى الهدف. لقد اخترقت الرصاصة الدائرة الوسطى.

التفتّ إلى هدفي. لن يعجب هذا الأمر أسرتي أبداً. فهم يعتبرون أن المسدّسات تستخدم للدفاع عن النفس، إن لم تستخدم للعنف، وبالتالي تخدم أغراضاً شخصية.

أبعدتُ أسرتي عن ذهني، ثمّ باعدت بين قدميّ، وأحطتُّ مقبض المسدّس بيديّ الاثنتين بحذر شديد. كان المسدس ثقيلاً، حيث صعب عليّ حمله بعيداً عن جسدي، لكنّني أردت إبعاده عن وجهي قدر الإمكان. ضغطتُ على الزناد؛ بتردّد في البداية، ومن ثمّ بقوّة أكبر، وأنا أنكمش بعيداً عن المسدّس. آلم الصوت أذنيّ، واندفعَت يداي إلى الخلف، نحو أنفي. تعثّرت، ثمّ ضغطتُ بيدي على الجدار خلفي لاستعادة توازني. لا أعرف أين حطّت الرصاصة، لكنّني أعرف أنّها بالتأكيد بعيدة عن الهدف.

أطلقت النار مرة ثانية، وثالثة، ولم تصب أيّ من الرصاصات الهدف.

ابتسم شابّ من المعرفة كان يقف قربـي واسمه وِيل، وقال: "من الناحية الإحصائية، يجب أن تكوني قد أصبت الهدف لمرّة واحدة على الأقلّ؛ ولو عن طريق الخطأ". كان شعره الأشقر مشعّثاً، وتفصل إحدى الخصل المجعدة بين حاجبيه.

قلت من دون أن ألتفت: "حقاً؟".

أجاب: "أجل، أظنّ أنّك تتحدّين الطبيعة".

صررت أسناني، والتفتُّ إلى الهدف؛ مصمّمة على البقاء متماسكة على الأقلّ. فإن لم أستطع إتقان أوّل مهمّة توكل إليّ، فكيف سأجتاز المرحلة الأولى؟

ضغطتُ بقوّة على الزناد، وكنت هذه المرّة مستعدّة للارتداد. ارتدّت يداي إلى الخلف، لكنّ قدميّ بقيتا مسمّرتين على الأرض. ظهرت رصاصة على طرف الهدف، فرفعت حاجبـي، ونظرت باستغراب إلى وِيل.

قال: "أرأيتِ؟ الإحصائيّات لا تكذب".

ابتسمتُ قليلاً.

استغرقتُ خمس جولات لإصابة الهدف، وعندما فعلت، شعرت بدفعة من الطاقة تجتاحني. لقد استفقت تماماً، وشعرت بالدفء في يديّ. يشعر الإنسان بالقوة عندما يسيطر على شيء قادر على التسبب بالأذى؛ عند السيطرة على شيء وحسب.

ربّما كنت أنتمي إلى هذا المكان فعلاً.

* * *

عندما أخذنا استراحة الغداء، كانت يداي تؤلمانني من حمل المسدّس، وأصابعي متصلّبة، لذا رحت أدلّكها في طريقي إلى قاعة الطعام. قامت كريستينا بدعوة آل للجلوس معنا. كلّما نظرت إليه، كنت أسمع بكاءه، لذلك حاولت عدم النظر إليه.

رحت أحرّك حبات البازيلاء بشوكتي، وعادت أفكاري إلى اختبارات الجدارة. عندما حذّرتني توري من خطورة الجموح، شعرت كما لو أنّ انتمائي موصوم على جبيني، وإن سلكت طريقاً خاطئاً، فلا بدّ أن يلاحظ أحدهم ذلك. حتّى الآن، لم يسبّب لي الأمر أيّ مشكلة، لكنّ هذا لا يعني أنّني بأمان. فماذا لو تخلّيت عن حرصي ووقع أمر خطير؟

سألت كريستينا آل وهي تعدّ شطيرة: "هل هذا معقول!؟ ألا تذكرني؟ كنّا معاً في صفّ الرياضيات قبل بضعة أسابيع وحسب. وأنا لست ممّن يحبّون الصمت".

أجاب آل: "لقد نمت في معظم حصص الرياضيات، فقد كانت دائماً الحصّة الأولى".

ماذا لو تأخّر الخطر. ماذا لو باغتني بعد سنوات من دون أن أتوقّعه أبداً؟

قالت كريستينا: "تريس". وطقطقت أصابعها أمام وجهي. "هل أنت هنا؟".

"ماذا؟ ما الأمر؟".

"سألتك عمّا إذا كنت تذكرين أنّك درست معي إحدى الموادّ. لا أقصد الإهانة، لكنّني لن أتذكّر ذلك على الأرجح. فجميع أعضاء نكران الذات كانوا يبدون متشابهين بالنسبة إليّ، وما زالوا كذلك. غير أنّك ما عدت واحدة منهم الآن".

حدّقت إليها صامتة. وكأنّني أحتاج إلى التذكير!

قالت: "آسفة، هل تحدّثت بفظاظة؟ أنا معتادة على قول ما يخطر في بالي، فأمّي تقول إنّ التهذيب ليس سوى خداع في غلاف جميل".

قلت وأنا أضحك قليلاً: "أظنّ أنّ هذا هو السبب الذي يحول دون نشوء علاقات طيبة بين جماعاتنا". فأهل النزاهة ونكران الذات لا يكرهون بعضهم كما يفعل أهل المعرفة ونكران الذات،

لكنّهم يتجنّبون بعضهم. فالمشكلة الفعلية للنزاهة هي مع جماعة الوئام. إذ يقولون إنّ أولئك الذين يسعون إلى السلام قبل أيّ شيء آخر، يلجأون دائماً إلى الخداع للحفاظ على هدوء الأجواء.

قال ويل، وهو يطرق بإصبعه على الطاولة: "هل يمكنني الجلوس هنا؟".

قالت كريستينا: "ماذا؟ ألا تريد الجلوس مع أصحابك من المعرفة؟".

أجاب ويل وهو يضع طبقه: "هم ليسوا أصحابي؛ فمجرّد انتمائنا إلى الجماعة نفسها لا يعني أنّنا منسجمون. بالإضافة إلى ذلك، إن إدوارد وميرا صديقان حميمان، ولا أريد أن أكون عزولاً".

جلس إدوارد وميرا، الآتيان من المعرفة، على بعد طاولتين. وكانا قريبين من بعضهما كثيراً؛ إلى حدّ أنّ ذراعيهما كانتا تحتكّان معاً وهما يقطّعان الطعام. توقّفت ميرا لتعانق إدوارد، فراقبتهما جيّداً؛ إذ لم يسبق لي أن شاهدت في حياتي الكثير من العناق.

التفت إدوارد نحوها، فتنهّدتُ بصوت خافت، وأشحت بنظري. انتظر جزء منّي أن يتعرّضا للتوبيخ، بينما تساءل جزء آخر – بشيء من اليأس – عمّا سأشعر به لو عانقني أحدهم.

قلت: "هل عليهما أن يفعلا ذلك علناً؟".

عبس آل في وجهي مجيباً: "لقد عانقته وحسب". عندما يعبس، يلامس حاجباه رموش عينيه. "لم يرتكبا عملاً مشيناً".

"لا يعانق الناس بعضهم علناً".

ظهرت الابتسامة المتفهّمة نفسها على وجه آل، وويل، وكريستينا.

قلت: "ماذا؟".

أجابت كريستينا: "هذه علامات نكران الذات. أمّا نحن فلا ننزعج من إظهار بعض العاطفة أمام الناس".

هززت كتفي: "آه! حسناً... أظنّ أنّه عليّ الاعتياد على ذلك إذاً".

قال ويل، وعيناه الخضراوان تلمعان مكراً: "أو يمكنك البقاء على برودتك؛ إن أردت".

رمت عليه كريستينا قطعة خبز، فالتقطها وقضمها.

قالت: "لا تكن دنيئاً معها. فالبرودة من طبعها؛ تماماً مثلما تدّعي أنت معرفتك كلّ شيء".

هتفت قائلة: "لست باردة!".

قال ويل: "لا تقلقي حيال هذا الأمر، قلت ذلك تحبّباً. انظري، لقد احمرّ خدّاك".

تلك الملاحظة زادت وجهي احمراراً، فضحك الجميع. أجبرتُ نفسي على الضحك، وبعد ثوانٍ،

أتت الضحكة بشكل طبيعي.

من الجميل أن نضحك مجدّداً.

* * *

بعد الغداء، قادنا فور إلى قاعة جديدة وضخمة، ذات أرض خشبية مشقّقة، أصدرت صريراً تحت أقدامنا. كانت تحتوي على دائرة كبيرة مرسومة في الوسط. وعلى الجدار الأيسر، عُلّق لوح أخضر. كان أساتذة المراحل الدراسية الأولى يستخدمون مثل ذلك اللوح، لكنّني لم أرَ واحداً منذ ذلك الحين. ربّما كانت للأمر علاقة بأولويات الشجعان: التدريب يأتي أوّلاً، ومن ثمّ التكنولوجيا.

كُتبت أسماؤنا على اللوح بالترتيب الألفبائي، وعُلّقت في آخر الغرفة أكياس ملاكمة باهتة اللون يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة ثلاث أقدام.

اصطففنا خلفها، ووقف فور في الوسط، حيث يراه الجميع.

قال: "كما سبق وقلت لكم هذا الصباح، ستتعلّمون الآن كيفية الدفاع عن النفس. الهدف من هذا التمرين هو إعدادكم للتصرّف، وإعداد أجسادكم للاستجابة إلى التهديدات والتحدّيات، وستحتاجون إلى ذلك بالتأكيد إن كنتم تنوون البقاء على قيد الحياة في هذه الجماعة".

لا يمكنني حتّى أن أتخيّل الحياة في جماعة الشجاعة. جُلّ ما أفكّر فيه هو اجتياز مرحلة التلقين.

قال فور: "سنتعرّف اليوم على التقنيّة، وغداً ستبدأون بالقتال. لذا، أوصيكم بالانتباه. فمن لا يتعلّم بسرعة فسيتعرّض للأذى".

ذكر فور أسماء خمس لكمات مختلفة، وأظهر لنا كيفية أداء كلّ منها؛ أوّلاً في الهواء، ومن ثمّ على كيس الملاكمة.

رحت أتعلّم بالممارسة. ومثلما تدرّبت على الرماية، احتجت إلى بضع محاولات لأعرف كيف أقف، وكيف أحرّك جسدي لأجعله يبدو مثل جسده. بدت الركلات أكثر صعوبة، مع أنّه لم يعلّمنا سوى المبادئ الأساسية. آلم كيس الملاكمة يديّ وقدميّ، وصبغ بشرتي باللون الأحمر، غير أنّه بالكاد تحرّك من مكانه. لم أكن أسمع سوى أصوات أطراف ترتطم بالقماش الصلب.

راح فور يتجوّل بين المبتدئين، ويراقبنا ونحن نتدرّب على الحركات. عندما توقّف أمامي، شعرت أنّ أحشائي انقلبت كما لو أنّ أحداً يحرّكها بشوكة. حدّق إليّ، وجالت عيناه على جسدي، من رأسي حتّى قدميّ؛ بنظرات عملية وعلمية.

قال: "أنت لا تملكين عضلات قويّة. لذلك، من الأفضل لك استخدام ركبتيك ومرفقيك. يمكنك

وضع قوة أكبر خلفها".

فجأة، ضغط بيده على بطني. كانت أصابعه طويلة. حيث إنّ أسفل كفّه لامس جهة من قفصي الصدري، بينما لامست أصابعه الجهة الأخرى. أخذ قلبـي ينبض بقوّة، وحملقت فيه.

قال بصوت هادئ: "لا تنسي إبقاء هذه المنطقة مشدودة".

رفع فور يده، وتابع مسيره، غير أنّني بقيت أشعر بضغط يده حتّى بعد ذهابه. هذا غريب، لكنّني اضطررت إلى التوقّف، والتنفّس لبضع ثوانٍ قبل أن أتابع التمرين.

عندما أرسلَنا فور لتناول العشاء، وكزتني كريستينا بمرفقها.

قالت: "كيف استطعت البقاء واقفة أمامه؟". ثمّ أضافت، وقد ظهرت تكشيرة على أنفها: "إنّه يخيفني بصوته المنخفض الذي يتكلّم به".

"أجل، إنّه...". نظرت إلى الخلف، ورمقته. إنّه هادئ وبارع في التحكّم بأعصابه، لكنّني لم أخف أن يؤذيني. قلت أخيراً: "... مخيف فعلاً".

عندما وصلنا إلى السرداب، التفت آل الذي كان يسير أمامنا، وقال: "أريد أن أضع وشماً".

سأله ويل من خلفنا: "ما شكل الوشم الذي تريده؟".

ضحك آل. "لا أعرف. أريد أن أشعر وحسب أنّني تركت الجماعة القديمة، وأن أتوقّف عن البكاء عليها". لم يجبه أحد، فأضاف: "أعرف أنّكم سمعتموني".

وكزت كريستينا ذراع آل الضخمة وقالت: "أجل، تعلّم أن تتمالك نفسك. لكنّني أظنّ أنّك على حقّ، فنحن نقف في الوسط، قدم هنا وقدم هناك. إن أردنا الانتماء إلى هذا المكان، فعلينا أن نحذو حذوهم".

نظرت إليّ.

قلت: "كلاّ، لن أقصّ شعري، أو أصبغه بلون عجيب، أو أثقب وجهي".

قالت: "وماذا عن سرّتك".

تأوّهت.

بما أن التدريب انتهى لذلك اليوم، أصبح بإمكاننا فعل ما نرغب فيه حتّى يحين وقت النوم. سبّبت لي تلك الفكرة الدوار تقريباً، مع أنّ التعب قد يكون هو المسؤول.

كان السرداب يعجّ بالناس. أعلنت كريستينا أنّنا سنلاقي آل وويل في صالة الوشم، وسحبتني إلى المكان المخصّص للملابس. تعثّرنا في الطريق، وصعدنا فوق أرض السرداب، فتناثرت الأحجار تحت

أقدامنا.

سألتها: "ما خطب ملابسي، أنا لم أعد أرتدي ملابس رمادية".

أجابت وهي تتنهّد: "إنّها قبيحة وكبيرة المقاس. هلاّ سمحت لي بمساعدتك وحسب. إن لم تعجبك الملابس التي سأختارها، فلست مضطرّة لارتدائها مجدّداً، أعدك".

بعد عشر دقائق، وقفت أمام مرآة في غرفة الملابس وأنا أرتدي ثوباً أسود يصل طوله حتّى الركبتين. لم تكن التنورة واسعة جداً، ولا ملتصقة بساقَيّ، خلافاً للثوب الأوّل الذي انتقَتْه لي ورفضت ارتداءه. أحسست بقشعريرة تسري في ذراعيّ العاريتين. حلّت كريستينا عقدة شعري، فتدلّى بكثافة على كتفَيّ.

بعد ذلك، حملَت قلماً أسود.

قالت: "كحل".

"لن تتمكّني من جعلي أبدو جميلة، كما تعلمين". أغمضتُ عينيّ، ووقفت جامدة، بينما مرّرت القلم على جفنَيّ. تخيّلت نفسي واقفة أمام أسرتي بهذه الملابس، فشعرت بمعدتي تتقبض كما لو أنّني على وشك الإصابة بالغثيان.

"من يأبه بالجمال؟ أريدك أن تكوني لافتة للنظر".

فتحت عينيّ، وحدّقت للمرّة الأولى إلى صورتي من دون خجل. تسارعت نبضاتي في أثناء ذلك، كما لو أنّني خرقت القواعد وسأتعرّض للتوبيخ. سيكون من الصعب عليّ مخالفة العادات والأفكار التي زرعتها فيّ جماعة نكران الذات؛ تماماً مثل سحب خيط واحد من قطعة تطريز معقّدة. لكنّني سأجد لنفسي عادات جديدة، وأفكاراً جديدة، وقواعد جديدة. سأصبح شخصاً مختلفاً.

كانت عيناي زرقاوين، لكن بلون باهت مائل إلى الرمادي، فجعلهما الكحل تبدوان خارقتين. وبشعري الذي أحاط بوجهي، بدت قسماتي أكثر ليونة وامتلاء. أنا لست جميلة، فعيناي كبيرتان جدّاً، وأنفي طويل جدّاً، لكنّني وجدت كريستينا على حقّ. أصبح وجهي لافتاً للنظر.

عندما أنظر إلى وجهي الآن، لا أشعر أنّني أرى نفسي للمرة الأولى، بل أشعر أنّني أرى شخصاً آخر للمرة الأولى. فبياتريس التي رأيتها للحظات خاطفة في المرآة، كانت تلتزم الصمت على المائدة. أمّا هذه فهي فتاة تأسرني نظراتها؛ هذه هي تريس.

قالت: "أترين؟ أنت... أخّاذة".

تحت هذه الظروف، كانت تلك أفضل مجاملة يمكن أن تقدّمها لي، فابتسمت للمرآة.

قالت: "هل تعجبك؟".

أومأت برأسي: "أجل. أبدو... شخصاً مختلفاً".

ضحكت وسألتني: "وهل هذا حسن أم سيّئ؟".

نظرت إلى نفسي مجدّداً. للمّرة الأولى، لم تزعجني فكرة التخلّي عن هويتي كناكرة للذات، بل أعطتني الأمل.

هززت رأسي مجيبة: "بل حسن. آسفة، لم يكن يسمح لي مطلقاً بتأمّل نفسي في المرآة كلّ هذا الوقت".

هزّت كريستينا رأسها مستنكرة: "حقّاً؟! جماعة نكران الذات غريبة الأطوار، اعرفي ذلك".

قلت: "هيا بنا لنرى وشم آل". صحيح أنّني تخلّيت عن جماعتي القديمة، إلاّ أنّني لست مستعدّة بعد لانتقادها.

في البيت، كنّا أنا وأمّي نختار مجموعات متشابهة تقريباً من الملابس كلّ ستّة أشهر. من السهل تخصيص الموارد عندما يشتري المرء أغراضاً متشابهة، لكن كلّ شيء متنوّع في مجمّع الشجاعة. فكلّ عضو في الجماعة يحصل على عدد معيّن من النقاط لإنفاقه كلّ شهر. وقد كلّفني الثوب إحداها.

تسابقنا أنا وكريستينا على طول الطريق الضيّق المؤدّي إلى صالة الوشم. عندما وصلنا، كان آل جالساً على الكرسيّ، بينما يقوم رجل قصير القامة ونحيل الجسد، معظم بشرته مكسوّة بالحبر، برسم عنكبوت على ذراعه.

تصفّح ويل وكريستينا كتب الصور، وكانا يكزان بعضهما كلّما رأيا صورة جميلة. عندما جلسا بالقرب من بعضهما، لاحظت مدى التناقض بينهما. كريستينا سمراء ونحيلة، وويل شاحب وصلب، لكنّهما متشابهان في الابتسامة التي لا تفارق وجهيهما.

تجوّلتُ في الغرفة، وأنا أتأمّل الرسوم على الجدران. في هذه الأيّام، وحدها جماعة الوئام تضمّ فنّانين. فجماعة نكران الذات ترى الفنّ أمراً غير عمليّ، وتعتبر أنّ الوقت الذي ينفقه الإنسان على تذوّق الفنون يمكن أن يخصّصه لخدمة الآخرين. لذلك، ومع أنّني رأيت أعمالاً فنية في الكتب المدرسية، إلاّ أنّني لم أقف في غرفة مزينة كهذه من قبل. فالرسوم جعلت الفضاء يبدو صغيراً ودافئاً، حيث يمكن للمرء أن ينسى نفسه هنا لساعات. مرّرت أناملي على الجدار. ذكّرتني صورة صقر على أحد الجدران بوشم توري، ورأيت تحته رسم طائر محلّق.

سمعت صوتاً خلفي يقول: "هذا غراب أسود. جميل، أليس كذلك؟".

التفتّ ورأيت توري واقفة هناك، فشعرت أنّني عدت إلى غرفة الاختبار، تحيط بـي المرايا، بينما علّقت الأسلاك بجبيني. لم أتوقّع رؤيتها مجدّداً.

ابتسمت قائلة: "مرحباً. لم يخطر ببالي أن أراك ثانية. بياتريس، أليس كذلك؟".

أجبتها: "في الواقع، تريس. هل تعملين هنا؟".

"أجل. أخذت عطلة خلال الاختبارات وحسب، غير أنّني هنا معظم الوقت". وضعت يدها على ذقنها مضيفة: "أعرف هذا الاسم. كنت أوّل من قفز عن سطح المبنى، أليس كذلك؟".

"أجل".

"أحسنت".

"شكراً". لمست رسم الطائر. "اسمعي، أودّ التحدّث معك في...". نظرت إلى ويل وكريستينا. لا يمكنني أن أنفرد بتوري الآن، إذ سيطرحان الأسئلة. "... موضوع، في وقت ما".

قالت بصوت منخفض: "لا أظنّ أنّه يجدر بك ذلك. لقد ساعدتك قدر الإمكان، عليك الآن متابعة الطريق بمفردك".

أطبقتُ شفتيّ مستاءة. لديها أجوبة، أنا واثقة من ذلك. إن لم تكن مستعدّة لإعطائي إيّاها الآن، فعليّ أن أجد طريقة لأحملها على التكلّم لاحقاً.

قالت: "أتريدين أن تضعي وشماً؟". لفت انتباهي رسم الطير. لم أكن أنوي وضع أوشام أو أقراط عندما أتيت إلى هنا. فأنا أعلم أنّني إن فعلت فسأضع عائقاً آخر بيني وبين أسرتي، ولن أتمكّن من إزالته أبداً. وإن استمرّت حياتي هنا على هذا النحو، فسرعان ما سيصبح هذا أصغر عائق بيننا.

بيد أنّني فهمت الآن ما قالته توري عن وشمها الذي يرمز إلى خوف تغلّبت عليه، والذي يذكّرها بمن كانت وأين هي اليوم. ربّما ثمّة طريقة أكرّم بها حياتي القديمة، وأنا أتّخذ لنفسي حياة جديدة.

أجبت: "أجل، ثلاثة من هذه الطيور".

لمست أسفل عنقي، وأنا أحدّد خطّ طيرانها؛ نحو قلبـي. سيمثّل كلّ طائر من هذه الطيور أحد أفراد أسرتي التي تركتها خلفي.

الفصل التاسع

قال فور: "بما أنّ عددكم مفرد، فإنّ أحدكم لن يشارك اليوم في التدريب على القتال". ابتعد عن اللوح في قاعة التدريب، وألقى عليّ نظرة. كانت الخانة بجانب اسمي فارغة.

أحسست أنّ عقدة معدتي قد ارتخت بعد هذا التأجيل.

قالت كريستينا وهي تكزني بكوعها: "هذا ليس جيداً". أصاب كوعها إحدى عضلاتي التي تؤلمني، وكانت تلك حال معظم عضلات جسدي هذا الصباح، فأجفلت.

"أوه".

قالت: "آسفة. لكن انظري، سأتبارى مع الدبابة".

هذا الصباح، جلسنا أنا وكريستينا معاً لتناول الفطور. وقبل ذلك، حجبتني عن بقيّة المقيمين في العنبر وأنا أبدّل ملابسي. لم يسبق لي أن حصلت على صديقة مثلها من قبل. كانت سوزان أقرب إلى كاليب منّي، وكان روبرت يرافقها أينما ذهبَت.

أظنّ أنّه لم يسبق لي أن حصلتُ على صديقة حقيقيّة. فمن الصعب أن يقيم المرء صداقات فعلية مع أناس لا يستطيعون قبول المساعدة ولا يتحدّثون عن أنفسهم. لكنّ الأمور هنا لا تجري على هذا النحو. فقد أصبحت أعرف عن كريستينا أكثر ممّا عرفت يومًا عن سوزان؛ مع أنّه لم يمضِ على لقائنا أكثر من يومين.

"الدبّابة؟!". ورأيت اسم كريستينا على اللوح بجانب اسم "مولي".

قالت: "أجل، لكنّ بيتر أكثر أنوثة منها بقليل". وأشارت إلى المجموعة في الطرف الآخر من الغرفة. كانت مولي طويلة القامة، مثل كريستينا، لكن هنا تنتهي أوجه الشبه بينهما. فمولي تتمتّع بكتفين عريضتين، وبشرة برونزية، وأنف ضخم.

أشارت كريستينا إلى بيتر، ودرو، ومولي وقالت: "هؤلاء الثلاثة لا ينفصلون منذ أن دبّت أقدامهم على الأرض. أنا أكرههم".

وقف ويل وآل أمام بعضهما في الحلبة. وضعا أيديهما أمام وجهيهما للحماية؛ مثلما علّمنا فور، وأخذا يدوران حول بعضهما. كان آل أطول من ويل بنصف قدم، وبضعف عرضه. بينما كنت أنظر إليه، لاحظت أنّ قسمات وجهه كبيرة أيضاً؛ فأنفه كبير، وكذلك شفتاه وعيناه. لن تدوم هذه المواجهة طويلاً.

نظرت إلى بيتر وصديقيه. كان درو أقصر قامة من بيتر ومولي، لكنّه قويّ البنية، وكتفاه محنيّتان دوماً. وكان شعره أحمر مائلاً إلى البرتقالي، بلون جزرة قديمة.

قلت: "ما خطبهم؟".

"بيتر شرّير بطبعه. عندما كنّا صغاراً، كان يفتعل العراك مع أولاد من جماعات أخرى. وعندما يأتي شخص كبير لفضّ المشكلة، يبدأ بالبكاء، ويزعم أنّ الولد الآخر هو البادئ. وبالطبع، كانوا يصدّقونه؛ لأنّنا من جماعة النزاهة، ونحن لا نكذب أبداً". ثمّ ضحكت باستهزاء.

كشّرت كريستينا مضيفة: "درو يلازمه كظلّه، وأشكّ في أنّه يفكّر بشكل مستقلّ. أمّا مولي... فهي من الأشخاص الذين يحمّصون النمل باستعمال المكبّر؛ لمجرّد المتعة".

في الحلبة، تلقّى ويل لكمة قوية من آل على فكّه، فأجفلت. في الجهة الأخرى من القاعة، ابتسم إريك لآل، وحرّك أحد الأقراط المعلّقة في حاجبه.

تعثّر ويل، ووضع إحدى يديه على وجهه، وردّ بالأخرى اللكمة الثانية. لكن، بدا من تعابير وجهه أنّ ردّ اللكمة ليس أقلّ إيلاماً. آل بطيء، لكنّه قويّ.

ألقى بيتر، ودرو، ومولي نظرات خاطفة علينا، ثمّ انحنوا على بعضهم يتهامسون.

قلت: "أعتقد أنّهم عرفوا أنّنا نتكلّم عنهم".

"وماذا في ذلك؟ إنّهم يعرفون أنّني أكرههم".

"حقاً! كيف؟".

وجّهت إليهم كريستينا ابتسامة مصطنعة، ولوّحت لهم. أمّا أنا، فنظرت إلى الأرض واحمرّت وجنتاي. لا يجب أن أغتاب أحداً في الأساس. فالغيبة تتناقض مع مبادئ نكران الذات.

لفّ ويل رجله حول ساق آل، وشدّها إلى الخلف، فسقط آل أرضاً؛ غير أنه سرعان ما وقف على قدميه مجدّداً.

"أخبرتهم بذلك". قالت هذه العبارة من بين أسنانها وهي تبتسم. كانت أسنانها العلوية مستوية؛ على عكس أسنانها السفلية. نظرت إليّ. "فنحن في النزاهة نحاول أن نكون صريحين في التعبير عن مشاعرنا. الكثير من الناس أخبروني أنّهم لا يحبّونني، وكثيرون آخرون لم يفعلوا ذلك. من يأبه؟".

قلت: "لكن... لا يفترض بنا أن نجرح مشاعر الناس".

قالت: "أحبّ التفكير في أنّني أساعدهم عندما أكرههم. فأنا أذكّرهم أنّهم ليسوا هبة من الله للبشرية".

ضحكتُ قليلاً، ثمّ حوّلتُ تركيزي إلى الحلبة مجدّداً. تواجه آل وويل لبضع ثوانٍ أخرى، وكانا أكثر تردّداً من ذي قبل. أبعد ويل شعره الأشقر عن عينيه. نظرا إلى فور على أمل أن ينهي الجولة، لكنّه وقف مكتوف الذراعين، وبقي صامتاً. على بعد عدّة أقدام منه، نظر إريك إلى ساعته.

بعد بضع ثوانٍ من الدوران حول بعضهما، صاح إريك: "هل تظنّان أنّنا نلهو هنا؟ هل تريدان أن نأخذ غفوة مثلاً؟ تعاركا!".

استقام آل، وأخفض يديه، ثمّ قال: "لكن... هل ثمّة نقاط أو شيء من هذا القبيل؟ متى تنتهي المباراة؟".

أجاب إريك: "تنتهي عندما يصبح أحدكما عاجزاً عن المتابعة".

قال فور: "بحسب قوانين الشجاعة، يمكن لأحدكما الاستسلام أيضاً".

نظر إريك إلى فور بإمعان وقال: "هذا بحسب القوانين القديمة. أمّا القوانين الجديدة، فلا تسمح لأحد بالاستسلام".

أجاب فور: "الرجل الشجاع يعترف بقوّة الآخرين".

"الرجل الشجاع لا يستسلم أبداً".

حدّق فور وإريك إلى بعضهما لبضع ثوان. شعرت أنّني أنظر إلى نوعين من الشجعان، أحدهما شريف، والآخر لا يرحم. لكن حتّى أنا كنت أعرف أنّ إريك – أصغر الشجعان – هو صاحب السلطة.

ظهرت قطرات العرق على جبين آل، فمسحها بظاهر يده.

قال آل، وهو يهزّ رأسه: "هذا سخيف. ما الفكرة من الانتصار عليه، فنحن في الجماعة نفسها!".

سأله ويل وهو يبتسم: "آه، أتظنّ أنّ الأمر بهذه السهولة؟ هيّا، حاول أن تهزمني أيّها الكسول".

رفع ويل يديه مجدّداً. رأيت في عينيه تصميماً لم يكن موجوداً من قبل. هل يعتقد حقاً أنّه يستطيع الفوز؟ فبضربة واحدة على الرأس، سيطرحه آل أرضاً.

هذا إن استطاع أن يضرب ويل في الواقع. جرّب آل لكمة، فانخفض ويل، ولمع العرق على مؤخّر عنقه. تفادى لكمة أخرى، ثمّ انزلق خلف آل، وركله بقوّة على ظهره. فاندفع آل إلى الأمام، واستدار.

عندما كنت أصغر سنّاً، قرأت كتاباً عن الدببة البيضاء. وكانت فيه صورة لأحد الدببة وهو واقف على قائمتيه الخلفيتين، ويداه ممدودتان إلى الأمام، وهو يصدر أصواتاً مخيفة. هكذا بدا آل الآن.

اندفع إلى ويل، وأمسك بذراعه لكي لا يتمكّن من الإفلات، ثمّ لكمه على فكّه بقوّة.

رأيت عيني ويل الخضراوين الشاحبتين بلون الكرفس تنطفئان، ثم ارتخى جسده. أفلت من قبضة آل، ثمّ تهاوى على الأرض. فشعرت بالبرودة تسري في ظهري، وتجتاح صدري.

حملق آل بزميله، وانحنى قربه، يربّت على خدّه. خيم الصمت على الغرفة بانتظار تجاوب ويل. غير أنّه ظلّ مستلقياً على الأرض لبضع ثوان، وإحدى ذراعيه تحته. أخيراً، رفّ عينيه، وبدا واضحاً أنّه أصيب بالدوار.

قال إريك: "أوقفه". حدّق بنهم إلى جسد ويل المكوّم على الأرض، كما لو كان وليمة، وكما لو أنّه لم يأكل منذ أسابيع. كانت شفتاه تنمّان عن القسوة.

التفت فور إلى اللوح، وأحاط اسم آل بدائرة. لقد فاز.

صاح إريك: "حان دور مولي وكريستينا!". شدّ آل ذراع ويل إلى الخلف، وجرّه إلى خارج الحلبة.

أخذت كريستينا تطقطق أصابعها. وددت أن أتمنّى لها الحظّ، لكنّني لا أعرف ما فائدة ذلك. فكريستينا ليست ضعيفة، لكنّها نحيلة أكثر بكثير من مولي. آمل أن يساعدها طولها.

في الجانب الآخر من الغرفة، أمسك فور بخصر ويل، وقاده إلى الخارج. فوقف آل للحظة عند الباب يراقبهما.

أتوتّر عند رحيل فور. فعندما يتركنا مع إريك، أشعر وكأنّه يتركنا مع حاضن أطفال يسّن سكاكينه.

أبعدت كريستينا شعرها خلف أذنيها. كان أسود اللون، بطول ذقنها، ومثبّتاً إلى الخلف بالدبابيس الفضية. طقطقَت عقدة أخرى. بدا عليها التوتّر، ولا عجب في ذلك. فمن لا يتوتّر بعدما شاهد ويل ينهار أرضاً مثل دمية من قماش؟

إن كان قتال الشجعان ينتهي بانتصار شخص واحد، فأنا لست واثقة من مصيري في هذا الجزء من التدريب. هل سأكون آل، الواقف فوق جسد غريمه مدركاً أنّه من طرحه أرضاً، أم سأكون ويل، الممدد على الأرض بلا حول ولا قوّة؟ وهل سأكون أنانية إن سعيت إلى الفوز، أم شجاعة؟ مسحت يديّ المتعرّقتين بسروالي.

عاد إليّ تركيزي عندما ركلت كريستينا مولي على خصرها. شهقت مولي، وصرّت على أسنانها من دون أن يصدر عنها أيّ صوت. سقطت خصلة من الشعر الأسود على وجهها، إلاّ أنّها لم تبعدها.

وقف آل بجانبي، لكنّ انتباهي كان منصبّاً على المواجهة الجديدة. فلم أنظر إليه أو أهنّئه على فوزه؛ على افتراض أنّ هذا ما أراده. إذ إنّني لست واثقة من ذلك.

ابتسمت مولي بتكلّف في وجه كريستينا، ثمّ اندفعت من دون سابق إنذار، بيديها الممدودتين نحوها. ضربتها بقوّة على بطنها، وطرحتها أرضاً، ثمّ سمّرتها. راحت كريستينا تتلوّى، لكنّ مولي كانت ثقيلة الوزن، ولم تتزحزح.

راحت توجّه اللكمات، وكريستينا تبعد رأسها، إلى أن أصابت ضربات مولي فكّ كريستينا، وأنفها، وفمها وأوقعتها أرضاً. ومن دون تفكير، أمسكت ذراع آل وشددت عليها بقوّة. كنت بحاجة إلى ما أتمسّك به وحسب. سال الدم من وجه كريستينا، وتجمّع على الأرض بجانب خدّها. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أدعو فيها لكي يغمى على أحدهم.

غير أنّ كريستينا ظلّت واعية. راحت تصرخ وهي تحرّر إحدى يديها. أخيراً، لكمت مولي على أذنها، فاختلّ توازنها، وأطلقت سراحها. عندها، ركعت على ركبتيها، ووضعت إحدى يديها على وجهها. كان الدم الذي سال من وجهها كثيفاً وداكناً، حيث غطّى أصابعها خلال ثوانٍ. صرخت مجدّداً، وزحفت بعيداً عن مولي. عرفت من حركة كتفيها أنّها تبكي، لكنّني بالكاد سمعتها.

أرجوك، غيبي عن الوعي.

ركلت مولي خصر كريستينا التي سقطت على ظهرها. فحرّر آل يده، وشدّني إليه. شددت على أسناني لأمنع نفسي من الصراخ. صحيح أنّني لم أشعر بأيّ تعاطف مع آل في الليلة الأولى هنا، لكنّني لم أصبح قاسية بعد. ورؤية كريستينا وهي تضغط على قفصها الصدري جعلتني أرغب في الوقوف بينها وبين مولي.

صاحت كريستينا عندما أرجعت مولي قدمها إلى الخلف استعداداً لتوجيه ركلة أخرى: "كفى!". رفعت يدها وقالت: "كفى! لقد... انتهيت".

ابتسمت مولي، فتنفّستُ الصعداء. تنهّد آل أيضاً، وأخذ صدره يعلو ويهبط بالقرب من كتفي.

توجّه إريك إلى وسط الحلبة بحركة بطيئة، ثمّ وقف أمام كريستينا شابكاً ذراعيه. قال بصوت منخفض: "آسف، ماذا قلت؟ انتهيت!؟".

ركعت كريستينا على ركبتيها بصعوبة. وعندما رفعت يدها عن الأرض، خلّفت أثراً أحمر اللون تحتها. ضغطت على أنفها لإيقاف النزيف، ثمّ هزّت راسها.

قال: "انهضي". لو صاح، لما شعرت أنّني على وشك أن أتقيّأ كلّ ما في جوفي. لو صاح،

لعرفت أنّ هذا أسوأ ما يخطّط لفعله. لكنّ صوته كان هادئاً، وكلامه كان واضحاً. أمسك بذراع كريستينا، ورفعها للوقوف، ثمّ جرّها من الباب.

قال لنا: "اتبعوني".

وهذا ما فعلناه.

* * *

أحسست أنّ هناك نهراً يهدر في صدري.

وقفنا بجانب "الدرابزين". كان السرداب خالياً تقريباً. فقد كنّا في منتصف فترة العصر، مع أنّني شعرت كما لو أنّ الليل مستمرّ منذ أيّام.

حتّى لو كان ثمّة أناس حولنا، فأنا أشكّ في أنّهم كانوا سيساعدون كريستينا. فنحن مع إريك أوّلاً، وثانياً، للشجعان قوانين أخرى؛ قوانين لا تخرقها القسوة.

دفع إريك كريستينا إلى "الدرابزين".

أمرها قائلاً: "اصعدي".

"ماذا؟". قالتها كما لو أنها تتوقّع أن يلين، لكنّ عينيها الواسعتين ووجهها الشاحب أوحت بالعكس. إريك لن يتراجع.

قال إريك مجدّداً، وهو يشدّد على كلّ كلمة: "تسلّقي "الدرابزين". إن تدلّيت فوق الهاوية لمدة خمس دقائق، فسأنسى جبنك. أمّا إن لم تفعلي، فلن أسمح لك بمتابعة تدريبك".

كان "الدرابزين" ضيّقاً ومصنوعاً من المعدن. غلّفه رذاذ المياه، حيث جعله زلقاً وبارداً. حتّى لو كانت كريستينا جريئة بما فيه الكفاية لتتدلّى من "الدرابزين" لخمس دقائق، فقد لا تتمكّن من الصمود. إمّا أن تصبح منبوذة، أو تواجه خطر الموت.

عندما أغمضت عينيّ، تخيّلتها تسقط على الصخور المسنّنة، فسرَت رعشة في جسدي.

قالت بصوت مرتجف: "حسناً".

كانت طويلة بما فيه الكفاية لتمرّر ساقها من فوق "الدرابزين". ارتجفت قدمها وهي تضع إصبع قدمها على الحافّة، ثمّ رفعت ساقها الأخرى. وقفت بمواجهتنا، ثمّ مسحت يديها على سروالها وأمسكت بالدرابزين بقوّة، حيث ابيضّت عقد أصابعها. بعد ذلك، أنزلت إحدى قدميها عن الحافّة، ومن ثمّ الأخرى. رأيت وجهها من بين قضبان الحاجز. كان التصميم بادياً عليه من خلال شفتيها المضمومتين.

إلى جانب.ي، وقف آل وضبط ساعته.

بدت كريستينا بخير خلال الدقيقة والنصف الأولى. أمسكت يداها بالدرابزين بقوّة، ولم ترتجف ذراعاها. بدأت أفكّر في أنّها ستنجح، وستثبت لإريك أنّه من الغباء أن يشكّ بقدراتها.

لكن، فجأة ارتطمت مياه النهر بالجدار، وتناثر الرذاذ على ظهر كريستينا. فاصطدم وجهها بالحاجز، وصرخت. انزلقت يداها، ولم تعد متمسكة "بالدرابزين" سوى برؤوس أصابعها. حاولت أن تمسك "بالدرابزين" بشكل أفضل، لكنّ يديها ابتلّتا.

إن ساعدتها فسيكون مصيري مثل مصيرها. هل أدعها تلقى حتفها، أم أحكم على نفسي بالنبذ؟ ما هو الأسوأ؟ أن أقف وأنا أتفرّج على شخص يموت، أم أن أتعرّض للنفي وأرحل خالية الوفاض؟

لن يواجه والداي أيّ مشكلة في الإجابة عن هذا السؤال.

لكنّني لست مثلهما.

على حدّ علمي، لم تبكِ كريستينا منذ وصولنا إلى هنا. غير أنّ قسماتها تبدّلت الآن، وصدرت عنها شهقة طغت على خرير النهر. ضربت موجة أخرى الجدار، وغطّى الرذاذ جسمها، حتّى إنّ إحدى القطرات حطّت على خدّي. انزلقت يداها مجدّداً، وهذه المرّة، سقطت إحداهما تماماً، ولم تعد متمسّكة "بالدرابزين" سوى بأربع أصابع.

قال آل بصوت منخفض جدّاً: "تماسكي، كريستينا". نظرَت إليه، فصفّق بيديه وقال: "هيّا، أمسكي به ثانية، ستنجحين، أمسكي به".

هل يمكنني حتّى أن أكون قوية بما فيه الكفاية للتمسّك بها؟ هل يستحقّ الأمر أن أحاول مساعدتها، إن كنت أعرف أنّني ضعيفة جدّاً، ولن أكون ذات فائدة؟

أعرف ماهيّة تلك الأسئلة: مجرّد أعذار. يمكن للعقل البشري أن يعذر أيّ شرّ؛ لهذا السبب، من الأهمية بمكان ألاّ نعتمد عليه. هذا كلام أب.ي.

رفعت كريستينا ذراعها؛ بحثاً عن "الدرابزين". لم يهتف لها أحد آخر، لكنّ آل ضمّ يديه الكبيرتين معاً، وصاح وهو ينظر إلى عينيها. ليتني استطعت أن أفعل مثله. ليتني استطعت التحرّك، لكنّني اكتفيت بالتحديق إليها، وأنا أتساءل منذ متى وأنا بهذه الأنانية المثيرة للاشمئزاز.

حدّقتُ إلى ساعة آل التي سجّلت انقضاء أربع دقائق، فوكز كتفي بقوّة.

قلت: "هيّا". خرج صوتي همساً. فتنحنحت، ثمّ تابعت بصوت أعلى: "بقيت دقيقة واحدة". أمسكت كريستينا "بالدرابزين" بيدها الأخرى من جديد. اهتزّت ذراعاها بقوّة، حيث تساءلت عمّا إذا كانت

الأرض هي التي اهتزّت تحت قدميّ، وزاغ نظري، من دون أن ألحظ ذلك.

قلنا أنا وآل بصوت واحد: "هيّا كريستينا". وعندما اتّحد صوتانا، شعرت أنّني قد أكون قوية بما فيه الكفاية لمساعدتها.

سأساعدها. إن انزلقت مجدّداً، فسأفعل.

ارتطمت موجة أخرى من الرذاذ بظهر كريستينا، وصرخَت عندما انزلقت كلتا يديها عن "الدرابزين". فانطلقت من فمي صرخة بدت وكأنّها لشخص آخر.

غير أنّها لم تسقط، بل أمسكت بقضبان الحاجز. انزلقت أصابعها على المعدن إلى أن اختفى رأسها، ولم أعد أرى سوى يديها.

ظهرت على ساعة آل 5:00.

قال: "الدقائق الخمس انتهت". بدا وكأنّه يبصق كلماته في وجه إريك.

تحقّق إريك من ساعته. أخذ وقته هذه المرّة، ولوى معصمه، بينما انقبضت معدتي، وعجزت عن التنفّس. عندما رفعت عينيّ، رأيت شقيقة ريتا على الرصيف، تحت عجلات القطار، وأطرافها ملتوية في زوايا غير طبيعية. رأيت ريتا تصرخ وتنتحب، ورأيت نفسي وأنا أشيح بنظري.

قال إريك: "حسناً، يمكنك الصعود كريستينا".

تقدّم آل من "الدرابزين"، فقال إريك: "كلاّ، عليها الصعود بمفردها".

اعترض آل قائلاً: "كلاّ، لقد نفّذت طلبك. ليست جبانة. فعلت ما طلبته".

لم يجبه إريك. مدّ آل يديه من فوق "الدرابزين"، وكان طويلاً بما فيه الكفاية ليبلغ معصم كريستينا. أمسكَت بساعده، فسحبها، وقد احمرّ وجهه غضباً، فهرعت لتقديم المساعدة. لم يكن طولي مناسباً لمهمّة كهذه، كما ظننت، لكنّني أمسكت بكريستينا من تحت إبطها عندما أصبحت بالارتفاع المناسب، ورفعناها أنا وآل فوق الحاجز. سقطت على الأرض، وكان وجهها لا يزال ملطّخاً بالدماء من أثر العراك، وظهرها مبلّلاً، وجسدها يرتجف.

ركعتُ قربها. نظرت إليّ، ومن ثمّ إلى آل، بينما حبسنا أنفاسنا جميعاً.

الفصل العاشر

حلمت في تلك الليلة أنّ كريستينا معلّقة "بالدرابزين"، بأصابع قدميها هذه المرّة، ثمّ صاح أحدهم قائلاً إنّ الشخص الجامح وحده يستطيع مساعدتها. فركضت لمساعدتها، لكنّ شخصاً ما ألقاني في النهر، واستيقظت قبل أن أرتطم بالصخور.

قمت من الفراش وأنا أتصبّب عرقاً، وأرتجف من أثر الحلم، فذهبت إلى حمّام الفتيات لأستحمّ وأبدّل ملابسي. وعندما رجعت، رأيت كلمة "متزمّتة" مكتوبة بالرذاذ الأحمر على فراشي. كما كتبت الكلمة بخطّ أصغر على إطار السرير، وعلى وسادتي. نظرت حولي، وقد استبدّ بـي الغضب.

كان بيتر واقفاً خلفي، يصفر وهو ينفض وسادته. من الصعب أن أصدّق أنّني أستطيع أن أكره شخصاً يبدو بهذا اللطف، حاجباه مرفوعان بشكل طبيعي، وتكشف ابتسامته العريضة عن أسنان بيضاء نقيّة.

قال: "ما رأيك بهذه الزينة؟".

سألته: "هل أزعجتك من دون أن أدري؟". أمسكت بزاوية الملاءة، ونزعتها عن الفراش. "لا أعرف إن كنت قد لاحظت ذلك، لكنّنا ننتمي الآن إلى جماعة واحدة".

قال بخفّة: "لا أعرف ماذا تعنين". ثمّ نظر إليّ متابعاً: "أنا وأنت لن نكون أبداً في الجماعة نفسها".

رحت أهزّ رأسي وأنا أخرج وسادتي من غطائها. لا تغضبـي. يريد إثارة أعصابـي، لكنّه لن يفعل. مع ذلك، كلّما نفض وسادته، شعرت برغبة عارمة في لكمه على بطنه.

دخل آل، وبدأ يساعدني على تغيير الملاءات من دون أن أطلب منه ذلك، حتى إنه حمل الملاءات المتّسخة إلى سلّة الغسيل، ثمّ ذهبنا معاً إلى قاعة التدريب.

قال: "لا تكترثي لأمره. إنّه غبيّ، وإن لم تغضبـي، فسيكفّ عن هذه الحماقات".

"أنت على حقّ". لمست خدّيّ، كانا لا يزالان دافئين من أثر الغضب. حاولت أن ألهي نفسي عن هذه المسألة، فسألته بهدوء: "هل كلّمت ويل؟ بعد... أنت تعرف".

"أجل، إنّه بخير. ليس غاضباً". تنهّد آل، وأضاف: "الآن، سيذكرني الجميع على أنّني أوّل من طرح أحدهم أرضاً، وسبّب له الإغماء".

"ثمّة أمور أسوأ يتذكّرك بها الناس. على الأقلّ، لن يعادوك".

"ثمّة طرق أفضل أيضاً". وكزني بكوعه وهو يبتسم. "يا أوّل القافزين".

ربّما كنت أوّل من قفز، لكنّني أعتقد أنّ شهرتي كشجاعة بدأت وانتهت عند هذه النقطة.

تنحنحت، ثمّ قلت: "كان لا بدّ لأحدكما أن يُهزم؛ لو لم يكن هو، لكنت أنت".

"مع ذلك، لا أريد فعل ذلك مجدّداً". هزّ آل رأسه بقوّة وبسرعة. "حقّاً، لا أريد".

وصلنا إلى باب قاعدة التدريب، وقلت: "لكن، عليك ذلك".

كان يمتاز بوجه لطيف؛ على نحو لا يتناسب ربّما مع الشجعان.

نظرتُ إلى اللوح عندما دخلت. لم أتبارَ مع أحد البارحة، لكن عليّ أن أفعل ذلك اليوم. عندما رأيت اسمي، جمدت في مكاني.

كان خصمي هو بيتر.

قالت كريستينا التي لحقت بنا: "أوه، كلاّ". كان أثر الكدمات بادياً على وجهها، وبدت أنّها تحاول ألاّ تعرج. عندما رأت اللوح، جعّدت غلاف المافن الذي بيدها، وقالت: "هل هم جادّون؟ هل سيجعلونك تتعاركين معه؟".

كان بيتر أطول منّي بقدم تقريباً. والبارحة، هزم درو في أقلّ من دقيقة. واليوم، يغلب على وجه درو اللونان الأسود والأزرق.

اقترح آل: "ربّما يمكنك تلقّي بضع ضربات، ومن ثمّ الادّعاء أنّك غبت عن الوعي. لن يلومك أحد".

أجبت: "أجل، ربّما".

حدّقت إلى اسمي على اللوح، وشعرت بالاحمرار يغزو خدّيّ. كان آل وكريستينا يحاولان مساعدتي وحسب. لكن قناعتهما التامّة أنّني لا أملك فرصة ضدّ بيتر أزعجتني.

وقفت في إحدى جهات الغرفة، أراقب جولة بين مولي وإدوارد، من دون أن أصغي تماماً إلى حديث آل وكريستينا. كان إدوارد أسرع من مولي بكثير، وأشكّ أن تفوز اليوم.

مع استمرار المواجهة، زال غضبي، وبدأت أتوتّر. قال لنا فور أمس أن نستغلّ نقاط ضعف الخصم. لكن، باستثناء خلوّ بيتر من الصفات المحبّبة، لم يكن يملك أيّ نقاط ضعف. فهو طويل بما فيه الكفاية ليكون قوياً؛ من دون أن يكون بطيء الحركة. ولديه قدرة على رصد نقاط ضعف الناس. كما أنّه شرّير ولن يرحمني. أودّ القول إنّه يسيء تقديري، لكنّ هذا كذب. فأنا غير ماهرة في القتال؛ تماماً كما يظنّ.

ربّما كان آل محقّاً. يجدر بـي أن أتلقّى بضع ضربات ثمّ أدّعي الإغماء.

لكنّني لا أستطيع أن أقاوم المحاولة. لا أحبّ أن أكون في المرتبة الأخيرة.

عندما جاهدت مولي لرفع نفسها عن الأرض، وهي على وشك الإغماء – بفضل إدوارد – كان قلبـي ينبض بقوّة كما لو كان في أناملي. نسيت كيف أقف، ونسيت كيف أوجّه اللكمات. مشيت إلى وسط الحلبة، والتوت أحشائي مع اقتراب بيتر منّي. وجدته أطول قامة ممّا أذكر. وقف أمامي بعضلاته المفتولة وابتسم. تساءلت عمّا إذا كان التقيّؤ في وجهه سيفيدني بشيء.

أشكّ في ذلك.

قال: "هل أنت بخير أيّتها المتزمّتة؟ تبدين على وشك البكاء. يمكنني أن أتساهل معك إن بكيت".

من خلف كتف بيتر، رأيت فور واقفاً عند الباب مكتوف اليدين. كان فمه مزموماً؛ كمن ابتلع طعاماً حامضاً. بالقرب منه، وقف إريك، وهو ينقر بقدمه على الأرض بوتيرة أسرع من ضربات قلبـي.

وقفنا أنا وبيتر نحدّق إلى بعضنا بعضاً. فجأة، رفع يديه أمام وجهه، وثنى مرفقيه. كانت ركبتاه مثنيّتين أيضاً، كمن يستعدّ للقفز.

قال وعيناه تلمعان شرّاً: "هيّا، أيّتها المتزمّتة. دمعة واحدة فقط، بعض التوسّل".

فكرة التوسّل لبيتر أشعرتني بطعم مرارة في فمي، فاندفعت وركلته على خصره. في الواقع، كنت سأركله على خصره، لو لم يمسك بقدمي، ويشدّها إلى الأمام، حيث اختلّ توازني.

ارتطم ظهري بالأرض، فحرّرت قدمي، ووقفت مجدّداً.

عليّ البقاء على قدميّ؛ لكي لا يركلني على رأسي. هذا كلّ ما استطعت التفكير فيه.

أمره إريك بنبرة لاذعة: "توقّف عن اللعب معها، لا أملك النهار بطوله".

اختفت نظرة بيتر الشريرة، واهتزّت يده، فشعرت بألم في فكّي، سرعان ما انتشر عبر وجهي. رأيت سواداً وسمعت طنيناً. رففت عينيّ واندفعت جانباً، بينما أخذت الغرفة تميل وتدور أمام ناظري. لا أذكر أنّني رأيت تلك اللكمة آتية.

لم يسمح لي توازني بفعل شيء سوى تفادي ضرباته، بقدر ما تتيح لي الحلبة ذلك. اندفع نحوي وركلني بقوّة على بطني، فشعرت بالهواء يخرج من رئتي، كما تألّمت حيث عجزت عن التنفّس، أو ربّما كان ذلك بسبب الركلة، لا أدري، غير أنّني وقعت وحسب.

قفي، تلك كانت الفكرة الوحيدة في ذهني. أجبرت نفسي على الوقوف، لكنّ بيتر أصبح أمامي

فجأة. شدّ شعري بإحدى يديه، ولكم أنفي بالأخرى. كان هذا الألم مختلفاً، أقرب إلى طقطقة منه إلى طعنة، سمعتها في رأسي، وتراقصت الألوان أمام عينيّ، أزرق، وأخضر، وأحمر. حاولت إبعاده وأنا أصفق يدي على ذراعيه، فلكمني مجدّداً؛ على أضلاعي هذه المرّة. ابتلّ وجهي بسبب أنفي الدامي، لكنّ الدوار منعني من النظر إلى الأسفل.

دفعني، فسقطت مجدّداً، وجررت يديّ على الأرض، وحاولت فتح عينيّ وأنا أرفع ببطء جسدي الثقيل، والساخن. قحت، وجررت نفسي إلى أن وقفت. ينبغي حقّاً أن أكون ممدّدة على الأرض إن كانت الغرفة تدور بهذه السرعة، وبيتر يدور حولي. أنا مركز كوكب يدور، أنا الشيء الوحيد الثابت. تلقّيت ضربة على خصري، فأوشكت على السقوط من جديد.

على قدميّ، على قدميّ. رأيت كتلة صلبة أمامي، جسداً. فلكمته بأقصى قوّتي، وارتطمت قبضتي بشيء ليّن. بالكاد صدر أنين عن بيتر قبل أن يصفع أذني بكفّه وهو يضحك. سمعت طنيناً، وحاولت أن أرى من خلال البقع السوداء التي ظهرت أمامي. كيف دخلت هذه الأشياء عيني؟

من طرف حقلي البصري، رأيت فور وهو يفتح الباب ويخرج. من الواضح أنّ هذا العراك لا يثير اهتمامه، أو ربّما خرج ليعرف سبب دوران كلّ شيء كالبلبل، ولا ألومه على ذلك. أنا أيضاً أريد أن أعرف.

انهارت ركبتاي، وشعرت ببرودة الأرض على خدّي. تلقّيت ضربة على خصري، فصرخت للمرّة الأولى. كانت صرخة قوية لا تنتمي إليّ، بل إلى شخص آخر. تلقّيت ضربة أخرى، ولم أعد أرى شيئاً على الإطلاق، ولا حتّى ما هو أمامي مباشرة. انطفأت الأضواء، وصاح أحدهم: "هذا يكفي!". أمّا أنا ففكّرت: هذا كثير، ولا شيء إطلاقاً.

* * *

عندما استيقظت، لم أكن أشعر بكثير من الألم، لكنّ رأسي كان ضبابياً؛ كما لو كان محشوّاً بكرات من القطن.

أعرف أنّني خسرت، والشيء الوحيد الذي يمنعني من الإحساس بالألم هو عجزي عن التفكير السليم.

سأل أحدهم: "هل أصبحت عينها سوداء منذ الآن؟".

فتحت عيناً واحدة، في حين بقيت الأخرى مغمضة؛ كما لو كانت مثبّتة بمادة لاصقة. جلس إلى يميني ويل وآل. أمّا كريستينا فجلست على السرير إلى يساري، حاملة كيس ثلج على فكّها.

سألتها: "ماذا حلّ بوجهك؟". أحسست أنّ شفتيّ كبيرتان.

ضحكت. "انظروا من يسأل. هل نحضر لك رقعة لعينك؟".

أجبتها: "حسناً، أنا أعرف ما حلّ بوجهي. كنت هناك، نوعاً ما".

قال ويل وهو يضحك: "هل مزحت للتوّ تريس؟! علينا إعطاؤك مسكّنات الألم دائماً إن كنت ستبدئين بإطلاق النكات. آه، ولكي أجيب عن سؤالك، لقد تغلّبت عليها".

قال آل وهو يهزّ رأسه: "لا أصدّق أنّك لم تتمكّني من التغلّب على ويل".

أجابت وهي تهزّ رأسها: "ماذا؟ إنّه جيّد. أضف إلى ذلك أنّني تعلّمت أخيراً على ما أظنّ كيف أكفّ عن خسارة القتال. عليّ أن أمنع الناس من لكمي على وجهي وحسب".

غمزها ويل قائلاً: "أتظنّين أنّك أصبحت تعرفين كيف تفوزين منذ الآن؟ عرفت الآن لماذا لا تنتمين إلى جماعة المعرفة. أنت لا تتمتّعين بالذكاء، أليس كذلك؟".

قال آل: "هل أنت بخير تريس؟". كانت عيناه بنّيتين داكنتين، بلون بشرة كريستينا تقريباً. بدا خدّاه خشنين؛ كما لو أنّه لم يحلق ذقنه. إن أطلق لحيته فستكون كثيفة. في الواقع، من الصعب التصديق أنّه في السادسة عشرة فقط.

أجبته: "أجل. ليتني أستطيع البقاء هنا إلى الأبد، لكي لا أرى بيتر مجدّداً".

لكنّني لا أعرف أين أنا في الواقع. كنت في قاعة كبيرة وضيّقة، فيها صفّ من الأسرّة من كلا الجانبين، تفصل ستائر بينها. وكانت في الطرف الآخر من الغرفة زاوية صحية. لا بدّ أنّ هذا هو المكان الذي يذهب إليه الشجعان عندما يتعرّضون للمرض أو الإصابة. نظرت إلينا المرأة الموجودة هناك من فوق حافظتها. لم يسبق لي أن رأيت ممرّضة تملك هذا العدد من الأقراط في أذنها من قبل. لا بدّ أنّ بعض الشجعان يتطوّعون للقيام بأعمال هي من اختصاص جماعات أخرى. ففي النهاية، ليس من المنطقي أن تذهب جماعة الشجاعة إلى مستشفى المدينة كلّما أصيب أحد منهم.

أوّل مرّة ذهبت فيها إلى المستشفى كنت في السادسة من عمري. يومذاك، وقعت أمّي على الرصيف أمام منزلنا، وكسرت ذراعها. وعندما سمعت صراخها، انفجرتُ باكية. أمّا كاليب، فركض إلى أبي من دون أن يقول شيئاً. في المستشفى، قامت امرأة من جماعة الوئام، ترتدي قميصاً أصفر، بقياس ضغط أمّي، ثمّ جبّرت ذراعها بيديها الناعمتين وأظافرها النظيفة مبتسمة.

أذكر أنّ كاليب قال لها إنّ إصابتها ستستغرق شهراً فقط لتشفى لأن عظم ذراعها كان مشعوراً. ظننت أنّه كان يواسيها، لأنّ هذا ما يفعله الناكرون للذات. بيد أنّني أتساءل اليوم عمّا إذا كان يردّد

شيئاً قرأه، وعمّا إذا كانت كلّ ميوله لنكران الذات ليست سوى خصال مموّهة من المعرفة.

قال ويل: "لا تقلقي بشأن بيتر. لا شكّ في أنه سيهزم على يدي إدوارد الذي يدرس فنون القتال منذ أن كنّا في العاشرة من عمرنا، لمجرّد المتعة".

قالت كريستينا: "جيّد". ثمّ نظرت إلى ساعتها وأضافت: "أظنّ أنّ العشاء سيفوتنا. هل تريدين منّا البقاء معك تريس؟".

هززت رأسي نافية: "أنا بخير".

نهض ويل وكريستينا، لكنّ آل تركهما يسبقانه. كانت رائحته مميّزة، مثل المريمية والليمون. وعندما يتقلّب ليلاً، تأتيني هبّة منها، وأعرف أنّه يرى كابوساً.

قال: "أردت إخبارك أنّ إعلان إريك فاتك. سنذهب في رحلة ميدانية غداً، إلى السياج، للتعرّف على وظائف الشجعان. علينا الاجتماع عند القطار عند الساعة الثامنة والربع".

قلت: "حسناً، شكراً".

"ولا تصغي إلى كريستينا، فوجهك لا يبدو بهذا السوء". ابتسم قليلاً، ثمّ أضاف: "أعني، يبدو جيّداً، كما هو دائماً. أعني، تبدين جريئة وشجاعة".

تجنّب النظر إلى عينيّ، وحكّ مؤخّر رأسه. بدا أنّ الصمت يتنامى بيننا. ما قاله كان لطيفاً، لكنّه تصرّف كما لو أنّه يعني أكثر من مجرّد كلام. أتمنّى أن أكون مخطئة؛ إذ لا يمكنني الانجذاب إلى آل. لا يمكنني الانجذاب إلى شخص بهذا الضعف. ابتسمت بقدر ما سمح لي خدّي المتورّم، على أمل تبديد التوتّر.

قال: "سأتركك ترتاحين". ثمّ نهض ليرحل. لكن قبل خروجه، أمسكت بيده.

سألته: "آل، هل أنت بخير؟". حدّق إليّ، فأضفت: "أعني، هل تتحسّن الأمور؟".

هزّ كتفيه مجيباً: "أوه... قليلاً".

حرّر يده ودسّها في جيبه. لا بدّ أنّ السؤال قد أحرجه، لأنّني لم أر وجهه بهذا الاحمرار من قبل. لو كنت أمضي الليالي وأنا أنتحب لشعرت بالإحراج أنا أيضاً. على الأقلّ، عندما أبكي، أعرف كيف أخفي ذلك.

نظر إليّ وقال: "لقد خسرتُ أمام درو، بعدما خسرت أمام بيتر. تلقّيت بضع ضربات، ثمّ سقطت، وبقيت هناك. مع أنّني لم أكن مضطرّاً لذلك. أظنّ... أظنّ أنّني بعدما هزمت ويل، حتّى لو خسرت جميع المباريات الأخرى، فلن أصنّف في المرتبة الأخيرة، لكنّني لن أضطرّ إلى إيذاء أحد بعد اليوم".

"أهذا ما تريده حقّاً؟".

نظر إلى الأسفل. "لا أستطيع فعل ذلك. ربما هذا يعني أنّني جبان".

"لست جباناً لمجرّد كونك لا تريد إيذاء الناس". قلت ذلك لأنّني أعرف أنّه الشيء الصحيح؛ حتى لو لم أكن واثقة أنّني أعنيه فعلاً.

للحظة، بقينا ساكنين؛ ننظر إلى بعضنا بعضاً. ربما كنت أعني ذلك. إن كان جباناً، فالسبب ليس أنّه لا يستمتع بالألم، بل لأنّه يرفض التصرّف.

نظر إليّ وقد بدا الألم في عينيه، وقال: "هل تعتقدين أنّ أفراد أسرتينا سيزوروننا؟ يقولون إنّ أُسر المنتقلين من جماعاتهم لا تأتي أبداً في يوم الزيارة".

قلت: "لا أعرف. لا أعرف إن كان قدومهم حسناً أم سيّئاً".

هزّ رأسه قائلاً: "أظنّ أنّه سيّئ. أجل، فالأمر صعب أساساً". هز رأسه مجدّداً، وكأنّه يؤكّد ما قاله، ثمّ انصرف.

خلال أقلّ من أسبوع، سيسمح للمبتدئين المنتمين إلى جماعة نكران الذات بزيارة أسرهم للمرّة الأولى منذ حفل الاختيار. سيذهبون إلى بيوتهم، وسيجلسون في غرف المعيشة، ويتفاعلون مع أهلهم للمرّة الأولى كراشدين.

كنت في الماضي أتطلّع إلى ذلك اليوم. كنت أفكّر بما سأقوله لأمّي وأبي عندما يُسمح لي بطرح أسئلة على المائدة.

في أقلّ من أسبوع، سيلتقي المبتدئون المنتمون في الأساس إلى جماعة الشجاعة مع أسرهم في السرداب، أو في المبنى الزجاجي فوق المجمّع، وسيقومون بما يقوم به الشجعان عندما يجتمعون مجدّداً. ربّما سيتناوبون على رمي السكاكين على رؤوس بعضهم بعضاً، لن يفاجئني ذلك.

والمبتدئون المنتقلون من جماعات أخرى الذين يملكون آباء متسامحين سيتمكّنون من رؤيتهم هم أيضاً. لكن، لا أظنّ أنّ أبي وأمّي سيكونان بينهم. ليس بعد صرخة الغضب التي أطلقها أبي في الحفل، ليس بعدما تركه ولداه.

ربّما لو أخبرتهما أنّني جامحة، وأنّني محتارة في اختيار الجماعة لتفهّما. وربما ساعداني على فهم الجموح، ومعناه، وسبب خطورته. لكنّني لم أأتمنهما على هذا السرّ، لذلك لن أعرف أبداً.

صررت على أسناني، بينما ترقرقت الدموع في عينيّ. لقد مللت من الدموع والضعف، لكنّني لم أستطع فعل شيء لإيقافها.

ربما استغرقت في النوم، وربما لا. لكن في وقت لاحق من تلك الليلة، تسللت من الغرفة، وعدت إلى العنبر. فالشيء الوحيد الأسوأ من السماح لبيتر بإدخالي المستشفى هو السماح له بجعلي أبقى فيه طوال الليل.

الفصل الحادي عشر

في الصباح التالي، لم أسمع المنبّه، ولا وقع الأقدام، ولا الأحاديث التي دارت بين المبتدئين وهم يستعدّون ليومهم. استيقظت على صوت كريستينا وهي تهزّ كتفي بيد وتربّت على خدّي باليد الأخرى. كانت ترتدي سترة سوداء مزرّرة حتى أعلى العنق. إن كانت لا تزال تحمل بعض الرضوض من عراك يوم أمس، فقد أخفتها بشرتها السمراء.

قالت: "هيّا، انهضي".

حلمت أنّ بيتر قيّدني إلى كرسيّ، وسألني عمّا إذا كنت جامحة. أنكرت ذلك، فلكمني إلى أن اعترفت. وعندما استيقظت، كان خدّاي مبلّلين بالدموع.

أردت قول شيء، لكن لم يخرج من فمي سوى الأنين. كان جسدي يؤلمني بمجرّد التنفّس. وما زاد الوضع سوءاً هو تورّم عينيّ بسبب بكائي في الليلة الفائتة. مدّت لي كريستينا يدها.

أصبحت الساعة الثامنة، ويفترض بنا أن نكون عند سكّة الحديد عند الثامنة والربع.

قالت: "سأسرع لإحضار شيء للفطور. أمّا أنت... فاستعدّي. يبدو أنك ستحتاجين إلى الوقت".

صدر عنّي أنين ألم. حاولت ألاّ أحرّك خصري، وبحثت في الدرج تحت السرير عن قميص نظيف. بعد رحيل كريستينا، أصبح العنبر خالياً.

فككت أزرار قميصي، ونظرت إلى خصري العاري المكسوّ بالرضوض. للحظة، صدمتني الألوان. أخضر فاتح، وأزرق داكن، وبنّي. بدّلت ملابسي بأسرع ما يمكن، وتركت شعري مسدلاً؛ لأنّني لا أستطيع رفع يديّ لربطه إلى الخلف.

نظرت إلى صورتي المنعكسة على المرآة المعلّقة على الجدار، فرأيت فتاة غريبة عنّي. كانت شقراء مثلي، ذات وجه نحيل مثل وجهي، لكن هنا تنتهي أوجه الشبه. فأنا لا أملك عيناً سوداء، ولا شفة مشقوقة، ولا فكّاً مرضوضاً. كما أنّني لست شاحبة اللون مثل ملاءة بيضاء. لا يمكن أن تكون أنا، مع أنّها تتحرّك كلّما تحرّكتُ.

عندما عادت كريستينا حاملة قطعة مافن في كلّ يد من يديها، وجدتني جالسة على طرف السرير، أحدّق إلى حذائي المحلول. عليّ الانحناء لكي أربطه، والانحناء يؤلمني.

أعطتني كريستينا قطعتَي المافن، وانحنت أمامي لربط حذائي. شعرت بالامتنان يغلّف صدري، ويدفئه مع شيء من الألم. ربّما ثمّة شيء من نكران الذات لدى كلّ إنسان؛ حتّى لو لم يدرك ذلك.

حسناً، لدى كلّ إنسان، ما عدا بيتر.

قلت: "شكراً".

قالت: "لن نصل أبداً في الوقت المناسب إن قمت بربطه بنفسك. هيّا، يمكنك أن تأكلي وأنت تمشين، أليس كذلك؟".

توجّهنا بسرعة إلى السرداب. كانت قطعة المافن بطعم الموز، ومحشوّة بالبندق. قامت أمّي مرّة بإعداد حلوى مثلها لتوزيعها على المنبوذين، لكنّني لم أتذوّقها مطلقاً؛ إذ كنت قد كبرت على ذاك الدلال. تجاهلت التقلّص الذي أشعر به في معدتي كلّما فكّرت بأمّي، ورحت أمشي حيناً وأهرول حيناً آخر لألحق بكريستينا التي نسيت أنّ ساقيها أطول من ساقَيّ.

صعدنا الدرجات المؤدّية إلى المبنى الزجاجي فوق السرداب، وركضنا إلى الباب. كانت كلّ خطوة تسبّب لي ألماً في أضلاعي، لكنّني تجاهلته. وصلنا إلى السكّة مع وصول القطار، وانطلاق صفّارته.

صاح ويل وهو يرفع صوته فوق صوت الصفارة: "لماذا استغرقتما كلّ هذا الوقت؟".

قالت كريستينا: "صديقتي تحوّلت إلى عجوز بين ليلة وضحاها".

"آه، اصمتي". لم أكن أمزح تماماً.

وقف فور في المقدّمة، وكان قريباً من السكّة إلى درجة أنّه لو اقترب مسافة إنش واحد إلى الأمام، فسيقتلع القطار أنفه. تراجع إلى الخلف ليسمح للبعض بالصعود إلى القطار قبله. دفع ويل نفسه إلى داخل المقطورة بصعوبة، فهبط أوّلاً على بطنه، ثمّ جرّ قدميه خلفه. أمّا فور، فأمسك بالمقبض المثبّت إلى جانب العربة، ودفع نفسه إلى الداخل بسلاسة؛ كما لو كان لا يتمتّع بطول يتجاوز ستّ أقدام.

رحت أهرول بجانب العربة، وأنا أتألّم، ثمّ صررت على أسناني، وأمسكت بالمقبض. سيكون هذا مؤلماً.

أمسكني آل من تحت إبطي ورفعني بسهولة إلى داخل المقطورة. شعرت بألم مبرح، لكنّه لم يدم لأكثر من ثانية. رأيت بيتر خلفه، فتوهّج خدّاي احمراراً. كان آل يحاول أن يعاملني بلطف، فابتسمت له. لكن، ليت الناس يتوقّفون عن معاملتي بهذا اللطف؛ كما لو أنّ بيتر لا يملك ما فيه الكفاية من الحصانة أساساً.

قال بيتر وهو ينظر إليّ بتعاطف ساخر: "هل أنت بخير؟". لوى شفتيه إلى الأسفل، وقطّب حاجبيه المقوّسين. "أم إنّك... متصلّبة بعض الشيء؟".

انفجر ضاحكاً على نكتته، وانضمّت إليه مولي ودرو. كانت ضحكة مولي بشعة؛ عبارة عن

شخير وهزّ كتفين. أمّا ضحكة درو فصامتة، حيث بدا تقريباً وكأنّه يتألّم.

قال ويل: "كلّنا منبهرون بخفّة ظلّك".

أضافت كريستينا: "أجل، هل أنت واثق أنّك لا تنتمي إلى جماعة المعرفة يا بيتر؟ سمعت أنّهم لا يعترضون على انضمام المختّثين إليهم".

تكلّم فور، الواقف عند باب المقطورة، قبل أن يتمكّن بيتر من الردّ. "هل سأصغي إلى مناوشاتكم طوال الطريق إلى السياج؟".

صمت الجميع، والتفت فور مجدّداً إلى باب العربة. أمسك بمقبضي الباب، حيث باعد بين ذراعيه، ومال إلى الأمام، فأصبح معظم جسده خارج العربة، مع أنّ قدميه ما زالتا مزروعتين في الداخل. ضغط الهواء قميصه على صدره. حاولت النظر إلى المشاهد التي تعبر من أمامنا؛ بحر من الأبنية المتداعية والمهجورة التي يصغر حجمها مع ابتعادنا عنها.

مع ذلك، كان نظري يعود إلى فور كلّ بضع ثوانٍ. لا أعرف ماذا أتوقّع أن أرى، أو ماذا أريد أن أرى، لكنّني كنت أفعل ذلك من دون تفكير.

سألت كريستينا: "ماذا يوجد هناك برأيك؟". أشرت برأسي إلى الباب. "أقصد، عند السياج".

هزّت كتفيها قائلة: "مجموعة مزارع، حسبما أظنّ".

"أجل، لكن أقصد... خلف المزارع. ممّ نحرس المدينة؟".

رفعت أصابعها في وجهي. "وحوش!".

نظرت إلى الأعلى بسأم.

قال ويل: "لم يكن لدينا حرّاس قرب السياج قبل خمس سنوات. ألا تذكرين عندما كانت شرطة الشجاعة تحرس مقاطعة المنبوذين؟".

"بلى". أذكر أيضاً أنّ أبي كان من الأشخاص الذين صوّتوا لإخراج الشجعان من مقاطعة المنبوذين في المدينة. قال يومذاك إنّ أولئك المساكين لا يحتاجون إلى الشرطة، بل إلى المساعدة، وبإمكاننا تقديمها إليهم. لكن من الأفضل ألاّ أذكر هذا الأمر، لا الآن، ولا هنا. فهذا أحد الأمور التي تتذرّع بها جماعة المعرفة كدليل على عدم كفاءة الناكرين للذات.

قال: "أوه، صحيح. أنا واثق أنّك كنت ترينهم طوال الوقت".

سألته بشيء من الحدّة: "لِمَ تقول ذلك؟". لا أريد أن أقترن كثيراً بالمنبوذين.

"لأنّه كان يتوجب عليك المرور بمقاطعة المنبوذين للذهاب إلى المدرسة، أليس كذلك؟".

قالت كريستينا: "ماذا كنت تفعل؟ أتحفظ خارطة المدينة في وقت الفراغ؟".

أجاب ويل: "أجل، ألم تفعلي؟".

أصدرت عجلات القطار صريراً حادّاً، واندفعنا كلّنا إلى الأمام مع تباطؤ السرعة. أحسست بالامتنان للحركة، لأنّها جعلت الوقوف أسهل بالنسبة إليّ. اختفت المباني المهدّمة، وحلّت مكانها حقول صفراء وسكك حديد. توقّف القطار تحت ظلّة، فنزلت إلى العشب، وأنا أمسك بالمقبض لأثبّت نفسي.

رأيت أمامي سياجاً من السلال، تعلوه أسلاك شائكة. وعندما مشيت إلى الأمام، لاحظت أنّ السياج يمتد إلى نقطة أبعد من مدى نظري، في خطّ عمودي مع الأفق. خلف السياج، رأيت مجموعة من الأشجار، معظمها يابس، وبعضها أخضر. في الجهة الأخرى للسياج، كان حراس من جماعة الشجاعة يتجوّلون حاملين أسلحتهم.

قال فور: "اتبعوني". بقيت بجانب كريستينا. لا أرغب في الاعتراف بذلك، ولا حتّى لنفسي، لكنّني أشعر بارتياح أكبر بجانبها. وإن حاول بيتر إزعاجي، فستدافع عنّي.

وبّخت نفسي بصمت على جبني. لا يجب أن تزعجني إهانات بيتر. عليّ التركيز على تحسين مهاراتي القتالية، وليس على سوء أدائي يوم أمس. كما يجب عليّ أن أسعى، لا بل أن أكون قادرة على الدفاع عن نفسي عوضاً عن الاعتماد على الآخرين.

قادنا فور نحو البوابة التي كانت بعرض منزل، تفتح على طريق متعرّج يؤدّي إلى المدينة. عندما أتيت إلى هذا المكان مع أسرتي وأنا طفلة، ركبنا الحافلة على تلك الطريق، وذهبنا إلى مزارع الوئام، وأمضينا النهار في قطف الطماطم حتّى تصبّب منّا العرق.

شعرت بقرصة أخرى في معدتي.

قال فور عندما وصلنا إلى البوابة: "إن لم تكونوا من الخمسة الأوائل بعد انتهاء التلقين، فسينتهي بكم الأمر هنا على الأرجح. عندما تصبحون حرّاساً للبوابة، ثمة إمكانية للتقدّم، لكن ليس كثيراً. قد تتمكّنون من الذهاب في دوريات حراسة إلى ما وراء مزارع الوئام، لكن –".

سأله ويل: "ما الهدف من الحراسة؟".

رفع فور إحدى كتفيه. "أفترض أنّك ستكتشف ذلك بنفسك إن أصبحت واحداً منهم. كما كنت أقول، معظم من يقومون بحراسة السياج في شبابهم يستمرّون بهذا العمل. وإن كان الأمر يهمّكم، بعضهم يصرّ على أنّ هذا العمل ليس سيّئاً كما يبدو".

همست كريستينا في أذني: "أجل. على الأقلّ، لن نقود الحافلات أو ننظّف أوساخ الناس، كما يفعل المنبوذون".

سأله بيتر: "في أيّ مرتبة حللت؟".

لم أتوقّع أن يجيب فور، لكنّه نظر إلى بيتر وأجابه: "في المرتبة الأولى".

نظر إليه بيتر بعينين واسعتين، ومستديرتين، وداكنتين، وقال: "وهذا هو العمل الذي اخترته!". كانت عيناه ستبدوان بريئتين بالنسبة إليّ لو لم أكن أعرف مدى فظاعة طباعه. "لماذا لم تحصل على وظيفة حكومية؟".

قال فور ببساطة: "لم أرغب في ذلك". أذكر ما قاله في اليوم الأوّل عن العمل في غرفة المراقبة التي يقوم فيها الشجعان بالمحافظة على أمن المدينة. من الصعب عليّ أن أتخيّله هناك، محاطاً بأجهزة الكومبيوتر. بالنسبة إليّ، هو ينتمي إلى قاعة التدريب.

تعرّفنا في المدرسة على وظائف الجماعات. تعتبر خيارات الشجعان محدودة. يمكننا إمّا حراسة السياج، أو العمل على حفظ أمن مدينتنا. كما يمكننا العمل في مجمّع الشجعان، في رسم الأوشام، أو صنع الأسلحة، أو حتّى العراك لنُشعر الآخرين بالمتعة. بوسعنا العمل أيضاً لصالح قادة الشجاعة. ويبدو هذا الخيار بالنسبة إليّ هو الأفضل.

المشكلة الوحيدة هي أنّ مرتبتي مريعة. نظر إلينا عدد من الحراس، لكن ليس الكثير. فقد كانوا منشغلين بفتح أبواب عريضة جدّاً وبضعف طولهم لإدخال شاحنة.

كان الرجل الجالس إلى المقود يعتمر قبّعة، وتعلو لحيته ابتسامة. توقّف بعد دخوله من البوابة، وترجّل. كان صندوق الشاحنة مفتوحاً، فرأيت عدداً من أفراد جماعة الوئام بين أكوام الصناديق. أدركت عندما نظرت إليها أنّها تحتوي على تفّاح.

هتف أحد شباب الوئام: "بياتريس؟".

التفتُّ عندما سمعت اسمي. وقف أحد أبناء الوئام الموجودين في صندوق الشاحنة. كانت يتمتّع بشعر أشقر مجعّد وأنف مألوف، قمّته عريضة وعظمه رفيع. روبرت. حاولت أن أتذكّره في حفل الاختيار، لكن لم يخطر في بالي سوى صوت قلبـي الذي ملأ نبضه أذنيّ. من انتقل أيضاً؟ سوزان؟ هل من مبتدئين في جماعة نكران الذات هذا العام؟ إن كانت جماعتنا تتكمش، فهذا ذنب روبرت، وكاليب، وذنبـي. ذنبـي. طردت الفكرة من ذهني.

قفز روبرت من الشاحنة. كان يرتدي قميصاً رمادياً وسروال جينز أزرق. بعد شيء من التردّد،

تقدّم منّي وضمّني بين ذراعيه. تصلّبت. فوحدهم المنتمون إلى جماعة الوئام يعانقون بعضهم عندما يتقابلون. لم أحرّك أيّ عضلة من عضلاتي إلى أن أطلقني.

بهتت ابتسامته عندما نظر إليّ مجدّداً. "بياتريس، ماذا حلّ بك؟ ماذا حلّ بوجهك؟".

قلت: "لا شيء، مجرّد تدريبات. لا شيء".

سأل صوت حادّ خلفي: "بياتريس؟!". شبكت مولي ذراعيها وضحكت. "أهذا اسمك الحقيقي أيّتها المتزمّتة؟".

نظرت إليها: "برأيك، تريس تصغير لأيّ اسم؟".

أجابت وهي تلمس ذقنها: "لا أعرف... ضعيفة ربّما؟". لو كان ذقنها أكبر حجماً، لصار هناك توازن مع أنفها، إلاّ أنه صغير ومتراجع تقريباً إلى عنقها. "آه، لكنّ هذه الكلمة لا تبدأ بتريس. أنا مخطئة".

قال روبرت بصوت هادئ: "لا داعي لمعاداتها. أنا روبرت، وأنت؟".

أجابت: "شخص لا يرغب في معرفة اسمك. لماذا لا تعود إلى شاحنتك؟ لا يفترض بنا مؤاخاة الجماعات الأخرى".

قلت لها بنبرة حادّة: "لماذا لا تتركينا وشأننا؟".

قالت: "صحيح، لا أريد التدخّل بينك وبين صديقك". ثمّ ابتعدت وهي تبتسم.

نظر إليّ روبرت بحزن وقال: "لا يبدو عليهم أنّهم أناس لطفاء".

"بعضهم ليسوا كذلك".

"بإمكانك العودة إلى البيت كما تعلمين. أنا واثق أنّ جماعة نكران الذات ستقبل بمخالفة العادات من أجلك".

سألته وقد احمرّ خدّاي: "لماذا تعتقد أنّني قد أريد العودة إلى البيت؟ أتظنّ أنّني لا أستطيع حلّ هذه الأمور؟".

هزّ رأسه نافياً: "ليس هذا ما قصدته. أنا لا أعني أنّك لا تستطيعين، بل ليس عليك ذلك. يجب أن تكوني سعيدة".

"هذا ما اخترته. هذا هو". نظرت من خلف كتف روبرت. يبدو أنّ حرّاس الشجاعة انتهوا من تفقّد الشاحنة. فقد عاد الرجل الملتحي إلى مقعد السائق، وأغلق الباب خلفه. "بالإضافة إلى ذلك، روبرت، ليست السعادة... هدفي الوحيد في الحياة".

قال: "لكن، أليس من الأسهل لو كانت كذلك؟".

قبل أن أجيب، ربّت على كتفي، ثمّ استدار باتّجاه الشاحنة. كانت ثمّة فتاة تجلس في الخلف وتحمل آلة بانجو. بدأت تداعب الأوتار عندما صعد روبرت إلى الشاحنة التي انطلقت بهم إلى الأمام، حاملة أنغام البانجو وتغريد الفتاة بعيداً عنّا.

لوّح لي روبرت مودّعاً، ورأيت أمامي مجدّداً حياة أخرى ممكنة. رأيت نفسي في صندوق تلك الشاحنة، أغنّي مع الفتاة، مع أنّه لم يسبق لي الغناء من قبل، أضحك عندما يحلو لي، وأتسلّق الأشجار لقطف التفّاح، وأتنعّم دائماً بالأمن والسلام.

أغلق حرّاس الشجاعة البوابة خلف الشاحنة وأقفلوها. كان القفل من الخارج. عضضت على شفتي، وتساءلت عن سبب وضع القفل من الخارج، وليس من الداخل. بدا لي تقريباً أنّهم لا يسعون إلى حمايتنا من شيء ما، بل إلى سجننا في الداخل.

غير أنّني طردت تلك الفكرة من رأسي، فهذا غير منطقيّ.

ابتعد فور عن السياج. كان يتحدّث هناك مع حارسة قامت قبل قليل بموازنة مسدّس على كتفها. قال عندما اقترب منّي: "أخشى أنّك موهوبة في اتّخاذ القرارات غير الحكيمة".

شبكت ذراعيّ وأجبته: "لم نتحدّث لأكثر من دقيقتين".

"لا أظنّ أنّ طول المدة الزمنية القصير يجعل قرارك أكثر حكمة". قطّب جبينه، ولمس زاوية عيني المرضوضة بأنامله. أرجعت رأسي إلى الوراء، لكنّه لم يبعد يده، بل عوضاً عن ذلك، أمال رأسه، وتنهّد قائلاً: "أتعلمين؟ لو تتعلّمين الهجوم أوّلاً، فستتمكنين من إحراز نتائج أفضل".

قلت: "وكيف يساعدني ذلك؟".

هزّ كتفيه، وأخفض يده، ثمّ أجاب: "أنت سريعة. إن تمكّنت من توجيه عدد من الضربات الجيّدة قبل أن يدرك خصمك ما يجري، فقد تفوزين".

قلت بهدوء: "يفاجئني أن تعرف ذلك، مع أنّك تركت جولتي الوحيدة في منتصفها ورحلت".

قال: "لم تكن شيئاً أرغب في مشاهدته".

ماذا يفترض بذلك أن يعني؟

تنحنح قليلاً. "يبدو أنّ القطار التالي قد وصل. حان وقت الذهاب، تريس".

الفصل الثاني عشر

زحفت على فراشي، وتنهّدت. مرّ يومان على عراكي مع بيتر، وأصبحت كدماتي بنفسجية اللون. أصبحت معتادة على الإحساس بالألم كلّما تحرّكت، لذلك تحسّنت حركتي، لكنّني لم أشفَ بعد.

على الرغم من ذلك، كان عليّ أن أقاتل مرّة أخرى اليوم. لحسن الحظّ، كان خصمي هذه المرّة ميرا التي تعجز عن لكم أحد عندما تفقد القدرة على التحكّم بيدها. وجّهت إليها عدداً من الضربات الجيّدة في الدقيقتين الأوليين، فسقطت على الأرض، ومنعها الدوار من النهوض مجدّداً. يجب أن أشعر بالانتصار، لكنّ الفوز على فتاة مثل ميرا لا يعدّ انتصاراً.

في اللحظة التي لامس فيها رأسي الوسادة، فتح باب العنبر، ودخل أشخاص يحملون مصابيح في أيديهم. جلست، وأوشكت أن أصدم رأسي بإطار السرير فوقي، ثمّ نظرت عبر الظلام لأرى ما يجري.

صاح أحدهم: "فلينهض الجميع!". سطع ضوء مصباح خلف رأسه، فلمعت الأقراط المعلّقة بأذنيه. إنّه إريك. كان محاطاً بشجعان آخرين، منهم من رأيته في السرداب، ومنهم من لم أره من قبل. ووقف فور بينهم.

التقت عيناه عينيّ، وظلّ نظره مثبّتاً عليّ. حدّقت إليه ونسيت أنّ كلّ المبتدئين من حولي ينهضون من أسرّتهم.

قال إريك: "هل أنت صمّاء أيّتها المتزمّتة؟". خرجت من شرودي، وقمت من تحت الملاءات. سررت لأنّني نمت بكامل ملابسي، لأنّ كريستينا وقفت بالقرب منّي وهي ترتدي قميصاً فقط، حيث بدت ساقاها العاريتان. شبكت ذراعيها، وحدّقت إلى إريك. تمنّيت فجأة لو أنّني أستطيع التحديق إلى أحدهم بهذه الجرأة وأنا شبه عارية، لكنّني لن أجرؤ يوماً على ذلك.

قال إريك: "لديكم خمس دقائق لارتداء ملابسكم، وملاقاتنا عند سكّة الحديد. سنذهب في رحلة ميدانية أخرى".

دسست قدميّ في حذائي، وأسرعت وأنا أتألّم خلف كريستينا، باتّجاه القطار. سالت نقطة عرق على مؤخّر عنقي ونحن نركض في الممرات بين جدران السرداب، ونبعد من طريقنا أعضاء الجماعة. لم تبد عليهم الدهشة لرؤيتنا. ترى، ما هو عدد الأشخاص الذين يرونهم أسبوعيّاً وهم يركضون على هذا النحو.

وصلنا إلى السكّة، خلف المبتدئين المنتمين أساساً إلى الشجاعة. رأينا بالقرب من السكّة كومة

سوداء اللون، ميّزت فيها مجموعة من البنادق والأسلحة.

همست كريستينا في أذني: "هل سنطلق النار على شيء ما؟".

كانت توجد بالقرب من الكومة صناديق بدت وكأنّها تحتوي على الذخيرة. اقتربت منها قليلاً لأقرأ ما كتب على أحدها: "ألوان".

لم يسبق لي أن سمعت بهذا النوع من الذخائر من قبل، لكنّ الاسم بحدّ ذاته يفسّر كلّ شيء. ضحكت.

صاح إريك: "فليحمل كلّ منكم بندقية!".

اندفعنا إلى كومة البنادق. كنت الأكثر قرباً إليها، فحملت أوّل بندقية وجدتها، وكانت ثقيلة، لكن ليس إلى حدّ يتعذّر عليّ رفعها، وحملت علبة من ذخيرة الألوان. وضعت العلبة في جيبي، ومرّرت حزام البندقية من فوق رأسي، حيث تدلّت على ظهري وأحاط الحزام بصدري.

سأل إريك فور: "متى يصل؟".

تحقّق فور من ساعته: "أوشك على الوصول. كم ستحتاج لتتذكّر مواعيد القطار؟".

أجاب إريك وهو يربّت على ظهر فور: "لِمَ أفعل ذلك ما دمت موجوداً لتذكيري؟".

ظهرت دائرة من الضوء إلى يساري، من بعيد. ثمّ راحت تكبر مع اقترابها، وتسطع على جانب وجه فور، حيث ظهر ظلّ في التجويف الطفيف تحت عظم خدّه.

كان أوّل من صعد إلى القطار، وركضت خلفه، من دون أن أنتظر كريستينا أو ويل أو آل. التفت فور وأنا أركض بجانب العربة، ومدّ يده، فأمسكت بها، وسحبني إلى الداخل. حتّى عضلات ساعده كانت مشدودة وواضحة.

دخلت بسرعة، من دون أن أنظر إليه، وجلست في الجهة الأخرى من المقطورة.

عندما دخل الجميع، تكلّم فور.

"سننقسم إلى فريقين لنلعب لعبة الاستيلاء على العلم. سيضم كلّ فريق عدداً متساوياً من الأعضاء، من المبتدئين الآتين من الشجاعة، والمبتدئين المنتقلين من جماعات أخرى. سينزل أحد الفريقين أوّلاً ويجد مكاناً لإخفاء علمه. بعد ذلك، سينزل الفريق الآخر وسيفعل الشيء نفسه". مالت المقطورة، فأمسك فور بحاجب الباب للحفاظ على توازنه. "هذا من تقاليد الشجاعة، لذلك أنصحكم بأخذ الأمر على محمل الجدّ".

صاح أحدهم: "ماذا سننال إن فزنا؟".

أجاب فور وهو يرفع أحد حاجبيه استغراباً: "يبدو هذا من الأسئلة التي لا يطرحها شخص ينتمي إلى الشجاعة. عليكم أن تفوزوا بالطبع".

قال إريك: "أنا وفور سنكون قائدي الفريقين". ثمّ نظر إلى فور وقال: "فلنختر من بين المنتقلين أوّلاً، ما رأيك؟".

أملت رأسي. إن كانوا سيختاروننا، فسأكون أنا آخر من يقع عليه الاختيار، أشعر بذلك.

قال فور: "ابدأ أنت".

هزّ إريك كتفيه. "إدوارد".

استند فور إلى إطار الباب وأخفض رأسه. أضفى ضوء القمر بريقاً على عينيه. تأمّل مجموعة المنتقلين بسرعة، من دون تفكير، وقال: "أريد المتزمّتة". سرت ضحكة بين الحاضرين، وغزا الاحمرار وجهي. لم أعرف أأغضب من سخرية الناس مني، أم أشعر بالإطراء لأنّه اختارني أوّلاً؟

سأله إريك، بابتسامته الساخرة المعتادة: "هل تريد أن تثبت شيئاً؟ أم إنّك تختار الضعفاء لكي تلقي عليهم اللوم عندما تخسر؟".

هزّ فور كتفيه: "شيء من هذا القبيل".

يجب أن أغضب، حتماً يجب أن أغضب. عبست، ونظرت إلى يدي. مهما تكن استراتيجية فور، فهي تستند إلى فكرة كوني أضعف من بقيّة المبتدئين. ترك لديّ هذا الأمر إحساساً بالمرارة. عليّ أن أثبت له أنّه على خطأ، لا بدّ لي من ذلك.

قال فور: "دورك".

"بيتر".

"كريستينا".

هذا الخيار يخالف استراتيجيته. فكريستينا ليست من الضعفاء. إلام يرمي بالضبط؟

"مولي".

قال فور وهو يعضّ إبهامه: "ويل".

"آل".

"درو".

قال إريك: "الأخيرة هي ميرا، وبالتالي هي معي. والآن حان دور مبتدئي الشجاعة".

وقفت أصغي إليهما بعدما انتهيا منّا. إن لم يكن فور يحاول أن يثبت شيئاً باختياره الضعفاء، فما

الذي يفعله؟ نظرت إلى كلّ شخص اختاره. ما القاسم المشترك بيننا؟

في أثناء قيامهما باختيار بقية الأعضاء، خطرت لي فكرة عمّا يجري. فباستثناء ويل وبضعة أشخاص آخرين، كلّنا نمتاز بشكل الجسد نفسه: أكتاف ضيّقة وقامات قصيرة. أمّا أعضاء فريق إريك كافة فيتمتعون بالقوّة، وبأجساد ضخمة. أمس تحديداً، قال لي فور إنّني سريعة. سنكون كلّنا أسرع من فريق إريك الذي قد يكون مناسباً للاستيلاء على العلم، فأنا لم ألعب هذه اللعبة من قبل، لكنّني أعرف أنّها تتطلّب السرعة أكثر من قوّة الجسد. وضعت يدي على فمي لأخفي ابتسامتي. قد يكون إريك أقسى من فور، غير أنّ فور أذكى منه.

عندما أنهيا اختيار الأعضاء، نظر إريك إلى فور بسخرية.

قال إريك: "يمكن لفريقك أن ينزل بعد فريقي".

أجابه فور: "لا تقدّم لي أيّ خدمات". ابتسم قليلاً ثمّ أضاف: "أنت تعرف أنّني لا أريد منهم أن يفوزوا".

قال إريك: "كلاّ، أعرف أنّكم ستخسرون بغضّ النظر عمّن ينزل أوّلاً". عضّ قليلاً على أحد أقراط شفته، ثم تابع: "إذاً، خذ فريقك الضعيف وانزل أوّلاً".

وقفنا كلّنا. ألقى عليّ آل نظرة كئيبة، فابتسمت له مطمئنة. إن كان على أحدنا نحن الأربعة أن يكون في فريق واحد مع إريك، وبيتر، ومولي، فلا بأس في أن يكون هو، لأنّهم يتركونه وشأنه عادة.

كان القطار على وشك التوقّف، وكنت مصمّمة على الهبوط على قدميّ.

قبل أن أقفز من القطار، دفع أحدهم كتفي، وأوشكت على السقوط من المقطورة. لم أنظر إلى الخلف لأعرف من فعل ذلك؛ مولي، أم درو، أم بيتر، لا يهمّ. وقبل أن يحاولوا مجدّداً، قفزت. هذه المرّة، كنت مستعدّة للزخم الذي يعطيني إيّاه القطار، فركضت بضع خطوات لتخفيفه، لكنّني حافظت على توازني. شعرت بمتعة عارمة، وابتسمت. كان إنجازاً صغيراً، لكنّه جعلني أشعر أنّني شجاعة.

لمست إحدى المبتدئات اللواتي ينتمين أساساً إلى الشجاعة كتف فور، وسألته: "عندما ربح فريقك، أين وضعتم العلم؟".

أجابها ببرودة: "لا يجوز أن أخبرك مارلين".

ألحّت قائلة: "هيّا، فور". ابتسمت له بإغراء، فأبعد يدها عن ذراعه، ولسبب ما، وجدت نفسي أبتسم.

هتف مبتدئ آخر من الشجاعة: "على الرصيف البحري". كان طويل القامة، وذا بشرة سمراء

وعينين داكنتين. كان وسيماً. "كان شقيقي في الفريق الفائز. لقد خبّأوا العلم في أحصنة مدينة الملاهي".

اقترح ويل قائلاً: "فلنذهب إلى هناك إذاً".

لم يعترض أحد، فتوجّهنا شرقاً، نحو المستنقع الذي كان بحيرة في ما مضى. عندما كنت صغيرة، كنت أحاول أن أتخيّل كيف كان هذا المستنقع سيبدو كبحيرة، من دون سياج مثبّت في الوحل، لحماية المدينة. لكن من الصعب تخيّل هذا القدر من المياه في مكان واحد.

سألت كريستينا، وهي تكز كتف ويل بكتفها: "نحن قريبون من مقرّ جماعة المعرفة، أليس كذلك؟".

أجاب: "أجل، فهو يقع إلى الجنوب من هنا". نظر إلى الخلف، وبدت عيناه مليئتين بالشوق، قبل أن يتمالك نفسه مجدّداً.

أنا على بعد أقلّ من ميل واحد من شقيقي. مضى علينا أسبوع منذ أن اقتربنا من بعضنا إلى هذا الحدّ. هززت رأسي قليلاً لأطرد الفكرة. لا يمكنني أن أفكّر فيه اليوم، بل عليّ التركيز على اجتياز المرحلة الأولى. لا يمكنني التفكير فيه إطلاقاً.

مشينا على الجسر. ما زلنا بحاجة إلى الجسور لأنّ الوحل تحتها رطب جدّاً، حيث يتعذّر السير عليه. تساءلت عن الوقت الذي مضى على جفاف النهر.

ما إن عبرنا الجسر، حتّى تغيّرت معالم المدينة. خلفنا، كانت معظم المباني مسكونة، وحتّى لو لم تكن، فقد بدت في حالة جيّدة. وأمامنا، ظهر بحر من أكوام الإسمنت والزجاج المحطّم. كان صمت هذا الجزء من المدينة مخيفاً، أشبه بالكابوس. من الصعب أن أعرف إلى أين نذهب، لأنّ الساعة تجاوزت منتصف الليل، وكلّ المصابيح مطفأة.

أخرجت مارلين مصباحاً، وأنارت به الشارع أمامنا.

قال أحد المبتدئين ساخراً، وكان شابّاً أسود العينين: "أتخشين الظلام مار؟".

أجابته بحدّة: "إن كنت تريد أن تدوس على الزجاج المحطّم، فأهلاً وسهلاً يوريا". غير أنّها أطفأت المصباح على أيّ حال.

أصبحت أعرف أنّه من صفات الشجاعة أن يكون المرء راغباً في تصعيب الأمور على نفسه، لكي يكون مكتفياً بذاته. فالتجوّل في الشوارع المظلمة من دون مصباح لا ينطوي على شيء من الشجاعة، لكن يفترض بنا ألاّ نحتاج إلى المساعدة، حتّى لو كانت نوراً صادراً عن مصباح. يجب أن نكون قادرين على فعل أيّ شيء.

يعجبني هذا. فقد يأتي علينا يوم لا نجد فيه مصباحاً، ولا سلاحاً، ولا يداً ترشدنا إلى الطريق، وأريد أن أكون مستعدة لذاك اليوم.

انتهت الأبنية قبل المستنقع، وامتدّ شريط من البرّ إلى داخل المستنقع، ومنه ارتفعت عجلة ضخمة بيضاء اللون، مزودة بعشرات العربات الحمراء التي تتدلّى منها على مسافات منتظمة. دولاب فيريس.

قال ويل وهو يهزّ رأسه: "فكّروا بالأمر، كان الناس يركبون هذه الآلة لمجرّد المتعة".

قلت: "لا بدّ أنّهم كانوا شجعاناً".

ضحكت كريستينا قائلة: "أجل، لكنّهم كانوا نسخة مشوّهة عن الشجعان. فلو كانت لدى جماعة الشجاعة عجلة كهذه، لكانت من دون عربات. وعوضاً عنها، يتعلّق الناس بأيديهم جيّداً، ونتمنّى لهم حظّاً سعيداً".

مشينا بجانب الرصيف. كانت كلّ الأبنية إلى يساري خالية، لافتاتها ممزّقة، ونوافذها مغلقة، لكنّها نظيفة. أيّاً يكن من غادر هذه الأماكن، فقد تركها باختياره، وبملء إرادته. غير أنّ بعض الأماكن في المدينة ليست كذلك.

قالت كريستينا لويل: "هل تجرؤ على القفز في المستنقع؟".

"أنت أوّلاً".

وصلنا إلى عجلة الأحصنة. كانت بعض الجياد مكسّرة، وذيولها محطّمة، وسروجها مشقّقة. أخرج فور العلم من جيبه، وقال: "بعد عشر دقائق، سيختار الفريق الآخر موقعاً له. أقترح عليكم أن تستغلّوا هذا الوقت لوضع استراتيجية. قد لا نكون من جماعة المعرفة، لكنّ الاستعداد الذهني من أحد أوجه التدريب في جماعة الشجاعة، لا بل يعتبر من أهمّ النواحي".

إنّه على حقّ. فما فائدة الاستعداد الجسدي، إن كان الذهن مشتّتاً.

أخذ ويل العلم من فور.

قال ويل: "بعضنا سيبقى هنا للحراسة، والبعض الآخر سيذهب لاستكشاف موقع الفريق الآخر".

انتزعت مارلين العلم من يد ويل، وقالت: "أتظنّ ذلك؟ من كلّفك بالقيادة، أيّها المنتقل؟".

أجاب ويل: "لا أحد، لكن على أحدنا أن يتولّى ذلك".

قالت كريستينا: "ربّما يجدر بنا وضع استراتيجية أكثر دفاعية. فلننتظر حتّى يصلوا إلينا، ثمّ سنصدّهم".

قال يوريا: "هذه طريقة الجبناء. أرى أن نخرج كلّنا؛ بعد أن نخبّئ العلم جيّداً حيث لا يتمكّنون من

العثور عليه".

أخذ الجميع يتحدّثون معاً، وكانت أصواتهم ترتفع تدريجياً. دافعت كريستينا عن خطة ويل، بينما فضّل المبتدئون المنتمون أساساً إلى الشجاعة الهجوم. تجادل الجميع حول من يحقّ له اتخاذ القرار، فيما جلس فور على طرف العجلة، واتّكأ على قائمة أحد الأحصنة البلاستيكية. نظر إلى السماء التي كانت خالية من النجوم، ولا يضيئها سوى بدر يطلّ من خلال طبقة رقيقة من السحب. كانت عضلات ذراعيه مسترخية، ويده موضوعة على مؤخّر عنقه. بدا مرتاحاً تقريباً، وهو يحمل تلك البندقية على كتفه.

أغمضت عينيّ قليلاً. لماذا يستحوذ على انتباهي بهذه السهولة؟ عليّ التركيز.

ماذا سأقول إن استطعت رفع صوتي فوق هذه الضجّة خلفي؟ لا يمكننا التصرف كما لو كنّا نعرف مكان الفريق الآخر. قد يكونون في أيّ مكان ضمن شعاع ميلين، مع أنّه يمكنني استبعاد المستنقع. وأفضل طريقة لإيجادهم ليست بالجدل حول كيفيّة البحث عنهم، أو حول عدد الأشخاص الذين يجب إرسالهم في مهمّة البحث، بل يكمن الحلّ في الصعود إلى أعلى نقطة ممكنة.

نظرت إلى الخلف للتأكّد من أنّ أحداً منهم لا يراني. لم يكن أيّ منهم ينظر إليّ. وهكذا، مشيت نحو دولاب فيريس بخطى سريعة ومكتومة، وأنا أضغط البندقية على ظهري لكي لا تصدر صوتاً.

عندما حدّقت إلى الدولاب من حيث أقف على الأرض، ضاق نفسي. كان أعلى ممّا ظننت، كان عالياً جدّاً، إلى حدّ أنّني بالكاد استطعت رؤية العربات المتدلّية من أعلاه. الناحية الإيجابية الوحيدة في هذا الارتفاع، هي أنّه مصمّم ليحتمل الوزن. وإن تسلّقته، فلن ينهار تحتي.

أخذ قلبي ينبض بسرعة. هل سأخاطر حقّاً بحياتي من أجل هذا؟ من أجل الفوز في لعبة يحبّها الشجعان؟

بالكاد استطعت رؤية أي شيء في الظلام، لكن عندما حدّقت إلى الدعائم الهائلة والصدئة التي يرتكز عليها الدولاب، رأيت درجات سلّم. كانت كلّ دعامة بعرض كتفيّ، وما من "درابزين" لحمايتي، لكنّ تسلّق سلّم أفضل من تسلّق شعاع دولاب.

أمسكت إحدى الدرجات. كانت صدئة ورفيعة، وبدت على وشك أن تتحطّم بيديّ. صعدت على أدناها لتجربتها، وقفزت عليها للتأكّد من أنّها ستحتمل وزني. غير أنّ الحركة آلمت أضلاعي، فانقبض وجهي.

ناداني صوت منخفض من خلفي: "تريس". لم أعرف لماذا لم يجفلني؛ ربّما لأنّني بدأت أصبح

شجاعة، والاستعداد الذهني من الأمور التي يفترض ب.ي تطويرها. وربّما لأنّ صوته المنخفض ناعم ومسكّن تقريباً. أيّاً يكن السبب، نظرت إلى الخلف. وقف فور خلفي، ببندقيته المتدلية على ظهره، مثلي تماماً.

قلت: "ماذا؟".

"أتيت لأعرف ماذا تظنّين نفسك فاعلة".

قلت: "أبحث عن مكان مرتفع. لا أظنّ أنّني أفعل شيئاً".

رأيت ابتسامته في الظلام: "حسناً. أنا آتٍ معك".

وقفت للحظة. لم يكن فور ينظر إليّ مثلما يفعل ويل وكريستينا وآل أحياناً؛ كما لو كنت صغيرة، وضعيفة جدّاً، ولست ذات فائدة. لم يكن يشفق عليّ مثلهم. لكن، إن أصرّ على المجيء معي، فهذا لأنّه يشكّ بقدراتي على الأرجح.

قلت: "سأكون بخير".

أجاب: "لا أشكّ في ذلك". لم أسمع السخرية في صوته، لكنّني أعرف أنّها موجودة. لا بدّ أن تكون كذلك.

بدأت أتسلّق الدرجات، وعندما أصبحت على ارتفاع عدّة أقدام عن الأرض، لحق ب.ي. كان أسرع منّي، حيث كان يضع يديه على الدرجة التي أتركها.

قال بهدوء: "أخبريني إذاً...". وبدا مقطوع الأنفاس. "ما هو هدف هذا التمرين برأيك؟ أعني اللعبة، وليس التسلّق".

حدّقت إلى الرصيف، بدا بعيداً جدّاً، مع أنّني لم أجتز بعد ثلث الطريق. توجد فوقي منصّة، تحت وسط العجلة تماماً؛ وهذا هو المكان الذي أقصده. لا أريد التفكير الآن في كيفية نزولي. أصبحت النسمة التي كانت تلفح خدّيّ تهبّ الآن على خصري. وكلّما ارتفعنا، ستزداد قوّة. عليّ الاستعداد.

أجبت: "أن نتعلّم وضع استراتيجية، أو ربّما العمل الجماعي".

ردّد: "العمل الجماعي". وصدرت عنه ضحكة بدت أقرب إلى نفس مذعور.

قلت: "ربّما لا، فالعمل الجماعي لا يبدو من أولويات الشجعان".

أصبحت الرياح أقوى الآن. ضغطت نفسي أكثر على السلّم لكي لا أسقط، لكنّ هذا الأمر جعل الصعود أصعب بالنسبة إليّ. تحتي، بدت لعبة الأحصنة صغيرة، وبالكاد استطعت رؤية فريقي تحت سقفها. لاحظت أنّ بعضهم لم يكن موجوداً، لا بدّ أنّهم أرسلوا فرقة بحث.

قال فور: "يفترض به أن يكون من الأولويات، هذا ما كان عليه سابقاً".

غير أنّني لم أكن أصغي إليه، فالارتفاع الذي وصلنا إليه يسبب الدوار. آلمتني يداي من الضغط على الدرجات، وبدأت ساقاي ترتجفان، لكنّني لم أكن واثقة من السبب. فالارتفاع لم يكن يخيفني؛ إذ إن الارتفاع يجعلني أشعر أنّني حيّة ومفعمة بالطاقة؛ كلّ عضو، وشريان، وعضلة في جسدي تغنّي بالطبقة نفسها.

ثمّ أدركت ماهيّة السبب. إنّه هو. فيه شيء ما يجعلني أشعر أنّني على وشك السقوط، أو الذوبان، أو الاشتعال.

أوشكت يدي أن تفوّت الدرجة التالية.

قال وهو يلهث: "أخبريني الآن... ما علاقة تعلّم الاستراتيجية برأيك... بالشجاعة؟".

ذكّرني السؤال بأنّه مدرّبي، وأنّه يفترض بي تعلّم شيء من هذا الحوار. مرّت سحابة فوق القمر، وعبر الظلّ يديّ.

قلت أخيراً: "إنّه... يعدّنا للعمل. يتعلّم المرء الاستراتيجية لاستخدامها". سمعته يتنفّس خلفي بصوت عالٍ وسريع. "هل أنت بخير فور؟".

"هل أنت بشرية تريس؟! تقفين على هذا العلوّ...". شهق متابعاً: "ألا يخيفك على الإطلاق؟".

نظرت من فوق كتفي إلى الأرض. إن سقطت الآن، فسأموت حتماً. لكن، لا أظنّ أنّني سأسقط.

هبّ الهواء من اليسار، وقذف وزن جسدي إلى اليمين. شهقت وأنا أتعلّق بالدرجات، واختلّ توازني، فأمسكت يد فور الباردة بخصري، ولامست إحدى أصابعه بقعة عارية تحت طرف قميصي. ضغط عليّ لتثبيتي، ودفعني برفق إلى اليسار، معيداً إليّ توازني.

الآن، لم أعد قادرة على التنفّس. توقّفت، وحدّقت إلى يديّ. كان فمي جافّاً. شعرت بأثر يده على جسدي، وبأصابعه النحيلة والطويلة.

سأل بصوت منخفض: "هل أنت بخير؟".

أجبت بتوتّر: "أجل".

تابعت الصعود إلى أن وصلت إلى المنصّة. بالنظر إلى أطراف القضبان المعدنية، كانت المنصّة محاطة "بدرابزين" في الماضي، لكنّها لم تعد كذلك. جلست، وابتعدت إلى الطرف، لكي يجد فور مكاناً له. ومن دون تفكير، تركت قدميّ تتدلّيان عن الحافّة. أمّا فور، فركع، واستند إلى الدعامة المعدنية، وهو يتنفّس بصعوبة.

قلت: "كيف تمكّنت من العيش في مجمّع الشجاعة ما دمت تهاب المرتفعات؟".

أجاب: "أتجاهل خوفي. عندما أتّخذ القرارات، أدّعي أنّ لا وجود له".

حدّقت إليه للحظة، ولم أستطع فهم ذلك. فبالنسبة إليّ، ثمّة فرق بين عدم الخوف والتصرّف على الرغم من الخوف؛ مثلما يفعل هو.

أطلت التحديق إليه.

سأل بهدوء: "ماذا؟".

"لا شيء".

حوّلت نظري عنه نحو المدينة. عليّ التركيز. لقد أتيت إلى هذا المكان لهدف محدّد.

كانت المدينة غارقة في الظلام، لكن حتّى لو لم تكن كذلك، لما استطعت رؤية الكثير. فثمّة مبنى أمامي.

قلت: "لسنا على ارتفاع كافٍ". نظرت إلى الأعلى، فرأيت شبكة من القضبان البيضاء التي تؤلّف سقالة العجلة. إن تسلّقتها بحذر، فبإمكاني أن أحشر قدميّ بين الدعامات والقضبان المعترضة لتثبيت نفسي؛ قدر الإمكان.

قلت: "سأصعد". أمسكت بإحدى العوارض فوقي، ودفعت نفسي إلى الأعلى. شعرت بألم حارق في أضلاعي المرضوضة، لكنّني تجاهلته.

قال: "بالله عليك تريس".

قلت وأنا أنظر إلى متاهة القضبان فوقي: "لست مضطرّاً للحاق بي". أقحمت قدمي في نقطة التقاء عارضتين، ودفعت نفسي إلى الأعلى، وأنا أمسك بعارضة أخرى في أثناء ذلك. تأرجحت لثانية، وغطّت نبضات قلبي على أيّ شيء آخر. تجمّعت كلّ أفكاري في تلك النبضات، وتحرّكت بالوتيرة نفسها.

قال: "بلى".

هذا جنون، أعرف ذلك. فأقلّ خطأ أو تردّد سيقضي على حياتي. مزّقت الحرارة صدري، وابتسمت وأنا أمسك بالعارضة التالية. دفعت نفسي إلى الأعلى، بذراعيّ المرتعشتين، ووضعت ساقي تحتي، حيث وقفت على عارضة أخرى. وعندما أحسست بالثبات، نظرت إلى فور في الأسفل. لكن، عوضاً عن رؤيته، وقع نظري مباشرة على الأرض.

انقطعت أنفاسي.

تخيّلت جسدي يسقط ويتحطّم على القضبان في طريقه إلى الأسفل، لأتمدّد على الرصيف بأطرافي المكسورة؛ تماماً مثل شقيقة ريتا التي لم تتمكّن من القفز إلى السطح. أمسك فور بعارضة بكلّ يد من يديه، ودفع نفسه إلى الأعلى بسهولة؛ كمن يجلس على سرير. لكنّه لم يكن مرتاحاً أو طبيعياً هنا، بل كانت كلّ عضلة من عضلاته مشدودة. من الغباء أساساً أن أفكّر بذلك وأنا على ارتفاع مائة قدم عن الأرض.

أمسكت بعارضة أخرى، ووجدت مكاناً أثبّت عليه قدمي. وعندما نظرت إلى المدينة مجدّداً، لم يعد المبنى أمامي. أصبحت على ارتفاع كافٍ لرؤية الأفق. كانت معظم المباني سوداء، تحت سماء كحلية، لكنّ المصابيح الحمراء في أعلى مبنى المحور كانت مضاءة. لم تكن سرعة وميضها تُجاري نبضات قلبـي.

تحت الأبنية، بدت الشوارع كالأنفاق. لبضع ثوانٍ، لم أرَ سوى بطانية سوداء تكسو المشهد أمامي، مع بعض الفروقات بين المباني، والسماء، والشوارع، والأرض. ثمّ رأيت ضوءاً صغيراً يتوهّج في الأسفل.

أشرت إليه، وقلت: "هل ترى ذلك؟".

توقّف فور عن الصعود عندما أصبح خلفي تماماً، ونظر من فوق كتفي. كان ذقنه بجانب رأسي، حيث لفحت أنفاسه أذني. شعرت بالضعف مجدّداً؛ كما حدث عندما كنت أتسلّق السلّم.

قال وقد أضاءت وجهه ابتسامة: "أجل".

أضاف: "إنّه آتٍ من الحديقة في آخر الرصيف. إنّهم أشخاص موجودون في مكان مفتوح، لكنّ الأشجار تؤمّن لهم بعض التغطية. من الواضح أنّها غير كافية".

"حسناً. ابدأ بالنزول، وسأتبعك".

هزّ فور رأسه موافقاً. كانت ساقه طويلة جدّاً، حيث وجد لها مكاناً بسهولة، ومرّر جسده بين العوارض. حتّى في الظلام، رأيت يديه حمراوين ومرتعشتين.

أنزلت قدماً واحدة، وضغطت بثقلي على إحدى العوارض، فصدر عنها صرير، وارتخت تحت قدمي، ثمّ سقطت على عدد من العوارض على التوالي، قبل أن تحطّ على الرصيف. كنت أتدلّى من السقالة، وقدمي تتأرجح في الهواء. فخرجت منّي شهقة مكتومة.

"فور!".

حاولت إيجاد موطئ قدم آخر، لكنّ الأقرب إليّ كان على بعد عدّة أقدام، ولا يمكنني الوصول

إليه. تعرّقت يداي. أذكر أنّني مسحتهما على سروالي قبل حفل الاختيار، وقبل اختبار الجدارة، وقبل كلّ مناسبة هامة، فكتمت صرخة. سأسقط. سأسقط.

صاح فور: "تماسكي! تماسكي، لديّ فكرة".

واصل النزول. كان يتحرّك بالاتّجاه الخاطئ. عليه المجيء إليّ، وليس الابتعاد عنّي. حدّقت إلى يديّ الملفوفتين حول العارضة بقوّة. ابيضّت عقد أصابعي التي تحوّل لونها إلى الأحمر المائل إلى البنفسجي.

لن أصمد طويلاً.

أغمضت عينيّ. من الأفضل ألاّ أنظر. من الأفضل الادّعاء أنّ أيّاً من هذا ليس موجوداً. سمعت خطوات فور على المعدن، ومن ثمّ خطوات سريعة على درجات السلّم.

صحت: "فور!". ربّما رحل. ربّما تركني. قد يكون هذا اختباراً لقوّتي وشجاعتي. رحت آخذ الأنفاس من أنفي، وأزفرها من فمي. عددت أنفاسي لأهدأ. واحد، اثنان. شهيق، زفير. هيّا، فور. هذا كلّ ما استطعت التفكير فيه. هيّا، افعل شيئاً.

ثمّ سمعت صريراً. ارتجفت العارضة التي أمسك بها، وصحت وأنا أصرّ على أسناني، محاولة عدم الإفلات.

كانت العجلة تدور.

هبّ الهواء على كاحليّ ومعصميّ مثل نبع ماء حارّ. فتحت عينيّ. أنا أتحرّك نحو الأرض. ضحكت بشكل هستيري مع اقتراب الأرض تدريجياً. أخذت السرعة تزداد. إن لم أقفز في الوقت المناسب، فستسحب العربات والسقالة المعدنية المتحرّكة جسدي وتحملني معها. وعندها، سأموت حتماً.

توتّرت كلّ عضلات جسدي مع اندفاعي نحو الأرض. وعندما أصبحت قادرة على رؤية الشقوق في الرصيف، أفلتّ العارضة، وارتطم جسدي بالأرض، حيث وصلت قدماي أوّلاً. انهارت ساقاي تحتي، فضممت ذراعيّ، وتدحرجت بأقصى سرعة ممكنة على جنبي. خدش الإسمنت وجهي، والتفتّ في الوقت المناسب لأرى سيّارة مندفعة نحوي، مثل حذاء عملاق على وشك أن يسحقني. تدحرجت مجدّداً، واحتكّ طرف السيّارة بكتفي.

أنا بأمان.

وضعت يديّ على وجهي. لم أحاول النهوض؛ إن فعلت، فأنا أعرف أنّني سأسقط. سمعت وقع

خطى، ثمّ التفّت يدا فور على معصميّ، وسمحت له بإبعاد يديّ عن عينيّ.

أحاط إحدى يديّ بيديه، فطغى دفء بشرته على الألم الذي شعرت به في أصابعي من جراء الإمساك بالعوارض.

سألني وهو يشدّ على يديّ: "هل أنت بخير؟".

"أجل".

انفجر ضاحكاً.

بعد لحظة، أخذت أضحك أنا أيضاً. دفعت نفسي للجلوس بيدي الأخرى. كنت أعي المسافة القصيرة التي تفصلنا عن بعضنا؛ ستّة إنشات على الأكثر. بدا ذلك الفراغ مشحوناً بالكهرباء، وأحسست أنّه يجب أن يكون أقصر.

وقف وشدّني معه. ما زالت العجلة تدور مصدرة تياراً من الهواء أبعد شعري إلى الخلف.

قلت بصوت حاولت أن يبدو طبيعياً: "كان بإمكانك إخباري أنّ العجلة ما زالت تعمل. ما كنّا لنضطرّ عندها إلى تسلّق السلّم".

قال: "لأخبرتك لو كنت أعلم. لكنّني لم أستطع تركك معلّقة هناك، لذلك جرّبتها. هيّا، حان الوقت للاستيلاء على علمهم".

تردّد فور للحظة، ثمّ أمسك بذراعي، وضغطت أصابعه على مرفقي. في الجماعات الأخرى، كان سيعطيني بعض الوقت لأستعيد قواي. لكنّه شجاع، ولذلك ابتسم لي، وبدأ يسير نحو عجلة الأحصنة التي يقف عندها أعضاء فريقنا لحراسة العلم. فكنت أركض حيناً وأعرج حيناً آخر إلى جانبه. ما زلت أشعر أنّني ضعيفة، لكنّ عقلي متيقّظ؛ لا سيّما مع يده التي تمسك بذراعي.

كانت كريستينا جالسة على أحد الأحصنة، وقد شبكت ساقيها الطويلتين، وأحاطت بيدها العمود الذي يتدلّى منه الحيوان البلاستيكي. كان علمنا خلفها؛ عبارة عن مثلث لامع في الظلام. وقف ثلاثة مبتدئين من جماعة الشجاعة بين بقيّة الحيوانات المحطّمة والمتّسخة. وضع أحدهم يده على رأس أحد الأحصنة، بينما حدّقت إليّ عين الحصان المكسوة بالخدوش من بين أصابعه. وجلست فتاة أكبر سنّاً على طرف العجلة، تحكّ حاجبها المزيّن بأربعة أقراط.

سألهم فور: "أين ذهب الباقون؟".

بدا متحمّساً بقدري، وعيناه تشعّان بالطاقة.

قالت الفتاة الأكبر سنّاً: "هل قمتما بتشغيل العجلة؟! بماذا كنتما تفكّران؟ ألم يكن من الأفضل أن

تصيحا: نحن هنا! تعالوا إلينا!". هزّت رأسها مضيفة: "إن خسرتُ مجدّداً هذا العام، فلن أحتمل العار. ثلاث سنوات متتالية!".

قال فور: "العجلة غير مهمّة، نحن نعرف أين هم".

قالت كريستينا وهي تنقل نظرها من فور إليّ: "نحن؟".

قال: "أجل، فبينما كنتم تتجادلون، تسلّقت تريس دولاب فيريس للبحث عن الفريق الآخر".

سأل أحد المبتدئين المنتمين إلى الشجاعة وهو يتثاءب: "إذاً ماذا سنفعل؟".

نظر فور إليّ. ببطء، انتقلت نظرات بقيّة المبتدئين، بمن فيهم كريستينا، منه إليّ. كنت على وشك أن أرفع كتفيّ وأقول إنّني لا أعرف. لكنّ صورة الرصيف الممتدّ تحتي تراءت لي، فخطرت لي فكرة.

قلت: "فلننقسم إلى فريقين. أربعة منّا سيذهبون إلى يمين الرصيف، وثلاثة إلى اليسار. الفريق الآخر موجود في الظلام، عند آخر الرصيف. ستشنّ مجموعة الأربعة هجوماً عليهم، بينما تتسلّل مجموعة الثلاثة خلفهم للاستيلاء على العلم".

نظرت إليّ كريستينا كما لو أنّها لم تعد تعرفني. في الواقع، لا ألومها.

قالت الفتاة الأكبر سنّاً وهي تصفق بيديها: "تبدو فكرة جيّدة. هيّا، فلننل منهم، ما رأيكم؟".

اتجهت كريستينا إلى اليسار، مع يوريا الذي بدت ابتسامته بيضاء على وجهه الأسمر. لم ألاحظ ذلك من قبل، لكن لديه وشم ثعبان خلف أذنه. حدّقت إلى ذيل الثعبان الملتفّ حول أذنه للحظة، لكنّ كريستينا بدأت تركض واضطررت للحاق بها.

عليّ أن أركض بضعف سرعتها لأجاري ساقيها الطويلتين. وفيما كنت أركض، أدركت أنّ أحدنا فقط سيلمس العلم، ولن يهمّ أنّ خطّتي وشجاعتي هي التي أوصلتنا إليه إن لم أستولِ عليه بنفسي. ومع أنّني بالكاد قادرة على التنفّس، ركضت بأسرع ما يمكن، إلى أن أصبحت خلف كريستينا. شددت بندقيتي حول جسدي، ووضعت إصبعي على الزناد.

وصلنا إلى آخر الرصيف، فأقفلت فمي لكي أكتم صوت أنفاسي العالي. أبطأنا من سرعتنا لكي لا يسمع صوت خطواتنا، وبحثت مجدّداً عن الوميض. كان الضوء واضحاً ومن السهل رؤيته بعد أن أصبحت على الأرض. أشرت إليه، فهزّت كريستينا رأسها، ومشت أمامي.

فجأة، سمعت صياحاً جماعياً، وكان عالياً جدّاً حيث أجفلت وقفزت. سمعت صفير الهواء مع تطاير الألوان نحو أهدافها. لقد هجم فريقنا، واندفع الفريق الآخر لملاقاته، وترك العلم من دون حراسة تقريباً. فصوّب يوريا بندقيّته على ساق آخر حارس؛ وكانت فتاة قصيرة ذات شعر بنفسجي، ثمّ

أسقطت بندقيتها على الأرض في نوبة غضب.

أسرعت للحاق بكريستينا. كان العلم يتدلّى من غصن شجرة، عالياً فوق رأسي. مددت يدي، وكذلك فعلت كريستينا.

قالت: "هيّا، تريس. أنت بطلة هذا اليوم أساساً، وتعلمين أنّك لن تتمكّني من بلوغه في مطلق الأحوال".

نظرت إليّ باستعلاء؛ كما ينظر الناس أحياناً إلى الأطفال عندما يتصرّفون مثل الكبار، وانتزعت العلم عن الغصن. ومن دون أن تنظر إليّ، التفتت وأطلقت صرخة انتصار. انضمّ إليها صوت يوريا، ثمّ سمعت هتافاً جماعياً من بعيد.

ربّت يوريا على كتفي، بينما حاولت أن أنسى نظرة كريستينا. ربما كانت على حقّ، فقد أثبتّ نفسي اليوم، ولا أريد أن أكون طمّاعة. لا أريد أن أكون مثل إريك؛ خائفة من قوّة الآخرين.

انتقلت عدوى الهتافات إليّ، فرفعت صوتي مع أصواتهم وأنا أركض نحو زملائي. حملت كريستينا العلم عالياً، وتجمهر الكلّ حولها وهم يمسكون بذراعها لرفع العلم أكثر. وبما أنّني لا أستطيع بلوغها، وقفت جانباً وأنا أبتسم.

لمست يد كتفي، وقال فور بصوت خافت: "أحسنت".

* * *

قال ويل مجدّداً، وهو يهزّ رأسه: "لا أصدّق ما فاتني!". هبّ الهواء من باب المقطورة، وشعّث شعره.

قالت كريستينا مبتسمة: "كنت تؤدّي عملاً مهمّاً جدّاً بابتعادك عن طريقنا".

قال آل وهو يئنّ: "لماذا كنتُ في الفريق الآخر؟".

قال ويل: "هذه هي الحياة ألبرت، العالم يتآمر عليك. هل يمكنني رؤية العلم مجدّداً؟".

جلس بيتر، ومولي، ودرو أمام بقية أعضاء الجماعة في الزاوية. كانت صدورهم وظهورهم ملطّخة باللونين الأزرق والوردي، وبدوا كئيبين. تحدّثوا بصوت منخفض، واسترقوا إلينا النظرات؛ لا سيّما إلى كريستينا. هذه هي فائدة عدم حملي العلم في تلك اللحظة، فأنا لم أعد هدفاً، أو على الأقلّ، ليس أكثر من العادة.

قال يوريا: "إذاً، تسلّقت دولاب فيريس؟!". تعثّر في ممرّ العربة، وجلس بالقرب منّي، وتبعته مارلين؛ الفتاة ذات الابتسامة المغرية.

قلت: "أجل".

قالت مارلين: "هذه خطوة ذكية، بذكاء... جماعة المعرفة. أنا مارلين".

قلت: "وأنا تريس". في بيتنا، كانت مقارنة شخص ما بجماعة المعرفة تعتبر إهانة. لكنّ مارلين قالتها من باب المجاملة.

قالت: "أجل، أعرفك. فالقافزة الأولى لا تنسى بسهولة".

شعرت كما لو أن سنوات مرّت منذ أن قفزت عن سطح مبنى وأنا أرتدي ملابس نكران الذات، لا بل عقود.

أخرج يوريا إحدى عبوات الألوان من بندقيته، وعصرها بين سبابته وإبهامه. في تلك اللحظة، انعطف القطار إلى اليسار، ووقع يوريا عليّ، فضغطت أصابعه على العبوة، إلى أن سال الطلاء الوردي برائحته الكريهة، وخرج منه رذاذ لوث وجهي.

أخذت مارلين تقهقه. مسحتُ بعض الطلاء عن وجهي ببطء، ثمّ لطّخت به خدّ يوريا. كانت رائحة زيت السمك قد انتشرت في عربة القطار.

"أوه". عصر العبوة مجدّداً، لكنّ فتحتها كانت موجّهة بالزاوية الخاطئة، فانعصر الطلاء في فمه. عندها، أخذ يوريا يقحّ ويصدر أصواتاً مبالغاً فيها.

مسحت وجهي بكمّي وأنا أضحك من أعماق قلبي؛ إلى أن شعرت بألم في معدتي. إن كانت الحياة التي تنتظرني عبارة عن ضحك بصوت عالٍ، وأعمال جريئة، والإرهاق الذي يلي يوماً صعباً لكنّه مُرضٍ، فسأكون مسرورة. وبينما كان يوريا يمسح لسانه بأنامله، أدركت أنّ كلّ ما عليّ فعله هو اجتياز مرحلة التلقين، لتكون هذه الحياة لي.

الفصل الثالث عشر

في الصباح التالي، عندما دخلت ببطء غرفة التدريب، رأيت لوح أهداف كبيراً على أحد جدران الغرفة، بينما وضعت بجانب الباب طاولة مع سكاكين مغروزة فيها. ينتظرنا تدريب آخر على الرماية. على الأقلّ هذا لا يؤذي.

وقف إريك في وسط الغرفة، وبدت وضعيّته متصلّبة؛ كما لو أنّ أحدهم قد استبدل عموده الفقريّ بعمود معدني. شعرت عندما رأيته أنّ الهواء في القاعة أصبح أثقل وزناً، وراح يضغط على صدري. على الأقلّ، عندما يكون متّكئاً على الجدار أستطيع اعتباره غير موجود. أمّا اليوم، فلا يمكنني ذلك.

قال إريك: "غداً آخر يوم في المرحلة الأولى، وستستأنفون فيه القتال. أمّا اليوم، فستتعلّمون التصويب. فليحمل كلّ منكم ثلاثة خناجر". كان صوته أجشّ أكثر من المعتاد. "وانتبهوا إلى فور وهو يظهر لكم التقنية الصحيحة للرماية".

في البداية، لم يتحرّك أحد من مكانه.

"هيّا!".

اندفعنا لأخذ الخناجر. لم تكن ثقيلة كالبنادق، لكنّها بدت غريبة في يدي، وكأنّه لا يسمح لي بحملها.

تمتمت كريستينا: "مزاجه معكّر اليوم".

أجبتها: "وهل كان يوماً حسن المزاج؟".

غير أنّني عرفت ما تعنيه. فبالحكم على نظرة إريك إلى فور عندما يكون الأخير غير منتبه إليه، لا بدّ أنّ خسارة الليلة الماضية قد أزعجت إريك أكثر ممّا يدّعي. فالفوز في لعبة العلم مسألة كرامة، والكرامة مهمّة لدى الشجعان؛ أكثر أهمية من العقل أو المنطق.

راقبتُ ذراع فور وهو يرمي الخنجر. في الرمية التالية، راقبت وقفته. كان يصيب الهدف في كلّ مرّة، ويزفر كلّما رمى الخنجر.

قال إريك بنبرة آمرة: "اصطفّوا!".

فكّرت أنّ العجلة لن تفيدني. كانت أمّي تقول لي ذلك وهي تعلّمني الحياكة. عليّ اعتباره تمريناً ذهنياً، وليس جسدياً. لذلك أمضيت الدقائق القليلة الأولى وأنا أتمرّن من دون خنجر، وأحاول تقليد الوقفة الصحيحة، وتعلّم حركة الذراع.

أخذ إريك يمرّ بسرعة خلفنا.

قال بيتر الذي كان يقف على بعد عدّة أشخاص: "أظنّ أنّ المتزمّتة تلقّت الكثير من الضربات على رأسها! أيّتها المتزمّتة! هل تذكرين ما هو الخنجر؟".

تجاهلته، وتمرّنت على الرمي مجدّداً، حاملة الخنجر بيدي، لكن من دون أن أرميه. صممت أذنيّ عن سماع خطوات إريك، ومضايقات بيتر، وانزعاجي بسبب تحديق فور إليّ، ورميت الخنجر. دار على نفسه، وارتطم باللوح. لم ينغرز النصل بالهدف، لكنّني كنت أوّل من أصابه.

ابتسمت عندما أخطأ بيتر الهدف مجدّداً، ولم أستطع مقاومة الرغبة في إغاظته.

قلت له: "بيتر، هل تذكر ما هو الهدف؟".

ضحكت كريستينا الواقفة إلى جانبي، وأصاب خنجرها الهدف.

بعد نصف ساعة، كان آل هو المبتدئ الوحيد الذي لم يصب الهدف بعد. إذ كانت خناجره تسقط على الأرض، أو ترتدّ عن الجدار. وبينما كنّا نحن نذهب إلى لوح الأهداف لاستعادة خناجرنا، كان هو يلمّها عن الأرض.

في المرّة التالية التي حاول فيها وفشل، أتى إليه إريك وسأله: "ما هذا البطء أيّها النزيه؟ هل تحتاج إلى نظارة؟ هل تريدني أن أقرّب إليك الهدف؟".

احمرّ وجه آل، ورمى خنجراً آخر، فطار إلى يمين الهدف بعدّة أقدام، ودار وارتطم بالجدار.

سأله إريك بصوت منخفض، وهو يدنو منه: "ما هذا أيّها المبتدئ؟".

عضضت على شفتي؛ الأمور تتّجه نحو الأسوأ.

قال آل: "لقد... لقد انزلق".

قال إريك: "حسناً، أعتقد أنّه عليك الذهاب لإحضاره". ونظر إلى بقية المبتدئين الذين توقّفوا عن الرماية، وقال: "هل أمرتكم بالتوقف؟".

بدأت الخناجر تضرب اللوح. سبق لنا جميعاً أن رأينا إريك غاضباً من قبل، لكنّه اليوم مختلف؛ إذ كانت نظرة عينيه ضارية.

حملق آل به: "أذهب وأحضره!! لكنّهم ما زالوا يرمون الخناجر".

"وماذا إذاً؟".

"لا أريد أن أصاب بأحدها".

"يمكنك الوثوق في أنّ زملاءك يصوّبون أفضل منك". ابتسم إريك قليلاً، لكنّ نظرة عينيه كانت لا

تزال قاسية. "اذهب وأحضر خنجرك".

لم يكن آل يعترض عادة على ما يطلبه منّا الشجعان. لا أظنّ أنّه يخشى الاعتراض، لكنّه يعرف أنّه بلا جدوى. ولكنّه هذه المرّة أطبق أسنانه على بعضها غاضباً؛ فقد نفد صبره.

قال: "لا".

ثبّت إريك نظره على وجه آل. "لمَ لا؟ هل أنت خائف؟".

أجاب: "من أن أطعن بخنجر طائش؟ أجل، أنا خائف!".

الصدق هو خطؤه، وليس رفضه الذي كان من الممكن أن يقبله إريك.

صاح إريك: "توقّفوا جميعاً!".

توقّفت الخناجر والأحاديث على حدّ سواء، فحملت خنجري الصغير بإحكام.

نظر إريك إلى آل قائلاً: "ابتعدوا من الحلبة؛ كلّكم ما عداك".

أسقطتُ الخنجر من يدي، فارتطم بالأرض المكسوّة بالغبار، مصدراً صوتاً مكتوماً. تبعت بقيّة المبتدئين إلى طرف الغرفة، فوقفوا أمامي متلهّفين لرؤية مشهدٍ قلَب معدتي رأساً على عقب: آل يواجه غضب إريك.

قال إريك: "قف أمام الهدف".

ارتعشت يدا آل الكبيرتان، وهو يمشي نحو لوح التصويب.

نظر إريك إلى الخلف قائلاً: "فور، هلاّ ساعدتني قليلاً".

حكّ فور أحد حاجبيه برأس الخنجر، واقترب من إريك. كانت عيناه محاطتين بهالتين سوداوين، وبدا فمه متوتّراً. إنّه متعب بقدرنا.

قال إريك لآل: "ستقف هناك بينما يقوم هو برمي تلك الخناجر؛ إلى أن تتعلّم الوقوف من دون أن ترفّ عيناك".

قال فور: "أهذا ضروري حقاً؟". بدا صوته ضجراً، لكنّ مظهره ليس كذلك. فوجهه وجسده مشدودان، وهذا دليل على تيقّظه.

شددت قبضتيّ. مهما بدا فور مرتاحاً، إلاّ أنّ السؤال يشكّل تحدّياً. ومن النادر أن يتحدّى فور إريك مباشرة.

في البداية، حدّق إريك إلى فور بصمت، فبادله فور النظرات. مرّت الثواني، وضغطت أظافري على باطن كفّيّ.

قال إريك بصوت منخفض بالكاد سمعته: "أنا صاحب السلطة هنا، هل تذكر؟ هنا، وفي كلّ مكان آخر".

احمرّ وجه فور مع أنّ تعابيره لم تتبدّل، واشتدّت قبضته على الخناجر، وابيضّت عقد أصابعه وهو يلتفت إلى وجه آل.

حوّلت نظري من عيني آل الواسعتين والداكنتين، إلى يديه المرتعشتين، ثم إلى فكّ فور المشدود. اعتمل الغضب في صدري، وخرجت من فمي كلمة واحدة: "كفى!".

قلّب فور الخنجر في يده، وتحرّكت أصابعه بعناية على النصل المعدني. ألقى عليّ نظرة قاسية جمّدت الدم في عروقي. أعلم لماذا؛ فأنا غبية لأنّني تكلّمت بوجود إريك، لا بل أنا غبية لأنّني تكلّمت في الأساس.

قلت: "يمكن لأيّ أحمق أن يقف أمام هدف، هذا لا يثبت شيئاً باستثناء أنّك ترهبنا. وهذا – حسبما أذكر – دليل جبن".

قال إريك: "إذاً، لا بدّ أنّه من السهل عليك أن تقفي مكانه".

كان هذا آخر ما أردته، لكن لم يعد بإمكاني التراجع. لذا، لم أتردّد، وتقدّمت بين مجموعة المبتدئين، ودفع أحدهم كتفي.

همس بيتر: "ودّعي وجهك الجميل. آه، أنت لست جميلة أساساً".

استعدت توازني، ومشيت باتّجاه آل الذي هزّ رأسه لي شاكراً. حاولت أن أبتسم مشجّعة إيّاه، لكنّني لم أستطع. وقفت أمام اللوح، غير أنّ رأسي لم يصل حتّى إلى وسط الهدف. لم يكن هذا مهمّاً على أيّ حال. نظرت إلى خناجر فور: واحد في يده اليمنى، واثنان في اليسرى.

شعرت بجفاف في حلقي. حاولت أن أبتلع لعابي، ثمّ نظرت إلى فور. إنّه شخص مستقيم جدّاً ولن يصيبني، سأكون بخير.

رفعت ذقني إلى الأعلى. لن يرفّ لي جفن، لأنّه إن حدث ذلك، فسأثبت لإريك أنّ الأمر ليس سهلاً كما ادّعيت؛ سأثبت عندها أنّني جبانة.

قال فور ببطء وحذر: "إن تحرّكت فسيقف آل مكانك، مفهوم؟".

أومأت برأسي موافقة.

بقي نظر فور مثبّتاً على عينيّ عندما رفع يده، وأرجع مرفقه إلى الخلف، ثمّ رمى الخنجر. لم أرَ سوى وميض في الهواء، قبل أن أسمع صوتاً مكتوماً. انغرز الخنجر في اللوح، على بعد نصف قدم

من خدّي. فأغمضت عينيّ، وحمدت الله.

سألني فور: "هل أنت على وشك الاستسلام أيّتها المتزمّتة؟".

تذكّرت عيني آل المرعوبتين وبكاءه ليلاً، فهززت رأسي نافية. "كلاّ".

"افتحي عينيك إذاً". وربّت بإصبعه على بقعة بين حاجبيه.

حدّقتُ إليه، وضغطت يديّ على جانبيّ لكي أخفي ارتجافهما. مرّر خنجراً من يده اليسرى إلى يده اليمنى، ولم أرَ سوى عينيه عندما أصاب الخنجر التالي الهدف، فوق رأسي. كان هذا أقرب من الأوّل، إذ شعرت به وهو يحطّ فوق جمجمتي.

قال: "هيّا أيّتها المتزمّتة، دعي شخصاً آخر يقف مكانك".

لماذا يحاول دفعي إلى الاستسلام؟ أيريدني أن أفشل؟

"اخرس، فور!".

حبست أنفاسي وهو يقلّب الخنجر الأخير في يده. رأيت وميضاً في عينيه وهو يبعد يده إلى الخلف، ثم يرمي الخنجر في الهواء. توجّه الخنجر إليّ مباشرة، وهو يدور رأساً على عقب، فتصلّب جسدي. هذه المرّة، عندما ارتطم الخنجر باللوح، شعرت بألم في أذني، ودغدغ الدم بشرتي. لمست أذني، وعرفت أنّه جرحها.

أدركت من نظرته إليّ أنّه فعل ذلك متعمداً.

قال إريك بصوت ناعم: "أودّ البقاء لأرى ما إذا كان الباقون بجرأتها، لكنّني أظنّ أنّ هذا كافٍ اليوم".

شدّ على كتفي. كانت أصابعه جافّة وباردة، والنظرة التي ألقاها عليّ تطالب بـي؛ كما لو أنّه يتملّك ما فعلتُه. لم أردّ له ابتسامته. فما فعلته لا علاقة له به.

أضاف: "عليّ إبقاء عيني عليك".

سرى خوف في داخلي، وأحسست به في صدري ورأسي ويديّ. شعرت كما لو أنّ كلمة "جامحة" موسومة على جبيني، وأنّه إن نظر إليّ طويلاً فسيتمكّن من قراءتها. غير أنّه رفع يده عن كتفي ومضى.

بقينا أنا وفور. انتظرت إلى أن أصبحت الغرفة خالية، وأغلق الباب، قبل أن أنظر إليه مجدّداً. مشى نحوي.

بدأ قائلاً: "هل أنت –".

صرخت: "فعلت ذلك عمداً!".

قال بهدوء: "أجل، هذا صحيح. وعليك أن تشكريني لأنّني ساعدتك".

صررت على أسناني: "أشكرك؟! كدت تقطع أذني، وأمضيت الوقت في التهكّم عليّ، لماذا أشكرك؟".

"أتعرفين؟ بدأت أتعب من انتظارك حتى تفهمي!".

حدّق إليّ، وحتّى عندما يحدّق، تبدو عيناه غارقتين في التفكير. كان لونهما الأزرق غريباً، داكناً إلى حدّ السواد، مع بقعة صغيرة أفتح لوناً على حدقته اليسرى، بالقرب من زاوية عينه تماماً.

"أفهم!! أفهم ماذا؟ أنّك أردت أن تثبت لإريك مدى براعتك؟ أنّك ساديّ مثله؟".

أجابني من دون أن يرفع صوته: "أنا لست سادياً". تمنّيت لو صاح، لشعرت حينها بخوف أقلّ. انحنى نحوي، فذكّرني بأنياب الكلب التي كانت على بعد إنشات من وجهي في اختبار الجدارة، وقال: "لو أردت إيذاءك، ألا تظنّين أنّه كان بإمكاني فعل ذلك منذ البداية؟".

عَبَر الغرفة، وغرز خنجراً في الطاولة بقوّة، حيث بقي منتصباً هناك ومقبضه نحو السقف.

"أنا –" بدأت أصيح، لكنّه اختفى. رحت أصرخ غاضبة، وأنا أمسح بعض الدماء عن أذني.

الفصل الرابع عشر

اليوم هو يوم الزيارة، وكنت أفكّر به كما لو كان نهاية العالم. لا شيء بعده يهمّ. فكل ما أفعله، يصبّ فيه. قد أرى والديّ مرّة أخرى، وقد لا أراهما. ما هو الأسوأ؟ لا أدري.

حاولت أن أدسّ ساقي في سروالي، لكنّه علق فوق الركبة. عبست وحدّقت إلى ساقي، فرأيت كتلة عضلات تعيق البنطال. خلعت البنطال تماماً، والتفتّ لأنظر إلى ساقيّ من الخلف، لتطلّ عليّ من هناك كتلة عضلية أخرى.

خطوت جانباً، ووقفت أمام المرآة. عندئذٍ، وقع نظري على عضلات لم تكن موجودة من قبل في ذراعيّ وساقيّ ومعدتي. شددت على خصري، على منطقة كانت تبرز فيها طبقة من الدهون، فلم أجد شيئاً. لقد سلبتني مرحلة التلقين كلّ ما بقي من طراوة في جسدي. هل هذا حسن أم سيّئ؟

على الأقلّ، أنا أقوى ممّا كنت عليه. لففت جسدي بالمنشفة مجدّداً، وخرجت من حمّام الفتيات. أملت أن يكون العنبر خالياً، فأنا لا أستطيع ارتداء ذاك البنطال.

عندما فتحت باب العنبر، شعرت بثقل يهبط فجأة على معدتي. بيتر، ومولي، ودرو، وبعض المبتدئين الآخرين يقفون في الزاوية وهم يضحكون. نظروا إليّ عندما دخلت، وبدأوا يتهكّمون. كانت ضحكة مولي أقرب إلى الشخير وأعلى من ضحكات الجميع.

ذهبت إلى سريري، وحاولت الادّعاء أنّهم غير موجودين، ثمّ رحت أبحث في الدرج تحت السرير عن الثوب الذي أجبرتني كريستينا على شرائه. كنت أمسك المنشفة بيد، وأحمل الثوب بالأخرى. عندما وقفت، وجدت بيتر خلفي تماماً.

تراجعت إلى الخلف، وأوشكت أن أصدم رأسي بسرير كريستينا. حاولت تجاوزه، لكنّه وضع يده على إطار سرير كريستينا، وقطع عليّ الطريق. كان يجب أن أعرف أنّه لن يتركني أذهب بهذه السهولة.

"لم أدرك أنّك نحيلة إلى هذا الحدّ أيّتها المتزمّتة".

قلت له بصوت ثابت تقريباً: "ابتعد عن طريقي".

"هذا ليس المحور، كما تعلمين. لا أحد هنا ينفّذ أوامر متزمّتة". تنقّل نظره على جسدي، ليس بالطريقة التي ينظر بها رجل إلى امرأة، بل بقسوة، متوقّفاً عند أيّ شائبة. ملأ صوت نبضي أذنيّ، بينما اقترب الآخرون، واجتمعوا خلف بيتر.

يبدو أنّ الأمور ستسوء.

عليّ الخروج من هنا.

رأيت من زاوية عيني طريقاً مفتوحاً نحو الباب. إن استطعت أن أمرّ من تحت ذراع بيتر، وأسرع باتّجاهه، فقد أتمكّن من الفرار.

قالت مولي وهي تشبك ذراعيها على صدرها: "انظروا إليها". ثمّ ضحكت ساخرة وأضافت: "إنّها طفلة".

قال درو: "آه، لا أعلم. ربّما كانت تخفي شيئاً ما تحت تلك المنشفة. لماذا لا ننظر ونتأكّد؟".

الآن. أخفضت رأسي تحت ذراع بيتر، واندفعت نحو الباب. غير أنّ شيئاً ما قبض على منشفتي وشدّها وأنا أركض، ثمّ انتزعها بقوّة. كانت يد بيتر هي التي قبضت على القماش. انزلقت المنشفة من يدي، وشعرت بالهواء البارد على جسدي العاري، حيث اقشعرّ جسمي.

انفجروا ضاحكين، بينما ركضت بأقصى سرعتي إلى الباب، ملصقة الثوب بجسدي لأستره. أسرعت في عبور الرواق إلى الحمام، واستندت إلى الباب وأنا ألهث. ثمّ أغمضت عينيّ.

لا يهمّ، لا آبه لما جرى.

خرجت شهقة من فمي، فوضعت يدي على شفتيّ لأكتمها. لا يهمّ ما رأوه. ورحت أهزّ رأسي كما لو أنّ تلك الحركة ستجعل هذا الأمر صحيحاً.

ارتديت ملابسي بيدين مرتعشتين. كان الثوب الأسود بسيطاً، بقبّة V تظهر الوشم على أسفل عنقي، ويصل طوله حتى الركبتين.

بعدما ارتديت ملابسي، وزالت رغبتي في البكاء، شعرت بشيء حارّ وعنيف يعصف بأحشائي. أريد إيذاءهم.

حدّقت إلى عينيّ في المرآة. أريد ذلك، وهذا ما سأفعله.

* * *

لا يمكنني العراك بهذا الثوب، لذلك أحضرت ملابس جديدة من السرداب قبل أن أتوجّه إلى قاعة التدريب من أجل جولتي الأخيرة. أتمنّى أن تكون مع بيتر.

سألتني كريستينا عندما دخلت: "أهلاً، أين كنت هذا الصباح؟". نظرت فوراً إلى اللوح في آخر القاعة. كانت الخانة قرب اسمي خالية، أي إنّ خصمي لم يتحدّد بعد.

قلت: "ثمّة ما أخّرني".

وقف فور أمام اللوح، وكتب اسماً بالقرب من اسمي. أرجو أن يكون بيتر، أرجو ذلك...

قال آل: "هل أنت بخير تريس؟ تبدين...".

"ماذا؟".

ابتعد فور عن اللوح، ليظهر اسم مولي إلى جانب اسمي. لم يكن بيتر، لكن لا بأس بمولي.

قال آل: "متوتّرة".

كانت جولتي هي الأخيرة على اللائحة، ما يعني أنّه عليّ الانتظار ثلاث جولات قبل مواجهتها. جولة إدوارد وبيتر تسبق دوري بجولتين. إدوارد هو الوحيد الذي يمكنه أن يهزم بيتر. ستتعارك كريستينا مع آل؛ ما يعني أنّ آل سيهزم بسرعة، كما كان يحصل معه طوال الأسبوع.

قال آل لكريستينا: "عامليني برفق، اتّفقنا؟".

أجابت: "لن أعدك بشيء".

وقف المتباريان الأوّلان، ويل وميرا، أمام بعضهما في الحلبة. أخذا يروحان ويجيئان للحظة، وأحدهما يمدّ يده إلى الأمام، ثمّ يرجعها، ويوجّه الآخر ركلة من دون أن يصيب خصمه. اتّكأ فور على أحد جدران القاعة وهو يتثاءب.

حدّقتُ إلى اللوح، وحاولت أن أستبق نتائج المباريات. غير أنّني لم أستغرق وقتاً طويلاً. بعد ذلك، رحت أعضّ أظافري، وأفكّر بمولي. لقد خسرت كريستينا أمامها، ما يعني أنّها جيّدة. لكمتها قويّة، لكنّها لا تحرّك قدميها. وإن لم تستطع أن تضربني، فلن تؤذيني.

وكما هو متوقّع، كانت المواجهة التالية بين كريستينا وآل سريعة ومن دون ألم. فقد سقط آل بعد عدّة ضربات على الوجه، ولم ينهض بعدها؛ الأمر الذي دفع إريك إلى هزّ رأسه استنكاراً.

استغرقت مباراة إدوارد وبيتر وقتاً أطول. فمع أنّهما أفضل المتبارين، إلاّ أنّ الفرق بينهما واضح. ارتطمت قبضة إدوارد بفكّ بيتر، وتذكّرت ما قاله ويل عنه؛ فقد كان يتعلّم فنون القتال منذ أن كان في العاشرة من عمره. هذا واضح، فهو أسرع من بيتر وأذكى منه أيضاً.

مع انتهاء المباريات الثلاث، كنت قد قضيت على أظافري، وشعرت بالجوع مع اقتراب وقت الغداء. توجّهت إلى الحلبة من دون أن أنظر إلى أحد، أو أيّ شيء، باستثناء وسط الغرفة. كان غضبي قد تبدّد إلى حدّ ما، لكن ليس من الصعب استحضاره. ما عليّ سوى التفكير ببرودة الهواء، وبأصوات الضحك العالية. انظروا إليها. إنّها طفلة.

وقفت مولي أمامي، وسألتني ساخرة: "هل كانت تلك وحمة التي رأيتها على ردفك الأيسر؟ ربّاه،

أنت شاحبة أيّتها المتزمّتة".

ستقوم بالحركة الأولى، فهذا ما تفعله دائماً.

بدأت مولي تتوجّه نحوي، ووضعت كلّ ثقلها في لكمة. ومع تحرّك جسدها إلى الأمام، انخفضت، وسدّدت لكمة إلى معدتها، فوق سرّتها تماماً. وقبل أن تتمكّن من النيل منّي، ابتعدت عنها، رافعة يديّ إلى الأعلى؛ على استعداد للمحاولة التالية.

توقّفَت عن السخرية مني، وركضَت نحوي وكأنّها على وشك توقيفي، فابتعدت من طريقها. تردّد صوت فور في أذنيّ وهو يقول لي إنّ أقوى سلاح في حوزتي هو مرفقي. ما عليّ سوى إيجاد طريقة لاستخدامه.

أوقفتُ ضربتها التالية بذراعي. آلمني ذلك، لكنّني لم ألحظ الألم. صرّت على أسنانها، وصدر عنها أنين غضب، أقرب إلى الزمجرة منه إلى صوت بشريّ. وجّهت ركلة بطيئة إلى جنبي، لكنّني تفاديتها. وبينما اختلّ توازنها، اندفعتُ إلى الأمام وأقحمتُ مرفقي في وجهها. أبعدت رأسها إلى الخلف في الوقت المناسب، فمرّ مرفقي على ذقنها.

لكمتني على أضلاعي، فترنّحت وحاولت استعادة أنفاسي. ثمّة شيء لا تحميه، أعرف ذلك. أريد أن أصيب وجهها، لكن ربّما كانت هذه الحركة غير ذكية. راقبتها لبضع ثوان. كانت يداها عاليتين جدّاً، تحميان أنفها وخدّيها، حيث تبقى معدتها وأضلاعها مكشوفة. أنا ومولي نعاني من نقطة الضعف نفسها في القتال.

التقت نظراتنا لثانية.

سدّدتُ لها ضربة تحت سرّتها. غرقت قبضتي في بطنها، فخرج من فمها نفس ثقيل لفح أذني. وبينما كانت تشهق لاستعادة أنفاسها، وجّهت ركلة عنيفة إلى ساقيها، فسقطت أرضاً، وتطاير الغبار في الهواء. عندئذٍ، أرجعتُ قدمي إلى الخلف، وركلتها بأقصى قوتي على أضلاعها.

ما كان أبي وأمّي ليوافقا على ركلي فتاة وهي ممدّدة على الأرض.

لكنّني لا آبه.

تكوّرت لحماية جسدها، غير أنّني ركلتها مجدّداً على بطنها هذه المرّة. إنّها طفلة. ركلتها مجدّداً، وأصبت وجهها. فسال الدم من أنفها، ولوّث وجهها. انظروا إليها. أصابت ركلة أخرى صدرها.

أرجعت قدمي إلى الخلف مرّة أخرى، لكنّ فور أمسك بذراعيّ، وشدّني بعيداً عنها. رحت أتنفّس من بين أسناني، وأنا أحدّق إلى وجه مولي المضرّج بالدماء. كان لون دمها داكناً، وكثيفاً، وجميلاً،

بشكل ما.

أخذت تئنّ، وصدرت غرغرة من حنجرتها، بينما وقفت أشاهد الدم وهو يسيل من شفتيها.

تمتم فور: "لقد فزت، كفى".

مسحت العرق عن جبيني. أمّا هو، فحملق بـي، وبدا القلق في نظراته.

قال: "أظنّ أنّه عليك الخروج من هنا. اذهبـي وامشي قليلاً".

قلت: "أنا بخير، أنا بخير الآن". ردّدت ذلك لنفسي.

ليتني أستطيع القول إنّني أشعر بالذنب لما فعلته.

لكنّني لا أشعر بذلك.

الفصل الخامس عشر

إنّه يوم الزيارة. تذكّرت ذلك من اللحظة التي فتحت فيها عينيّ. قفز قلبـي بين أضلاعي، ثمّ هبط عندما رأيت مولي تمشي ببطء في العنبر، وأنفها المصبوغ باللون البنفسجي بادٍ من بين الأشرطة اللاصقة. عندما رأيتها تخرج، بحثت عن بيتر ودرو. لم يكن أيّ منهما في الغرفة، لذلك بدّلت ثيابـي بسرعة. ما داما غير موجودين، فلا آبه لمن يراني بملابسي الداخلية؛ ليس بعد اليوم.

ارتدى الباقون ملابسهم بصمت. وحتّى إن كريستينا لم تكن تبتسم. جميعنا نعرف أنّنا قد نذهب إلى السرداب، ونبحث بين الوجوه، ولا نجد أحداً من أهلنا.

رتّبت سريري، وشددت زوايا الملاءات كما علّمني أبـي. وبينما كنت أنزع شعرة عن الوسادة، دخل إريك.

أبعد خصلة من الشعر الأسود عن عينيه، وأعلن قائلاً: "انتبهوا! أريد إعطاءكم نصيحة بخصوص هذا اليوم. إن حدثت أعجوبة وأتت أسركم للزيارة...". تفحّص وجوهنا وابتسم ساخراً، ثمّ تابع: "... وهذا ما أشكّ به، فيستحسن ألاّ تظهروا تعلّقاً كبيراً بها. فهذا أسهل بالنسبة إليكم وإلى أهلكم على السواء. كما أنّنا نأخذ عبارة الجماعة قبل الدم على محمل الجدّ هنا. فتعلّقكم بأسركم يوحي أنّكم غير سعداء تماماً في جماعتكم الجديدة، وهذا مخزٍ. مفهوم؟".

مفهوم. سمعت التهديد في صوت إريك الحادّ. الجزء الوحيد الذي عناه إريك من هذا الكلام هو المقطع الأخير: نحن شجعان، ويجب أن نتصرّف على هذا الأساس.

بينما كنت خارجة من العنبر، استوقفني إريك.

قال: "يبدو أنّني أسأت تقديرك أيّتها المتزمّتة. لقد أبليت حسناً البارحة".

حدّقت إليه، وللمرّة الأولى منذ أن ضربت مولي أحسست بالذنب.

إن ظنّ إريك أنّني فعلت أمراً صائباً، فلا بدّ أنّني أخطأت.

قلت: "شكراً". ثمّ انسحبت من العنبر.

عندما اعتادت عيناي على ضوء الرواق الخافت، رأيت كريستينا وويل أمامي يضحكان؛ ربّما على نكتة من نكات كريستينا. لم أحاول أن أعرف الموضوع. ولسبب ما شعرت أنّه من غير اللائق مقاطعتهما.

غير أنّ آل لم يكن في الجوار. لم أره في العنبر، وليس في طريقه إلى السرداب الآن. ربّما سبقنا

إلى هناك.

مرّرت أصابعي في شعري، وجمعته على شكل كعكة. تحقّقت ممّا إذا كانت ملابسي محتشمة. كان بنطالي ضيّقاً، وأعلى صدري مكشوفاً. لن يعجبهما هذا.

من يأبه؟ شددت فكّي بعناد. هذه جماعتي الآن، وهذه هي الملابس التي يرتدونها هنا. توقّفتُ قبل انتهاء الرواق تماماً.

كانت الأسر موزّعة في السرداب في مجموعات، معظمها من جماعة الشجاعة التي أتت لزيارة مبتدئي الشجاعة. ما زلت أجدهم غريبي الأطوار؛ أمّ بحاجب مثقوب، وأب بذراع موشومة، ومبتدئ شعره بنفسجي. رأيت درو ومولي يقفان بمفردهما في طرف الغرفة، ويكتمان ابتسامة. على الأقلّ، لم يأت أحد من أهلهما.

لكنّ أسرة بيتر حضرت. وقف بيتر بجانب رجل طويل القامة، كثيف الحاجبين، وامرأة وديعة المظهر، ذات شعر أحمر. لم يكن أبواه يشبهانه. كانا يرتديان بنطالين أسودين وقميصين أبيضين، وهما اللونان المعتمدان لدى جماعة النزاهة. وكان أبوه يتحدّث بصوت عالٍ جدّاً، استطعت سماعه تقريباً من حيث أقف. هل يعرفان أيّ نوع من الأشخاص يكون ابنهما؟

لكن... أيّ نوع من الأشخاص أنا؟

في الجهة المقابلة من الغرفة، وقف ويل مع امرأة ترتدي ثوباً أزرق. لم تكن تبدو بسنّ والدته، غير أنّها تملك تجعيدة بين حاجبيها، وشعراً ذهبيّ اللون؛ مثله تماماً. كان قد ذكر مرّة أنّ لديه أختاً، وربّما هذه هي.

بالقرب منه، احتضنت كريستينا امرأة سمراء ترتدي ملابس النزاهة السوداء والبيضاء. ووقفت خلف كريستينا فتاة شابّة، هي أيضاً من النزاهة. إنّها أختها الصغرى بلا شكّ.

هل يجب حتّى أن أتكبّد عناء البحث عن أبويّ؟ يمكنني بكلّ بساطة الاستدارة والعودة إلى العنبر.

فجأة رأيتها. وقفت أمّي بمفردها بالقرب من "الدرابزين"، وضمّت يديها أمامها. لم تبدُ يوماً في المكان غير المناسب كما بدت لي اليوم، ببنطالها الرمادي الفضفاض، وسترتها الرمادية المزرّرة حتّى العنق، وشعرها بعقدته البسيطة، ووجهها الجامد. بدأت أسير نحوها والدموع تتجمّع في عينيّ. لقد أتت، لقد أتت من أجلي.

مشيت بسرعة أكبر فرأتني، وللحظة، لم يبد على وجهها أيّ تعبير، كما لو أنّها لم تعرفني. ثمّ أشرقت عيناها، وباعدت بين ذراعيها. كانت تفوح منها رائحة الصابون ومسحوق الغسيل.

همست: "بياتريس". ومرّرت يدها على شعري.

قلت في سرّي: لا تبكي. احتضنتها حتّى أصبحتُ قادرة على كبح دموعي، ثمّ ابتعدت لأنظر إليها مجدّداً. ابتسمت بفمي المغلق – مثلها تماماً – ولمسَت خدّي.

قالت: "انظري إلى نفسك، لقد ازداد وزنك". أحاطت كتفيّ بذراعها، ثمّ سألتني: "أخبريني عن أحوالك".

"أنت أوّلاً". ها أنا أسترجع عاداتي القديمة. عليّ أن أدعها تتحدّث أوّلاً. لا يجب أن أترك الحديث يتمحور حولي لمدّة طويلة، بل عليّ التأكّد من أنّها لا تحتاج إلى شيء.

قالت: "هذه المناسبة خاصّة. لقد أتيت لرؤيتك، لذلك دعينا نتحدّث عنك أكثر. هذه هديّتي إليك".

هكذا هي أمّي الناكرة لذاتها. لا يفترض بها أن تقدّم لي الهدايا، ليس بعدما تركتها هي وأبـي. مشينا معاً نحو "الدرابزين" المطلّ على النهر، وسررت بالسير قربها؛ فالأيام التي مضت كانت خالية من العواطف أكثر ممّا تخيّلت. في المنزل، لم نكن نلمس بعضنا كثيراً، ولم يكن والداي يظهران عاطفتهما تجاه بعضهما سوى بإمساكهما يَدَي بعضهما إلى مائدة العشاء. لكنّ الأمر يتخطّى ذلك، ويتخطّى هذا المكان.

"سؤال واحد". شعرت أنّ نبضي يتسارع. "أين أبـي؟ هل يزور كاليب؟".

هزّت رأسها نافية: "آه، أبوك مجبر على الذهاب إلى العمل".

طأطأتُ رأسي. "يمكنك إخباري أنّه لم يرغب في المجيء".

نظرت إلى وجهي. "لقد كان والدك أنانياً في الفترة الأخيرة. وهذا لا يعني أنّه لا يحبّك، أؤكّد لك ذلك".

حدّقتُ إليها مذهولة. أبـي أنانيّ!! الأغرب من هذه الصفة هو أنها هي التي نسبتها إليه. لم أستطع أن أعرف من مظهرها إن كانت غاضبة منه أم لا، ولم أتوقّع أن أتمكّن من ذلك. لكن، لا بدّ أن تكون كذلك؛ فإن وصفته بالأناني، فهي غاضبة منه بلا شكّ.

قلت: "ماذا عن كاليب؟ هل ستزورينه لاحقاً؟".

أجابت: "ليتني أستطيع، لكنّ جماعة المعرفة منعت جماعة نكران الذات من دخول مجمّعها. إن حاولت، فسأتعرّض للطرد".

سألتها: "ماذا؟! هذا فظيع. لماذا يفعلون ذلك؟".

قالت: "لقد تفاقم التوتّر بيننا على نحو غير مسبوق. أتمنّى لو أنّ الأمور كانت عكس ذلك، لكن

ليست بيدي حيلة".

فكّرتُ بكاليب وهو واقف بين مبتدئي جماعة المعرفة، يتفحّص الحشود بحثاً عن أمّنا، وشعرت بغصّة في حلقي. ما زلت غاضبة منه لأنّه أخفى عنّي الكثير من الأسرار، لكنّني لا أريد أن يتعذّب.

كرّرت: "هذا فظيع". ونظرتُ إلى الهاوية.

كان فور واقفاً بمفرده عند "الدرابزين". ومع أنّه لم يعد مبتدئاً الآن، إلاّ أنّ معظم أعضاء جماعة الشجاعة يستغلّون هذا اليوم للاجتماع بأسرهم. إمّا أنّ أسرته لا تحبّ الاجتماع، أو أنّه لم يكن ينتمي إلى هذه الجماعة في الأساس. من أيّ جماعة أتى يا ترى؟

انحنيت نحوها وقلت: "هذا أحد مدرّبيّ. إنّه مخيف بعض الشيء".

قالت: "كم هو وسيم".

فوجئت عندما أومأت برأسي موافقة من دون تفكير. فضحكت ورفعت ذراعها عن كتفيّ. أردت إبعادها عنه، لكن في اللحظة التي كنت فيها على وشك الاقتراح أن نذهب إلى مكان آخر، نظر إلى الخلف.

فوجئ عندما رأى والدتي. أمّا هي، فمدّت يدها لتصافحه.

قالت: "مرحباً، اسمي ناتالي. أنا والدة بياتريس".

لم يسبق لي أن رأيت أمّي تصافح أحداً. صافحها فور، وبدا متوتّراً وهو يهزّ يدها مرّتين. بدت الحركة غير طبيعية بالنسبة إليهما معاً. كلاّ، فور ليس من جماعة الشجاعة في الأساس إن كان لا يصافح الناس بسهولة.

عرّفها بنفسه قائلاً: "أنا فور، سررت بلقائك".

ردّدت أمّي الاسم مبتسمة: "فور، أهذا لقب؟".

أجاب باقتضاب: "أجل". ما اسمه الحقيقي يا ترى؟ "ابنتك تبلي حسناً هنا. أنا أُشرف على تدريبها".

منذ متى يعني الإشراف رمي الخناجر عليّ، وتوبيخي عند كلّ فرصة؟

قالت: "يسرّني سماع ذلك. أنا أعرف بعض الأمور عن تدريب جماعة الشجاعة، وكنت قلقة عليها".

نظر إليّ، وتنقّلت نظراته على وجهي، من أنفي، إلى فمي، وذقني. ثمّ قال: "لا ينبغي أن تقلقي".

لم أستطع منع الحرارة من الاندفاع إلى وجنتيّ، وتمنّيت ألاّ يلحظا ذلك.

هل هو يطمئنها وحسب لأنّها أمّي، أم يعتقد فعلاً أنّني جديرة بهذا الإطراء؟ وما الذي تعنيه تلك النظرة؟

أمالت أمّي رأسها قائلة: "يبدو لي وجهك مألوفاً، فور".

أجاب: "أستغرب ذلك". وأصبح صوته بارداً فجأة. "ليس من عادتي إقامة علاقات اجتماعية مع جماعة نكران الذات".

ضحكت أمّي. لديها ضحكة خفيفة تتأرجح ما بين صوت ضحك وصوت أنفاس. "القليل من الناس يفعلون ذلك هذه الأيّام. لن آخذ كلامك على محمل شخصي".

بدا عليه شيء من الاسترخاء. "حسناً، سأترككما تكملان لقاءكما".

راقبناه أنا وأمّي وهو يذهب، بينما ملأ هدير النهر أذنيّ. ربّما كان فور من جماعة المعرفة أساساً، ولهذا السبب يكره نكران الذات. وربّما كان يصدّق المقالات التي تكتبها عنّا جماعة المعرفة؛ عنهم، فأنا لم أعد منهم. لكن، كانت بادرة لطيفة من قبله أن يخبر أمّي أنّني أبلي حسناً، مع أنّني أعرف أنّه لا يعتقد ذلك.

قالت: "أهو هكذا دائماً؟".

"بل أسوأ".

سألتني: "هل تعرّفت إلى أصدقاء؟".

"تعرّفت إلى عدد منهم". التفتّ إلى الخلف؛ إلى ويل، وكريستينا، وأسرتيهما. وعندما التقى نظري نظر كريستينا، أشارت إليّ وهي تبتسم، فتوجّهنا نحوها أنا وأمّي.

لكن، قبل أن نصل إلى ويل وكريستينا، لمست ذراعي امرأة قصيرة القامة، وممتلئة الجسم، ترتدي قميصاً مقلّماً باللونين الأبيض والأسود. فانتفضت، وقاومت رغبتي التلقائية بإبعاد يدها.

قالت: "المعذرة، هل تعرفين ابني، ألبرت؟".

"ألبرت؟ آه، أتقصدين آل؟ أجل، أعرفه".

"هل تعرفين إذاً أين يمكننا إيجاده؟". وأشارت بيدها إلى رجل يقف خلفها. كان طويل القامة، وضخماً. من الواضح أنّه والد آل.

"أنا آسفة، لم أره هذا الصباح. ربّما يجب أن تبحثا عنه في الأعلى". وأشرت إلى السقف الزجاجي الذي يعلو السرداب.

قالت والدة آل وهي تلوّح أمام وجهها بيدها: "ربّاه، أفضّل عدم محاولة الصعود إلى هناك مجدّداً.

أوشكتُ أن أصاب بنوبة عصبية في طريقي إلى هنا. لماذا لا يوجد "درابزين" في تلك الممرّات؟ هل أنتم مجانين؟".

أجبتها: "لسنا مجانين، بل نحن شجعان. إن رأيته، فسأخبره أنّكما تبحثان عنه".

رأيت على وجه أمّي الابتسامة نفسها التي ارتسمت على شفتيّ. لم يكن ردّ فعلها مشابهاً لردّ فعل أهالي بقيّة المنتقلين الذين رفعوا رؤوسهم وهم يتأمّلون جدران السرداب، وسقفه، والهاوية. بالطبع هي ليست فضولية، لأنّها من جماعة نكران الذات، والفضول غريب عنها.

عرّفت أمّي إلى ويل وكريستينا، وعرّفتني كريستينا إلى أمّها وأختها. لكن، عندما قدّمني ويل لكارا، شقيقته الكبرى، وجّهت إليّ نظرة حادّة كالسكّين، ولم تمدّ يدها لمصافحتي، بل راحت تحدّق إلى أمّي.

قالت: "لا أصدّق أنّك تقيم علاقات معهم، ويل".

أطبقت أمّي شفتيها، لكن بالطبع، لم تقل شيئاً.

قال ويل عابساً: "كارا، لا ضرورة لهذه الفظاظة".

"آه، بالطبع لا. هل تعرف من هذه؟". وأشارت إلى أمّي. "إنّها زوجة أحد أعضاء البرلمان. وهي تدير وكالة المتطوّعين التي تساعد المنبوذين؛ على حدّ زعمهم. أتظنّين أنّني لا أعرف أنّكم تدّخرون الطعام لتوزيعه على جماعتكم، بينما نحرم نحن من الطعام الطازج لمدّة شهر، هاه؟ طعام للمنبوذين!".

أجابت أمّي بلطف: "آسفة. أعتقد أنّك مخطئة".

ردّت عليها كارا بحدّة: "مخطئة! أنا واثقة أنّكم بالضبط كما تبدون؛ جماعة من فاعلي الخير السعداء الذين لا يملكون خلية أنانية واحدة في أجسادهم، أليس كذلك؟!".

قلت لها، وقد احمرّ وجهي غضباً، وشددت قبضتيّ: "لا تتحدّثي مع أمّي بهذا الشكل. اخرسي، وإلاّ أقسم إنّني سأكسر أنفك".

قال ويل: "كفى تريس، لن تقومي بضرب أختي".

رفعت حاجبيّ، وقلت: "آه، أتظنّ ذلك؟".

لمست أمّي كتفي، وقالت: "كلاّ، لن تفعلي. هيّا بياتريس، لا نريد إزعاج شقيقة صديقك".

بدا صوتها هادئاً، لكنّ يدها شدّت على ذراعي بقوّة، حيث أوشكت أن أصرخ من الألم وهي تجرّني بعيداً. مشت معي بسرعة إلى قاعة العشاء. لكن، قبل دخولها، انعطفت فجأة إلى اليسار، وسارت في أحد الأروقة المظلمة التي لم يسبق لها أن دخلتها من قبل.

سألتها: "أمّي، أمّي، كيف تعرفين هذا الطريق؟".

توقّفت بالقرب من باب مغلق، ووقفت على رؤوس أصابعها تحدّق إلى قاعدة المصباح الأزرق المتدلّي من السقف. وبعد بضع ثوانٍ، هزّت رأسها والتفتت إليّ مجدّداً.

"قلت لا تطرحي أسئلة عنّي، وكنت أعني ذلك. كيف حالك حقّاً بياتريس؟ كيف كانت جولات القتال؟ ما هي مرتبتك؟".

أجبت: "مرتبتي؟! أتعرفين أنّني كنت أتدرّب على العراك؟ وتعرفين أنّني سأصنّف في مرتبة!".

"إنّ عمليّة التلقين في جماعة الشجاعة ليست معلومات بالغة السرّية".

لا أعرف مدى سهولة الاطّلاع على ما تفعله الجماعات الأخرى خلال التلقين، لكنّني لا أظنّ أنّه بهذه السهولة. أجبتها ببطء: "أنا قريبة من المراتب الأخيرة يا أمّي".

هزّت رأسها باستحسان: "هذا جيّد. لا أحد يعير انتباهاً للمراتب الأخيرة. والآن، وهذا هامّ جدّاً بياتريس، ما كانت نتيجة اختبار الجدارة؟".

تردّد تحذير توري في ذهني. لا تخبري أحداً. عليّ إخبار أمّي أنّ نتيجة الاختبار هي نكران الذات، لأنّ هذا ما سجّلته توري في الجهاز.

نظرتُ إلى عينيها الخضراوين الباهتتين المحاطتين بالرموش السوداء. كان فمها محاطاً ببعض التجاعيد، لكن بخلاف ذلك، لا يبدو عليها التقدّم في السنّ. كانت تلك الخطوط تبدو أعمق عندما تدندن، فقد اعتادت أن تدندن وهي تقوم بجلي الأطباق.

هذه أمّي، ويمكنني الوثوق بها.

قلت بصوت منخفض: "لم تكن نتائجي حاسمة".

تنهّدت قائلة: "هذا ما ظننته. الكثير من الأولاد الذين ينشأون في جماعة نكران الذات يحصلون على هذه النتيجة، ولا نعرف السبب. لكن، عليك أن تكوني بالغة الحذر في المرحلة التالية من التلقين بياتريس. ابقي في وسط المجموعة مهما حدث. لا تلفتي إليك الانتباه، هل تفهمين؟".

"أمّي، ماذا يجري؟".

قالت وهي تحيط وجهي بيديها: "لا تهمّني الجماعة التي تختارينها؛ أنا أمّك وأريد حمايتك".

"أهذا لأنّني –" غير أنّها قاطعتني واضعة يدها على فمي، وهمست: "لا تقولي تلك الكلمة، أبداً".

إذاً، كانت توري على حقّ. الجموح أمر خطير. لكنّني لا أعرف السبب، أو ما يعنيه ذلك بالضبط.

"لماذا؟".

هزّت رأسها قائلة: "لا يمكنني أن أجيبك".

نظرَت إلى الخلف، وكان الضوء المنبعث من السرداب بالكاد مرئياً. سمعت أصواتاً عالية، وأحاديث، وضحكاً، ووقع خطوات تتجوّل في القاعة. وداعبت أنفي رائحة الطعام الآتية من قاعة الطعام، حلوة وشهيّة: خبز طازج. وعندما التفتت إليّ، بدا التصميم على وجهها.

قالت: "أريد منك شيئاً. لا يمكنني الذهاب لزيارة أخيك، أمّا أنت فبإمكانك فعل ذلك، بعد انتهاء التلقين. اذهبـي واعثري عليه، واطلبـي منه أن يجري أبحاثاً حول مصل المحاكاة. اتّفقنا؟ هل ستنفّذين طلبـي؟".

شبكت ذراعيّ على صدري: "ليس قبل أن تشرحي لي قليلاً، أمّي! إن كنت تريدين منّي التسكّع في مجمّع المعرفة، فمن الأفضل أن تعطيني سبباً!".

"لا يمكنني ذلك، أنا آسفة". قبّلت خدّي، وأبعدت عن وجهي خصلة من الشعر أفلتت من عقدة شعري. "عليّ الرحيل. ستكونين في وضع أفضل إن لم يبدُ علينا أنّنا متعلّقتان ببعضنا، أنا وأنت".

قلت: "لا أهتمّ كيف أبدو لهم".

قالت: "يجب أن تهتمّي. أظنّ أنّهم بدأوا يراقبونك أساساً".

ابتعدت، وشدّة استغرابـي حالت دون لحاقي بها. عند آخر الرواق، التفتت إليّ وقالت: "تناولي قطعة حلوى بدلاً مني، اتّفقنا؟ بالشوكولاتة. فهي لذيذة". وابتسمت ابتسامة غريبة ملتوية، قبل أن تضيف: "تعرفين أنّني أحبّك".

ثمّ ذهبت.

وقفت وحدي تحت الضوء الأزرق المنبعث من المصباح فوقي، وفهمت:

لقد سبق لها المجيء إلى مجمّع الشجاعة. وهي تذكر هذا الرواق، وتعرف كلّ شيء عن عمليّة التلقين.

كانت أمّي من جماعة الشجاعة.

الفصل السادس عشر

عصر ذلك اليوم، عدت إلى العنبر، وتركت الكلّ مجتمعين مع أسرهم. وجدت آل جالساً على سريره، شارداً في النظر إلى الجدار الذي يعلّق عليه اللوح عادة. فقد نزعه فور أمس لكي يتمكّن من حساب نقاطنا للمرحلة الأولى.

قلت: "أنت هنا! كان أبواك يبحثان عنك. هل التقيتم؟".

هزّ رأسه نافياً.

جلست بالقرب منه على السرير. كانت ساقي بنصف عرض ساقه؛ على الرغم من العضلات التي برزت فيها. كان يرتدي سروالاً قصيراً أسود اللون، وكانت ركبته زرقاء بنفسجية، بسبب كدمة أصابتها، تتخلّلها ندبة.

سألته: "ألم ترغب في رؤيتهما؟".

قال: "إن رأيتهما فسيسألان عن حالي، وسيعرفان إن كذبت".

"حسناً...". جاهدت للتفكير بشيء أقوله له. "ما به حالك؟".

ضحك آل ساخراً. "لقد خسرت كلّ الجولات منذ مواجهتي الأولى مع ويل. حالي لا يسرّ أحداً".

"كان هذا بمحض إرادتك. أليس بإمكانك إخبارهما ذلك أيضاً؟".

هزّ رأسه نافياً. "لطالما أراد أبـي أن أنضمّ إلى جماعة الشجاعة. صحيح أن والدَيَّ لم يفصحا للناس عن رغبتهما تلك، إلاّ أنّهما أُعجبا دائماً بهذه الجماعة، كلاهما. لن يفهما مهما أقول".

"آه". رحت أطرق بأصابعي على ركبتي، ونظرت إليه. "ألهذا السبب اخترت الشجاعة؟ من أجلهما؟".

هزّ آل رأسه نافياً. "كلاّ. أظنّ أنّ السبب هو... أنا أعتقد أنّه من المهمّ حماية الناس، والدفاع عنهم؛ تماماً كما فعلتِ من أجلي". وابتسم لي مضيفاً: "هذا ما يفترض بالشجعان فعله، أليس كذلك؟ هذه هي الشجاعة، وليس... إيذاء الناس من دون سبب".

تذكّرت ما قاله فور: إنّ العمل الجماعي كان من أولويات الشجعان. كيف كانت هذه الجماعة في تلك الأيّام؟ ماذا كنت سأتعلّم لو أنّني عشت في الزمن الذي كانت فيه أمّي تنتمي إليها؟ ربّما ما كنت لأكسر أنف مولي، أو أهدّد شقيقة ويل.

شعرت بعذاب الضمير. "ربّما ستتحسّن الأمور بعد انتهاء التلقين".

قال آل: "قد أكون الأخير. أظنّ أنّنا سنعرف الليلة".

جلسنا جنباً إلى جنب لبعض الوقت. من الأفضل أن نجلس هنا بهدوء، على أن نكون في السرداب ونشاهد الجميع يضحكون مع أسرهم.

كان أب.ي يقول إنّ أفضل طريقة لمساعدة الناس أحياناً هي التواجد بالقرب منهم وحسب. في الواقع، أشعر بالارتياح عندما أفعل شيئاً أعرف أنّه سيفتخر به؛ كما لو أن ذلك سيعوّض عن كل أفعالي التي لا تعجبه.

قال آل: "أتعلمين؟ أشعر أنّني أكثر شجاعة عندما أكون بالقرب منك؛ كما لو أنّني أستطيع إيجاد مكان لي هنا، مثلك تماماً".

كنت على وشك الإجابة عندما أحاط كتفيّ بذراعه. فتصلّبت فجأة، واحمرّ خدّاي.

وددت أن أكون مخطئة بشأن مشاعر آل تجاهي؛ غير أنّني كنت على حقّ.

لم أتّكئ عليه، بل جلست مستقيمة حيث سقطت ذراعه. بعد ذلك، ضممت يديّ بشدّة على حضني.

قال: "تريس، أنا...". بدا صوته متوتّراً. نظرت إليه. لم يكن وجهه يقلّ احمراراً عن وجهي، غير أنّه لم يكن يبكي، بل يشعر بالإحراج وحسب.

قال: "أنا... آسف. لم أكن أحاول... آسف".

وددت أن أطلب منه ألاّ يعتبر الأمر شخصيّاً. يمكنني القول إنّ أب.ي وأمّي نادراً ما أمسكا يدي بعضهما في بيتنا، لذلك درّبت نفسي على الابتعاد عن الحركات العاطفية؛ لأنّهما ربّياني على أخذها بجدية. ربّما إن قلت له ذلك، فلن أرى مسحة من الألم خلف إحساسه بالإحراج.

لكنّ الأمر شخصي بالطبع، فهو صديقي وحسب. كيف يمكن أن يكون الأمر شخصياً أكثر من ذلك؟

أخذت نفساً عميقاً، ثمّ ابتسمت، وسألته بصوت حاولت أن يبدو طبيعياً: "علامَ الأسف؟". ومسحت بنطالي الجينز، مع أنّه لم يكن ثمّة شيء عليه، ثم وقفت.

قلت: "عليّ الذهاب".

فهزّ رأسه موافقاً، من دون أن ينظر إليّ.

سألته: "هل ستكون بخير؟ أعني... بسبب أبويك. وليس...". وتركت الجملة معلّقة، لأنّني لم أعرف ماذا يجب أن أقول.

"آه، أجل". هزّ رأسه مجدّداً، بقوة هذه المرّة. "إلى اللقاء، تريس".

حاولت ألاّ أسرع وأنا خارجة من الغرفة. وعندما أغلقت باب العنبر خلفي، لمست جبيني، وابتسمت قليلاً. لو وضعنا الإحراج جانباً، من الجميل أن يكون المرء محطّ إعجاب شخص آخر.

* * *

كان الحديث عن الزيارات العائلية مؤلماً، لذلك تمحورت الأحاديث في تلك الليلة حول مراتبنا في المرحلة الأولى. لكن، كلّما أثار أحد ما قربي هذا الموضوع، حدّقت إلى مكان ما في الغرفة، وتجاهلته.

لا يمكن أن تكون مرتبتي بالسوء الذي كانت عليه؛ لا سيّما بعدما هزمت مولي، لكنّها قد لا تكون جيّدة بما فيه الكفاية لأكون من بين العشرة الأوائل في نهاية التلقين؛ خصوصاً بعد دخول المبتدئين المنتمين إلى الشجاعة أساساً في المعادلة.

خلال العشاء، جلست بالقرب من كريستينا، وويل، وآل إلى طاولة في الزاوية. غير أنّ قربنا من بيتر، ودرو، ومولي الجالسين إلى الطاولة المجاورة لم يكن مريحاً. وعندما فترت الأحاديث بيننا، بتّ أسمع كلّ كلمة يقولونها. كانوا يخمّنون النتائج. يا لها من مفاجأة!

سألت كريستينا، وهي تضرب كفّها على الطاولة: "ألم يكن يسمح لكم بتربية حيوانات أليفة؟! لماذا؟".

أجاب ويل عن قناعة: "لأنّ ذلك غير منطقي. فما فائدة تقديم الطعام، والمأوى لحيوان لا يفعل سوى تلويث الأثاث، وإضفاء رائحة كريهة على المنزل، ثمّ يموت في النهاية؟".

تبادلتُ وآل النظرات؛ كما نفعل عادة عندما يتجادل ويل وكريستينا. لكن هذه المرّة، حوّلنا أنظارنا عن بعضنا فوراً. أتمنّى ألاّ يدوم هذا الإحراج طويلاً، فأنا أريد استعادة صداقتنا.

"الفائدة هي...". بقي ردّ كريستينا معلّقاً، وأمالت رأسها. "في الواقع، إنّها ممتعة. كان لديّ كلب يدعى تشانكر. ذات يوم، تركنا فرّوجاً مشوياً على الطاولة ليبرد، وبينما كانت أمّي في الحمّام، سحبه إلى الأرض والتهمه كله. كم ضحكنا في ذلك اليوم".

"آه، كلامك غيّر رأيي بكلّ تأكيد. بالطبع، أودّ العيش مع حيوان يلتهم كلّ طعامي، ويدمّر مطبخي". هزّ ويل رأسه. "لماذا لا تشترين كلباً بعد انتهاء التلقين، ما دمت تشعرين بهذا الحنين إلى تربية الحيوانات؟".

"هذا لأنّني...". وتبدّدت ابتسامة كريستينا، وراحت تقلّب قطعة البطاطس بشوكتها. "لم أعد أحبّ

الكلاب، بعد... بعد اختبار الجدارة، كما تعرفون".

تبادلنا النظرات. كلّنا نعرف أنّه لا يجدر بنا الحديث عن الاختبار، حتّى بعدما قمنا بالاختيار، لكن ربّما كان الباقون لا يتعاطون بالقدر نفسه من الجدية مع هذه القاعدة. أخذ قلبي ينبض بسرعة. بالنسبة إليّ، هذه القاعدة تعني الحماية. فهي تحميني من الاضطرار للكذب على أصدقائي حول نتائجي. كلّما فكّرت بكلمة "جامحة"، سمعت تحذير توري، والآن تحذير أمّي أيضاً. لا تخبري أحداً. هذا خطير.

سألها ويل: "تعنين... قتل الكلب، أليس كذلك؟".

لقد نسيت تقريباً. فالجديرون بالانضمام إلى جماعة الشجاعة قاموا باختيار السكّين في الاختبار، وطعنوا الكلب عندما هاجمهم. لا عجب أنّ كريستينا أصبحت تنفر من الكلاب. سحبت كمّيَّ فوق معصميّ وضممت أصابعي.

قالت: "أجل. أعني، جميعكم اضطررتم إلى فعل ذلك، أليس كذلك؟".

نظرَت أوّلاً إلى آل، ومن ثمّ إليّ. ضاقت عيناها السوداوان، ثمّ قالت: "ألم تفعلا؟".

"هاه؟".

قالت: "أنت تخفين شيئاً، أنت تتهرّبين".

"ماذا؟".

قال آل وهو يكز كتفي: "في جماعة النزاهة، نتعلّم لغة الجسد لنعرف متى يكذب الناس ومتى يخفون عنّا شيئاً".

"آه". حككت مؤخّر عنقي. "حسناً...".

"أترين؟ ها أنت تفعلين ذلك مجدّداً!". قالت ذلك وهي تشير إلى يدي.

شعرت وكأنّني أبتلع نبضات قلبي. كيف أكذب بشأن نتائجي ما داما يستطيعان كشف أمري؟ لذا، أخفضت يديّ إلى حضني. أهذا ما يفعله الشخص الصادق؟

في الواقع، لا ضرورة لكي أكذب بشأن الكلب على الأقلّ. "كلاّ، لم أقتل الكلب".

سأل ويل وهو يحدّق إليّ: "كيف حصلت على نتيجة تؤهلك للانضمام إلى جماعة الشجاعة ما دمت لم تستخدمي السكّين؟".

نظرتُ إلى عينيه وقلت بهدوء: "لم أفعل. كانت نتائجي لصالح نكران الذات".

هذا صحيح إلى حدّ ما. فقد سجّلت توري نتيجتي على أنّها نكران الذات. وكلّ من يمكنه الوصول

إلى النتائج، سيتمكّن من رؤيتها. واصلتُ النظر إلى عينيه لبضع ثوان، فربّما سأثير الشكوك لو حوّلت نظري عنه. بعد ذلك، هززت كتفيّ، وغرزت شوكتي بقطعة لحم. أتمنّى أن يصدّقوني. يجب أن يصدّقوني.

قالت كريستينا: "لكنّك اخترت جماعة الشجاعة، لماذا؟".

قلت مبتسمة: "سبق وأخبرتك، الطعام هو السبب".

ضحكت قائلة: "هل تعرفان أنّ تريس لم تر البرغر قبل مجيئها إلى هنا؟".

وراحت تروي لهما ما حدث في يومنا الأوّل، فاسترخيت، لكنّني بقيت أشعر بالانزعاج. لا يجب أن أكذب على أصدقائي. فهذا يضع حواجز بيننا، ولدينا أساساً ما فيه الكفاية منها ويزيد؛ استيلاء كريستينا على العلم، ورفضي لآل.

بعد العشاء، ذهبنا إلى العنبر، وكان من الصعب عليّ ألاّ أسرع، وأنا أعرف أنّ النتائج ستكون معلّقة هناك. أردت الانتهاء من هذا الأمر. عند باب العنبر، دفعني درو جانباً ليدخل قبلي، فاصطدمت كتفي بالجدار، لكنّني تابعت السير.

لم يكن طولي يسمح لي بالنظر من فوق مجموعة المبتدئين، لكن عندما وجدت مساحة فارغة بين الرؤوس لأنظر عبرها، رأيت اللوح الأسود على الأرض، مسنوداً على قدمي فور، وظهره إلينا. وقف فور حاملاً طبشورة بيده.

قال: "بالنسبة إلى من أتوا للتوّ، أنا أشرح كيفية تحديد المراتب. بعد الجولة الأولى من القتال، قمنا بتصنيفكم بحسب مستوى مهاراتكم. يعتمد عدد النقاط التي تحصلون عليها على مستوى مهارتكم ومستوى مهارة الخصم الذي تغلّبتم عليه. كما تحصلون على المزيد من النقاط إن تحسّنتم، وإن تغلّبتم على شخص يملك مهارات عالية. وأنا لا أكافئ على افتراس الضعيف؛ فذلك جبن".

أظنّ أنّ نظره كان على بيتر وهو يقول جملته الأخيرة، لكنّه حوّل نظراته عنه بسرعة، لذلك لست متأكّدة.

"إن كنتم في مرتبة عالية، فستخسرون نقاطاً لدى خسارتكم أمام خصم ذي مرتبة متدنّية".

أطلقت مولي صوتاً بغيضاً، أشبه بالشخير أو الدمدمة.

تابع يقول: "يتم تقييم المرحلة الثانية من التدريب على نحو أكثر جدية من المرحلة الأولى؛ لأنّها أكثر ارتباطاً بالتغلّب على الجبن. وبالتالي، من الصعب جدّاً الحصول على مرتبة عالية في نهاية التلقين إن كانت مرتبتكم متدنّية في المرحلة الأولى".

رحت أنقل وزني من قدم إلى أخرى، محاولة رؤيته بشكل أفضل. وعندما فعلت أخيراً، أشحت بنظري بعيداً عنه على الفور. فقد كانت عيناه عليّ؛ على الأرجح بسبب حركتي العصبية.

قال فور: "سنعلن أسماء المستبعدين غداً. وكونكم منتقلين لا يؤخذ بالحسبان. فقد يصبح أربعة منكم منبوذين من دون استبعاد أيّ من المبتدئين المنتمين أساساً إلى الشجاعة، والعكس صحيح. كما قد يكون المستبعدون خليطاً من الفئتين. والآن، ها هي نتائجكم".

علّق اللوح على الجدار، وتراجع لكي نرى نتائجنا:

1. إدوارد
2. بيتر
3. ويل
4. كريستينا
5. مولي
6. تريس

السادسة؟! لا يمكن أن أكون السادسة. لا بدّ أن يكون فوزي على مولي قد رفع مرتبتي أكثر ممّا توقّعت. كما أنّ خسارتها أمامي أخفضت مرتبتها. تابعت قراءة الأسماء.

7. درو
8. آل
9. ميرا

لم يكن الأخير، لكن ما لم يخسر أربعة من مبتدئي جماعة الشجاعة في المرحلة الأولى من التلقين، فسيصبح منبوذاً.

نظرتُ إلى كريستينا التي أمالت رأسها وقطّبت جبينها وهي تنظر إلى اللوح. لم تكن الوحيدة على هذه الحال. فالهدوء الذي خيّم على الغرفة لم يكن مريحاً؛ كنّا كمن يترنّح على شفير الهاوية.

ثمّ يسقط.

سألت مولي مشيرة إلى كريستينا: "ماذا؟ لقد غلبتها! غلبتها في دقيقتين، ومرتبتها أعلى منّي؟!".

قالت كريستينا وهي تشبك ذراعيها: "نعم". ثمّ ابتسمت ساخرة: "وماذا في ذلك؟".

قال فور: "إن كنت ترغبين في نيل مرتبة عالية، فأنا أقترح عليك عدم الخسارة أمام خصوم ضعفاء". تناهى إليّ صوته من بين همهمات المبتدئين الآخرين. وضع الطبشورة في جيبه، ومرّ من

أمامي من دون أن يلتفت إليّ. آلمني كلامه بعض الشيء، وذكّرني أنّني الخصم الضعيف الذي يتحدّث عنه.

حسبما يبدو، كلامه ذكّر مولي أيضاً بذلك، فقالت وهي تركّز نظرها عليّ: "أنت! ستدفعين الثمن!".

توقّعت أن تندفع نحوي أو تضربني، لكنّها اكتفت بالاستدارة على عقبيها، والخروج من العنبر؛ وهذا أسوأ. لو أنّها انفجرت في وجهي، لتبدّد غضبها بسرعة بعد لكمة أو اثنتين. لكنّ خروجها يعني أنّها تخطّط لشيء ما. خروجها يعني أنّه عليّ أن أكون حذرة.

لم يقل بيتر شيئاً عندما رأى النتائج. ونظراً إلى ميله إلى التذمّر من كلّ ما ليس على هواه، فإنّ هذا الأمر مثير للاستغراب. فقد اكتفى بالذهاب والجلوس على سريره، ثمّ قام بفكّ شريط حذائه. وهذا ما جعلني أشعر بالمزيد من القلق. فهو لا يرضى بسهولة أن يحلّ في المرتبة الثانية؛ ليس بيتر.

صفق ويل وكريستينا أيديهما، ثمّ ربّت ويل على كتفي بيده الضخمة، وقال مبتسماً: "انظري إلى نفسك، أنت السادسة".

ذكّرته قائلة: "ومع ذلك، أنا لست بأمان".

قال: "ستكونين بخير، لا تقلقي. يجب أن نحتفل".

قالت كريستينا وهي تمسك بذراعي بإحدى يديها، وبذراع آل باليد الأخرى: "هيّا آل، أنت لا تعرف بعد نتائج مبتدئي الشجاعة. لا شيء أكيد بعد".

تمتم وهو يحرّر ذراعه من يدها: "سأخلد إلى النوم".

في الردهة، كان من السهل نسيان كلّ شيء عن آل ومولي وهدوء بيتر المريب، ومن السهل الادّعاء أنّ ما يفرّق بيننا كأصدقاء لا وجود له. لكن، في أعماق عقلي، اتّضح لي واقع أنّ ويل وكريستينا ينافسانني. وإن أردت أن أكون من بين العشرة الأوائل، فعليّ أن أهزمهما أوّلاً.

آمل فقط ألاّ أضطرّ إلى خيانتهما في أثناء ذلك.

* * *

عانيت من الأرق في تلك الليلة. كان العنبر يبدو لي صاخباً عادة، مع أنفاس النائمين فيه، لكنّه اليوم هادئ جدّاً. وعندما يكون بهذا الهدوء، أفكّر بأسرتي. لذلك، حمدت الله على الصخب الذي يسود فيه عادة.

إن كانت أمّي تنتمي في الأصل إلى جماعة الشجاعة، فلماذا اختارت نكران الذات؟ هل أحبّت ما

فيها من سلام وروتين وطيبة؛ أي كلّ ما أفتقد إليه عندما أترك لفكري العنان؟

تساءلتُ عمّا إذا كان ثمّة من عرفها هنا في صغرها، ويمكن أن يخبرني كيف كانت في ذلك الحين. لكن، حتّى لو كانوا يعرفونها، فلن يرغبوا على الأرجح في الحديث عنها. إذ لا يفترض بالمنتقلين التحدّث عن جماعاتهم القديمة. فهذا يسهّل عليهم تغيير انتمائهم من الأسرة إلى الجماعة، والاقتناع بمبدأ "الجماعة قبل الدم".

دفنت وجهي في الوسادة. لماذا تريد من كاليب إجراء أبحاث حول مصل المحاكاة يا ترى؟ هل له علاقة بكوني جامحة، وكوني في خطر، أم لسبب آخر؟ تنهّدت. لديّ آلاف الأسئلة، لكنّها رحلت من دون أن تجيب عن أيّ منها. والتساؤلات تدور الآن في رأسي، حيث سأعجز عن النوم قبل أن أجيب عنها.

سمعت حركة في الغرفة، فرفعت رأسي عن الوسادة. لم تكن عيناي قد اعتادتا على الظلام بعد، فحدّقت من دون أن أرى شيئاً على الإطلاق. سمعت حركة، ووقع خطوة، تبعتها ضربة ثقيلة.

فجأة، علت صرخة جمّدت الدم في عروقي، وهزّت كياني. رميت الأغطية عنّي، ووقفت على الأرض حافية القدمين. كنت لا أزال عاجزة عن الرؤية جيّداً لمعرفة مصدر الصوت، لكنّني لمحت جسداً مكوّماً على الأرض، على بعد عدة أسرّة منّي. ثمّ مزّقت صرخة أخرى أذنيّ.

صاح أحدهم: "أضيئوا المصابيح!".

مشيت نحو الصوت؛ ببطء لكي لا أتعثّر بشيء، وشعرت أنّني في حالة ذهول. لم أكن أريد رؤية مصدر الصوت، لأنّ صوتاً كهذا لا يعني سوى الدم والعظم والألم؛ تلك الصرخة التي انطلقت من الأحشاء، وامتدّت إلى كلّ عضو في الجسد.

أضيئت المصابيح.

كان إدوارد ممدّداً على الأرض بالقرب من سريره، واضعاً يديه على وجهه. أحاطت برأسه هالة من الدماء، بينما برز من بين أصابعه مقبض سكين فضّية. أخذ قلبي ينبض بقوّة، وصمّت نبضاته أذنيّ. كانت سكين زبدة من قاعة العشاء، وكان نصلها مغروزاً في عين إدوارد.

راحت ميرا الواقفة أمام إدوارد تصيح بأعلى صوتها. كما علا صراخ شخص ثانٍ، وراح ثالث يصيح طالباً المساعدة. أمّا إدوارد المستلقي على الأرض، فأخذ يتلوّى من شدة الألم؛ كالطائر المذبوح.

ركعت بالقرب من رأسه، وتلطخت ركبتاي بالدماء، ثمّ وضعت يديّ على كتفيه.

قلت له: "ابقَ ساكناً". شعرت أنّني هادئة، مع أنّني لم أكن أسمع شيئاً؛ كما لو أنّ رأسي مغمور بالمياه. راح إدوارد يتلوّى مجدّداً، فكلّمته بصوت أعلى، وأكثر جدّية. قلت: "ابقَ ساكناً. تنفّس".

صاح قائلاً: "عيني".

اشتممت رائحة كريهة، يبدو أنّ أحدهم قد تقيّأ.

أخذ يصيح: "انزعيها! انزعيها من عيني، انزعيها!".

هززت رأسي، ثمّ أدركت أنّه لا يستطيع رؤيتي. أوشكت ضحكة هيستيرية على الخروج من فمي؛ ولكنني أدركت أن عليّ أن أكبح الهيستيريا إن كنت أنوي مساعدته. عليّ أن أنسى نفسي.

قلت: "كلاّ، يجب أن تترك الطبيب يقوم بذلك. هل تسمعني؟ دع الطبيب يخرجها. تنفّس".

شهق قائلاً: "إنّها تؤلمني".

"أعرف ذلك". لكنّني لم أسمع صوتي، بل صوت والدتي. تراءت لي وهي راكعة أمامي على الرصيف أمام منزلنا، تمسح الدموع عن وجهي بعدما خدشت ركبتي. كنت في الخامسة من عمري حينذاك.

"ستكون بخير". حاولت أن أكلّمه بصوت حازم، كما لو كنت أعني ما أقوله، ولا أحاول طمأنته وحسب. فأنا لا أعرف ما إذا كانت عينه ستنجو. لا أظنّ ذلك.

عندما وصلت الممرّضة، طلبت منّي الابتعاد، ففعلت. كانت يداي وركبتاي مضرّجة بالدماء. نظرت حولي، فوجدت الجميع، ما عدا اثنين.

درو، وبيتر.

* * *

بعدما أخذوا إدوارد، تناولت ملابس نظيفة، وذهبت إلى الحمام لأغسل يديّ. رافقتني كريستينا، ووقفت عند الباب، لكنّها لم تقل شيئاً، وسرّني ذلك، إذ لا يوجد ما يقال.

فركت كلّ خطوط كفيّ، ومرّرت ظفراً تحت كلّ أظافري لتنظيفها من الدماء. بدّلت ملابسي بالملابس النظيفة التي أحضرتها معي، ورميت المتّسخة في سلّة المهملات. ثمّ أحضرت أكبر كمية ممكنة من المناديل الورقية. على أحدهم أن ينظّف الفوضى التي تعمّ العنبر، وبما أنّني لن أتمكّن من النوم ثانية الليلة، يمكنني القيام بذلك بنفسي.

عندما مددت يدي لأفتح الباب، قالت كريستينا: "تعرفين من فعل ذلك، أليس كذلك؟".

"أجل".

"ألا يجدر بنا إخبار أحد؟".

"هل تعتقدين حقّاً أنّ الشجعان سيفعلون شيئاً حيال ذلك؟ بعدما علّقوك فوق الهاوية؟ وبعدما جعلونا نضرب بعضنا حتّى الإغماء؟".

لزمَت كريستينا الصمت.

بقيت لنصف ساعة راكعة وحدي على الأرض، وأنا أمسح دماء إدوارد. قامت كريستينا برمي المناديل المتّسخة، وأحضرت مناديل نظيفة. أمّا ميرا، فقد اختفت. على الأرجح، لحقت بإدوارد إلى المستشفى.

لم ينم أحد في تلك الليلة.

* * *

قال ويل: "قد تستغربين كلامي، لكن أتمنّى لو أنّ اليوم ليس يوم عطلة".

هززت رأسي موافقة. أعرف ما يعنيه، فالعمل يلهيني عن التفكير، لذلك سأبحث عن شيء أشغل به نفسي حالاً.

لم يسبق لي أن قضيت وقتاً طويلاً بمفردي مع ويل، إلاّ أنّ كريستينا وآل نائمان في العنبر، ولا يرغب أيّ منّا بالتواجد في تلك الغرفة من دون داعٍ. صحيح أنّ ويل لم يقل ذلك، لكنّني أعرف.

مرّرت ظفراً تحت أحد أظافري مجدداً؛ فمع أنّني غسلت يديّ جيّداً من دماء إدوارد، إلاّ أنّني ما زلت أشعر أنّها موجودة. مشينا أنا وويل من دون هدف محدّد. فما من مكان نذهب إليه.

اقترح قائلاً: "يمكننا زيارته، لكن ماذا سنقول له؟ مثلاً، أنا لا أعرفك جيّداً، لكنّني آسف لأنك تعرّضت لطعنة في عينك؟".

لم يكن كلامه مضحكاً. عرفت ذلك منذ اللحظة التي قاله فيها، لكن مع ذلك، فاجأتني ضحكة خرجت من حلقي لأنّني لم أقوَ على كبتها. حدّق إليّ ويل للحظة، ثمّ بدأ يضحك هو أيضاً. في بعض الأحيان، يكون البكاء أو الضحك الخيار الوحيد المتاح، ففضّلت الضحك في تلك اللحظة.

قلت له: "آسفة، لكنّ هذا سخيف جدّاً".

لا أرغب في البكاء على إدوارد؛ على الأقلّ ليس بالطريقة الشخصية التي يبكي بها المرء على صديق أو حبيب. أنا أرغب في البكاء لأنّ أمراً رهيباً حدث، ورأيته، ولم أجد طريقة لأجعل الفاعل يدفع الثمن. فمن يريدون معاقبة بيتر لا يملكون السلطة لفعل ذلك، ومن لديهم السلطة، لن يرغبوا في ذلك. في جماعة الشجاعة قوانين تعاقب على إيذاء شخص ما بهذه الطريقة، لكن بوجود إريك في

السلطة، أظنّ أنّ هذه القوانين ليست قيد التطبيق.

قلت بجدّية أكبر: "أكثر ما يثير السخرية هو أنّ إخبار أحدهم بما جرى يعتبر دليل جرأة في أيّ جماعة أخرى. لكن هنا... في جماعة الشجاعة... لن يفيدنا هذا النوع من الجرأة".

سألني ويل: "هل سبق أن قرأت البيانات الرسمية للجماعات؟".

كتبت البيانات الرسمية بعد تكوين الجماعات. تعلّمنا عنها في المدرسة، لكن لم يسبق لي أن قرأتها مطلقاً.

عبست وسألته: "وهل فعلت؟". ثمّ تذكّرت أنّ ويل حفظ مرّة خارطة المدينة لمجرّد المتعة، فقلت: "أوه، بالطبع فعلت. لا يهمّ".

"من الجمل التي أذكرها في البيان الرسمي للشجاعة: نحن نقدّر الأعمال الجريئة العادية، ونقدّر الشجاعة التي تدفع شخصاً ما للدفاع عن شخص آخر".

تنهّد ويل.

ليس عليه أن يقول شيئاً آخر، أعرف ما يعنيه. ربّما تأسّست جماعة الشجاعة بنوايا حسنة، وعلى أسس صحيحة، ولأهداف نبيلة. غير أنّها انحرفت عن المسار الصحيح. والأمر نفسه ينطبق على جماعة المعرفة. فمنذ وقت طويل، سعى العلماء إلى المعرفة من أجل خير البشرية، لكنّ الطمع هو الذي يحرّكهم اليوم. تساءلت عمّا إذا كانت الجماعات الأخرى تعاني من المشكلة نفسها، فأنا لم أفكّر بهذا من قبل.

لكن، على الرغم من الفساد الذي يسود في جماعة الشجاعة، لا يمكنني تركها. ليس فقط خوفاً من العيش كمنبوذة وفي عزلة تامّة؛ وهو مصير أسوأ من الموت، بل لأنّني في الفترة القصيرة الماضية التي عشتها مع هذه الجماعة أحببتها، ورأيت أنّها تستحقّ الإنقاذ. ربّما يمكننا أن نعود شجعاناً وشرفاء مجدّداً.

قال ويل: "فلنذهب إلى المقهى لتناول قطعة حلوى".

ابتسمت موافقة: "حسناً".

في طريقنا إلى السرداب، رحت أكرّر الجملة التي ذكرها ويل لكي لا أنساها.

أنا أقدّر الأعمال الجريئة العادية، أقدّر الشجاعة التي تدفع شخصاً ما للدفاع عن شخص آخر.

يا له من مبدأ جميل!

* * *

عندما عدت إلى العنبر، وجدت سرير إدوارد نظيفاً تماماً، وأدراجه مفتوحة وخالية. في الجهة الأخرى من الغرفة، كان سرير ميرا مثله.

عندما سألت كريستينا عنهما، أجابت: "لقد رحلا".

"حتّى ميرا!؟".

"قالت إنّها لا تريد البقاء هنا من دونه، فهي ستُستبعَد على أيّ حال". هزّت كتفيها، وكأنّها لا تعرف ماذا تفعل غير ذلك. إن كان هذا صحيحاً، فأنا أعرف ما تشعر به. "على الأقلّ، لن يستبعد آل".

كان من المفترض أن يتمّ استبعاد آل، لكنّ رحيل إدوارد أنقذه. فقرّر الشجعان إبقاءه حتّى المرحلة التالية.

سألتها: "من استُبعد أيضاً؟".

هزّت كتفيها مجيبة: "استبعد اثنان من المنتمين إلى الشجاعة في الأصل. لا أذكر اسميهما".

نظرتُ إلى اللوح. لقد قام أحدهم بشطب اسمَي إدوارد وميرا، وغيّر أرقام بقيّة الأسماء. الآن، أصبح بيتر في المرتبة الأولى، وويل في الثانية. أمّا أنا فأصبحت في المرتبة الخامسة. بدأنا بتسعة مبتدئين.

الآن، أصبحنا سبعة.

الفصل السابع عشر

إنّه وقت الظهيرة، حان موعد الغداء.

جلست في رواق لا أعرفه. مشيت إلى هنا لأنّني شعرت بالحاجة إلى الابتعاد عن العنبر. ربّما إن أحضرت سريري إلى هنا، فلن أضطرّ أبداً إلى الذهاب إلى العنبر مرّة أخرى. قد يكون خيالي هو السبب، لكنّني ما زلت أشمّ رائحة الدم هناك، مع أنّني فركت الأرض حتّى تعبت يداي، كما قام أحدهم بمسحها بمبيّض هذا الصباح.

شددت على أنفي. إنّ قيامي بتنظيف الأرض في الوقت الذي لم يرغب فيه أحد في فعل ذلك أمر كانت أمّي ستقوم به لو كانت مكاني. إن كنت عاجزة على أن أكون بجانبها، يمكنني على الأقلّ التصرّف مثلها أحياناً.

سمعت أناساً يقتربون، وتناهى إليّ وقع خطاهم على الأرض الحجرية، فنظرت إلى حذائي. كنت قد استبدلت حذائي الرياضي الرمادي بآخر أسود اللون منذ أسبوع، لكنّ الحذاء الرمادي بقي مدفوناً في أحد أدراجي. لم أستطع التخلّص منه نهائياً؛ مع أنّني أعرف أنّه من الغباء التعلّق بحذاء، كما لو أنّه سيرجعني إلى المنزل.

"تريس؟".

نظرت إلى الأعلى، فرأيت يوريا واقفاً أمامي. لوّح لزملائه المبتدئين الذين كان يمشي معهم، فتبادلوا نظرات الاستغراب، لكنّهم تابعوا طريقهم.

سألني: "هل أنت بخير؟".

"كانت ليلة صعبة".

"أجل، سمعت بما جرى لذلك الشابّ إدوارد". نظر يوريا إلى آخر الرواق. كان زملاؤه قد اختفوا عند أحد المنعطفات. ابتسم قليلاً وأضاف: "هل ترغبين بمرافقتنا؟".

سألته: "ماذا؟ إلى أين تذهبون؟".

أجاب: "إلى أحد طقوس التلقين. هيّا، علينا أن نسرع".

فكّرت بسرعة بخياراتي. يمكنني إمّا البقاء هنا، أو مغادرة مجمّع الشجاعة.

وقفت، ورحت أهرول إلى جانب يوريا للحاق برفاقه.

قال: "المبتدئون الذين يسمح لهم بالمجيء هم من يملكون أقارب أكبر منهم سنّاً في جماعة

الشجاعة. لكنّهم قد لا يلاحظونك. تصرّفي وحسب وكأنّك واحدة منّا".

"ماذا سنفعل بالضبط؟".

قال: "شيئاً خطيراً". عبرت عينيه نظرةٌ لا يمكن وصفها سوى بجنون الشجعان. لكن، عوضاً عن التراجع، كما كنت سأفعل منذ بضعة أسابيع، انتقلت العدوى إليّ، وحلّت الحماسة محلّ الكآبة. أبطأنا من سرعتنا عندما لحقنا ببقية المبتدئين.

سأل شابّ يعلّق قرطاً معدنياً في وسط أنفه: "ماذا تفعل المتزمّتة هنا؟".

أجاب يوريا: "لقد رأت للتوّ ذلك الشابّ وهو يُطعن في عينه غاب.ي. لذا، دعها وشأنها، اتّفقنا؟".

هزّ غاب.ي كتفيه بلا اكتراث، واستدار. لم يقل أحد آخر شيئاً، مع أنّ عدداً منهم نظروا إليّ شزراً، وكأنّهم يحجّمونني. كان المبتدئون المنتمون إلى الشجاعة مثل قطيع من الكلاب. إن أسأتُ التصرّف، فلن يسمحوا لي بالركض معهم. لكن حالياً، أنا بأمان.

انعطفنا مجدّداً، فرأيت مجموعة من أعضاء الجماعة عند آخر الرواق التالي. كانوا كثراً بالنسبة إلى عدد المبتدئين، لكنّني لاحظت وجود تشابه في الوجوه.

قال أحد الأعضاء: "فلنذهب". ثمّ استدار، واختفى عبر باب مظلم. تبعه بقيّة الأعضاء، ومشينا في أعقابهم. بقيت خلف يوريا وأنا أدخل في الظلام، قبل أن ترتطم رجلي بدرجة. استدركت الأمر قبل أن أسقط إلى الأمام، وبدأت أصعد.

تمتم يوريا: "هذا سلّم خلفي، ويكون الباب مقفلاً عادة".

أومأت برأسي – مع أنّه لا يراني – وصعدت كلّ الدرجات. عندئذٍ، فتح باب في أعلى السلّم، ودخل منه نور الشمس. خرجنا من تحت الأرض، على بعد عدّة مئات من الياردات من المبنى الزجاجي الذي يعلو السرداب، بالقرب من سكّة الحديد.

شعرت أنّني فعلت ذلك آلاف المرات من قبل. سمعت بوق القطار، وأحسست بارتجاج الأرض تحت قدميّ. رأيت الضوء المثبّت على العربة الأمامية. فطقطقت أصابعي وقفزت قفزة على رؤوس أصابعي.

رحنا نهرول في مجموعة واحدة بالقرب من العربة، ثمّ قفز الأعضاء والمبتدئون إلى داخل القطار. دخل يوريا قبلي، وتدافع الناس من خلفي. لا يمكنني ارتكاب أخطاء. رميت نفسي إلى الأمام، وأمسكت بمقبض الباب، ثمّ دفعت نفسي إلى داخل العربة، فأمسك يوريا بذراعي لتثبيتي.

زاد القطار من سرعته، فجلسنا أنا ويوريا، واستندنا إلى أحد الجدران.

صحت ليسمعني بسبب صوت الهواء: "إلى أين نحن ذاهبون؟".

هزّ كتفيه مجيباً: "لم يخبرني زيك".

"زيك؟".

قال: "إنّه أخي الأكبر". وأشار إلى شابّ جالس عند الباب، وقد تدلّت قدماه من العربة. كان هزيلاً وقصير القامة، ولا يشبه يوريا على الإطلاق، باستثناء لون البشرة.

صاحت فتاة إلى يساري: "لا يجب أن تعرفي، فهذا يفسد المفاجأة!". ثمّ مدّت يدها وقالت: "أنا شونا".

صافحتها، لكنّني لم أشدّ على يدها بما فيه الكفاية، بل تركتها بسرعة. أشكّ في أنّني سأتحسّن في المصافحة. فإمساك أيدي الغرباء يبدو لي غير طبيعي.

قلت: "أنا –".

"أعرفك، أنت المتزمّتة. أخبرني فور عنك".

تمنّيت ألاّ يكون احمرار خدّيّ واضحاً. "آه! وماذا قال؟".

ابتسمت مجيبة: "قال إنّك متزمّتة. لماذا تسألين؟".

أجبتها بصوت حازم قدر الإمكان: "إن كان مدرّبي يتحدّث عنّي، فأودّ أن أعرف ماذا يقول". أتمنّى أن تكون كذبتي مقنعة. "لن يرافقنا، أليس كذلك؟".

"كلاّ، إنّه لا يرافقنا أبداً في هذه الرحلات. فقدت بريقها بالنسبة إليه على الأرجح. لِنقُل إنها لم تعد تخيفه".

ليس آتياً. شعرت أنّ شيئاً ما في داخلي يتضاءل؛ مثل بالون يفرغ من الهواء. غير أنّني تجاهلته وأومأت برأسي متفهّمة. أعرف أنّ فور ليس جباناً، لكنّ أمراً واحداً يخيفه على حدّ علمي، ألا وهو المرتفعات. ومهما يكن ما سنفعله، فلا بدّ أنّه يتضمّن الصعود إلى مكان مرتفع، ولذلك يتجنّبه. لا شكّ أنّها لا تعرف ذلك، ما دامت تتحدّث عنه بهذا الاحترام.

سألتها: "هل تعرفينه جيّداً؟". أنا فضولية جدّاً، لطالما كنت كذلك.

قالت: "الكلّ يعرف فور. كنّا في دفعة المبتدئين نفسها. غير أنّني كنت ضعيفة في القتال، فكان يدرّبني كلّ ليلة بينما يكون الجميع نائمين". حكّت مؤخّر رقبتها، وأصبحت تعابيرها جادّة فجأة. "كان ذلك لطيفاً من قبله".

نهضت، ووقفت خلف الأعضاء الجالسين عند الباب. خلال لحظات، زالت تعابير الجدية عن

وجهها، لكنّ كلامها سبّب لي الاضطراب. فمن جهة، استغربت فكرة كون فور لطيفاً، ومن جهة أخرى، أردت لكمها من دون سبب وجيه.

صاحت شونا: "ها قد وصلنا". ومع أنّ القطار لم يبطئ من سرعته، إلاّ أنّها رمت نفسها من العربة. تبعها بقيّة الأعضاء، مثل شلاّل من الناس المتّشحين بالسواد والمزيّنين بالأقراط، والذين لا يكبرونني كثيراً في السنّ. وقفت عند الباب، بالقرب من يوريا. كان القطار أسرع من أيّ مرّة قفزت منه فيها، لكن لا يمكنني أن أفقد أعصابي الآن، أمام كلّ هؤلاء. وهكذا قفزت، وارتطمت بالأرض، ثمّ تعثّرت بضع خطوات قبل أن أستعيد توازني.

رحنا نهرول أنا ويوريا للحاق بأعضاء جماعة الشجاعة، مع بقيّة المبتدئين الذين لم يعيروني انتباهاً يذكر.

نظرت حولي ومشيت. كان مبنى المحور خلفنا، أسود اللون تحت السحب، لكنّ المباني المحيطة بي كانت سوداء، ويخيّم عليها السكون. هذا يعني أنّنا شمال الجسر على الأرجح؛ في المنطقة المهجورة من المدينة.

انعطفنا وانتشرنا ونحن نسير في جادة ميشيغان. جنوب الجسر، تعتبر جادة ميشيغان مكاناً مزدحماً، يعجّ بالناس، لكنّها مقفرة هنا. ما إن نظرت إلى الأعلى لتأمّل المباني، حتّى عرفت إلى أين نحن ذاهبون. إنّهم يقصدون مبنى هانكوك الخالي، وهو عبارة عن عمود أسود ذي عوارض متقاطعة، ويعتبر الأعلى شمال الجسر.

لكن، ماذا سنفعل؟ هل سنتسلّقه؟

مع اقترابنا، بدأ الأعضاء يركضون، فأسرعنا أنا ويوريا للحاق بهم. أخذوا يتدافعون بالمناكب، إلى أن فتحوا باباً في أسفل المبنى. كان زجاج أحد المصراعين محطّماً، حيث لم يبقَ منه سوى إطار. دخلت عبره، وتبعت الأعضاء عبر مدخل مخيف ومظلم، فيما أخذ الزجاج المحطّم يُسحق تحت قدميّ.

توقّعت أن نصعد السلالم، لكنّنا توقّفنا أمام المصعد.

سألتُ يوريا بصوت خافت: "هل المصاعد تعمل؟".

أجاب زيك: "بالطبع. وهل أنا غبيّ لكي لا آتي إلى هنا باكراً، وأشغّل مولّد الكهرباء الاحتياطي؟".

قال يوريا: "أجل، أظنّ ذلك".

حدّق زيك إلى شقيقه، ثمّ أحاط عنقه بذراعه وحفّ عقد أصابعه على رأس أخيه؟ قد يكون زيك

أقصر قامة من يوريا، لكنّه يبدو أقوى منه، أو على الأقلّ، أسرع. صفعه يوريا على جنبه، ثمّ أفلت من قبضته.

ابتسمت عندما رأيت شعر يوريا المشعّث، ثمّ فُتحت الأبواب. توافدنا إلى الداخل، الأعضاء في مصعد والمبتدئون في آخر. داست فتاة حليقة الرأس على قدمي من دون أن تعتذر. فأمسكت قدمي وقد انقبض وجهي من شدّة الألم، وفكّرت في ركل ساقها.

وقف يوريا يحدّق إلى صورته في مرآة المصعد، وراح يسوّي شعره.

سألت الفتاة حليقة الرأس: "أيّ طابق؟".

أجبتها: "المائة".

"كيف عرفت ذلك؟".

قال يوريا: "كفى لين، كوني لطيفة".

أجبتها: "نحن في مبنى مهجور مؤلّف من مائة طابق مع بعض الشجعان، وذلك استنتاج منطقي".

لم تجبني، بل اكتفت بإقحام إصبعها في الزرّ الأيمن.

ارتفع المصعد إلى الأعلى بسرعة جعلت قلبي يغوص، وأذنيّ تفرقعان. أمسكت "الدرابزين" المثبّت على الحائط الجانبي للمصعد، ورحت أراقب الأرقام وهي تتصاعد. تجاوزنا الطابق العشرين، والثلاثين، وسوّى يوريا شعره أخيراً. بلغنا الطابق الخمسين، ثم الستّين، وتوقّفت أصابع قدمي عن إيلامي. مررنا بالطابق الثامن والتسعين، والتاسع والتسعين، وتوقّفنا عند الطابق المائة.

"أتساءل كيف سنصعد إلى السطح من...". بقيت جملة يوريا معلّقة.

هبّت عليّ رياح قوية، وطار شعري على وجهي. كانت ثمّة فجوة كبيرة في سقف الطابق المائة. أسند زيك سلّماً من الألومينيوم إلى طرفها، وبدأ يتسلّقه. أخذ السلّم يصرّ ويتمايل تحت قدميه، لكنّه واصل الصعود وهو يصفر. وعندما وصل إلى السطح، استدار، وثبّت أعلى السلّم للشخص التالي.

تساءلت للحظة عمّا إذا كانت هذه مهمّة انتحارية مموّهة.

ليست هذه هي المرّة الأولى التي أطرح فيها على نفسي هذا السؤال منذ حفل الاختيار.

تسلّقت السلّم خلف يوريا، وذكّرني ذلك باليوم الذي تسلّقت فيه دولاب فيريس، وفور في أعقابي. تذكّرت يده التي حالت دون سقوطي، فأوشكت أن أتعثّر على السلّم. غبيّة.

عضضت على شفتي، وواصلت التقدم إلى الأعلى، ثمّ وقفت على سطح مبنى هانكوك.

حالت الرياح القوية دون سماعي أيّ صوت آخر. واضطررت إلى الاستناد على يوريا كي لا أقع. في البداية، لم أر سوى المستنقع الواسع وبنّي اللون وهو يلامس الأفق؛ مجرّداً من الحياة. في الاتّجاه الآخر، امتدّت المدينة، وكانت تشبهه من نواحٍ عديدة؛ فهي خالية من الحياة، وبلا حدود.

أشار يوريا إلى شيء ما. كان ثمّة سلك فولاذي بسماكة معصمي معلّق على قمّة البرج. وعلى الأرض، وضعت كومة من الحمّالات السوداء المصنوعة من القماش السميك، والقوية بما فيه الكفاية لحمل كائن بشري. أخذ زيك واحدة، وعلّقها ببكرة تتدلّى من السلك الفولاذي.

تبعت بنظري السلك إلى الأسفل؛ فوق مجموعة المباني، وعلى طول لايك شور درايف. لم أعرف أين ينتهي، لكنّ الشيء الوحيد المؤكّد هو أنّني إن خضت هذه المغامرة، فسأعرف حتماً.

سننزلق على سلك فولاذي من على ارتفاع ألف قدم.

قال يوريا: "أوه يا إلهي".

أمّا أنا، فاكتفيت بهزّ رأسي إلى الأسفل.

كانت شونا أوّل من أدخل جسده في الحمّالة. مالت إلى الأمام، على بطنها، إلى أن أصبح معظم ثقلها على القماش الأسود. بعد ذلك، مرّر زيك حزاماً بين كتفيها، وأسفل ظهرها، وأعلى فخذيها، ثمّ سحبها بالحمّالة إلى طرف المبنى، وبدأ العدّ التنازلي من الرقم خمسة. رفعت شونا إبهاميها وهو يدفعها إلى الأمام، نحو الفراغ.

شهقت لين عندما اندفعت شونا نحو الأرض، بانحدار حادّ، ورأسها في المقدّمة. تقدّمتُ، ووقفت أمامها لكي أرى بشكل أفضل. ظلّت شونا معلّقة بأمان في حمّالتها، حتّى ابتعدت وتحوّلت إلى مجرّد نقطة سوداء فوق لايك شور درايف.

أخذ الأعضاء يهتفون، ويرفعون قبضاتهم في الهواء. ثمّ شكّلوا صفّاً، وقاموا أحياناً بدفع بعضهم بعضاً للوقوف في مكان أفضل. فجأة، لاحظت أنّني الأولى في صفّ المبتدئين، أمام يوريا مباشرة. ولم يكن بيني وبين السلك سوى سبعة أشخاص.

مع ذلك، تذمّر جزء منّي، عليّ انتظار سبعة أشخاص؟ كنت أشعر بمزيج من الرعب واللهفة، بإحساس غريب بالنسبة إليّ.

قفز الشابّ التالي، بشعره المسدل على كتفيه، في الحمّالة على ظهره وليس على بطنه. مدّ ذراعيه إلى الجانبين، بينما دفعه زيك على السلك الفولاذي.

لم يبد الخوف على أحد من الأعضاء. فهم يتصرّفون كما لو أنّهم مارسوا هذه اللعبة آلاف

المرات. لكن، عندما التفتّ إلى الخلف، لاحظت الشحوب والقلق على وجوه معظم المبتدئين، حتّى لو كانوا يتكلمون بحماسة. ما الذي يحدث بين مرحلتَي التلقين والعضوية ليحوّل الذعر إلى متعة؟ أم أنّ الناس يصبحون أكثر براعة في إخفاء خوفهم؟

بقي أمامي ثلاثة أشخاص. حمالة أخرى، ارتدتها فتاة أدخلت قدميها فيها أوّلاً، وشبكت ذراعيها على صدرها. اثنان. شاب طويل القامة وقويّ البنية، قفز كالأطفال، قبل أن يدخل جسده في الحمالة، ويطلق صرخة عالية وهو يختفي؛ الأمر الذي أضحك الفتاة الواقفة أمامي. شخص واحد.

قفزَت الفتاة، وأبقت يديها أمامها، بينما كان زيك يشدّ لها الأحزمة. ثمّ حان دوري.

ارتعدتُ، بينما كان زيك يعلّق حمّالتي على السلك. حاولت الصعود للوصول إليها، لكنّني لم أستطع، لأنّ يديّ كانتا ترتجفان كثيراً.

همس زيك في أذني: "لا تخافي". ثمّ أمسك ذراعي، وساعدني على إدخال جسدي فيها، حيث كان وجهي إلى الأسفل.

شدّ زيك الأحزمة حول وسطي، ودفعني إلى الأمام، إلى طرف السطح. حدّقت إلى عوارض المبنى الفولاذية ونوافذه السوداء، وصولاً إلى الرصيف المشقّق. ما أفعله ضرب من الجنون. واستمتاعي وأنا أشعر بقلبي يخفق بين ضلوعي، والعرق يتجمّع على خطوط كفيّ، أيضاً من ضروب الجنون.

قال زيك ساخراً: "هل أنت جاهزة أيّتها المتزمّتة؟ أنا مندهش حقّاً لأنّك لم تبدئي بعد بالصراخ والبكاء".

قال يوريا: "قلت لك، إنّها شجاعة حتى العظم. والآن أطلقها".

قال زيك: "حذار يا أخي، وإلاّ فلن أشدّ أحزمتك جيّداً". ثمّ ضرب برجله على الأرض، مضيفاً: "وعندها، سينتهي أمرك!".

قال يوريا: "أجل، أجل، وعندها ستحرقك أمّنا حيّاً".

حين سمعته يتحدّث عن أمّه، وأسرته المجتمعة، شعرت بالألم للحظة؛ كما لو أن أحداً غرز إبرة في قلبي.

"هذا إن عرفَت". شدّ زيك على البكرة المعلّقة بالسلك. لحسن الحظّ، كانت متينة. ولو أفلتت، فسيكون موتي سريعاً ومحتوماً. نظر إليّ وقال: "جاهزة، استعدّي، ان –".

وقبل أن ينهي كلمة "انطلقي"، أفلت الحمّالة ونسيته، ونسيت يوريا، والأسرة، وكلّ الأشياء التي قد

تتعطّل وتتسبّب في موتي. سمعت احتكاك المعادن ببعضها، وشعرت بالرياح القوية التي دفعت الدموع إلى مقلتيّ وأنا أندفع نحو الأرض.

أحسست أنّني جوهر بلا وزن. أمامي، بدا المستنقع هائلاً، حيث امتدّت البقع البنية إلى أبعد ممّا يمكنني رؤيتها، حتى عن هذا الارتفاع. وكان الهواء بارداً وعنيفاً حيث آلم وجهي. ازدادت سرعتي وخرجت منّي صرخة ابتهاج، لم يوقفها سوى الهواء الذي ملأ فمي حالما فتحته.

كانت الأحزمة تحميني، فمددت ذراعيّ، وتخيّلت أنّني أطير. اندفعت نحو الشارع المليء بالشقوق والحفر، وتبعت انحناء المستنقع. يمكنني أن أتخيّل من هنا كيف كان يبدو عندما كان مليئاً بالمياه؛ مثل الفولاذ السائل الذي يعكس زرقة السماء.

أخذ قلبـي ينبض على نحو مؤلم، ولم أكن قادرة على الصراخ ولا على التنفّس، غير أنّني كنت أشعر بكلّ شيء، بكلّ شريان وبكلّ عرق، بكلّ عظمة وبكلّ عصب؛ كلّها كانت متيقّظة وتئزّ في جسدي وكأنّها مشحونة بالكهرباء. أنا أدرينالين صافٍ.

بدأت الأرض تكبر وتنتفخ تحتي، حيث استطعت رؤية أشخاص دقيقي الحجم يقفون على الرصيف في الأسفل. عليّ أن أصرخ؛ كما كان سيفعل أيّ شخص عاقل، لكن عندما فتحت فمي مجدّداً، رحت أصيح من شدة الفرح. رفعت صوتي أكثر، وأخذ الناس الموجودون على الأرض يلوّحون بقبضاتهم في الهواء، ويهتفون لي، لكن تعذّر عليّ سماعهم بسب المسافة التي تفصلني عنهم.

نظرت إلى الأسفل، وانسابت الأرض تحتي، رمادية وبيضاء وسوداء، زجاج ورصيف وفولاذ. أخذ الهواء يلتفّ كالشعر الناعم حول أصابعي ويدفع ذراعيّ إلى الخلف. حاولت أن أشدّ ذراعيّ إلى صدري مجدّداً، لكنّني لم أقوَ على ذلك. وراحت الأرض تكبر وتتّسع.

لم تنخفض سرعتي لدقيقة أخرى على الأقلّ، بل طرت بموازاة الأرض مثل عصفور.

وعندما أبطأت، مرّرت أصابعي في شعري. كان الهواء قد تسبّب في تشابكه. أصبحت على ارتفاع حوالى عشرين قدماً عن الأرض، لكنّ هذا العلوّ لم يعد يبدو كبيراً الآن. مددت يديّ إلى الخلف لأفكّ الأحزمة. كانت أصابعي ترتجف، لكنّني نجحت في ذلك. رأيت حشداً من أعضاء الشجاعة في الأسفل. كانوا يمسكون بأذرع بعضهم بعضاً؛ مكوّنين شبكة من الأيدي تحتي.

لكي أنزل، عليّ الوثوق في أنّهم سيلتقطونني. فقد قبلت أن يكون هؤلاء قومي، وأن أكون منهم. وهذا يحتاج إلى جرأة أكبر من الانزلاق على سلك فولاذي.

تمايلت إلى الأمام وسقطت، فارتطمت بأذرعهم بقوّة. ضغطت السواعد والمعاصم على ظهري، ثمّ

التفّت الأكفّ حول ذراعيّ، ودفعتني للوقوف. لم أعرف أيّ أيدٍ أمسكت ب.ي، وأيّ أيدٍ لم تفعل، غير أنّني رأيت ابتسامات، وسمعت ضحكاً.

سألتني شونا وهي تربّت على كتفي: "ما رأيك؟".

"أوه...". حدّق إليّ الجميع. بدوا مثلي، فقد عصفت بهم الرياح، وظهر جنون الأدرينالين في أعينهم وفي شعرهم المشعّث. صرت أعرف الآن لماذا قال أب.ي إنّ الشجعان مجموعة مجانين. فهو لم يستطع أن يفهم نوع الصداقة الحميمة التي تتكوّن بعدما يكون الجميع قد خاطروا بحياتهم معاً.

أجبتها: "متى يمكنني تكرارها مجدّداً؟". اتّسعت ابتسامتي حتّى ظهرت أسناني، وعندما ضحكوا، ضحكت. فكّرت كيف كنت أصعد السلالم مع جماعة نكران الذات، حيث يتّحد وقع أقدامنا جميعاً. هنا لا تجري الأمور على هذا النحو. لسنا متشابهين، لكنّنا كلّ واحد؛ بشكل من الأشكال.

نظرت إلى مبنى هانكوك الذي كان بعيداً حيث تتعذّر رؤية الواقفين على سطحه.

قال أحدهم وهو يشير من فوق كتفي: "انظروا، لقد وصل!". نظرت إلى حيث أشار، فرأيت شكلاً صغيراً داكناً ينزلق على السلك الفولاذي. بعد ثوانٍ، سمعت صرخة تجمّد الدم في العروق.

"أنا واثق أنّه سيبكي".

"شقيق زيك يبكي! هذا مستحيل. إن فعل ذلك فسيعاقب بلكمة قويّة".

"انظروا كيف يلوّح بذراعيه!".

قلت: "يبدو مثل قطّ مخنوق". ضحك الجميع مجدّداً، وشعرت بالذنب لأنّني أسخر من يوريا في غيابه، لكنّني سأقول الشيء نفسه لو كان حاضراً؛ أظنّ ذلك.

عندما توقّف يوريا أخيراً، لحقت بأعضاء الجماعة لملاقاته. اصطففنا تحته، ومددنا أيدينا في الفراغ الذي يفصل بيننا. أحاطت شونا مرفقي بيدها، وأمسكت أنا بذراع أخرى، لم أعد أعرف لمن تنتمي بعدما تشابكت الأذرع، ثمّ نظرت إليها.

قالت: "بالتأكيد، لن نناديك متزمّتة بعد اليوم". هزّت رأسها مضيفة: "تريس".

* * *

عندما دخلت المقهى في ذلك المساء، كنت لا أزال عابقة برائحة الهواء. ومنذ اللحظة التي دخلت فيها، وقفت بين حشد من الشجعان، وشعرت أنّني واحدة منهم. بعد ذلك، لوّحت لي شونا، وأفسحت لي المجموعة المجال، فتقدّمت إلى طاولة كريستينا وآل وويل الذين نظروا إليّ بدهشة.

لم أفكّر بهم عندما قبلت دعوة يوريا. في الواقع، من الرائع رؤية علامات الدهشة على وجوههم.

لكنّني لا أريدهم أن يستاءوا منّي.

سألتني كريستينا: "أين كنت؟ وماذا كنت تفعلين معهم؟".

"يوريا... تعرفينه، الشابّ المنتمي إلى الشجاعة الذي كان في فريقنا في لعبة الاستيلاء على العلم، التقيته وهو ذاهب مع أعضاء الجماعة، فرجاهم أن يسمحوا لي بمرافقتهم. لم يرغبوا في ذهابي معهم، حتّى إنّ فتاة تدعى لين داست على قدمي".

قال ويل بهدوء: "ربّما لم يرغبوا في وجودك في البداية، لكن يبدو أنّهم أصبحوا يحبّونك الآن".

أجبت: "أجل". ولم أستطع الإنكار. "على كلّ حال، أنا سعيدة بعودتي".

أتمنّى ألاّ يكتشفوا أنّني أكذب، لكن أظنّ أنهم قادرون على ذلك. كنت قد لمحت انعكاس صورتي على إحدى النوافذ في طريقي إلى المجمّع، وكان خدّاي أحمرين، وشعري مشعّثاً. بدوت كمن مرّ بتجربة عنيفة.

قال آل: "فاتك مشهد كريستينا وهي على وشك أن تلكم أحد مبتدئي المعرفة". بدا صوته حماسياً. يمكنني الاعتماد على آل لتخفيف التوتّر في الأجواء. "أتى يطلب آراءنا حول زعامة نكران الذات، فقالت له كريستينا إنّ عليه أن يشغل نفسه بأمور أهمّ".

أضاف ويل: "وهي على حقّ تماماً. لكنّه غضب، وارتكب بذلك خطأً كبيراً".

قلت وأنا أهزّ رأسي: "بل هائلاً". إن ابتسمت بما فيه الكفاية، فقد ينسون غيرتهم، أو استياءهم، أو أيّاً يكن ما يعتمل خلف مقلتي كريستينا.

قالت: "أجل. بينما كنت تمرحين، كنت أقوم بالعمل القذر، وأدافع عن جماعتك القديمة، وأزيل أسباب النزاع بين الجماعات...".

قال ويل وهو يكزها بكوعه: "كفى، لقد استمتعتِ بذلك. إن كنت غير مستعدّة لإخبارها القصة كاملة، فأنا سأفعل. كان واقفاً...".

واستغرق ويل في سرد قصّته، بينما رحت أهزّ رأسي كما لو كنت أصغي إليه، لكن كلّ ما استطعت التفكير فيه هو المشهد من أعلى مبنى هانكوك، والصورة التي رأيتها للمستنقع المليء بالمياه، وقد استعاد مجده. نظرت من فوق كتف ويل إلى الأعضاء الذين كانوا يتقاذفون فتات الطعام بأشواكهم.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها باللهفة لكي أكون واحدة منهم.

هذا يعني أنّه عليّ اجتياز المرحلة التالية من التلقين.

الفصل الثامن عشر

حتّى الآن، كانت المرحلة الثانية من التلقين تتضمن الجلوس في رواق مظلم مع بقيّة المبتدئين، ونحن نتساءل عمّا سيحدث لنا خلف باب مغلق.

جلس يوريا أمامي، مع مارلين إلى يساره، ولين إلى يمينه. كان قد تمّ الفصل بين مبتدئي الشجاعة والمبتدئين المنتقلين في المرحلة الأولى، لكنّنا سنتدرّب معاً من الآن فصاعداً. هذا ما أخبرنا إيّاه فور، قبل أن يختفي خلف ذلك الباب.

قالت لين وهي تحفّ حذاءها على الأرض: "إذاً، من حلّ منكم في المرتبة الأولى؟".

قوبل سؤالها بالصمت في البداية، ثمّ تنحنح بيتر وقال: "أنا".

قالت ببساطة، وهي تعبث بالقرط المعلّق في حاجبها: "أنا واثقة أنّني أستطيع التغلّب عليك. أنا أحتلّ المرتبة الثانية، لكنّني واثقة أنّ أيّاً منّا بإمكانه التغلّب عليك، أيّها المنتقل".

أوشكت أن أنفجر ضاحكة. لو كنت لا أزال في نكران الذات، لبدا لي تعليقها فظّاً وفي غير محلّه. لكن بين الشجعان، يبدو هذا النوع من التحدّي شائعاً. لقد بدأت أتوقّع هذه الأمور.

قال بيتر، وعيناه تلمعان غضباً: "لن أكون واثقاً إلى هذا الحدّ لو كنت مكانك. من هو الأوّل عندكم؟".

أجابت: "يوريا، وأنا واثقة من كلامي. هل تعلم كم مضى علينا من السنوات ونحن نستعدّ للتلقين؟".

إن كانت تقصد تخويفنا، فقد نجحت في ذلك. وبدأت أشعر بالبرد منذ الآن.

قبل أن يجيبها بيتر، فتح فور الباب وقال: "لين". أومأ برأسه نحوها، فمشت في الرواق، ولمع رأسها الأصلع تحت شعاع المصباح الأزرق المعلّق في آخره.

قال ويل ليوريا: "حللت في المرتبة الأولى إذاً؟".

هزّ يوريا كتفيه، وقال: "نعم، وماذا في ذلك؟".

أجاب ويل وقد ضاقت عيناه: "ألاّ تظنّ أنّه من الظلم أن تمضي حياتك في الاستعداد، بينما يُتوقّع منّا التعلّم خلال أسابيع قليلة؟".

"ليس حقّاً. بالتأكيد، تركّز المرحلة الأولى على المهارات، لكنّ أحداً لا يستطيع الاستعداد للمرحلة الثانية. هذا ما قيل لي على الأقلّ".

لم يردّ أحد على كلامه. جلسنا صامتين عشرين دقيقة. كنت أعدّ الدقائق على ساعتي. بعد ذلك، فتح الباب مجدّداً، ونادى فور اسماً آخر.

"بيتر".

كانت كلّ دقيقة تمضي تستهلك أعصابي. تدريجياً، تضاءل عددنا، ولم يتبقّ سوى أنا، ويوريا، ودرو. أخذ درو يهزّ ساقه، بينما راح يوريا يضرب أصابعه على ركبته. أمّا أنا، فحاولت الجلوس ساكنة تماماً. لم أكن أسمع سوى همهمات من الغرفة في آخر الرواق، وأظنّ أنّ هذا جزء آخر من اللعبة التي يحبّون ممارستها معنا، أي ترهيبنا عند أقلّ فرصة.

فُتح الباب، وأومأ فور نحوي. "تعالي، تريس".

وقفت، فشعرت بالألم في ظهري من جرّاء اتّكائي على الجدار طويلاً، غير أنّني تقدّمت بين بقيّة المبتدئين. مدّ درو ساقه أمامي، غير أنّني قفزت فوقها في اللحظة الأخيرة.

وضع فور يده على كتفي لإدخالي إلى الغرفة، وأغلق الباب خلفي.

عندما رأيت ما يوجد في الداخل، تراجعت إلى الوراء على الفور، وارتطمت كتفاي بصدره.

كان في الغرفة كرسي معدني طويل، شبيه بذاك الذي جلست عليه في اختبار الجدارة. بالقرب منه، رأيت آلة مألوفة. لم تكن هذه الغرفة تحتوي على مرايا، كما أنّ ضوءها كان خافتاً. وفي إحدى الزوايا، وضعت شاشة كومبيوتر على مكتب.

قال فور: "اجلسي". وشدّ على ذراعيّ وهو يدفعني إلى الأمام.

سألته: "ما هو موضوع المحاكاة؟". حاولت أن أمنع صوتي من الارتجاف، لكنّني لم أفلح.

أجاب: "هل سبق لك أن سمعت بعبارة: مواجهة المخاوف؟ نحن نأخذ هذه العبارة على مجمل الجد حرفياً. هذه الجلسة ستعلّمك السيطرة على انفعالاتك وسط حالة مخيفة".

وضعت يداً مرتعشة على جبيني. جلسات المحاكاة ليست حقيقية. وبالتالي، هي لا تشكّل تهديداً حقيقياً لي. لذلك، منطقياً، لا يجب أن أخاف منها. إلاّ أنّ ردّ فعلي كان عميقاً. احتجت في الواقع إلى شحذ كلّ إرادتي لأتوجّه إلى الكرسي، وأجلس عليه مجدّداً، وأضغط رأسي على المكان المخصّص له. تسلّلت إليّ برودة المعدن عبر ملابسي.

سألته: "هل أجريت يوماً اختبار الجدارة؟". فقد بدا لي مؤهّلاً لذلك.

أجاب: "كلاّ. أنا أتجنّب المتزمّتين قدر الإمكان".

لا أعرف لماذا قد يقوم شخص ما بتجنّب جماعة نكران الذات. ربّما يتجنّب المرء جماعة

الشجاعة أو النزاهة؛ لأنّ الجرأة والصدق يدفعان الناس إلى فعل أشياء غريبة، لكن نكران الذات!

"لماذا؟".

"هل تسألينني وأنت تنتظرين منّي جواباً فعلاً؟".

"لماذا تقول أشياء غامضة، ما دمت لا تحبّ أن تُسأل عنها؟".

مرّت أصابعه على عنقي، فتوتّر جسدي. أهي حركة تدلّ على الحنان!؟ كلاّ، فقد أراد إبعاد شعري جانباً وحسب. نقر على شيء ما، فالتفتُّ لأرى ما هو. كان فور يحمل حقنة ذات إبرة طويلة فيها سائل برتقالي اللون، ويضع إبهامه على المكبس.

"حقنة؟!". جفّ حلقي. لم أكن أخشى الحقن عادة، لكنّ هذه ضخمة على نحو مخيف.

قال: "نحن نستخدم نوعاً أكثر تقدّماً من المحاكاة، مصلاً مختلفاً، من دون أسلاك أو أقطاب كهربائية موصولة بك".

"وكيف سيعمل من دون أسلاك؟".

"في الواقع، أنا لديّ أسلاك، لذلك يمكنني أن أرى ما يجري. أمّا أنت، فلديك ناقل دقيق في المصل يرسل البيانات إلى الكومبيوتر".

رفع ذراعي إلى الأعلى، وغرز الإبرة في الجلد الطري في جانب عنقي. شعرت بألم عميق ينتشر في حلقي، فتقلّص وجهي وحاولت التركيز على تعابيره الهادئة.

قال: "سيبدأ مفعول المصل خلال ستين ثانية. هذه الجلسة مختلفة عن اختبار الجدارة. وبالإضافة إلى احتواء المصل على جهاز إرسال، فهو يحفز جزءاً من الدماغ يسمّى اللوزة، وهو المسؤول عن تحليل الانفعالات السلبية، كالخوف مثلاً، ثمّ ينتج الهلوسة. بعد ذلك، يتمّ نقل نشاط الدماغ الكهربائي إلى الكومبيوتر الخاصّ بنا الذي يترجم هلوساتك إلى صورة يمكنني رؤيتها ومراقبتها. أخيراً، أقوم بإرسال التسجيل إلى قادة جماعة الشجاعة. أمّا أنت، فتواصلين الهلوسة حتّى تهدئي؛ أي حتّى تنخفض سرعة نبضك، ويعود تنفّسك إلى طبيعته".

حاولت متابعة كلامه، لكنّ أفكاري أخذت تجنح. بدأت أشعر بأعراض الخوف المعروفة: تعرّق اليدين، وتسارع نبضات القلب، وضيق الصدر، وجفاف الحلق، كما أحسست بوجود كتلة في حنجرتي، وصعب عليّ التنفّس. وضع يديه إلى جانبي رأسي، وانحنى نحوي.

همس قائلاً: "كوني شجاعة تريس. المرّة الأولى هي دائماً الأكثر صعوبة".

كانت عيناه آخر ما رأيته.

* * *

وقفت وسط حقل من الأعشاب اليابسة التي يصل طولها إلى وسطي. كانت رائحة الهواء عابقة بالدخان الذي لسع أنفي. فوقي، اصطبغت السماء بلون أصفر ولّد فيّ إحساساً بالخوف، وانكمشت نفوراً منها.

سمعت صوت رفرفة؛ مثل صفحات كتاب هبّ عليها الهواء، غير أنّ الهواء كان ساكناً. لم يكن يسمع له صوت، باستثناء الرفرفة، ولم يكن حاراً ولا بارداً؛ لم يكن يشبه الهواء على الإطلاق، لكنّني ما زلت قادرة على التنفّس. بعد ذلك، شعرت بظلّ فوق رأسي.

حطّ شيء على كتفي. أحسست بثقله، وبوخز المخالب، فلوّحت بذراعي لإبعاده، وارتطمت يدي به. شعرت بشيء ناعم وطري. ريشة. فعضضت على شفتي، ونظرت جانباً، ورأيتُ طائراً أسود اللون بحجم ساعدي، أدار رأسه، وركّز إحدى عينيه الصغيرتين عليّ.

صررت على أسناني، وضربت الغراب بيدي مجدّداً، فغرز مخالبه في كتفي. صرخت من شدّة الإحباط وليس الألم، وضربت الغراب بيديّ الاثنتين، غير أنّه لازم مكانه بعناد، وعيناه على وجهي، وريشه يلمع تحت الضوء الأصفر. دوى صوت الرعد، وسمعت صوت قطرات المطر وهي تتساقط على الأرض، لكنّها لم تكن تمطر.

أصبح لون السماء قاتماً، كما لو أنّ سحابة تمرّ فوق الشمس. نظرت إلى الأعلى، وأنا منكمشة على نفسي بسبب الغراب. فرأيت سرباً من الغربان يتوجّه نحوي؛ جيشاً من المخالب الممدودة والمناقير المفتوحة التي تصيح وتملأ السماء بضجيجها. هبط السرب في مجموعة واحدة، وانقضّ على الأرض، فرأيت مئات العيون السوداء اللامعة.

حاولت الهرب، لكنّ قدميّ كانتا مثبّتتين على الأرض، ترفضان التحرّك. رحت أصرخ بينما كانت الغربان تطوّقني، والأجنحة تصفق على أذنيّ، والمناقير تنهش كتفيّ، والمخالب تمزّق ملابسي. صرخت إلى أن دمعت عيناي، وأخذت ألوّح بذراعيّ. ارتطمت يداي بأجسام صلبة، لكنّها طريّة في الوقت نفسه. كانت كثيرة العدد، وأنا وحيدة. راحت تعضّ أناملي، وتضغط على جسدي، فيما انزلقت الأجنحة على مؤخّر عنقي، وشدّت المخالب شعري.

رحت أتلوّى إلى أن سقطتُ أرضاً، ثمّ خبّأت رأسي بذراعيّ. نعبت الغربان، وشعرت بذبذبات في العشب، بينما كان أحدها يقحم نفسه تحت ذراعي. فتحت عينيّ، فنقر وجهي وأنفي. سال الدم على العشب، وأخذت أشهق، وأضربه بكفّي، لكنّ غراباً آخر تسلّل تحت ذراعي الأخرى، وعلقت مخالبه

بصدر قميصي.

أخذت أصرخ وأبكي.

صحت قائلة: "النجدة! النجدة!".

بيد أنّ الغربان انقضّت عليّ بقوّة أكبر، ومزّق نعيبها أذنيّ. شعرت بالألم في أنحاء جسدي كافّة؛ فقد كانت في كلّ مكان، وعجزت عن التفكير أو التنفّس. شهقت لأخذ نفس، فامتلأ فمي بالريش، ووصل إلى حلقي، ورئتيّ، وسرى في دمي.

رحت أشهق، وأصيح: "النجدة!". هذا غير معقول، غير منطقي. أنا أموت، أنا أموت، أنا أموت.

أحرقتني بشرتي، وبدأت أنزف، بينما ضجّت أذناي بنعيب الغربان. غير أنّني لم أكن أموت. تذكّرت أنّ هذا ليس حقيقياً، لكنّه يبدو حقيقياً، يبدو حقيقياً جدّاً. كوني شجاعة. تذكرت ما قاله لي فور. ناديته، وأنا أتنفّس الريش وأزفر كلمة "النجدة!"، لكنّني أدركت أنني لن أحصل على أيّ مساعدة؛ فأنا وحيدة.

أمّا أنت، فتواصلين الهلوسة حتّى تهدئي. قححت، وابتلّ وجهي بالدموع. اندسّ غراب آخر تحت ذراعيّ، فشعرت بطرف منقاره الحادّ على فمي. أدخل منقاره بين شفتيّ، وراح يخدش أسناني. وعندما أقحم الغراب رأسه في فمي، عضضت عليه بقوّة، وامتلأ فمي بطعم كريه. فبصقت، وصررت على أسناني لتشكّل حاجزاً أمامه، إلاّ أنّ غراباً رابعاً أخذ يندسّ تحت قدميّ، وانقضّ الغراب الخامس على أضلاعي.

اهدئي. لا أستطيع، لا أستطيع. رأسي يضجّ ألماً.

تنفّسي. أبقيت فمي مغلقاً، وتنفّست من أنفي. مرّت ساعات على وجودي في الحقل، لا بل أيّام. أخرجت الهواء من أنفي. كان قلبي ينبض بشدّة في صدري. عليّ أن أبطئ نبضاته. تنفّست مجدّداً. كان وجهي مبلّلاً بالدموع.

شهقت مرّة أخرى، وأجبرت نفسي على التمدّد على العشب الذي وخز بشرتي. مددت ذراعيّ، وتنفّست. أخذت الغربان تضغط على جنبيّ وتقحم رؤوسها تحت جسدي، فتركتها. تركت رفرفة الأجنحة، والنعيب الحادّ والنقر تستمرّ، وبدأت عضلاتي تسترخي واحدة تلو الأخرى، حيث استسلمت لفكرة أن أتحوّل إلى جيفة تلتهمها الغربان.

استبدّ بي الألم.

فتحت عينيّ، فوجدت نفسي جالسة على الكرسي المعدني.

رحت أصرخ، وألوّح بذراعيّ، ورأسي، وساقيّ، لكي أبعد عنّي الطيور، لكنّها اختفت، مع أنّني ما زلت أشعر بالريش يحتكّ بمؤخّر عنقي، وبالمخالب على كتفيّ وبشرتي. أخذت أنتحب، وأرجعت ركبتيّ إلى صدري، ثمّ دفنت وجهي فيهما.

لمست يد كتفي، فدفعتها بقبضتي التي ارتطمت بشيء صلب وليّن في آن معاً. شهقت قائلة: "لا تلمسني!".

قال فور: "لقد أنهينا". تحرّكت يده بارتباك على شعري، فتذكّرت أبي الذي كان يمسح على رأسي عندما يقبّلني قبلة المساء، وأمّي التي تلمس شعري وهي تقصّه. مرّرت يديّ على ذراعيّ، في محاولة لنفض الريش عنهما، مع أنّني أعرف أنّه ليس موجوداً.

"تريس".

رحت أهزّ جسدي إلى الأمام والخلف على الكرسي المعدني.

"تريس، سأعيدك إلى العنبر، اتّفقنا؟".

صرخت: "كلاّ!". ورفعت رأسي وحدّقت إليه، مع أنّني لم أستطع رؤيته من خلال الدموع. "لا أريدهم أن يروني... ليس وأنا على هذه الحال...".

قال: "آه، اهدئي". تنهّد ثمّ أضاف: "سأخرجك من الباب الخلفي".

هززت رأسي نافية: "لا أحتاج إليك...". كان جسدي يرتجف، وشعرت أنّني ضعيفة ولا أقوى على الوقوف، لكن عليّ أن أحاول. لا يمكن أن أكون الوحيدة التي تحتاج إلى مرافقة إلى العنبر. حتّى لو لم يروني، فسيكتشفون ما حدث، وسيتحدّثون عنّي –

"هراء".

أمسك بذراعي، وساعدني على النزول عن الكرسي. رففت عينيّ لإبعاد الدموع، ومسحت خدّيّ بظاهر يدي، ثمّ تركته يقودني إلى الباب، خلف شاشة الكومبيوتر.

مشينا في الرواق بصمت. وعندما أصبحنا على بعد بضع مئات من الياردات عن الغرفة، أبعدت ذراعه وتوقّفت.

سألته: "لماذا فعلت لي هذا؟ ما الغرض منه؟ لم أكن أعرف عندما اخترت جماعة الشجاعة أنّني أوافق على الخضوع لأسابيع من التعذيب!".

قال بهدوء: "هل ظننت أنّ التغلّب على الجبن أمر سهل؟".

"هذا ليس تغلّباً على الجبن! الجبن هو كيف تقرّر في الحياة العادية، وأنا لا أتعرّض للافتراس من

قبل غربان في الحياة العادية فور!". وضعت يديّ على وجهي، وبكيت.

لم يقل شيئاً، بل وقف أمامي وأنا أبكي. توقّفت عن البكاء بعد ثوانٍ، ومسحت وجهي مجدّداً، ثمّ قلت بصوت ضعيف: "أريد العودة إلى بيتي".

لكن خيار العودة لم يعد مطروحاً. فإمّا أن أبقى هنا، أو أذهب إلى أحياء المنبوذين البائسة.

لم ينظر إليّ بتعاطف، بل نظر إليّ وحسب. بدت عيناه سوداوين في الرواق المعتم، وفمه مشدوداً.

قال: "إنّ تعلّم كيفيّة التفكير في حالات الخوف درس ضروري للجميع، حتّى أسرتك المتزمّتة يجب أن تتعلّمه. وهذا ما نحاول تعليمكم إيّاه. فإن كنت غير قادرة على تعلّمه، يستحسن أن تذهبي من هنا؛ لأنّنا لن نرغب في وجودك".

ارتعشت شفتاي وأنا أجيبه: "أنا أحاول، لكنّني فشلت. إنّني أفشل".

تنهّد، وقال:" كم تظنين أن هلوساتك قد استمرّت تريس".

هززت رأسي:" لا أعرف، نصف ساعة".

أجاب:"ثلاث دقائق، كنت أسرع بثلاث مرّات من بقيّة المبتدئين. وبالتّالي، أنت بالتأكيد لست بفاشلة".

ثلاث دقائق!

ابتسم قليلاً. "غداً ستكونين أفضل، سترين".

"غداً!".

وضع يده على ظهري، وقادني إلى العنبر. شعرت بلمسة أصابعه من خلال القميص. في الواقع، أنساني ضغط يده الخفيف الطيور للحظة.

سألته وأنا أنظر إليه: "ما كانت هلوستك الأولى؟".

هزّ كتفيه مجيباً: "لم تكن شيئاً، بل شخصاً. هذا ليس مهماً".

"وهل تغلبت على ذلك الخوف الآن؟".

"ليس بعد".

وصلنا إلى باب العنبر، فاتكأ على الجدار، ودسّ يديه في جيبيه. "قد لا أتمكن من ذلك أبداً".

"إذاً، ألا يزول الخوف؟".

"أحياناً بلى، وأحياناً أخرى تحلّ مكان المخاوف القديمة مخاوف جديدة". علّق إبهاميه في عروتي

حزامه. "لكنّ الهدف ليس أن نصبح بلا مخاوف، فهذا مستحيل. بل الهدف هو تعلّم كيفيّة السيطرة على الخوف، والتحرّر منه؛ هذا هو هدفنا".

أومأت برأسي موافقة. كنت أعتقد أن الشجعان لا يهابون شيئاً. هكذا بدوا لي على أيّ حال. لكن، ربّما ما اعتبرته جرأة لا تعرف الخوف هو في الواقع خوف تحت السيطرة.

أضاف: "على كلّ حال، نادراً ما تكون مخاوفك ما يظهر في المحاكاة".

"ماذا تعني؟".

أجاب وعلى وجهه شبح ابتسامة: "هل تخافين حقاً من الغربان؟". الدّفء الذي ظهر في عينيه أنساني أنّه مدرّب.ي. بدا لي مجرّد شاب يتحدّث بشكلٍ عاديّ، وهو يوصلني إلى باب.ي. "هل تفرّين هاربةً عندما ترين غراباً؟".

"كلاّ، لا أظنّ ذلك". فكّرت بالاقتراب منه، ليس لأيّ سبب عملي، بل لمجرّد أنني أردت أن أعرف ما سأشعر به إن اقتربت منه أكثر؛ فقط لأنّني أردت ذلك.

تردّد صوت في رأسي، كم أنت سخيفة.

اقتربت منه خطوةً، واتّكأت أنا أيضاً على الجدار، ثمّ التفتّ جانباً لأنظر إليه. كما حدث ونحن على دولاب فيريس، كنت أعرف تماماً مقدار المسافة التي تفصل بيننا. ستّة إنشات. ملت نحوه، فأصبحت المسافة أقلّ من ستّة إنشات. شعرت أنني أكثر دفئاً؛ كما لو أنّ طاقةً ما تصدر عنه، ولم أشعر بها إلاّ عندما اقتربت منه.

سألته: "إذاً ما الذي يخيفني حقّاً؟".

أجاب: "لا أعرف. لا أحد يمكنه أن يعرف سواك".

هززت رأسي ببطء موافقة. قد يكون خوفي نابعاً من عدد من الأشياء، لكنّني لست واثقة أيّها السبب الفعلي، أو ما إذا كان ثمّة سبب واحد فعلي.

قلت: "لم أكن أعرف أنّ الانضمام إلى جماعة الشجاعة سيكون بهذه الصعوبة". لكن، بعد ثانية من ذلك، فوجئت بما قلته، لا بل فوجئت باعترافي بذلك. عضضت على باطن خدّي، وراقبت فور بعناية. هل أخطأت بقول ذلك له؟

قال: "قيل لي إنّ الأمور لم تكن دائماً على هذا النحو". هزّ كتفه، وبدا أنّ اعترافي لم يزعجه. "أعني، الانضمام إلى الشجاعة".

"ما الذي تغيّر؟".

أجاب: "القيادة". فالشخص الذي يشرف على التمارين هو الذي يحدّد معايير السلوك في جماعة الشجاعة. ومنذ ستّة أعوام، غيّر ماكس وبقيّة القادة طرق التدريب، حيث أصبحت أكثر تنافساً وعنفاً؛ لاختبار قوّة الناس على حدّ قولهم. هذا الأمر غيّر أولويات الجماعة ككلّ. لا شكّ أنّك ستحزري من هو المحميّ الجديد لقادة الجماعة".

الجواب بديهيّ: إريك. لقد درّبوه ليكون شريراً، وهو يدربنا الآن بالطريقة نفسها.

نظرت إلى فور، وأدركت أنّ تدريبهم لم ينجح معه.

سألته: "ما دمت قد حللت في المرتبة الأولى بين مبتدئي دفعتك، ما كانت مرتبة إريك؟".

"الثانية".

"إذاً، إريك هو الخيار الثاني للقيادة". هززت رأسي ببطء، مضيفةً: "وكنت أنت الخيار الأوّل".

"ما الذي يدفعك إلى قول ذلك".

"الطريقة التي تصرّف بها إريك خلال العشاء في الليلة الأولى. كان غيوراً، مع أنه يملك ما أراده".

لم يعارضني فور، ما يعني أنني قد أكون على حق. أردت أن أسأله عن سبب عدم قبوله بالمنصب الذي عرضه عليه القادة. لماذا يرفض القيادة ما دام يبدو قائداً بالفطرة؟ لكنّني أعرف أنّه لا يحبّ الأسئلة الشخصية.

مسحت وجهي مرةً أخرى، وسوّيت شعري.

سألته: "هل يبدو عليّ أثر البكاء؟".

مال إلى الأمام، وضاقت عيناه وهو يتأمّل وجهي. ظهرت بداية ابتسامة على زاوية فمه. اقترب أكثر، حيث بتنا نتنفّس الهواء نفسه؛ هذا إن تذكّرت أن أتنفّس.

قال: "كلاّ، تريس". ثمّ حلّت نظرة جديّة مكان ابتسامته وهو يضيف: "تبدين قويةً كالمسامير".

الفصل التاسع عشر

عندما دخلت، كان معظم المبتدئين الآخرين – من منتقلين وغيرهم – محتشدين بين صفوف الأسرّة، في حين وقف بيتر في الوسط حاملاً ورقة بين يديه.

قرأ قائلاً: "إنّ الهجرة الجماعية لأبناء قادة نكران الذات لا يمكن تجاهلها أو عزوها لمحض الصدفة. فانتقال بياتريس وكاليب برايور، ولدي أندرو برايور، مؤخّراً يدعو إلى التساؤل حول صحّة قيم نكران الذات وتعاليمهم".

شعرت ببرودة تسري في عمودي الفقري. كانت كريستينا واقفة عند أطراف المجموعة، فالتفتَت إلى الخلف ورأتني. نظرت إليّ بقلق، غير أنني لم أستطع الحراك، وذلك لأنّ الرجل الذي يتحدثون عنه هو أبـي. لقد بدأت جماعة المعرفة تهاجم أبـي الآن.

تابع بيتر: "إذاً، لماذا يتخلّى أبناء رجل مهمّ كهذا عن نمط الحياة المحدّد لهم؟ ترى مولي أتوود، وهي واحدة من المبتدئين المنتقلين إلى جماعة الشجاعة، أنّ التربية المضطربة والمتعسّفة قد تكون السبب. تقول مولي: سمعتها مرةً تتحدّث في نومها، وتطلب من أبيها أن يتوقف عن فعل شيء ما. لا أعرف ما هو، لكنّه سبّب لها الكوابيس".

إذاً، هذا هو انتقام مولي. لا بدّ أنها تحدّثت إلى مراسل جماعة المعرفة الذي صاحت كريستينا في وجهه.

ابتسمت مولي، وبدت أسنانها العوجاء. إن حطّمت أسنانها فسأسديها خدمة.

سألت: "ماذا؟!". في الواقع، حاولت أن أسأل، لكنّ صوتي خرج مخنوقاً ومبحوحاً، حيث اضطررت أن أسأل مجدداً: "ماذا؟!".

توقف بيتر عن القراءة، والتفت إليّ عدد من الأشخاص، بعضهم مثل كريستينا، نظروا إليّ مشفقين، وظهر العبوس على وجوههم، بينما التوت زوايا أفواههم إلى الأسفل. لكنّ معظمهم ابتسموا ساخرين، وتبادلوا النظرات الخبيثة. كان بيتر آخر من التفت إليّ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

مددت يدي، وقلت له وأنا أستشيط غضباً: "أعطني إيّاها".

أجاب بصوت ساخر: "لكنّني لم أنهِ قراءتها بعد". نظر إلى الورقة مجدّداً، وتابع القراءة: "مع ذلك، ربّما لا يكمن الجواب في رجل فاسد أخلاقياً، بل في مُثل فاسدة لجماعة بأكملها. ربما كان الجواب هو أنّنا فوّضنا أمر مدينتنا إلى مجموعة من الطواغيت الذين لا يعرفون كيف يخرجوننا من الفقر إلى

الازدهار".

اندفعت إليه، وحاولت أن أنتزع الورقة من بين يديه، لكنّه رفعها فوق رأسي، حيث لم يعد بإمكاني بلوغها ما لم أقفز، ولن أقفز. عوضاً عن ذلك، رفعت قدمي، ودست بأقصى قوّتي على قدمه، فصرّ على أسنانه ليكبح أنينه.

بعد ذلك، رميت نفسي على مولي، آملة أن أفاجئها بضربتي، لكن قبل أن أفعل، أحاطت بخصري يدان باردتان.

أخذت أصيح: "هذا أب.ي! أب.ي، أيّها الجبناء!".

سحبني ويل بعيداً عنها، ورفعني عن الأرض. رحت أتنفّس بسرعة، وأجاهد لأخذ الورقة قبل أن يقرأ أيّ شخص كلمة أخرى منها. عليّ أن أحرقها... أن أدمرّها، عليّ ذلك.

سحبني ويل إلى خارج الغرفة، إلى الرواق، وشعرت بأظافره تنغرز بجلدي. وعندما أغلق الباب خلفه أفلتني، فدفعته بكلّ قوّتي.

"ما بك؟ هل تظنّ أنني لا أستطيع الدّفاع عن نفسي ضدّ حثالة جماعة النزاهة؟".

قال ويل: "كلاّ". وقف أمام الباب مضيفاً: "فكّرت في منعك من افتعال شجار في العنبر. اهدئي".

ضحكت قليلاً. "أهدأ؟! أهدأ! إنهم يتحدثون عن أسرتي، عن جماعتي!".

"كلاّ، ليست كذلك". رأيت هالتين سوداوين حول عينيه، وبدا لي منهكاً. "إنها جماعتك القديمة، ولا يمكنك فعل شيء حيال ما يقولونه. لذا، من الأفضل لك أن تتجاهليهم".

"ألم تسمع؟". كان الاحمرار قد زال عن خدّيّ، وأصبحت أنفاسي أكثر انتظاماً. "جماعتك القديمة التافهة لم تعد تكتفي بإهانة نكران الذات، بل تدعو إلى انقلاب على الحكومة بأكملها".

ضحك ويل. "كلاّ، هذا ليس صحيحاً، إنهم متعجرفون وأغبياء، ولهذا السبب تركتهم. لكنّهم ليسوا ثوريين. فهم لا يريدون سوى التعبير عن رأيهم بحرية أكبر؛ هذا كلّ شيء. وهم مستاؤون من جماعة نكران الذات لأنّهم يرفضون الإصغاء إليهم".

أجبت: "هم لا يريدون من الناس أن يصغوا إليهم، بل أن يوافقوهم. وهذا لا يحدث بالقوّة". وضعت يديّ على خدّيّ مضيفة: "لا أصدقّ أنّ أخي انضمّ إليهم".

قال بحدّة: "اسمعي، ليسوا كلّهم سيئين".

أومأت برأسي، لكنّي لم أصدّقه. لا يمكنني أن أتخيّل أحداً يخرج سليماً من جماعة المعرفة؛ مع أنّ ويل يبدو سويّاً.

فُتح الباب مجدّداً، وخرجت كريستينا وآل.

سوّيت شعري. لا يمكنني العودة إلى العنبر، حتّى لو سمح لي ويل بذلك؛ لأنّهم يفوقونني عدداً. خياري الوحيد هو الذّهاب معهم، ومحاولة نسيان ما يجري خارج مجمّع الشجاعة. لديّ ما يكفي من الهموم، ولا ينقصني همّ أسرتي.

* * *

أمامي، حمل آل كريستينا على ظهره، ومشى بها. راحت تصرخ وهو يتقدّم بين الناس الذين وجّهوا له ابتسامات عريضة.

كانت كتفي لا تزال تؤلمني. فقد أقنعتني كريستينا بإضافة وشم ختم الشجاعة. كان عبارة عن دائرة في داخلها شُعلة. لم تبدِ أمّي أيّ ردّ فعل على الوشم الذي وضعته على صدري، لذلك لم تكن لديّ أيّ تحفظات حيال الأوشام؛ فهي تشكّل جزءاً من نمط الحياة هنا، لا يختلف عن تعلّم القتال.

أقنعتني كريستينا أيضاً بشراء قميص يكشف عن كتفيّ وأعلى صدري، وأن أحدّد عينيّ بالكحل مجدّداً. لم أعد أعترض على محاولاتها لتغيير مظهري؛ لا سيّما منذ أن اكتشفت أنّني أستمتع بها.

مشينا أنا وويل خلف كريستينا وآل.

قال وهو يهزّ رأسه: "لا أصدّق أنّك وضعت وشماً آخر".

"لماذا؟ ألأنني متزمّتة؟".

"كلاّ، بل لأنك... حسّاسة". ابتسم، وبانت أسنانه البيضاء والمستوية. "إذاً، ما كان مصدر خوفك اليوم تريس؟".

أجبته: "الكثير من الغربان. وأنت؟".

ضحك مجيباً: "الكثير من الأَسيد".

لم أسأله عن معنى ذلك.

قال: "من المذهل حقاً كيف يعمل كلّ ذلك. إنّه في الأساس صراع بين المِهاد الذي ينتج الخوف، والفَصّ الجبهيّ من الدّماغ الذي يتّخذ القرارات. لكنّ المحاكاة تدور كلّها في رأسك، وبالتّالي حتّى لو كنت تشعرين أن شخصاً ما يفعل هذا بك، إلاّ أنّك أنت التي تفعلينه بنفسك و...". ظلّت جملته معلّقة قليلاً. "آسف، أنا أتحدّث مثل جماعة المعرفة. هذه مجرّد عادة".

هززت كتفيّ وقلت: "هذا مثير للاهتمام".

أوشك آل أن يُسقط كريستينا، فتمسّكت بما وقعت عليه يداها، وكان وجهه. انقبضت ملامحه،

وعدّل قبضته على ساقيها. لوهلة، بدا آل سعيداً، لكن ثمّة ثقل؛ حتّى في ابتساماته. أنا أشعر بالقلق عليه.

رأيت فور واقفاً بالقرب من الهاوية، ومحاطاً بعدد من الأشخاص. كان يضحك بقوّة، حيث اضطرّ للتمسّك "بالدرابزين" ليحافظ على توازنه. عرفت من الزجاجة التي يحملها بيده، والبريق الذي بدا على وجهه أنه غير واعٍ، أو على وشك أن يصبح كذلك. كنت أعتقد أنّ فور قاسٍ مثل جنديّ، ونسيت أنّه لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره.

قال ويل: "انتبهوا، مدرّبنا هنا".

قلت: "على الأقلّ ليس إريك، وإلاّ لكان قد أجبرنا على المشاركة في إحدى ألعابه المريعة".

"بالتأكيد، لكنّ فور مخيف. هل تذكرين يوم وضع مسدّسه على رأس بيتر؟ أظنّ أنّ بيتر بلّل سرواله يومذاك".

أجبته بحزم: "بيتر استحقّ ذلك".

لم يجادلني ويل. ربّما كان سيفعل ذلك قبل بضعة أسابيع، لكنّنا رأينا جميعاً ما يستطيع بيتر فعله.

ناداني فور: "تريس!". تبادلنا النظرات أنا وويل، وتراوحت مشاعري بين الاستغراب والخوف. أمامنا، توقّف آل الذي يحمل كريستينا عن الركض، ونزلت كريستينا إلى الأرض. لا ألومهم على التحديق إليّ. فقد كنّا أربعة، ولم يكن فور يتحدّث سوى معي.

"تبدين مختلفة". نبرته الحادّة عادةً بدت اليوم متكاسلة.

قلت: "أنت أيضاً". كان مختلفاً بالفعل، فقد بدا أكثر استرخاء، وأصغر سنّاً. "ماذا تفعل؟".

أجاب ضاحكاً: "أعبث مع الموت. أنا أشرب قرب الهاوية. ليست فكرة جيّدة على الأرجح".

"صحيح". لست واثقة إذا كان فور يعجبني على هذه الحال. فثمّة شيء غير مريح فيه.

قال وهو ينظر إلى أعلى صدري: "لم أعرف أنّك حصلت على وشم".

وارتشف شيئاً من الشراب. كانت رائحة أنفاسه ثقيلة وحادّة، مثل رائحة أنفاس الرجل المنبوذ.

قال: "صحيح، الغربان". نظر إلى أصدقائه الذين تابعوا حديثهم من دونه؛ خلافاً لأصدقائي. "أودّ أن أطلب منك البقاء معنا، لكن لا يفترض بك رؤيتي على هذه الحال".

أردت أن أسأله عن سبب رغبته في بقائي معه، لكن أظنّ أنّ للجواب علاقة بالزجاجة التي يحملها بيده.

سألته: "أيّ حال؟ مشوّش؟".

"أجل... في الواقع، كلاّ". لان صوته وهو يضيف: "بل على حقيقتي".

"سأدّعي أنّني لم أرك".

"هذا لطف منك". ثمّ قرّب شفتيه من أذني، وقال: "تبدين جميلة تريس".

فوجئت بكلامه، وشعرت أنّ قلبـي قفز من مكانه. ليت شعوري لم يكن كذلك؛ لأنّ الطريقة التي نظر بها إليّ توحي بأنّه لا يدري ما يقوله. ضحكت، وقلت: "أسدِني خدمة، وابتعد عن الهاوية".

غمزني مجيباً: "بالطبع".

لم أستطع المقاومة، فابتسمت. تنحنح ويل، لكنّني لم أرغب في الالتفات عن فور، حتّى عندما عاد إلى رفاقه.

بعد ذلك، اندفع آل نحوي مثل صخرة متدحرجة، وحملني على كتفيه، فصرخت واحمرّ وجهي.

قال: "هيّا، أيّتها الصغيرة. سآخذك إلى العشاء".

أسندت مرفقيّ على ظهر آل، ولوّحت لفور فيما كان آل يحملني بعيداً.

قال آل ونحن نبتعد: "فكّرت في إنقاذك". ثمّ أنزلني، وتابع يقول: "ما كان كلّ هذا؟".

حاول أن يبدو غير مبالٍ، لكنّه طرح سؤاله بشيء من الحزن. ما زال يهتمّ كثيراً لأمري.

قالت كريستينا بصوت رخيم: "أجل، أظنّ أنّنا جميعاً نرغب في معرفة الجواب عن هذا السؤال. ماذا قال لك؟".

هززت رأسي مجيبة: "لا شيء. لم يكن يعي ما يقوله". ثمّ تنحنحت وتابعت: "لهذا السبب ابتسمت. من... المضحك رؤيته وهو على هذه الحال".

قال ويل: "صحيح. ألا يمكن أن يكون السبب –".

وكزت ويل في أضلاعه قبل أن يتمّ جملته. فقد كان قريباً بما فيه الكفاية ليسمع ما قاله فور عن مظهري، ولا أريده أن يخبر الجميع، لا سيّما آل، لكي لا يستاء أكثر.

في البيت، كنت معتادة على تمضية أمسيات هادئة وممتعة مع أسرتي. كانت أمّي تحيك الأوشحة لأولاد الحيّ، بينما يساعد أبـي كاليب في فروضه، فيما تشتعل النار في المدفأة، ويغمر السلام قلبـي، بينما أقوم بما يفترض بـي القيام به بالضبط؛ في جوّ من السلام.

لم يسبق أن حملني شابّ ضخم، أو ضحكت وأنا جالسة إلى مائدة العشاء حتّى آلمتني معدتي، أو أصغيت إلى صخب مائة شخص يتحدّثون في وقت واحد. السلام محدود هنا بمساحة حرّية أكبر.

الفصل العشرون

رحت أتنفّس من أنفي، أشهق وأزفر.

قال فور بصوت خافت: "هذه محاكاة وحسب تريس".

لكنّه مخطئ. فالجلسة السابقة عكّرت حياتي، ليلها ونهارها. لم أرَ في كوابيسي غرباناً وحسب، بل انتابني الإحساس نفسه الذي سيطر عليّ أثناء المحاكاة؛ أي الرعب والعجز، وهذا ما أخاف منه في الواقع؛ حسبما أظنّ. أصبحت نوبات ذعر مفاجئة تنتابني وأنا في حوض الاستحمام، أو عند تناول الفطور، أو في طريقي إلى هنا. قضمت أظافري حتّى آلمتني أصابعي. لم أكن الوحيدة التي تعاني، وكنت أعرف ذلك.

على الرغم من هذا، هززت رأسي موافقة، وأغمضت عينيّ.

* * *

أنا أقف في ظلام دامس. آخر ما أذكره هو الكرسي المعدني والإبرة في ذراعي. هذه المرّة لم أرَ حقلاً، ولا غرباناً. أخذ قلبي ينبض ترقّباً. أيّ وحوش ستنقضّ عليّ من الظلام وتسلبني عقلي؟ إلى متى سأنتظرها؟

أضاء زرّ أزرق على بعد بضع أقدام فوقي، وملأ الغرفة بالنور، فوجدت نفسي في السرداب، بالقرب من الهاوية، بينما وقف المبتدئون حولي، وشبكوا أذرعهم على صدورهم. كانت وجوههم خالية من التعابير. بحثت عن كريستينا، ووجدتها بينهم. لم يتحرّك أيّ منهم، وهذا الجمود أشعرني بالاختناق.

رأيت شيئاً أمامي، إنّه انعكاس صورتي. مددت يدي إليه، فلمست أصابعي الزجاج البارد والناعم. رفعت رأسي، فرأيت لوحاً زجاجياً فوقي. أنا في حجرة زجاجية. ضغطت على اللوح العلوي لأرى ما إذا كنت أستطيع فتحه، لكنّه لم يتحرّك. أنا سجينة.

أخذ قلبي ينبض بسرعة. لا أحبّ أن أكون محاصرة. طرق شخص ما على الجدار أمامي. كان فور الذي أشار إلى قدميّ وهو يبتسم ساخراً.

قبل بضع ثوانٍ، كانت قدماي جافّتين، غير أنّني أقف الآن في نصف إنش من المياه، فابتلّ جورباي. ركعت لأرى من أين ينبع الماء، لكنّني لم أجد مصدره، بل كان يتدفّق من أسفل الحجرة وحسب. نظرت إلى فور، فهزّ كتفيه بلا اكتراث، وانضمّ إلى مجموعة المبتدئين.

ارتفع منسوب المياه بسرعة، وغطّى كاحليّ، فطرقت على الزجاج بقبضتي.

هتفت: "أخرجوني من هنا!".

ارتفع الماء البارد فوق ساقيّ العاريتين، فأخذت أضرب على الزجاج بقوّة أكبر.

"أخرجوني من هنا!".

نظرت إلى كريستينا، غير أنّها انحنت نحو بيتر الذي كان واقفاً بالقرب منها، وهمست في أذنه، ثمّ ضحكا.

غطّت المياه فخذيّ، فرُحت أضرب بيديّ الاثنتين على الزجاج. لم أكن أحاول لفت انتباههم، بل كسر الزجاج. ضربت عليه بجنون، بأقصى قوّتي. ثم تراجعت وضربت الجدار بكتفي، مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات، أربع مرّات. ضربت الجدار إلى أن آلمتني كتفي، وصحت طالبة المساعدة وأنا أشاهد الماء يرتفع إلى خصري، وأضلاعي، وصدري.

صرخت: "النجدة! أرجوكم! ساعدوني أرجوكم!".

ضربت الزجاج بقبضتي غاضبة. سأموت في هذا الصندوق. مرّرت أصابعي المرتجفة في شعري.

رأيت ويل واقفاً بين المبتدئين، فدغدغت ذاكرتي جملة قالها. هيّا، فكّري. توقّفت عن محاولة كسر الزجاج. أصبح التنفّس صعباً، لكن عليّ المحاولة. سأحتاج إلى أكبر كمية ممكنة من الهواء يمكنني تنشّقها خلال بضع ثوانٍ.

ارتفع جسدي في الماء، فعمت بالقرب من السقف، وأملت رأسي إلى الخلف مع وصول الماء إلى ذقني. شهقت، وضغطت وجهي على الزجاج فوقي، ثمّ أخذت ما أمكنني من الهواء. وبعد ذلك، غطّاني الماء تماماً، وحبسني في الصندوق.

لا تصابي بالذعر. لا فائدة من تسارع نبضات قلبي وتشتّت أفكاري. تخبّطت في المياه، وضربت الجدران. ركلت الزجاج بأقصى قوّتي، لكنّ الماء أبطأ من حركة قدمي. المحاكاة في رأسك وحسب.

صرخت، وملأت المياه فمي. ما دامت في رأسي، يمكنني إذاً التحكّم بها. أحرقت المياه عينيّ. حدّقت إليّ عيون المبتدئين من دون انفعال. إنّهم لا يكترثون بما يجري لي.

صرخت مجدداً، وضربت الجدار بكفّي. عندئذٍ، سمعت صوتاً، كان صوت تشقّق. وعندما أبعدت يدي، رأيت خطّاً على الزجاج، فوجّهت إليه ضربة أخرى بيدي الثانية، وأحدثت فيه شقاً آخر؛ امتدّ هذه المرّة بعيداً عن كفّي، في خطوطٍ طويلةٍ ومتعرّجة. شعرت بألم حادّ في صدري، كما لو أنّني

ابتلعت ناراً. ركلت الجدار مجدّداً. آلمتني أصابع قدمي، لكنّني سمعت صوتاً أشبه بأنين طويلٍ وخافت.

تحطّم الزّجاج، ودفعتني قوّة ما إلى الأمام، فتنفّست الهواء من جديد.

شهقت وجلست، فوجدت نفسي على الكرسيّ. تنشّقت الهواء، وأخذت أهزّ يديّ، محاولةً التمسّك بشيءٍ. كان فور واقفاً إلى يميني. لكن، عوضاً عن مساعدتي، اكتفى بالنظر إليّ.

سألته: "ماذا؟".

"كيف فعلت ذلك؟".

"ماذا فعلت؟".

"كسرت الزجاج".

"لا أدري". أخيراً، مدّ فور يده إليّ، فانزلقت ساقاي عن الكرسيّ. وعندما وقفت، أحسست بالاستقرار والهدوء.

تنهّد، ثمّ أمسك بذراعي، يقودني إلى خارج الغرفة ويجرّني في آن. مشينا بسرعةٍ في الرّواق، ثمّ توقّفت وسحبت ذراعي. حدّق إليّ بصمتٍ، لكنّه لن يعطيني أيّ معلومات من دون أن أسأل.

"ماذا؟".

أجاب: "أنتِ جامحة".

حدّقت إليه، وسرى فيَّ الخوف مثل تيارٍ كهربائي. إنّه يعرف. لكن، كيف عرف؟! لا بدّ أنّ لساني زلّ، وقلت شيئاً خاطئاً.

يجب أن أتصرّف بشكلٍ طبيعي. لذلك اتكأت على الجدار وسألته: "ما معنى جامحة؟".

أجاب: "لا تمثّلي عليّ الغباء. اشتبهتُ بذلك في المرّة الماضية، لكنّ الأمر واضح هذه المرّة. لقد تحكمت بجلسة المحاكاة، وبالتّالي أنتِ جامحة. سأمسح التّسجيل، لكن إن كنت لا تريدين الموت في قعر الهاوية، فعليك إيجاد طريقة لإخفاء هذا الأمر خلال الجلسات! والآن، المعذرة".

عاد إلى غرفة المحاكاة، وصفق الباب خلفه، فشعرت كما لو أنّ قلبي ينبض في حنجرتي. لقد تحكّمت بالمحاكاة، وكسرت الزجاج. لم أكن أعرف أن هذا التصرّف دليل جموح.

كيف عرف؟

ابتعدت عن الجدار، وتابعت طريقي في الممرّ. أنا بحاجة إلى أجوبة، وأعرف أين أجدها.

* * *

ذهبت مباشرة إلى صالة الوشم التي التقيت فيها توري.

لم يكن الناس كثراً في الخارج بعد الظهيرة، فمعظمهم في المدرسة أو العمل. رأيت ثلاثة أشخاصٍ في صالة الوشم؛ رسّام الأوشام الثاني الذي كان يرسم أسداً على ذراع رجل آخر، وتوري التي كانت ترتّب مجموعة من الأوراق على الطاولة. نظرت إليّ عندما دخلت.

قالت: "مرحباً تريس". ونظرَت إلى رسّام الأوشام الآخر الذي كان مندمجاً بما يفعله، ولم يلاحظني. "فلنذهب إلى الخلف".

تبعتها إلى خلف الستارة التي تفصل بين الغرفتين. كانت الغرفة الأخرى تحتوي على بضعة كراسٍ، وإبر وشم، وحبر، ومجموعة أوراق، وأعمال فنيّة موضوعة في أطر. أغلقت توري الستارة، وجلست على أحد الكراسي. جلست بالقرب منها، ورحت أضرب بقدمي بخفّة على الأرض لأشغل نفسي.

سألتني: "ماذا يجري؟ كيف تسير جلسات المحاكاة؟".

هززت رأسي قائلة: "جيّدة جدّاً؛ على نحوٍ زائد كما سمعت".

"آه".

قلت بصوت خافت: "أرجوك، ساعديني لكي أفهم. ما الذي يعنيه أن أكون...". تردّدت، إذ لا يجدر بـي لفظ كلمة جامحة هنا. "ما مشكلتي؟ وما علاقة هذا بالجلسات؟".

تبدّلت ملامح توري، واتّكأت على ظهر كرسيّها، ثمّ شبكت ذراعيها على صدرها، وبدا الحذر على وجهها.

"من بين أمور أخرى، أنت... أنت شخص يُدرك – وهو في جلسة المحاكاة – أنّ ما يمرّ به ليس حقيقياً، ويكون بالتّالي قادراً على التحكّم بالجلسة، أو حتّى إيقافها. أنت أيضاً...". مالت إلى الأمام، ونظرت إلى عينيّ، ثمّ تابعت: "نظراً لكونك شجاعة... فأنت ميّالة إلى الموت".

شعرت بثقل على صدري؛ كما لو أنّ كلّ جملة قالتها استقرّت هناك. تصاعد التوتّر داخلي إلى أن أصبحت غير قادرة على احتماله؛ يجب أن أبكي، أو أصرخ، أو...

صدرت عنّي ضحكة خفيفة خشنة، ماتت فور ولادتها، وقلت: "إذاً سأموت؟".

قالت: "ليس بالضرورة، فقادة الشجاعة لا يعرفون بأمرك بعد. لقد مسحتُ نتائج اختبار الجدارة من النظام فوراً، وأدخلت نتيجتك يدوياً على أنّها نكران الذات. لكن، كوني واثقة، إن عرفوا بأمرك فلن يتورّعوا عن قتلك".

حدّقت إليها بصمت. في الواقع، لا يبدو عليها الجنون. فهي تبدو متوازنة، وإن كانت على عجلة من أمرها بعض الشيء، لكنّني لم ألاحظ مطلقاً أنّها تعاني من عدم الاتّزان. ومع ذلك، لا بدّ أن تكون مضطربة. فأنا لم أسمع طوال حياتي عن وقوع جريمة في مدينتنا. حتّى لو كان الأفراد قادرين على ذلك، فإنّ قادة الجماعات لا يمكن أن يرتكبوا الجرائم.

قلت: "خوفك مبالغ فيه. لا يمكن أن يعمد قادة جماعة الشجاعة إلى قتلي. فالناس ما عادوا يقومون بذلك؛ وإلاّ ما الهدف من كلّ... كلّ تلك الجماعات؟".

"آه! ألا تظنين ذلك؟".

وضعت يديها على ركبتيها، وحدّقت إليّ، فيما ظهر على ملامحها غضب مفاجئ. "لقد قتلوا أخي، فلماذا لن يقتلوك إذاً؟ ما الذي يميّزك عنه؟".

سألتها باستغراب: "قتلوا أخاك؟!".

"أجل، أخي. كلانا انتقلنا من المعرفة، لكنّ نتائج اختباره لم تكن حاسمة. في آخر يوم من جلسات المحاكاة، تمّ العثور على جثّته في الهاوية. قيل إنّه انتحر. لكنّ أخي كان يحصل على نتائج جيّدة في التدريب، ويواعد مبتدئة أخرى، كان سعيداً". هزّت رأسها بحزن مضيفة: "لديك أخ، أليس كذلك؟ ألا تظنّين أنّك كنت ستعرفين لو كانت لديه ميول انتحارية؟".

حاولت أن أتخيّل كاليب مقدماً على الانتحار، لكنّ الفكرة بحدّ ذاتها بدت لي سخيفة. حتّى لو كان كاليب يائساً، فإنّ هذا الخيار ليس مطروحاً بالنسبة إليه.

كان كمّاها مرفوعين، فرأيت وشماً لنهر على ذراعها اليمنى. هل وضعته بعد موت أخيها؟ هل النهر هو الخوف الآخر الذي أرادت التغلّب عليه؟

أخفضت صوتها: "في المرحلة الثانية من التدريب، حصل جورجي على نتائج جيّدة جدّاً، وبشكل سريع. قال إنّ المحاكاة لم تخفه... بل كانت بالنسبة إليه كاللعبة. وعندئذٍ، اهتمّ به المدرّبون على نحو خاصّ. كانوا يتجمهرون في الغرفة عندما يخضع للجلسات؛ عوضاً عن ترك مدرّبه ينقل إليهم النتائج. كما أخذوا يتهامسون حوله طوال الوقت. وفي آخر جلسة له، أتى أحد قادة الشجاعة لرؤيته بنفسه. وفي اليوم التالي، اختفى جورجي".

يمكنني أن أبرع في جلسات المحاكاة، إن أتقنت المهارة التي ساعدتني على كسر الزجاج. يمكنني أن أبرع إلى حدّ يلفت نظر مدرّبيّ. يمكنني ذلك، لكن هل سأفعل؟

قلت: "أهذا كلّ ما في الأمر؟ مجرّد تغيير جلسات المحاكاة؟".

أجابت: "أشكّ في ذلك، لكن هذا كلّ ما أعرفه".

فكّرت في فور، وسألتها: "كم من الأشخاص يعرفون بذلك؟ أي القدرة على التحكّم بالمحاكاة؟".

قالت: "نوعان من الأشخاص: إمّا أناس يريدون القضاء عليك، أو أناس اختبروها بأنفسهم مباشرة، أو عبر أشخاص آخرين؛ مثلي".

قال لي فور إنّه سيمسح تسجيل كسري للزجاج. هذا يعني أنّه لا يريد القضاء عليّ. هل هو جامح؟ أم أحد أفراد أسرته؟ أم صديقه؟ أم صديقته؟

طردت الفكرة من رأسي، إذ لا يجب أن أدعه يشتّت أفكاري.

قلت لها ببطء: "لا أفهم. لماذا يهتمّ قادة الشجاعة إن كنت أستطيع التحكّم بالمحاكاة؟".

"لو فهمت السبب، لأخبرتك به". أطبقت شفتيها على بعضهما، وأضافت: "الشيء الوحيد الذي توصّلت إليه هو أنّ ما يهتمّون به ليس تغيير المحاكاة، بل كونه عارضاً لأمر آخر؛ وهو الذي يهمّهم بالفعل".

أمسكت توري بيدي، وضغطت عليها قائلة: "فكّري جيّداً تريس. هؤلاء الناس علّموك كيف تستخدمين مسدّساً، وكيف تقاتلين. هل تظنّين أنّهم غير قادرين على إيذائك، أو حتّى قتلك؟".

تركَت يدي، ووقفَت:

"عليّ الذهاب، قبل أن يبدأ باد بطرح الأسئلة. كوني حذرة تريس".

الفصل الحادي والعشرون

أُغلق باب السرداب خلفي، وبقيت بمفردي. لم أعبر هذا النفق منذ حفل الاختيار. أذكر كيف دخلتُ في ذلك اليوم، بخطوات متردّدة، وأنا أبحث عن الضوء. أما اليوم، فعبرته بخطى واثقة. فأنا لم أعد بحاجة إلى الضوء.

مرّت أربعة أيّام على حديثي مع توري. ومنذ ذلك اليوم، نشرت جماعة المعرفة مقالتين عن جماعة نكران الذات. في الأولى، اتّهمتها أنّها تمنع وسائل الرفاهية – كالسيارات والفواكه الطازجة – عن الجماعات الأخرى لفرض مبدأ الزهد على الجميع. عندما قرأته، فكّرت بشقيقة ويل، كارا، التي اتّهمت أمّي بمنع وصول البضائع إليهم.

أمّا المقالة الثانية، فتناولت عدم اختيار مسؤولين حكوميين من بقيّة الجماعات، وتساءلت عن سبب عدم ضمّ الحكومة سوى أشخاص يعرّفون عن أنفسهم أنّهم غير أنانيين. كما شجّعت على العودة إلى الأنظمة السياسية الماضية، القائمة على الانتخاب الديمقراطي. وجدتُ ذلك منطقياً جدّاً، وشككت في أن يكون دعوة إلى الثورة؛ مموّهة بقناع العقلانية.

وصلتُ إلى آخر النفق. كانت الشبكة ممدودة عبر الفجوة؛ تماماً كما كانت عندما رأيتها آخر مرّة. صعدتُ الدرجات المؤدّية إلى المنصّة الخشبية التي قادني إليها فور، وأمسكتُ عمود الشبكة. لم أتمكّن من رفع جسدي بذراعيّ في يومي الأوّل هنا. أمّا الآن، فقمت بذلك من دون تفكير تقريباً، وتدحرجتُ إلى وسط الشبكة.

نظرت إلى المباني الخالية المطلّة على الحفرة، وإلى السماء. كانت كحلية اللون، بلا نجوم، وبلا قمر.

أزعجتني المقالات، لكن لديّ أصدقاء يموّهون عنّي، وهذه نعمة. عندما نشرت المقالة الأولى، أقنعت كريستينا أحد الطهاة في مطبخ الجماعة بالسماح لنا بتجربة خلطة كعكة. وبعد المقالة الثانية، علّمني يوريا ومارلين لعبة ورق، فلعبنا لساعتين في قاعة العشاء.

غير أنّني هذه الليلة أردت أن أكون وحدي. والأهمّ أنّني أردت أن أتذكّر سبب مجيئي إلى هنا، وسبب تصميمي على البقاء، إلى حدّ القفز من مبنى خالٍ من أجل ذلك؛ حتّى قبل أن أعرف ما يعنيه الانتماء إلى جماعة الشجاعة. مرّرت أصابعي عبر ثقوب الشبكة.

أردت أن أكون مثل الشجعان الذين كنت أراهم في المدرسة. أردت أن أكون جريئة وحرّة مثلهم.

لكنّ هؤلاء لم يصبحوا أعضاء بعد، بل كانوا يقلّدون الشجعان وحسب. وهذا ما فعلته عندما قفزت عن ذاك السطح؛ لم أكن أعرف معنى الخوف بعد.

في الأيّام الأربعة الماضية، واجهت أربعة مخاوف. كنت في أحدها مقيّدة إلى عمود، ثمّ أضرم بيتر النار تحت قدميّ. وفي آخر، كنت أغرق مجدّداً، هذه المرّة في البحر، والأمواج تتقاذفني. أمّا في الثالث، فشاهدت عائلتي وهي تنزف ببطء حتّى الموت. وفي الرابع، أُجبرت على إطلاق النار عليهم. أصبحت أعرف الآن معنى الخوف.

هبّ عليّ الهواء من الفتحة، فأغمضت عينيّ. تخيّلت أنّني واقفة من جديد على السطح. يومذاك، فككت أزرار سترتي الرمادية، فبدا من جسدي أكثر ممّا كنت قد كشفت يوماً، وكوّرت القميص، ورميته على صدر بيتر.

فتحت عينيّ. كلاّ، أنا مخطئة. لم أقفز من السطح لأنّني أردت الانتماء إلى جماعة الشجاعة، بل قفزت لأنّني كنت واحدة من الشجعان أساساً، وأردتهم أن يعرفوني. أردت أن أعترف بجزء منّي فرضت عليّ جماعة نكران الذات إخفاءه.

مددت يديّ فوق رأسي، وعلّقت أصابعي بالشبكة مجدّداً، ثمّ مددت أصابع قدميّ إلى أقصى ما يمكنني، واحتللت أكبر جزء ممكن من الشبكة. كانت سماء الليل خالية وساكنة، وكذلك كان ذهني للمرّة الأولى منذ أربعة أيّام.

* * *

وضعت رأسي بين يديّ، وأخذت نفساً عميقاً. اليوم، كانت المحاكاة مثل الأمس، فقد أمسك أحدهم بيدي، وأمرني أن أطلق النار على أسرتي. وعندما رفعت رأسي، رأيت فور يراقبني.

قلت: "أعرف أنّ المحاكاة ليست حقيقية".

أجاب: "لا داعي للشرح. أنت تحبّين أفراد أسرتك، ولا تريدين إطلاق النار عليهم. هذا منطقي للغاية".

"لا تسنح لي الفرصة لرؤيتهم إلاّ في المحاكاة". ومع أنّه قال إنّني لست مضطرّة للشرح، إلاّ أنني أردته أن يعرف لماذا يصعب عليّ مواجهة هذا الخوف. كانت أظافري مقضومة حتّى اللحم؛ فأنا أعضّ عليها في أثناء نومي، وأستيقظ كلّ صباح بأصابع دامية. "أنا أشتاق إليهم. ألا... تشتاق إلى أسرتك أبداً؟".

طأطأ فور رأسه، وأخيراً أجاب: "كلاّ. لكنّ هذا غير اعتيادي".

بالفعل، حتّى إنّه أنساني أنّني كنت أصوّب مسدّساً على صدر كاليب. كيف كانت أسرته؟ لماذا لم يعد يكترث لأمرها؟

وضعت يدي على مقبض الباب، ونظرت إليه.

سألته بصمت: هل أنت مثلي؟ هل أنت جامح؟

حتّى مجرّد التفكير بالكلمة يبدو خطيراً. نظر إلى عينيّ، ومع استمرار الصمت، أخذ يبدو أقلّ جدّية. كنت أسمع دقات قلبي. فقد نظرت إليه مطوّلاً، وبادلني هو النظرات، حيث شعرت كما أن كلاً منا يحاول قول شيء لا يستطيع الآخر سماعه؛ مع أنني أتخيّل ربّما. طال وقوفنا، وتسارعت نبضاتي، وشعرت أنني أغرق في عينيه.

فتحت الباب، واندفعت عبر الممرّ.

لا يجب أن أسمح له بتشتيت ذهني بهذه السهولة. فالتدريبات هي الشيء الوحيد الذي يجب أن يشغل ذهني. ينبغي أن تسبّب لي الجلسات اضطراباً أكبر. ينبغي أن تسلبني عقلي؛ كما حدث مع بقيّة المبتدئين. درو مثلاً لا ينام، بل يمضي الليل مكوّراً على سريره، وهو يحدّق إلى الجدار. أمّا آل فيصرخ كلّ ليلة في كوابيسه، ويكتم بكاءه بوسادته؛ الأمر الذي يجعل كوابيسي، وقضمي لأظافري لا شيء بالمقارنة مع الآخرين.

يوقظني صراخ آل كلّ مرّة، فأحدّق إلى رفّاصات السرير فوقي، وأتساءل عن خطبي، وعن سبب كوني صامدة بينما ينهار الجميع. هل كوني جامحة سبب قوتي، أم ثمّة أمر آخر؟

عندما عدت إلى العنبر، توقّعت رؤية المشهد نفسه الذي أراه في كلّ مرّة: عدد من المبتدئين الممدّدين على أسرّتهم يحدّقون إلى الفراغ. ولكنهم عوضاً عن ذلك كانوا واقفين في مجموعة في الطرف الآخر من الغرفة. وقف إريك أمامهم حاملاً لوحاً في يده، موَجَّهاً إلى الجهة المعاكسة. لذلك، لم أستطع رؤية ما كتب عليه. وقفت بالقرب من ويل.

همست: "ماذا يجري؟". تمنّيت ألاّ يكون سبب هذا التجمّع مقالة أخرى. فأنا لست واثقة ممّا إذا كنت قادرة على احتمال المزيد من العداء تجاهي.

قال: "مراتبنا في المرحلة الثانية".

همست: "ظننت أنّه لن يتمّ استبعاد أحد في المرحلة الثانية".

"لن يُستبعد أحد. هذا مجرّد تقرير عن تقدّمنا".

أومأت برأسي.

شعرت بالاضطراب لدى رؤيتي اللوح؛ كما لو أنّ شيئاً ما يسبح في معدتي. رفع إريك اللوح وعلّقه على المسمار. وعندما وقف جانباً، خيّم الصمت على الغرفة، وأملت رأسي جانباً لقراءة ما كتب عليه.

كان اسمي على رأس القائمة.

التفتت الرؤوس نحوي، لكنّني تابعت قراءة القائمة. حلّت كريستينا وويل في المرتبتين السابعة والتاسعة على التوالي. أمّا بيتر، فحل في المرتبة الثانية، لكن عندما نظرت إلى المدّة المدوّنة بجانب اسمه، أدركت أنّ الفرق بيننا شاسع.

كان معدّل مدّة المحاكاة لدى بيتر ثماني دقائق، أمّا أنا فدقيقتان وخمس وأربعون ثانية.

قال ويل بصوت منخفض: "أحسنت، تريس".

هززت رأسي وأنا أحدّق إلى اللوح. يجب أن أفرح لأنّني احتللت المرتبة الأولى، لكنّني أعرف ما يعنيه ذلك. إن كان بيتر وأصدقاؤه يكرهونني أساساً، فإنّهم سيحقدون عليّ منذ الآن فصاعداً. أصبحتُ إدوارد. وقد تكون عيني هي التالية، لا بل قد يحلّ بـي ما هو أسوأ.

بحثت عن اسم آل، ووجدته في آخر القائمة. تفرّقت مجموعة المبتدئين ببطء، ولم يتبقّ أحد سواي أنا، وبيتر، وويل، وآل. أردت أن أواسي آل، وأن أخبره أنّ السبب الوحيد لنتائجي الجيّدة هو أنّ دماغي مختلف.

استدار بيتر ببطء، وبدا التوتّر في كلّ حركة من حركاته. لو حدّق إليّ، لشعرت بخوف أقلّ من تلك النظرة التي رماني بها؛ نظرة حقد صافٍ. مشى نحو سريره، غير أنّه التفت إليّ في اللحظة الأخيرة، ودفعني إلى الجدار، واضعاً يداً على كلّ من كتفيّ.

وهمس بصوت كفحيح الأفعى: "لن تتفوّق عليّ متزمّتة". كان وجهه قريباً، حيث اشتممت رائحة أنفاسه. "كيف فعلتِ ذلك؟ بربّك، كيف تمكّنتِ من ذلك؟".

شدّني إلى الأمام قليلاً، ثمّ دفعني بقوّة على الجدار مجدّداً. صررت على أسناني لكي لا أصرخ؛ مع أنّ ألم الضربة امتدّ حتّى أسفل عمودي الفقري. عندئذٍ، أمسك ويل بياقة قميص بيتر، وجرّه بعيداً عنّي.

قال له: "دعها وشأنها. وحدهم الجبناء يستقوون على فتاة صغيرة".

ردّ بيتر وهو يبعد ذراع ويل: "فتاة صغيرة! هل أنت أعمى، أم غبيّ؟ قريباً ستزيحك من طريقها ومن الجماعة، ولن تحصل على شيء؛ وكلّ هذا لأنّها تعرف كيف تتلاعب بالناس، على عكسك. لذلك، عندما تدرك أنّها ستقضي علينا جميعاً، تعال وأخبرني".

خرج بيتر من العنبر بشكل عاصف، وتبعته مولي ودرو؛ والاشمئزاز يعلو وجوههم.

قلت لويل: "شكراً".

سألني بهدوء: "هل هذا صحيح؟ هل تحاولين التلاعب بنا؟".

عبست وأجبته: "بالله عليك! كيف تصدّق ذلك؟ أنا أبذل ما في وسعي وحسب، مثلكم جميعاً".

هزّ كتفيه قليلاً وقال: "لا أعرف. ربّما تمثّلين دور الضعيفة لكي نشفق عليك، ومن ثمّ تتصرّفين بقوّة لتدمّري ثقتنا بأنفسنا؟".

كرّرت كلامه: "لأدمّر ثقتكم بأنفسكم! أنا صديقتكم، ولن أقدم على شيء كهذا".

لم يقل شيئاً، لكن من الواضح أنّه لم يصدّقني؛ ليس تماماً.

قالت كريستينا: "لا تكن غبياً ويل". قفزت عن سريرها، ثمّ نظرت إليّ من دون تعاطف، وأضافت: "إنّها لا تمثّل".

ثم استدارت كريستينا وخرجت؛ من دون أن تغلق الباب. تبعها ويل، فأصبحت وحدي في الغرفة مع آل. الأولى والأخير.

لم يسبق لآل أن بدا لي قصيراً كما هو اليوم، بكتفيه المنحنيتين، وجسده المتهالك؛ كما لو كان ورقة مجعّدة. كان جالساً على طرف السرير.

سألته: "هل أنت بخير؟".

قال: "بالطبع".

أشحت بنظري عن وجهه المحمرّ خجلاً. كان سؤالي له مجرّد تصرّف شكليّ؛ فوحده الأعمى لا يدرك أنّ آل ليس بخير.

قلت: "هذا ليس نهائياً، يمكنك تحسين مرتبتك إن...".

وتوقّفت عن الكلام عندما نظر إليّ. في الواقع، لم أكن أعرف حتّى ماذا أقول له إن أنهيت كلامي. فالمرحلة الثانية لا تتضمّن أيّ استراتيجية، بل تدخل أعماق قلوبنا، وتختبر ما فيها من شجاعة.

قال: "أترين؟ الأمر ليس بهذه البساطة".

"أعرف".

قال وهو يهزّ رأسه: "لا أظنّ ذلك". وارتجف ذقنه. "بالنسبة إليك، هذا سهل، كلّ شيء سهل".

"هذا ليس صحيحاً".

"بلى". أغمض عينيه مضيفاً: "أنت لا تساعدينني بادّعائك العكس. لا أظنّ أنّه يمكنك مساعدتي".

شعرت كما لو أنّني مشيت للتوّ في فيضان، وأصبحت ملابسي مثقلة بالمياه. أحسست أنّني خرقاء، ومربَكة، وبلا فائدة. لا أعرف ما إذا كان يقصد أنّ أحداً لا يستطيع مساعدته، أم أنا بالذات، غير أنّ التفسيرين لم يريحاني. أردت مساعدته، لكنّني كنت عاجزة عن ذلك.

"أنا...". بدأت بالكلام بِنية الاعتذار. لكن، علام؟! على كوني أكثر شجاعة منه؟ على عدم معرفتي بطريقة مناسبة لمواساته؟!

قال: "أريد...". انسابت الدموع التي كانت تتجمّع في عينيه، وبلّلت خدّيه. ".... البقاء وحدي وحسب".

أومأتُ برأسي، وأدرت ظهري. لم يكن يجدر بي تركه وحيداً، لكنّني لم أستطع فعل شيء آخر. أغلقت الباب خلفي، ومضيت.

مررت بنافورة المياه المخصّصة للشرب، وعبرت الأنفاق التي بدت لي بلا نهاية في أوّل يوم لي هنا، لكنّني اليوم بالكاد لاحظت ذلك. هذه ليست المرّة الأولى التي أخذل فيها أسرتي منذ أن أتيت إلى هنا، لكن لسبب ما، بدت لي كذلك. ففي المرّات السابقة، كنت أعرف ما عليّ فعله، لكنّني اخترت عدم فعله. أمّا هذه المرّة، فلم أعرف ماذا أفعل. هل فقدت القدرة على رؤية ما يحتاج إليه الناس؟ هل فقدت جزءاً من نفسي؟

تابعت السير.

* * *

وصلتُ بطريقة ما إلى الرواق الذي جلست فيه يوم رحل إدوارد. لا أريد أن أكون وحدي، لكنني لم أجد خياراً آخر. أغمضت عينيّ، وركّزت انتباهي على الحجر البارد تحتي، وأنا أتنفّس الهواء العفن السائد تحت الأرض.

ناداني أحدهم من آخر الرواق: "تريس!". أخذ يوريا يهرول نحوي، وخلفه لين ومارلين. كانت لين تحمل قطعة مافن.

انحنى أمامي. "ظننت أنّني سأجدك هنا. سمعت أنّك حللت في المرتبة الأولى".

ابتسمت ساخرة: "إذاً، هل أتيت لتهنئتي وحسب؟ حسناً، شكراً".

قال: "يجب أن يهنّئك أحد ما، ولا أظنّ أنّ أصدقاءك تحمّسوا كثيراً لنجاحك، ما دامت نتائجهم غير متميّزة إلى هذا الحدّ. لذا، كفاك حزناً، وتعالي معنا. سأقوم بإطلاق النار على المافن وهي على

رأس مارلين".

كانت الفكرة سخيفة إلى حدّ أنّني لم أستطع مقاومة الضحك. نهضت، ولحقت بيوريا إلى آخر الرواق. هناك، كانت لين ومارلين بانتظارنا، وبينما نظرت إليّ لين بشيء من العبوس، كانت مارلين تبتسم.

سألتني: "لماذا لم تخرجي للاحتفال؟ لقد ضمنت لنفسك أحد المراكز العشرة الأولى إن استمررت على هذا النحو".

قال يوريا: "إنّها شجاعة جدّاً بالنسبة إلى بقيّة المنتقلين".

قالت لين: "ومتزمّتة جدّاً لتحتفل".

تجاهلتها. "لماذا تريد إطلاق النار على المافن وهي على رأس مارلين؟".

شرح لي يوريا قائلاً: "تحدّتني أنّني لا أستطيع التصويب على هدف صغير من على بعد مائة قدم، فتحدّيتها أنّها لا تجرؤ على الوقوف هناك وأنا أحاول. وهكذا اتّفقنا".

لم تكن قاعة التدريب التي أطلقت فيها النار للمرّة الأولى بعيدة عن الرواق الذي كنت فيه. وصلنا إلى هناك بعد أقلّ من دقيقة، ثمّ أضاء يوريا مصباحاً. بدت لي القاعة تماماً مثلما تركتها آخر مرّة: الأهداف من جهة، وطاولة المسدّسات من الجهة الأخرى.

سألته: "هل تبقى هذه الأشياء هنا؟".

"أجل، لكنّها ليست محشوّة". رفع يوريا قميصه، فرأيت مسدّساً معلّقاً تحت حزامه، تحت الوشم مباشرة. حدّقت إلى الوشم، وحاولت أن أعرف ماهيّته، غير أنّه أخفض قميصه مجدّداً. قال: "حسناً، اذهبي وقفي أمام أحد الأهداف".

هرولت مارلين إلى حيث أشار لها.

سألت يوريا: "أنت لا تنوي إطلاق النار عليها حقّاً، أليس كذلك؟".

قالت لين بصوت خافت: "هذا ليس مسدّساً حقيقياً، بل يحتوي على ذخيرة بلاستيكية. في أسوأ الأحوال، قد تلسع الحبيبات وجهها، أو تسبّب لها احمراراً. هل تظنّين أنّنا أغبياء؟".

وقفت مارلين أمام أحد الأهداف، ووضعت المافن على رأسها، بينما أغمض يوريا إحدى عينيه وهو يصوّب.

نادته مارلين: "مهلاً!". ثمّ أخذت قطعة من المافن والتهمتها، قبل أن تصيح والطعام في فمها: "هيّا!". ورفعت إبهامها ليوريا.

قلت للين: "فهمت أنّ نتائجك جيّدة".

هزّت رأسها وقالت: "يوريا الثاني، وأنا الأولى، ومارلين الرابعة".

قال يوريا وهو يصوّب: "الأولى بفارق لا يذكر". ضغط على الزناد، فسقطت المافن عن رأس مارلين التي لم يرفّ لها جفن.

صاحت: "كلانا ربحنا!".

سألتني لين: "هل تفتقدين إلى جماعتك القديمة؟".

"أحياناً. فهناك، كانت الحياة أكثر هدوءاً وأقلّ إجهاداً".

لمّت مارلين أجزاء المافن عن الأرض، وقضمتها. فصاح يوريا: "أنت فظيعة!".

"يفترض بالتلقين أن ينهكنا لكي نكتشف من نحن بالفعل. هذا ما يقوله إريك؛ على كلّ حال". قالت لين ذلك وهي تقوّس أحد حاجبيها.

"يقول فور إنّه يهدف إلى إعدادنا".

"في الواقع، هما لا يتّفقان كثيراً".

أومأت برأسي موافقة. قال لي فور إنّ نظرة إريك للشجاعة ليست كما يفترض بها أن تكون، لكن ليته يخبرني ما هي النظرة الصحيحة بالضبط. أرى لمحات منها من وقت إلى آخر؛ مثل هتاف الشجعان عندما قفزت عن سطح المبنى، وشبكة الأذرع التي هبطتُ عليها يوم انزلقت على السلك، لكنّها غير كافية. هل قرأ بيان الشجاعة؟ هل هذا ما يعتقد به؛ أعمال الشجاعة العادية؟

فُتح باب قاعة التدريب، ودخلت شونا وزيك وفور في اللحظة التي كان فيها يوريا يطلق النار على هدف آخر. فارتدّت الرصاصة البلاستيكية عن وسط الهدف، وتدحرجت على الأرض.

قال فور: "ظننت أنّني سمعت صوتاً هنا".

قال زيك: "تبيّن أنّه أخي الأحمق. لا يفترض بكم التواجد هنا بعد دوام التدريب. كونوا حذرين، وإلاّ أخبر فور إريك، وكان مصيركم السلخ".

كشّر يوريا في وجه أخيه، ثمّ وضع المسدّس جانباً. اجتازت مارلين الغرفة وهي تأكل المافن، بينما أفسح لنا فور الطريق.

قالت لين وهي ترمق فور بتشكّك: "لن تخبر إريك، أليس كذلك؟".

أجابها: "كلاّ، لن أفعل". عندما مررت من أمامه، وضع يده على ظهري لقيادتي إلى الخارج، وضغط كفّه بين كتفيّ، فارتجفت، وتمنّيت ألاّ يلحظ ذلك.

سار الآخرون في الرواق، زيك ويوريا يتدافعان، ومارلين تتقاسم المافن مع شونا، ولين في المقدّمة، فمشيت في أعقابهم.

قال فور: "مهلاً". التفتُّ إليه وأنا أتساءل عن أيّ وجه من وجوه فور سأرى هذه المرّة؛ فور الذي وبّخني، أم الذي تسلّق معي دولاب فيريس... ابتسم قليلاً، لكنّ ابتسامته لم تصل إلى عينيه، بل كانت مشوبة بالتوتّر والقلق.

قال: "أنت تنتمين إلى هذا المكان، هل تعرفين هذا؟ أنت تنتمين إلينا. ستنتهي التدريبات قريباً، لذلك تماسكي، اتّفقنا؟".

وضع أصابعه خلف أذنه، وحكّ بشرته، ثمّ نظر بعيداً وكأنّه شعر بالارتباك بسبب ما قاله.

حدّقت إليه، وأحسست أنّ قلبي ينبض في كلّ مكان، حتّى في أصابع قدميّ. أحسست أنّني على استعداد للقيام بعمل جريء، لكنّني قد أنصرف أيضاً بكلّ سهولة. لم أكن واثقة أيّ الخيارين أذكى، أو أفضل. ولم أكن واثقة أنّني آبه لذلك.

مددت يدي وأمسكت بيده، فانزلقت أصابعه بين أصابعي، وانقطعت أنفاسي.

حدّقت إليه مطوّلاً، وبادلني النظرات. أخيراً، أبعدت يدي، وركضت خلف يوريا، ولين، ومارلين. ربّما أصبح يظنّني الآن غبية، أو غريبة الأطوار. وربّما كان الأمر يستحقّ ذلك.

* * *

عدت إلى العنبر قبل الجميع. وعندما بدأوا يتوافدون، خلدت إلى فراشي وتظاهرت أنني نائمة. لا أحتاج إلى أحد منهم إن كانوا سيتصرّفون بهذه الطريقة كلّما حصلت على نتائج جيّدة. إن تمكّنت من اجتياز التلقين، وأصبحت من الشجعان، فلن أعود مضطرّة لرؤيتهم.

أنا لا أحتاج إليهم، لكن هل أريدهم أن يكونوا أصدقائي؟ كلّ وشم حصلت عليه معهم دليل على صداقتنا، وكلّ مرّة تقريباً ضحكت فيها في هذا المكان المظلم كانت بفضلهم. لا أريد أن أخسرهم، لكنّني أشعر أنّني خسرتهم أساساً.

بعد نصف ساعة على الأقلّ من الأفكار المتسارعة، تمدّدت على ظهري، وفتحت عينيّ. أصبح العنبر غارقاً في الظلام بعد خلود الجميع إلى النوم. فكّرت بابتسامة متعَبة أنّهم منهكون على الأرجح من كثرة استيائهم منّي. وكأنّ مجيئي من أكثر الجماعات إثارة للبغض لا يكفي، ها أنذا أتفوّق عليهم أيضاً.

نهضت من السرير لأشرب. في الواقع، لم أكن أشعر بالعطش، لكنّني أردت فعل شيء. أصدرت

قدماي الحافيتان صوتاً مكتوماً على الأرض، وأنا أمشي ممرّرة يدي على الجدار لكي لا أتعثّر. كان ثمّة مصباح أزرق يتوهّج فوق النافورة.

جمعت شعري فوق إحدى كتفيّ، وانحنيت. وما إن لامست المياه شفتيّ، حتّى سمعت أصواتاً آتية من آخر الرواق. اقتربت منها بحذر، مستترة بالظلام.

عرفت صوت إريك وهو يقول: "حتّى الآن، لم تظهر أيّ علامات". علامات ماذا؟

أجاب أحدهم: "حسناً، ربّما لم تظهر تماماً بعد". كان الصوت أنثوياً وبارداً ومألوفاً، لكن مثل الحلم، وليس مثل صوت شخص حقيقي. "تدريبات القتال لا تظهر لك شيئاً، لكنّ جلسات المحاكاة تكشف عن المتمردين الجامحين؛ في حال وجودهم. لذلك، علينا أن نتفحّص التسجيلات جيّداً للتأكّد من ذلك".

شعرت بالبرد يسري في أوصالي عندما تناهت إليّ كلمة "الجامحين". ملت إلى الأمام، وضغطت ظهري على الجدار، لكي أعرف من تكون صاحبة الصوت المألوف.

قالت: "لا تنسَ السبب الذي جعلتُ ماكس يعيّنك من أجله في هذا المنصب. هدفُك الأوّل دائماً هو إيجادهم، دائماً".

"لن أنسى".

اقتربت بضعة إنشات أخرى، آملة ألاّ يفتضح أمري. أيّاً تكن صاحبة الصوت، فهي الشخص الذي يشدّ الحبال، وهي المسؤولة عن تعيين إريك في منصب قياديّ، وهي التي تريدني ميتة. أحنيت رأسي إلى الأمام، محاولة رؤيتهما قبل أن ينعطفا.

فجأة، أمسك ب.ي أحدهم من الخلف.

هممت بالصراخ، لكنّ يداً أطبقت على فمي. كانت رائحة الصابون تفوح منها، وكانت كبيرة بما فيه الكفاية لتغطّي النصف السفلي من وجهي. رحت أتخبّط، لكنّ اليدين اللتين أمسكتا ب.ي كانتا قويّتين جدّاً، فعضضت على إحدى الأصابع.

صاح صوت خشن: "آخ!".

"اصمت وأبقِ فمها مكتوماً". كان هذا الصوت أعلى من أصوات جميع الذكور، وأوضح. إنّه بيتر.

غطّت عينيّ قماشة سوداء، وقامت يدان أخريان بربطها خلف رأسي. جاهدت لأتنفّس. أحسست بيدين على الأقلّ على ذراعيّ تجرّانني إلى الأمام، وبيد على ظهري تدفعني بالاتّجاه نفسه، ويد على فمي تمنعني من الصراخ. ثلاثة أشخاص. شعرت بألم في صدري، فأنا عاجزة عن مقاومة ثلاثة

أشخاص معاً.

قال بيتر وهو يضحك: "أتساءل كيف ستبدو المتزمّتة وهي تتوسّل لنيل العطف. أسرعا".

حاولت التركيز على اليد الموضوعة على فمي. لا بدّ من وجود شيء مميّز يسهّل عليّ تحديد هوية صاحبها. مشكلة هويّته يمكنني حلّها. في الواقع، لا بدّ لي من حل مشكلة الآن، وإلاّ انتابني الذعر.

كانت اليد ناعمة، وتنضح عرقاً. فصررت على أسناني، وتنفّست من أنفي. شعرت أنّ رائحة الصابون مألوفة؛ الليمون والمريمية. إنّها الرائحة نفسها التي تحيط بسرير آل. في تلك اللحظة، شعرت بثقل في معدتي.

سمعت صوت تلاطم المياه، وصوت اصطدامها بالصخور. نحن قريبون من الهاوية، ولا بدّ أنّنا فوقها؛ نظراً إلى صوت المياه العالي. ضغطت على شفتيّ لأمنع نفسي من الصراخ. إن كنّا فوق الهاوية، فأنا أعرف ماذا ينوون أن يفعلوا بي.

"ارفعاها، هيّا".

قاومتُ، واحتكّت ثيابهم الخشنة ببشرتي، لكنّني عرفت أنّه لا جدوى من ذلك. صرخت أيضاً، وأنا أعرف أنّ أحداً لن يسمعني.

سأعيش حتّى الغد، سأفعل.

دفعتني الأيدي، ثمّ رفعتني إلى الأعلى، وارتطم ظهري بشيء صلب وبارد. بالنظر إلى عرضه وانحنائه، لا بدّ أنّه "درابزين" معدني. إنّه "الدرابزين" المعدني الذي يطلّ على الهاوية. تسارعت أنفاسي، ولامس الرذاذ عنقي. دفعت الأيادي ظهري فوق "الدرابزين". وعندما ارتفعت قدماي عن الأرض، لم يعد يمنعني شيء من السقوط في الماء سوى مهاجميّ.

قال بيتر: "هل أنت واثقة أنّك في السادسة عشرة أيّتها المتزمّتة؟ لا يبدو عليك أنّك تجاوزت الثانية عشرة". وضحك أحدهم.

ارتفعت الصفراء إلى حلقي، وابتلعت السائل المرّ.

أضاف: "مهلاً، أظنّ أنّني وجدت شيئاً!". وعضضت على لساني لكي لا أصرخ، بينما ضحك اثنان منهم مجدّداً.

انزلقت يد آل عن فمي، وقال بنبرة حادة: "كفّ عن ذلك". فعرفت صوته الخافت والمميّز.

أفلتني آل، فقاومت من جديد، ونزلت على الأرض. هذه المرّة، عضضت أوّل ذراع وجدتها أمام

فمي بأقصى قوّتي. سمعت صرخة، فشددت فكّي أكثر، إلى أن أحسست بطعم الدم. فجأة، باغتتني ضربة قويّة على وجهي. اندفعت الحرارة في رأسي، ولا شكّ أنّني كنت سأشعر بالألم لولا الأدرينالين الذي سرى في شراييني كالأسيد.

نزع الصبيّ ذراعه من بين أسناني، ودفعني على الأرض، فارتطم مرفقي بالأرض، قبل أن أرفع يديّ لأنزع العصابة عن عينيّ. في تلك اللحظة، ركلتني قدم على أضلاعي، وأفرغت كلّ ذرّة هواء في رئتيّ. فشهقتُ، وقحتُ، وجمعت يديّ خلف رأسي. بعد ذلك، أمسك أحدهم بخصلة من شعري، وضرب رأسي بعنف على شيء صلب، فخرجت منّي صرخة ألم، وشعرت بالدوار.

رحت أتلمّس رأسي بحثاً عن طرف العصابة، ثمّ دفعت يدي إلى الأعلى ونزعتها. أخذ المشهد الذي أمامي يتراقص. رأيت شخصاً يركض باتّجاهنا، وشخصاً آخر يهرب. إنّه آل، عرفته من جسده الضخم. أمسكت "الدرابزين" بالقرب منّي، ودفعت نفسي للوقوف.

أحاط بيتر عنقي بيده، ورفعني إلى الأعلى، مقحماً إبهامه تحت ذقني. كان شعره اللامع والأملس عادة مشعّثاً وملتصقاً بجبينه. وبدا وجهه شاحباً ومتقلّصاً بفعل الألم، وأسنانه مشدودة، وهو يمسكني على حافة الهاوية. راحت البقع تظهر على أطراف حقلي البصري، وصرت أرى بقعاً خضراء ووردية وزرقاء على وجهه.لم يقل شيئاً. حاولت أن أركله، لكنّ ساقيّ كانتا قصيرتين جدّاً، في حين استغاثت رئتاي طلباً للهواء.

سمعت صرخة، ثمّ أفلتني.

مددت ذراعيّ وأنا أسقط وأشهق، وارتطم باطن ذراعيّ "بالدرابزين". فعلّقت مرفقيّ فوقه، وصدر عنّي أنين ألم. لامس الرذاذ كاحليّ، بينما راح العالم يميل ويدور حولي. رأيت شخصاً ممدّداً على الأرض وهو يصرخ، وعرفت أنّه درو. ثمّ سمعت صوت ضرب وركل وأنين.

رفقت عينيّ بضع مرّات، وحاولت التركيز قدر الإمكان على الوجه الوحيد الذي رأيته. كانت أمارات الغضب طاغية على ملامحه، وبدا لون عينيه كحلياً.

قلت بصوت خشن: "فور".

ثم أغمضت عينيّ، بينما وضع يديه على أعلى ذراعيّ، وأبعدني عن "الدرابزين"، ثمّ شدّني إلى صدره. أحاطني بذراعيه، ومرّر ذراعاً تحت ركبتيّ. ضغطت وجهي على كتفه، قبل أن أغرق في صمت أجوف مفاجئ.

الفصل الثاني والعشرون

فتحت عينيّ على عبارة "لا تخشَ أحداً سوى الله"، مكتوبة على حائط أبيض. سمعت صوت مياه جارية، لكنّها كانت هذه المرّة مياه صنبور، وليست مياه النهر. مرّت ثوانٍ قبل أن تتّضح رؤيتي، وأرى إطار باب، وسطح طاولة، وسقفاً.

كان الألم الذي أشعر به مثل عِرق نابض في رأسي، وخدّي، وأضلاعي. لا يجب أن أتحرّك كي لا يتفاقم. رأيت لحافاً مصنوعاً من الرقع مختلفة تحت رأسي، وشعرت بالألم وأنا ألتفت لأرى مصدر صوت الماء.

كان فور واقفاً في الحمّام، ويداه في المغسلة. سال الدم من عقد أصابعه، وحوّل لون المياه إلى الورديّ. كان مصاباً بجرح في زاوية فمه، وبدا بخير في ما عدا ذلك. كما كانت ملامحه هادئة وهو يتفحّص جروحه، ثمّ يغلق الصنبور، ويجفّف يديه بمنشفة.

لديّ ذكرى واحدة لمجيئي إلى هنا، لا بل مجرّد صورة واحدة: حبر أسود حول طرف عنق، وهو عبارة عن زاوية وشم، وتمايلي برفق بينما كان يحملني.

أطفأ مصباح الحمام، وأخرج كيس ثلج من البراد الموجود في زاوية الغرفة. وبينما كان يقترب منّي، فكّرت بإغماض عينيّ، والتظاهر بالنوم. لكنّ نظراتنا التقت، وفات الأوان.

قلت بصوت مبحوح: "يداك".

أجاب: "هذا لا يهمّ". ركع قرب الفراش، وانحنى فوقي، ثمّ وضع كيس الثلج تحت رأسي. قبل أن يبتعد، مددت يدي لألمس جرح شفته، غير أنّني توقّفت عندما أدركت ماذا أفعل، وظلّت يدي معلّقة في الهواء.

سألت نفسي: ماذا لديك لتخسريه؟ ثمّ لمست فمه بأصابعي.

تحرّكت شفتاه على أصابعي: "تريس، أنا بخير".

سألته وأنا أخفض يدي: "ما الذي أتى بك إلى هناك؟".

"كنت آتياً من غرفة المراقبة، وسمعت صرخة".

"ماذا فعلت بهم؟".

"وضعت درو في المستشفى منذ نصف ساعة. أمّا بيتر وآل فقد هربا. ادّعى درو أنّهم أرادوا إخافتك وحسب. على الأقلّ، أظنّ أنّ هذا ما حاول قوله".

"هل هو بحالة سيّئة؟".

"سيعيش". ثمّ أضاف بمرارة: "لكن كيف سيكون حاله؟ لا أدري".

ليس تصرّفاً جيّداً أن أتمنّى الألم للآخرين لمجرّد أنّهم سبّبوا لي الأذى أوّلاً. بيد أنّ الإحساس بالانتصار اجتاحني عندما تخيّلت درو في المستشفى، فشددت على معصم فور.

قلت: "جيّد". بدا صوتي متوتّراً وشرساً. اعتمل الغضب في داخلي، ونفث سائلاً مرّاً في شراييني، حلّ محلّ دمي، وسيطر عليّ. أردت أن أكسر أو أضرب شيئاً، لكنّني خفت أن أتحرّك، ورحت أبكي عوضاً عن ذلك.

جلس فور بالقرب من الفراش، وأخذ يراقبني. لم أرَ أيّ تعاطف في عينيه، ولو رأيت، لخاب أملي. حرّر معصمه من يدي، وفوجئت عندما وضع يده على جانب وجهي، ومرّر إبهامه على عظم خدّي. كانت أصابعه حذرة.

قال: "يمكنني أن أبلغ عن هذه الحادثة".

أجبته: "كلاّ، لا أريدهم أن يعتقدوا أنّني خائفة".

هزّ رأسه موافقاً، وحرّك إبهامه بشرود على خدّي، إلى الأمام والخلف. "عرفت أنّك ستقولين ذلك".

"هل تظنّها فكرة سيّئة إن جلست؟".

"سأساعدك".

أمسك كتفي بإحدى يديه، وثبّت رأسي بالأخرى، بينما رفعت نفسي إلى الأعلى. استبدّ الألم بجسدي، لكنّني حاولت تجاهله، وكبحت أنيني.

أعطاني كيس الثلج، وقال: "يمكنك أن تتألّمي، فلا أحد هنا غيري".

عضضت على شفتي. كانت الدموع تسيل على وجهي، لكنّ أحداً منّا لم يذكر ذلك أو يعترف به.

قال: "أقترح عليك الاعتماد على أصدقائك لحمايتك من الآن فصاعداً".

قلت: "ظننت أنّني كنت أفعل ذلك". وتذكّرت يد آل على فمي، فشهقت بقوّة. "لكن آل...".

قال فور برقّة: "أراد أن تكوني الفتاة الصغيرة الهادئة من جماعة نكران الذات. لقد آذاك لأنّ قوّتك أشعرته بالضعف، وليس لأيّ سبب آخر".

أومأت برأسي موافقة، وحاولت تصديقه.

"لن يشعر الآخرون بهذا القدر من الغيرة إن أظهرت بعض الضعف؛ حتّى لو لم يكن حقيقياً".

رفعت أحد حاجبيّ، وسألته: "أتظنّ أنّه عليّ ادّعاء الضعف؟".

"أجل، هذا ما أظنّه". أخذ منّي كيس الثلج، ووضعه على رأسي بنفسه. فأنزلت يدي التي كنت أتوق لإسنادها على شيء ما. وقف فور، فحدّقت إلى طرف قميصه.

في بعض الأحيان، لا أرى فيه سوى شخص آخر. وفي أحيان أخرى، أشعر به في أحشائي، مثل ألم عميق.

"في صباح الغد، ستدخلين قاعة الطعام، وستظهرين لأعدائك أنّهم لم يستطيعوا النيل منك". أضاف: "لكن، يجب أن تتركي هذه الكدمة ظاهرة على خدّك، وتبقي رأسك منخفضاً".

تلك الفكرة سبّبت لي الغثيان.

قلت: "لا أظنّ أنّني أستطيع فعل ذلك". ثمّ نظرت إليه.

"عليك ذلك".

"لا أعتقد أنّك تفهم". اجتاح الاحمرار وجهي. "لقد لمسوني".

توتّر جسده بأكمله، واشتدّت قبضته على كيس الثلج. ردّد: "لمسوك!". وبدت عيناه داكنتين وباردتين.

"ليس... كما تظنّ". ارتبكت، ولم أدرك عندما قلت ذلك كم سيكون من المربك أن أشرح له. "لكن... تقريباً".

نظرت بعيداً.

طال صمته وسكونه؛ إلى أن شعرت أخيراً أنّه عليّ قول شيء.

"ما الأمر؟".

أجاب: "لا أريد قول ذلك، لكن أشعر أن هذا واجب عليّ. الأهمّ بالنسبة إليك الآن أن تكوني آمنة حالياً. هل هذا واضح؟".

كان حاجباه المستقيمان منخفضين فوق عينيه، فتقلّصت معدتي. من جهة، لأنّني عرفت أنّ لديه وجهة نظر أرفض الاعتراف بها. ومن جهة أخرى، لأنّني أريد شيئاً لا أعرف كيف أعبّر عنه؛ أريد أن أضغط على الفراغ الفاصل بيننا إلى أن يختفي.

أومأت برأسي موافقة.

"لكن رجاء، عندما تسنح لك الفرصة...". وضغط بيده على خدّي، وكانت باردة وقويّة، ثمّ أمال رأسي لكي أنظر إليه. لمعت عيناه بضراوة وهو يضيف: "اقضي عليهم".

ضحكت بصوت مرتجف وقلت: "أنت مخيف قليلاً فور".

قال: "أسديني خدمة، ولا تناديني هكذا".

"بماذا أناديك إذاً؟".

"لا شيء". رفع يده عن وجهي مضيفاً: "ليس بعد".

الفصل الثالث والعشرون

لم أعد إلى العنبر تلك الليلة. فالنوم في الغرفة نفسها مع الأشخاص الذين هاجموني، لمجرّد إثبات شجاعتي، ضرب من الغباء. نام فور على الأرض، ونمت أنا على السرير، فوق اللحاف، واشتممت رائحة وسادته. كانت تفوح منها رائحة الصابون الممتزجة بعطر ثقيل، وحلو، وذكوري على نحو مميّز.

تباطأت أنفاسه، فرفعت رأسي لأرى ما إذا كان نائماً. كان ممدّداً على بطنه، رافعاً إحدى ذراعيه فوق رأسه، وقد أغمض عينيه، وانفرجت شفتاه. للمرّة الأولى، بدا شابّاً مثلما هو بالفعل، فتساءلت عمّن يكون حقّاً. من هو عندما لا يكون شجاعاً، ولا مدرّباً، ولا فور، ولا شخصاً معيّناً؟

أيّاً يكن، فهو يعجبني. من الأسهل عليّ الاعتراف بذلك الآن، في الظلام، بعد كلّ ما حدث للتوّ. فهو ليس لطيفاً أو رقيقاً على نحو خاصّ، غير أنّه ذكيّ، وشجاع. ومع أنّه أنقذني، إلاّ أنّه عاملني كقويّة. وهذا كلّ ما أحتاج إلى معرفته.

راقبت عضلات ظهره وهي تتقلّص وتتمدّد، إلى أن غفوت.

استيقظت على الألم والأوجاع. انكمشت وأنا أجلس، وأضغط على أضلاعي، ثمّ مشيت نحو المرآة الصغيرة المعلّقة على الجدار المقابل. لم يكن طولي يسمح لي برؤية نفسي فيها، لكن عندما وقفت على رؤوس أصابعي، استطعت رؤية وجهي. كما توقّعت، كانت ثمّة كدمة زرقاء على خدّي. أكره فكرة دخولي قاعة الطعام على هذه الحال، لكنّني لم أنس تعليمات فور. عليّ الحفاظ على صداقاتي. فأنا بحاجة للحماية التي يوفّرها لي مظهري الضعيف.

بينما كنت أعقد شعري إلى الخلف، فُتح الباب، ودخل فور حاملاً منشفة بيده. كان شعره المبلّل يلمع تحت ضوء الغرفة. تقلّصت معدتي عندما بدت بشرته من فوق الحزام وهو يرفع يده ليجفّف شعره، فأجبرت عينيّ على النظر إلى وجهه.

قلت: "مرحباً". وبدا صوتي متوتّراً، وتمنّيت لو لم يكن كذلك.

لمس خدّي المرضوض بأنامله وقال: "لا بأس، كيف حال رأسك؟".

"بخير". كنت أكذب، فرأسي يؤلمني. مرّرت أصابعي على الكدمة، فاجتاح الألم رأسي. كان من الممكن أن أكون أسوأ حالاً، كأن أطفو في النهر مثلاً.

توتّرت كلّ عضلة من عضلاتي عندما انخفضت يده إلى أضلاعي، إلى موضع الركلة. فعل ذلك

على نحو طبيعي، لكنّني عجزت عن الحركة.

سألني بصوت خافت: "وأضلاعك؟".

"لا تؤلمني إلاّ حين أتنفّس".

ابتسم قائلاً: "لا يمكنك فعل شيء حيال ذلك".

"لو توقّفت عن التنفّس، لأقام بيتر احتفالاً على الأرجح".

"ما كنت لأذهب بالطبع؛ إلاّ إن قدّموا الحلوى".

ضحكت، ثمّ انكمشت ووضعت يدي على يده؛ فوق موضع الألم، فأخفض يده ببطء، ومرّت أصابعه في أثناء ذلك على خصري. وعندما رفعها، شعرت بألم في صدري. عندما انتهت تلك اللحظة، تذكّرت ما جرى في الليلة الفائتة، وددت البقاء هنا معه.

أخفض رأسه قليلاً، وسار أمامي. قال عندما وقفنا أمام باب قاعة الطعام: "سأدخل أوّلاً. إلى اللقاء قريباً، تريس".

دخل من الباب، وبقيت وحيدة. قال لي أمس إنّه عليّ ادّعاء الضعف، لكنّه كان مخطئاً. فأنا ضعيفة أساساً. اتّكأت على الجدار، وضغطت جبيني على يديّ. من الصعب عليّ أخذ أنفاس عميقة، لذلك رحت آخذ أنفاساً قصيرة وسطحية. لا يمكن أن أسمح بذلك. لقد هاجموني لكي أشعر بالضعف. يمكنني الادّعاء أنّهم نجحوا بذلك لحماية نفسي، لكن لا يمكنني أن أسمح لهذا الادّعاء بأن يتحوّل إلى حقيقة.

ابتعدت عن الجدار، ودخلت قاعة الطعام من دون مزيد من التفكير. بعد بضع خطوات في الداخل، تذكّرت أنّه عليّ أن أبدو جبانة، فأبطأت من سرعتي، ومشيت بمحاذاة الحائط، مطأطئة رأسي. كان يوريا جالساً إلى طاولة بالقرب من ويل وكريستينا، فرفع يده ملوّحاً، ثمّ أخفضها.

جلست بالقرب من ويل.

لم يكن آل هناك، لم يكن موجوداً أساساً.

قام يوريا وجلس على الكرسي بالقرب منّي، تاركاً بقيّة المافن، ونصف كوب من المياه على الطاولة الأخرى. للحظة، جلس الثلاثة يحدّقون إليّ.

سألني ويل بصوت خافت: "ماذا جرى؟".

نظرت من فوق كتفه إلى الطاولة الموجودة خلف طاولتنا. كان بيتر جالساً هناك، يأكل قطعة خبز محمّص، ويهمس شيئاً لمولي. اشتدّت يدي حول طرف الطاولة. أريده أن يتألّم، لكنّ الوقت لم يحن

بعد.

كان درو غائباً، ما يعني أنّه ما زال في المستشفى. اجتاحني سرور غريب بسبب تلك الفكرة.

قلت بصوت خافت: "بيتر، ودرو..." ووضعت يدي على أضلاعي وأنا أمدّ يدي الأخرى لأتناول قطعة خبز. شعرت بالألم وأنا أمدّ يدي، لكنّني تركت نفسي أنكمش وأنحني. "و..." ابتلعت لعابي وتابعت: "وآل".

صاحت كريستينا بذهول: "ربّاه".

سألني يوريا: "وهل أنت بخير؟".

نظر بيتر إلى عينيّ من مكانه، فأجبرت نفسي على النظر بعيداً. أحسست بالمرارة عندما تركته يظنّ أنّه يخيفني، لكن عليّ ذلك. فقد كان فور على حقّ. عليّ أن أبذل كلّ ما في وسعي لكي لا أتعرّض للهجوم مرّة أخرى.

قلت: "ليس تماماً".

أحرقتني عيناي، ولم يكن ذلك مصطنعاً؛ خلافاً لإحساسي بالألم. هززت كتفيّ. بتّ أصدّق تحذير توري الآن. فقد كان بيتر، ودرو، وآل على استعداد لإلقائي في الهاوية بسبب الغيرة، فما الذي سيمنع قادة الشجاعة إذاً من الإقدام على القتل؟

شعرت بعدم الارتياح، كمن غيّر جلده. إن لم أكن حذرة، فقد أتعرّض للقتل. حتّى إنّني لا أستطيع الوثوق بقادة جماعتي؛ على الرغم من كونهم أسرتي الجديدة.

"لكنّك مجرّد...". ضغط يوريا على شفتيه. "هذا ليس عدلاً، ثلاثة ضد واحد؟".

علّقت كريستينا، وهي تهزّ رأسها: "طبعاً، بيتر هو العدل بعينه. لهذا السبب، هاجم إدوارد في أثناء نومه، وطعنه في عينه. لكن، آل؟! هل أنت متأكّدة تريس؟".

حدّقت إلى طبقي. أنا التالية بعد إدوارد، لكن خلافاً له، لن أرحل.

قلت: "أجل، أنا متأكّدة".

قال ويل: "لا بدّ أنّه يائس. كان يتصرّف... لا أدري، وكأنّه شخص آخر، منذ أن بدأت المرحلة الثانية".

بعد ذلك، دخل درو قاعة الطعام وهو يجرّ قدميه، فسقط الخبز المحمّص من يدي، وظلّ فمي مفتوحاً من أثر الدهشة.

كانت عبارة "مصاب برضوض" أقلّ من أن تصف حالته. فقد كان وجهه البنفسجيّ متورّماً. كما

ظهر شقّ في شفته، وامتدّ نحو الأعلى مروراً بحاجبه. ظلّ ينظر إلى الأسفل في طريقه إلى طاولته، ولم يرفع عينيه حتّى للنظر إليّ. ألقيت نظرة سريعة على فور، فرأيت على وجهه ابتسامة رضى، وتمنّيت لو استطعت الابتسام مثله.

همس ويل: "هل أنت من فعل هذا؟".

هززت رأسي نافية. "كلاّ، بل شخص ما، لم أره مطلقاً. وجدني قبل...". ازدردت لعابي. كان التحدّث عما جرى بصوت عالٍ يجعله أسوأ، يجعله حقيقياً. "... أن يقذفوني في الهاوية".

سألتني كريستينا بصوت خافت: "هل أرادوا قتلك؟!".

"ربّما. وربّما كانوا ينوون حملي فوقها لمجرّد إخافتي". رفعت كتفي مضيفة: "وقد نجحوا".

نظرت إليّ كريستينا بحزن. أمّا ويل، فحدّق إلى الطاولة.

قال يوريا بصوت خافت: "علينا فعل شيء حيال ذلك".

ابتسمت كريستينا وقالت: "مثل ماذا؟ ضربهم مثلاً؟ يبدو أن أحدهم قد تولّى الأمر".

أجاب يوريا: "كلاّ، هذا ألم يستطيعون تجاوزه. علينا التفوّق عليهم حيث يتم استبعادهم. فهذا سيقضي على مستقبلهم؛ إلى الأبد".

نهض فور، ووقف بين الطاولات، فهدأت الأحاديث فجأة.

قال: "أيّها المنتقلون، سنقوم اليوم بشيء مختلف. اتبعوني".

وقفنا، بينما عبس يوريا قائلاً: "كوني حذرة".

قال ويل: "لا تقلق، سنحميها".

* * *

قادنا فور إلى خارج قاعة الطعام، ثمّ رحنا نرتقي الممرات المحيطة بالسرداب. فمشى ويل إلى يساري، وكريستينا إلى يميني.

قالت كريستينا بصوت خافت: "لم أعتذر قطّ على استيلائي على العلم، بينما كنت أنت من يستحقّه. لا أدري لماذا فعلت ذلك".

لست واثقة ما إذا كان من الحكمة مسامحتها، أو مسامحة أيّ منهما؛ بعد ما قالاه لي عند إعلان النتائج يوم أمس. غير أنّ أمّي كانت ستقول لي إنّ للناس عيوباً، وعليّ أن أكون متسامحة معهم. كما طلب منّي فور الاعتماد على أصدقائي.

لا أدري على من أعتمد أكثر، لأنّني لست واثقة من هم أصدقائي الحقيقيون. يوريا ومارلين،

اللذان وقفا إلى جانبي حتّى وأنا قويّة؟ أم كريستينا وويل اللذان قدّما لي الحماية دائماً عندما بدوت ضعيفة؟

عندما التقت نظرات عينيها البنيّتين الكبيرتين نظراتي، هززت رأسي وقلت: "فلننسَ الأمر".

ما زلت أشعر بالغضب، لكن عليّ أن أترك غضبي يزول.

صعدنا أعلى ممّا فعلنا من قبل؛ إلى أن صار وجه ويل يشحب كلّما نظر إلى الأسفل. في معظم الأوقات، أحبّ المرتفعات، غير أنني أمسكت بذراع ويل كما لو كنت أحتاج على الدعم. لكن في الواقع، كنت أقدّم له دعمي، فابتسم لي بامتنان.

التفت فور، ومشى بضع خطوات إلى الخلف على ممرّ ضيّق من دون "درابزين". ما مدى معرفته بهذا المكان؟

رمق درو الذي كان يترنّح خلف المجموعة وقال: "امشِ بثبات، درو!".

كانت مزحة خبيثة، لكنّني لم أستطع منع نفسي من الابتسام. فعلت هذا إلى أن وقع نظر فور على ذراعي المحيطة بذراع ويل، فاختفى كلّ أثر للمزاح. تعبير وجهه سبّب لي القشعريرة. هل... يغار؟!

اقتربنا تدريجياً من السقف الزجاجي، ورأيت الشمس للمرّة الأولى منذ أيّام. صعد فور عدداً من الدرجات المعدنية التي تمرّ عبر فجوة في السقف. أصدرت الدرجات صريراً تحت قدميّ، وعندما نظرت إلى الأسفل، رأيت السرداب والهاوية تحتنا.

مشينا على الزجاج الذي لم يعد سقفاً بل أصبح أرضاً، عبر غرفة ذات جدران زجاجية. كانت الجدران المحيطة بنا شبه متداعية، وبدت مهجورة. لهذا السبب على الأرجح لم يسبق لي أن لاحظت مجمّع الشجاعة من قبل. كما أنّ مقاطعة نكران الذات بعيدة جدّاً.

تجمهر الشجعان في القاعة الزجاجية وهم يتحدّثون في مجموعات. في طرف الغرفة، وقف اثنان منهم يتبارزان بالعصيّ، ويضحكان كلّما أخطأ أحدهما وأصاب الهواء. فوقي، امتدّ حبلان عبر الغرفة، يعلو أحدهما الآخر ببضع أقدام. لا بدّ أنّهما على علاقة بالمجازفات الجريئة التي يشتهر بها الشجعان.

قادنا فور عبر باب آخر، لندخل قاعة ضخمة وباردة، جدرانها مكسوة بالكتابات، وأنابيبها ظاهرة. كانت الغرفة مضاءة بسلسلة من المصابيح اللاصفة قديمة الطراز، ذات الأغطية البلاستيكية. لا شكّ في أنّها قديمة.

لمعت عينا فور في الضوء الباهت، وقال: "هذا نوع مختلف من المحاكاة، يعرف باسم عالم الخوف. تمّ تعطيله من أجلنا، لذلك لن يكون على هذه الحال في المرّة القادمة التي ترونه فيها".

خلفه، كتبت كلمة "شجاعة" بالرذاذ الأحمر بأحرف فنية على جدار من الإسمنت.

"في جلسات المحاكاة التي خضعتم لها، قمنا بتخزين بيانات عن أسوأ مخاوفكم. يدخل عالم الخوف تلك البيانات، ويضع أمامكم سلسلة من الحواجز الافتراضية. بعض الحواجز عبارة عن مخاوف واجهتموها سابقاً في الجلسات، وبعضها قد يكون جديداً. الفرق هو أنّكم ستكونون مدركين لما يجري في عالم الخوف، وأنّه مجرّد محاكاة، وبالتالي ستتمتّعون بكامل قدراتكم الفكرية فيه".

هذا يعني أنّ الجميع سيكونون مثل الجامحين في عالم الخوف. لا أدري ما إذا كان هذا الأمر يبعث على الارتياح؛ لأنّ أمري لن يُكشف، أم إن كان مشكلة؛ لأنّني لن أتفوّق على الباقين.

تابع فور: "يتراوح عدد المخاوف في عالمكم بحسب المخاوف التي تملكونها".

كم سيكون لديّ من المخاوف يا ترى؟ فكّرت في اضطراري إلى مواجهة الغربان مجدّداً، فسرت قشعريرة في جسدي؛ مع أنّ الجوّ دافئ.

قال: "سبق وقلت لكم إنّ المرحلة الثالثة من التلقين تركّز على الاستعداد الذهني". أذكر حين قال ذلك. كان ذلك في اليوم الأوّل، قبل أن يصوّب مسدّساً إلى رأس بيتر. ليته ضغط على الزناد في ذلك اليوم.

"والسبب هو أنها تتطلب منكم السيطرة على انفعالاتكم وأجسادكم، أي الجمع بين القدرات الجسدية التي اكتسبتموها في المرحلة الأولى، والبراعة العاطفية التي تعلّمتموها في المرحلة الثانية، للحفاظ على توازنكم". ارتعش ضوء أحد المصابيح اللاصفة فوق رأس فور. توقّف عن مسح المجموعة بنظراته، وركّز نظره عليّ.

"في الأسبوع القادم، ستمرّون بعالم الخوف بأسرع وقت ممكن، أمام مجموعة من قادة جماعة الشجاعة. سيكون هذا اختباركم الأخير الذي سيحدّد مراتبكم في المرحلة الثالثة. وتماماً كما أُعطيَ وزنٌ أكبر للمرحلة الثانية، فإنّ المرحلة الثالثة هي الأكثر أهمية على الإطلاق. هل هذا مفهوم؟".

أومأنا برؤوسنا جميعاً؛ حتّى درو الذي كانت الحركة تبدو مؤلمة بالنسبة إليه.

إن أبليت حسناً في الاختبار الأخير، فلديّ فرصة جيدة لأكون من بين العشرة الأوائل، وأصبح من أعضاء الجماعة؛ أي واحدة من الشجعان. تلك الفكرة بعثت فيّ ارتياحاً لا يوصف.

"يمكنكم تجاوز كلّ عقبة بطريقة من اثنتين. إمّا بأن تجدوا طريقة لتهدأوا؛ حيث تسجّل المحاكاة

نبضاً منتظماً وطبيعياً، أو تجدوا طريقة لمواجهة خوفكم؛ الأمر الذي يدفع المحاكاة إلى الاستمرار. على سبيل المثال، من الطرق الشائعة لمواجهة الخوف من الغرق السباحة إلى عمق أكبر، مثلاً". هزّ كتفيه مضيفاً: "لذا، أقترح عليكم استغلال الأسبوع القادم للتفكير بمخاوفكم، ووضع استراتيجيات لمواجهتها".

قال بيتر: "هذا ليس عادلاً. ماذا لو كان أحدنا يملك سبعة مخاوف فقط، والآخر يملك عشرين؟ هذا ليس خطأه".

حدّق إليه فور بضع ثوانٍ، ثمّ ضحك قائلاً: "هل ترغب حقّاً في التحدّث معي عن العدل؟".

انقسمت مجموعة المبتدئين لتفسح له الطريق وهو يتوجّه نحو بيتر، شابكاً ذراعيه، وقال بصوت حاقد: "أفهم سبب قلقك بيتر. فأحداث الليلة الماضية أثبتت بالتأكيد أنّك جبان بائس".

حدّق إليه بيتر من دون أن ينبس ببنت شفة.

تابع فور بصوت خافت: "والآن، بتنا كلّنا نعرف أنّك تخاف من فتاة قصيرة ونحيلة من جماعة نكران الذات". ثمّ ارتسمت على شفتيه ابتسامة.

أحاطني ويل بذراعه، بينما اهتزّت كتفا كريستينا بضحكة صامتة. وفي مكان ما في داخلي، وجدت طريقة للابتسام أنا أيضاً.

* * *

حين عدنا إلى العنبر عصر ذلك اليوم، وجدنا آل هناك.

وقف ويل خلفي، وأمسك بكتفيّ بخفّة، وكأنّه يذكّرني أنّه معي. أمّا كريستينا، فاقتربت لتقف بالقرب منّي.

كانت هالتان سوداوان تحيطان بعيني آل، وكان وجهه متورّماً من أثر البكاء. شعرت بالألم عندما رأيته، ولم أعد قادرة على الحراك. رائحة الليمون والمريمية التي كنت أجدها جميلة، أصبحت كريهة بالنسبة إليّ.

قال آل بصوت مرتجف: "تريس، هل يمكنني التحدّث إليك؟".

شدّ ويل على كتفي وقال: "هل تمزح؟ لا تفكّر بالاقتراب منها مجدّداً".

"لن أؤذيك. لم أشأ إيذاءك مطلقاً...". قال آل ذلك، ثمّ غطّى وجهه بيديه. "جُلّ ما أريده هو الاعتذار. أنا آسف، لا... لا أعرف ما حلّ بـي، أنا... سامحيني أرجوك، أرجوك...".

مدّ يده إليّ، في محاولة للمس كتفي أو يدي، بينما انسابت الدموع على وجهه.

في مكان ما في داخلي، كانت ثمّة فتاة حنونة ومتسامحة. في مكان ما، ثمّة فتاة تحاول أن تفهم ما يمرّ به الناس، وتتقبّل إقدام الناس على أمور سيئة، كما تفهم أنّ اليأس يقودهم إلى أماكن أكثر ظلمة ممّا تخيّلوا يوماً. أقسم إنّها موجودة، وقد تألّمت أمام هذا الشابّ التائب الذي وقف أمامي.

لكن لو رأيتها، ما كنت لأعرفها.

قلت له بصوت هادئ: "لا تقترب منّي". وأحسست أنّ جسدي بارد ومتصلّب، وأنّني لست غاضبة، ولا موجوعة؛ لا شيء بتاتاً. قلت بصوت خافت: "لا تقترب منّي أبداً بعد اليوم".

التقت نظراتي نظرات عينيه الداكنتين والذاهلتين. غير أنّني لم أشعر بشيء.

قلت: "إن فعلت، فأنا أقسم إنّني سأقتلك أيّها الجبان".

الفصل الرابع والعشرون

"تريس".

نادتني أمّي باسمي في الحلم. أومأت لي، فعبرت المطبخ للوقوف بالقرب منها. أشارت إلى قدرٍ على الفرن، فرفعتُ الغطاء، ونظرت إلى ما فيه. رأيت عين غراب تحدّق إليّ، ريش جناحيه مضغوط على جوانب القدر، وجسمه السمين مغمور بالماء المغلي.

قالت: "العشاء".

"تريس!". سمعتها مجدّداً. فتحت عينيّ، فوجدت كريستينا واقفة بالقرب من سريري، وقد خلّفت الدموع التي سالت من عينيها الكحيلتين خطوطاً سوداء على خدّيها.

قالت:"إنّه آل، تعالي".

كان بعض المبتدئين قد استيقظوا، وبعضهم لا. أمسكت كريستينا بيدي، وسحبتني من الفراش. أخذت أركض حافية على الأرض الحجرية، وأرفّ عينيّ لأنفض عنهما غبار النعاس الذي ما زال يثقل أطرافي. لقد حدث أمر فظيع، أشعر بذلك في كلّ نبضة من نبضات قلبي. إنّه آل.

ركضنا في السرداب، ثمّ توقّفت كريستينا. كانت ثمّة مجموعة من الناس حول الحافّة، لكنّ الجميع وقفوا على بعد بضع خطوات من بعضهم، حيث تمكّنتُ من المرور من أمام كريستينا، والالتفاف حول رجل طويل، في منتصف العمر، إلى أن وقفتُ في المقدّمة.

وقف رجلان بالقرب من حافّة الهاوية، وهما يرفعان شيئاً بالحبال. أخذ الاثنان يئنّان بسبب المجهود الذي يبذلانه وهما يرفعان الثقل إلى الأعلى لتنزلق الحبال على "الدرابزين"، ثمّ ينحنيان إلى الأمام ليرفعا مجدّداً. أخيراً، ظهر شيء ضخم وداكن فوق الحافّة، واندفع عدد من الشجعان إلى الأمام لمساعدة الرجلين.

سقط الحِمل على أرض السرداب محدثاً صوتاً مكتوماً. وارتطمت بالأرض الحجرية ذراع شاحبة ومنتفخة بفعل المياه. إنّها جثّة. التصقت كريستينا بي، وتعلّقت بذراعي، ثمّ وضعت جبينها على كتفي، وشهقت باكية. أمّا أنا فلم أستطع إبعاد نظري عنه. قام عدد من الرجال بقلب الجثّة، فاستدار الرأس جانباً.

كانت العينان المفتوحتان فارغتين، وداكنتين، مثل عيني دمية. وكان الأنف ذا قوس عال، وجسر ضيّق، وطرف مستدير. أمّا الشفتان فاصطبغتا باللون الأزرق. الوجه نفسه بدا غير بشريّ، أقرب إلى

وجه جثّة منه إلى وجه إنسان. أحرقتني رئتاي، وأخذتُ النفس التالي على نحو متقطّع. آل.

قال أحدهم خلفي: "إنّه أحد المبتدئين، ماذا حدث؟".

أجاب آخر: "ما يحدث كلّ عام. رمى بنفسه في النهر".

"لا تكن متشائماً، ربّما تعرّض لحادث".

"لقد وجدوه في وسط النهر. هل تظنّ أنّه تعثّر بشريط حذائه واندفع خمس عشرة قدماً إلى الأمام؟".

اشتدّت قبضة كريستينا حول ذراعي. عليّ أن أطلب منها إفلاتي، فقد بدأت أشعر بالألم. انحنى أحدهم بالقرب من وجه آل، وأغمض له عينيه. ربّما كان يحاول أن يجعله يبدو نائماً. كم هذا سخيف! لماذا يحبّ الناس الادّعاء أنّ الموت مثل النوم، في حين أنّه ليس كذلك بتاتاً؟

انهار شيء ما بداخلي، وضاق صدري حيث شعرت بالاختناق، وعجزت عن التنفّس. ركعت على الأرض، وجررت كريستينا معي. شعرت بخشونة الأرض تحت ركبتيّ، وسمعت شيئاً، ذكرى لصوت. إنّه صوت بكاء آل، وصراخه ليلاً. كان عليّ أن أعرف. ما زلت أعجز عن التنفّس. ضغطت راحتَيّ على صدري، ورحت أهزّ جسدي إلى الأمام والخلف، لإخراج الضيق من صدري.

عندما رفعت عينيّ، رأيت رأس آل وهو يحملني على ظهره إلى قاعة الطعام، وشعرت بخطواته؛ إنه شابّ ضخم ودافئ وأخرق. كلاّ، كان كذلك. هذا هو الموت، إنه يحوّل الناس من صيغة الحاضر إلى الماضي.

خرجت أنفاسي كالأزيز. أحضر أحدهم كيساً كبيراً لتغليف الجثّة. لكنّني أعرف منذ الآن أنّه سيكون صغيراً عليه. خرجت ضحكة من حنجرتي، وقفزت إلى فمي؛ متوترة وأقرب إلى القرقرة. كان آل كبيراً جدّاً على كيس الجثث، يا لها من مأساة! في منتصف الضحكة، أغلقت فمي بيدي، فبدت ضحكتي أقرب إلى الأنين. حرّرت ذراعي ووقفت، ثمّ تركت كريستينا جاثية على الأرض، ورحت أركض.

* * *

قالت توري: "تفضّلي". وناولتني كوباً يتصاعد منه البخار وتفوح منه رائحة النعناع. أمسكته بيديّ الاثنتين، وسبّبت لي سخونته وخزاً في أصابعي.

جلست أمامي. عندما يتعلّق الأمر بالجنازات، لا يُضيع الشجعان الوقت. قالت توري إنّهم يحبّون الاعتراف بالموت فور حدوثه. لم يكن ثمّة أحد أمام صالة الوشم، إلاّ أنّ السرداب كان مزدحماً

بالناس، ومعظمهم ليسوا بكامل وعيهم. لا أعرف لماذا يفاجئني ذلك.

في جماعتي القديمة، تعتبر الجنازة مناسبة كئيبة. فيها يجتمع الناس لتقديم الدعم إلى أسرة الفقيد، والكلّ ينشغل بشيء ما؛ من دون ضحك، ولا صراخ، ولا مزاح. ولا يتناول أفراد نكران الذات الشراب، بل يكون الجميع بكامل وعيهم. ومع ذلك، من المنطقي أن تتمّ الجنازات بشكل عكسيّ تماماً هنا.

قالت: "اشربـي هذا، ستشعرين بالتحسّن، أؤكّد لك".

قلت ببطء: "لا أظنّ أنّ الشاي هو الحلّ". لكنّني ارتشفته على أيّ حال، فأدفأ فمي وحلقي، وانساب في معدتي. لم أدرك كم كنت أشعر بالبرد إلاّ بعدما نعمت بالدفء.

"قلت بالتحسّن، وليس بخير". ابتسمت لي، لكنّ الابتسامة لم تبلغ عينيها؛ على غير عادتها. "لا أظنّ أنّك ستكونين بخير قبل مدّة من الزمن".

عضضت على شفتي. "كم مضى...". حاولت إيجاد الكلمات المناسبة. "كم مضى من الوقت قبل أن تستعيدي طبيعتك، بعد... ما جرى لأخيك".

هزّت رأسها قائلة: "لا أدري. في بعض الأحيان، أشعر أنّني لم أرجع كما كنت مطلقاً، وفي أحيان أخرى أشعر أنّني بخير، وبالسعادة أيضاً. لكنّني استغرقت بضع سنوات لأكفّ عن التخطيط للانتقام".

سألتها: "لماذا توقّفت؟".

شردت وهي تحدّق إلى الجدار خلفي، وطرقت أصابعها على ساقها عدّة ثوانٍ ثمّ قالت: "لا أعتبر أنّني توقّفت، بل... أنتظر اللحظة المناسبة".

خرجت من شرودها، ثمّ نظرت إلى ساعتها وقالت: "حان وقت الذهاب".

ألقيت ما بقي من الشاي في المغسلة. وعندما رفعت يدي عن الكوب، لاحظت أنّني أرتجف. هذا ليس جيّداً؛ فأنا أرتجف عادة قبل أن أبكي، ولا يمكنني البكاء أمام الجميع.

لحقت بتوري إلى خارج صالة الوشم، ومن هناك إلى السرداب. اجتمع كلّ المتجمهرين هناك أمام الحافّة، وفاحت في الجوّ رائحة الشراب. ترنّحت امرأة واقفة أمامي إلى اليمين، وفقدت توازنها، ثمّ انفجرت ضاحكة وهي تسقط على رجل واقف بالقرب منها. فأمسكت توري بذراعي، وأبعدتني.

وجدت يوريا وويل وكريستينا واقفين بين عدد من المبتدئين الآخرين، وبدت عينا كريستينا متورّمتين. كان يوريا يحمل قارورة فضّية. قدّمها إليّ، لكنّني رفضت بإيماءة من رأسي.

قالت مولي من خلفي: "يا لها من مفاجأة! المتزمّتة تبقى متزمّتة".

عليّ تجاهلها، فرأيها لا يهمّني بتاتاً.

قالت وهي تنحني على أذني: "قرأت مقالة مثيرة للاهتمام اليوم. إنها تتناول أباك، والسبب الحقيقي وراء تركك لجماعتك القديمة".

لم يكن الدفاع عن نفسي على رأس أولوياتي، إلاّ أنّه كان الأسهل في تلك اللحظة.

التفتّ، وعانقَت قبضتي فكَّها. آلمتني عقد أصابعي من جرّاء الضربة، غير أنّني لا أذكر كيف قرّرت لكمها، ولا أذكر متى ضممت قبضتي.

هجمَت عليّ، ومدّت يديها إلى الأمام، لكنّها لم تتمكّن من استخدامهما. فقد أمسك ويل بياقتها، وشدّها إلى الخلف. انتقلت نظرته منها إليّ، وقال: "كفّا عن ذلك، أنتما الاثنتان".

تمنّيت إلى حدّ ما لو أنّه لم يوقفها. فالعراك كان سيلهيني عن التفكير، لا سيّما الآن، بعد أن صعد إريك على صندوق بالقرب من "الدرابزين". نظرت إليه، وشبكت ذراعيّ لتثبيت نفسي، وتساءلت عمّا سيقوله.

في نكران الذات، لم يقدم أحد على الانتحار في الماضي القريب، غير أنّ موقف الجماعة من هذا الأمر واضح. فالانتحار بالنسبة إليهم عمل أنانيّ. إذ إنّ الناكر لذاته حقّاً لا يفكّر بنفسه بما فيه الكفاية ليرغب في الانتحار. ومع أنّ أحداً لن يقول ذلك صراحة – لو وقع حادث كهذا – إلاّ أنّ الجميع سيفكّرون على هذا النحو.

صاح إريك: "هدوء، رجاءً". قرع أحدهم شيئاً يشبه الجرس، فهدأت الأصوات العالية تدريجياً، مع أنّ الهمسات استمرّت. قال إريك: "شكراً لكم. كما تعلمون، اجتمعنا اليوم لأنّ ألبرت – أحد المبتدئين – قفز في الهاوية ليل أمس".

توقّفت الهمسات أيضاً، ولم يعد يسمع سوى خرير مياه النهر.

قال إريك: "لا نعرف السبب، وسيكون من السهل علينا أن نحزن على خسارته الليلة. لكنّنا لم نختر حياة سهلة عندما انضممنا إلى الشجاعة. والحقيقة..." ابتسم إريك. ولو لم أكن أعرفه لظننت أنّ تلك الابتسامة حقيقية. بيد أنّني أعرفه. "الحقيقة هي أنّ ألبرت شاب شجاع. فمن منا يملك الجرأة الكافية للقيام بما فعله؟ لم يكن ألبرت قد أصبح منّا بعد، لكن يمكننا التأكيد على أنّه كان أكثرنا شجاعة!".

ارتفعت صرخة من الحشد، تبعها هتاف صاخب. ثمّ راح الشجعان يهلّلون بطبقات متفاوتة، عالية ومنخفضة، سطحية وعميقة. كان صراخم شبيهاً بهدير النهر. أخذت كريستينا القارورة من يوريا وشربت منها. أمّا ويل، فأحاط كتفيها بذراعه، وشدّها إليه. ملأ الضجيج أذنيّ.

هتف إريك: "واليوم، سنحتفل به، وسنذكره دائماً!". أعطاه أحدهم زجاجة سوداء اللون، فرفعها وقال: "إلى ألبرت الشجاع!".

هتف الحاضرون: "إلى ألبرت!". ارتفعت الأيدي من حولي، وراح الشجعان يردّدون اسمه. "ألبرت! أل – برت! أل – برت!". ردّدوا اسمه كثيراً؛ إلى درجة أنه لم يعد يبدو اسمه، بل بات أقرب إلى صرخة بدائية لسلالة قديمة.

استدرت عن "الدرابزين"، فأنا لم أعد قادرة على الاحتمال أكثر.

لم أكن أعرف إلى أين أذهب. أظنّ أنّني لم أكن ذاهبة إلى أيّ مكان، بل كنت أحاول الابتعاد وحسب. مشيت في الممرّ المظلم. كانت نافورة المياه تقع في آخره؛ مغمورة بالوهج الأزرق المنبعث من المصباح الذي يعلوها.

هززت رأسي. شجاع! لكان شجاعاً لو اعترف بضعفه وترك الجماعة؛ مهما يكن الخزي الذي سيلحق به من جرّاء ذلك. لكنّ الغرور هو ما قتل آل، وهو عيب موجود في قلب كلّ شجاع، وفي قلبي أنا أيضاً.

"تريس".

أجفلت، والتفتّ إلى الوراء. كان فور واقفاً خلفي، داخل دائرة الضوء الأزرق التي أضفت عليه هالة مخيفة بعض الشيء. فقد أخفت عينيه، وألقت ظلالاً تحت عظم خدّيه.

سألته: "ماذا تفعل هنا؟ ألا يجب أن تكون معهم، تقدّم واجب العزاء؟".

قلت تلك الجملة وكأنّ طعمها مرّ.

سألني: "وأنت؟". اقترب خطوة مني، ورأيت عينيه مجدّداً. بدا لونهما أسود في هذا الضوء.

أجبته: "لا يمكنني التعزية بشخص لا أحترمه". غير أنّني شعرت بالذنب، فهززت رأسي مضيفة: "لم أكن أعني ذلك".

"آه". عرفت من نظرته أنّه لا يصدّقني. ولا ألومه على ذلك.

قلت وقد احمرّ وجهي غضباً: "هذا سخيف. لقد ألقى بنفسه في الهاوية، وإريك يعتبره شجاعاً؟! إريك الذي حاول أن يجبرك على رمي الخناجر على رأس آل؟". أحسست بالمرارة؛ فابتسامات إريك المزيّفة، وكلامه المصطنع، ومُثله الملتوية سبّبت لي الغثيان. "لم يكن شجاعاً! بل كان محبطاً، وجباناً، وأوشك أن يقتلني! أهذه هي المُثل التي نحترمها هنا؟".

قال: "ماذا تريدين منهم أن يفعلوا؟ أن يحاكموه؟! لقد مات آل، ولا يمكنه سماعهم، فات الأوان".

أجبته بحدّة: "الأمر لا يتعلّق بآل، بل بكلّ من يشاهدون ما يجري! كلّ من صار يرى الآن أنّ القفز في الهاوية خيار قابل للتطبيق. أعني، لماذا لا يفعلون ذلك ما دام الجميع سيعتبرونهم أبطالاً بعد ذلك؟ ما داموا سيذكرون أسماءهم؟ هذا... لا أستطيع...".

رحت أهزّ رأسي، والتهب وجهي غضباً، وأخذ قلبي ينبض بعنف. حاولت السيطرة على أعصابي، لكنّني لم أقدر.

رحت أصيح تقريباً: "هذا لا يحدث أبداً في نكران الذات! لا يحدث شيء من هذا! أبداً! لقد ضلّله هذا المكان ودمّره، ولا آبه إن كان قول ذلك يجعلني متزمّتة، لا آبه، لا آبه!".

تحوّل نظر فور إلى الجدار فوق نافورة المياه.

وقال ونظره ما زال مثبّتاً هناك: "حذارِ تريس".

سألته بوجه عابس: "أهذا كلّ ما تستطيع قوله؟ حذارِ! أهذا كلّ شيء؟".

"أنت أسوأ من أبناء النزاهة، هل تعرفين ذلك؟". ثمّ أمسك بذراعي، وجرّني بعيداً عن النافورة. شعرت بالألم في ذراعي، لكنّني لم أكن قوية بما يكفي للإفلات منه.

كان وجهه قريباً جدّاً من وجهي، حيث استطعت رؤية نمش على أنفه. "لن أكرّر ما سأقوله، لذلك أصغي إليّ جيّداً". وضع يديه على كتفيّ، وضغط بأصابعه، حيث شعرت أنّني قصيرة. "إنّهم يراقبونك. أنت بالذات".

قلت له بصوت ضعيف: "اتركني".

ارتخت أصابعه، واستقام في وقفته. زال بعض الثقل عن صدري عندما رفع يديه عنّي. تقلّباته المزاجية تخيفني؛ فهي تشير إلى عدم استقرار في داخله، وعدم الاستقرار خطير.

"هل يراقبونك أنت أيضاً؟". طرحت عليه هذا السؤال بصوت خافت جدّاً، وما كان ليسمعني لو لم يكن قريباً جدّاً.

لم يُجب عن سؤالي، وإنّما قال: "أحاول مساعدتك دائماً، لكنّك ترفضين المساعدة".

قلت: "آه، صحيح. أنت تساعدني! كيف؟ بجرح أذني بخنجر، والتهكّم عليّ، والصراخ في وجهي أكثر ممّا تصرخ في وجه أحد؟! هذا يساعد بالتأكيد".

أجاب بحدّة: "أنا أتهكّم عليك؟! أتقصدين عندما رميت الخناجر؟ لم أكن أتهكّم عليك، بل أذكّرك أنّك إن فشلت، فسيضطرّ شخص آخر أن يأخذ مكانك".

وضعت يدي على مؤخّر عنقي، وفكّرت بحادثة الخنجر. كان كلّما تحدّث، يذكّرني أنّني إن

استسلمت، فسيضطرّ آل أن يأخذ مكاني أمام الهدف.

سألته: "لماذا؟".

"لأنّك من نكران الذات، وعندما تتصرّفين من دون أنانيّة، تكونين أكثر شجاعة من أيّ وقت".

الآن فهمت. لم يكن يقنعني بالاستسلام، بل يذكّرني بالسبب الذي لا يمكنني لأجله فعل ذلك؛ لأنّه كان عليّ حماية آل. هذه الفكرة سبّبت لي الألم الآن؛ أي حماية آل، صديقي، مهاجمي.

لا يمكنني أن أكره آل بقدر ما أريد، ولا يمكنني أن أسامحه أيضاً.

قال: "لو كنت مكانك، لحاولت الادّعاء أنّ دوافعك النابعة من نكران الذات تزول مع الوقت؛ لأنّه إن عرف بهذا الأمر الأشخاص الخاطئون... فلن يكون هذا في صالحك".

"لماذا؟ لماذا تهمّهم نواياي؟".

"النوايا هي الشيء الوحيد الذي يهمّهم. إنّهم يحاولون أن يقنعوك أنّهم يهتمّون بما تفعلينه، لكنّ هذا ليس صحيحاً. هم لا يريدون منك أن تتصرّفي بطريقة معيّنة، بل أن تفكّري بطريقة معيّنة؛ لكي يسهل عليهم فهمك، ولكي لا تشكّلي خطراً عليهم". وضع يده على الجدار، بالقرب من رأسي، وانحنى نحوي. كان قميصه ضيّقاً حيث أبرز عظام صدره، والانخفاض الخفيف بين عضلتي كتفه وذراعه.

تمنّيت لو كنت أطول قامة. فلو كنت أطول قامة، لاعتبر الناس قوامي النحيل "ممشوقاً" وليس "صبيانياً"، ولربّما كفّ عن معاملتي كما لو أنني أخته الصغيرة التي يسعى إلى حمايتها.

لا أريد أن يعاملني كأخته.

قلت: "لا أفهم. لماذا يهمّهم ما أفكّر فيه ما دمت أتصرّف كما يريدون؟".

قال: "أنت تتصرّفين مثلما يريدون الآن. لكن، ماذا سيحدث عندما يشير عليك عقلك غير الأناني بفعل شيء آخر، شيء لا يريدونه؟".

لم أجد جواباً عن هذا السؤال، ولا أعرف حتّى ما إذا كان محقّاً بشأني. هل أملك عقلاً غير أناني، أم عقلاً شجاعاً؟

ربّما الاثنان لا ينطبقان عليّ. ربما كان عقلي جامحاً.

قلت: "ربّما لا أحتاج إلى مساعدتك، ألم تفكّر بذلك؟ أنا لست ضعيفة، كما تعلم. يمكنني القيام بذلك بمفردي".

هزّ رأسه. "تظنّين أنّني أرغب في حمايتك لأنّك صغيرة، أو لأنّك فتاة، أو متزمّتة. لكنّك مخطئة". أخفض وجهه نحوي، ووضع أصابعه حول ذقني. كانت رائحة المعدن تفوح من يده. متى كانت

آخر مرّة حمل فيها مسدّساً أو خنجراً؟ شعرت بوخز في موضع لمسته، كما لو أن تياراً كهربائياً يمرّ عبر يده.

"ما أرغب فيه هو أن أضغط عليك إلى أن تنهاري، لمجرّد معرفة كم عليّ أن أضغط". اشتدّت أصابعه عند كلمة "تنهاري"، وتوتّر جسدي بسبب حدّة صوته، حيث أصبحتُ مشدودة كالحبل، ونسيت أن أتنفّس.

نظر إليّ مضيفاً: "لكنّني أقاوم".

"لماذا..." ابتلعت لعابي وتابعت: "لماذا ترغب في ذلك؟".

"لأنّ الخوف لا يطفئ حواسّك، بل يوقظها. لقد رأيت ذلك، إنّه رائع". تركني، لكنّه لم يبتعد عنّي، بل مرّت يده على فكّي، وعنقي. "في بعض الأحيان، أرغب في رؤية ذلك مجدّداً؛ في رؤيتك متنبّهة بكلّ حواسّك".

وضعت يديّ على خصره. لا أذكر أنّني قرّرت فعل ذلك، غير أنّني لم أستطع الابتعاد عنه أيضاً. اقتربت من صدره، ثمّ أحطته بذراعيّ، ومرّرت أصابعي على عضلات ظهره.

بعد قليل، وضع يده على ظهري، وقرّبني منه، ثمّ مرّر يده الأخرى على شعري. أحسست أنّني قصيرة القامة، لكن هذه المرّة، لم يُخفني هذا الشعور. أغمضت عينيّ. لم يعد فور يخيفني بعد اليوم.

"وهل يجب أن أبكي؟". كان صوتي مكتوماً بقميصه. "هل أعاني من خطب ما؟".

لقد أحدثت جلسات المحاكاة صدعاً في آل، وكان كبيراً حيث لم يستطع مداواته. لماذا لم يحدث الأمر نفسه معي؟ لماذا لست مثله، ولماذا تشعرني هذه الفكرة بالانزعاج، كما لو كنت أترنّح على حافّة الهاوية أنا نفسي؟

قال بصوت خافت: "وهل تظنّين أنّني أعرف شيئاً عن الدموع؟".

أغمضت عينيّ. لم أتوقّع من فور أن يطمئنني، وهو لم يبذل أيّ مجهود لفعل ذلك، لكنّني شعرت، وأنا واقفة هنا، أنّني أفضل حالاً ممّا لو كنت بين أصدقائي، وأسرتي. ضغطت جبيني على كتفه، وقلت: "هل تظنّ أنّه كان سيبقى على قيد الحياة لو أنّني سامحته؟".

"لا أدري". وضع يده على خدّي، فأدرت وجهي نحوه، وأبقيت عينيّ مغمضتين.

"أشعر أنّه خطئي".

قال وهو يلامس جبيني بجبينه: "ليس خطأك".

"لكن، كان يجدر بـي أن أسامحه".

"ربّما. ربّما كان بإمكاننا جميعاً فعل المزيد. لكن، علينا أن ندع الإحساس بالذنب يذكّرنا بالتصرّف على نحو أفضل في المرّة المقبلة".

عبست، وتراجعت إلى الخلف. هذا درس من دروس نكران الذات؛ أي استخدام الإحساس بالذنب كأداة، وليس كسلاح ضدّ النفس. هذه جملة مأخوذة مباشرة من محاضرات أب.ي في اجتماعاتنا الأسبوعية.

"من أيّ جماعة أتيت فور؟".

أجاب وهو ينظر إلى الأسفل: "هذا لا يهمّ. هذه هي الجماعة التي أنتمي إليها الآن. وهذا أمر يجدر بك أنت أيضاً أن تتذكّريه؛ لمصلحتك".

بدت في عينيه مشاعر متضاربة وهو ينظر إليّ، ثمّ وضع شفتيه على جبيني، بين حاجبيّ، فأغمضت عينيّ. لا أفهم ما يجري، أيّاً يكن، لكنّني لا أريد إفساده. لذلك، لزمت الصمت. لم يتحرّك، بل بقي في مكانه، فيما بقيت أنا هناك، واضعة يديّ حول خصره، طويلاً.

الفصل الخامس والعشرون

وقفنا أنا وويل وكريستينا عند "الدرابزين" المشرف على الهاوية، في ساعة متأخّرة من الليل، بعد خلود معظم الشجعان إلى النوم. كنت أشعر بوخز في كتفيّ بسبب إبرة الوشم. فقد وضعنا أوشاماً جديدة قبل نصف ساعة.

كانت توري بمفردها في صالة الوشم، لذلك شعرت بالاطمئنان وأنا أطلب منها أن تشِم لي رمز نكران الذات على كتفي اليمنى؛ وهو عبارة عن كفّين، إحداهما موجهة إلى الأعلى وكأنها ممدودة لمساعدة شخص ما على الوقوف، وتحيط بهما دائرة. أعلم أنّها مخاطرة، لا سيّما بعد كلّ ما حدث. إلاّ أنّ هذا الرمز جزء من هويّتي، وبدا لي من المهمّ أن أنقشه على جسدي.

وقفت على إحدى عوارض الحاجز، وأسندت ردفيّ على "الدرابزين" لأحافظ على توازني. هنا وقف آل. نظرت إلى الأسفل، إلى المياه السوداء والصخور المسنّنة. ارتطمت المياه بالصخور، ونثرت الرذاذ إلى الأعلى، ليستقرّ على وجهي كالندى. هل شعر بالخوف عندما وقف هنا؟ أم كان مصمّماً على القفز، حيث وجد الأمر سهلاً؟

أعطتني كريستينا مجموعة من الأوراق. فقد حصلتُ على نسخ عن كلّ التقارير التي نشرتها جماعة المعرفة خلال الأشهر الستة الماضية. صحيح أنّ إلقاءها في الهاوية لن يمحوها كلّها، إلاّ أنّه قد يشعرني بالتحسّن.

نظرت إلى المقالة الأولى. كانت تتضمّن صورة لجانين؛ ممثّلة جماعة المعرفة، بعينيها الحادّتين والجذّابتين في آن معاً.

سألت ويل: "هل سبق لك أن التقيتها؟". جعّدت كريستينا التقرير الأوّل، ورمته في الماء.

أجاب: "جانين؟ مرّة واحدة". تناول التقرير الثاني، ومزّقه إرباً ورماه، فعامت أجزاء الورق على سطح الماء. قام بذلك من دون أن تبدو على وجهه ملامح المكر التي بدت على وجه كريستينا. فأحسست أن السبب الوحيد لمشاركتنا في ذلك هو أن يثبت لي أنّه لا يوافق على تصرّفات جماعته السابقة. في الواقع، لم يكن واضحاً ما إذا كان موافقاً على ما يقولونه أم لا، ولم أجرؤ على سؤاله.

قال: "قبل أن تصبح من قادة الجماعة، كانت تعمل مع شقيقتي. كانوا يحاولون تطوير مصل يدوم لفترة أطول في جلسات المحاكاة. جانين امرأة ذكية، ويظهر ذلك حتّى قبل أن تقول أيّ شيء. فهي أشبه... بكومبيوتر يمشي ويتكلّم".

"ما..." رميت إحدى الصفحات من فوق "الدرابزين"، وأنا أشدّ على شفتيّ. عليّ أن أسأل وحسب. "ما رأيك بما تقوله؟".

هزّ كتفيه. "لا أعلم. ربّما كان من الجيّد مشاركة بقيّة الجماعات في الحكم. كما أنّه من الجميل أن يكون لدينا عدد أكبر من السيّارات و... الفاكهة الطازجة، و...".

سألته وقد بدأ الاحمرار يغزو وجهي: "هل تدرك أنّه ما من مخزن سرّي تخبَّأ فيه هذه البضائع؟".

قال: "أجل، أدرك ذلك. غير أنّني أعتقد أنّ الرخاء والازدهار ليسا من أولويات نكران الذات، وربّما سيصبحان كذلك إن شاركت الجماعات الأخرى في صنع القرار".

أجبته بحدّة: "لأنّ إعطاء سيّارة لابن جماعة المعرفة أهمّ من إعطاء الطعام للمنبوذين".

قالت كريستينا وهي تمرّر أصابعها على كتف ويل: "مهلاً، مهلاً. يفترض أنّنا في جلسة مرحة لتدمير وثائق رمزية، لا لخوض جدال سياسي عقيم".

ابتلعتُ ما كنت على وشك قوله، وحدّقتُ إلى الأوراق التي أحملها بيديّ. يتبادل ويل وكريستينا الكثير من اللمسات مؤخّراً. أنا لاحظت ذلك، لكن ماذا عنهما؟

قال: "لكنّ ما قالته عن أبيك جعلني أكرهها تقريباً. فأنا لا أفهم ماذا تستفيد من تشويه سمعته".

أنا أفهم. فإن كانت جانين قادرة على جعل الناس يعتقدون أنّ أبـي وكلّ قادة نكران الذات أشخاص فاسدون ومريعون، فستكسب الدعم اللازم من أجل الثورة التي تنوي القيام بها؛ إن كانت هذه هي خطّتها بالفعل. غير أنّني لم أكن أرغب في مجادلته مجدّداً، لذلك اكتفيت بهزّ رأسي، وإلقاء بقيّة الصفحات في الهاوية. راحت تتطاير إلى الأمام والخلف، إلى أن حطّت في المياه. ستتم تصفية المياه عند جدار الهاوية، كما سيتم التخلّص منها.

قالت كريستينا مبتسمة: "حان وقت النوم. هل أنتما جاهزان للعودة؟ أفكّر في وضع يد بيتر في وعاء من الماء الدافئ لكي يبول في فراشه".

حوّلت نظري عن الهاوية، فرأيت حركة في جانب الأيمن من السرداب. كان ثمّة شخص يصعد نحو السقف الزجاجي. عرفت أنّه فور نظراً إلى السلاسة التي يمشي بها؛ كما لو أنّ قدميه بالكاد تلامسان الأرض.

قلت وأنا أشير إلى الظلّ الذي يصعد عبر الممرّ: "فكرة عظيمة، لكن أودّ التحدّث مع فور في موضوع". تبعت كريستينا اتجاه يدي بنظرها، ثم سألتني: "هل أنت واثقة أنّه يجدر بك التجوّل بمفردك في هذا المكان؟".

"لن أكون بمفردي، بل مع فور". وعضضت على شفتي.

غير أنّ كريستينا وويل كانا يتبادلان النظرات، ولا يصغيان إليّ حقّاً.

قالت كريستينا بشرود: "حسناً. نراك لاحقاً إذاً".

توجّه ويل وكريستينا إلى العنبر، وفي طريقهما إلى هناك، شعّثت كريستينا شعر ويل، بينما وكز هو خصرها. راقبتهما للحظة، وشعرت وكأنّني أشهد بداية شيء، لكنّني لست واثقة ما سيكون.

رحت أهرول على الجانب الأيمن للسرداب، ثمّ بدأت أصعد. حاولت أن أكتم صوت خطواتي قدر الإمكان. فخلافاً لكريستينا، أنا لا أجد صعوبة في الكذب. في الواقع، لم أكن أنوي التكلّم مع فور. على الأقلّ، ليس قبل أن أعرف ما الذي يفعله في هذه الساعة من الليل، في المبنى الزجاجي.

ركضت بهدوء، ورحت ألهث عندما وصلت إلى السلالم، ثمّ وقفت في طرف الغرفة الزجاجية، بينما وقف فور في الطرف الآخر. رأيت من النوافذ أضواء المدينة تتوهّج، ثمّ تتلاشى عندما أنظر إليها. يفترض أن يتمّ إطفاؤها عند منتصف الليل.

وقف فور عند باب غرفة عالم الخوف. كان يحمل صندوقاً أسود بإحدى يديه، وحقنة بالأخرى.

قال من دون أن ينظر إليّ: "بما أنّك هنا، يمكنك الدخول معي".

عضضت على شفتي، وقلت: "إلى عالم الخوف الخاصّ بك؟".

"أجل".

سألته وأنا أقترب منه: "هل يمكنني ذلك؟".

أجاب: "المصل يربطك بالبرنامج، لكنّ البرنامج هو الذي يحدّد إلى عالم من تدخلين. وحالياً، هو مبرمج لإدخالنا إلى عالمي".

"وهل ستسمح لي برؤيته؟".

سألني بصوت هادئ: "لماذا تظنّين أنّني أدخل إذاً؟ أريد أن أريك بعض الأشياء".

رفع الحقنة، فأملت رأسي لكي يتمكّن من غرزها في عنقي. شعرت بألم حادّ عند دخول الإبرة، لكنّني أصبحت معتادة عليه. عندما أنهى حقني، أعطاني الصندوق الأسود، فوجدت فيه حقنة أخرى.

قلت وأنا أخرجها من الصندوق: "لم يسبق لي أن فعلت هذا من قبل". لم أكن أرغب في إيذائه.

لمس بإصبعه موضعاً في عنقه، وقال: "هنا". وقفت على رؤوس أصابعي، وضغطت الإبرة بيد مرتجفة. أمّا هو، فلم يرفّ له جفن.

ظلّ ينظر إليّ طوال الوقت، وعندما أنهيت، وضع الإبرتين في الصندوق، وتركه بالقرب من

الباب. كان يعرف أنّني سأتبعه إلى هنا؛ إمّا أنّه كان يعرف، أو يأمل بذلك. والأمر أعجبني في الحالتين.

مدّ لي يده، فأعطيته يدي. كانت أصابعه باردة وجافّة. شعرت أنّه عليّ قول شيء ما، لكنّني كنت متفاجئة جدّاً، ولم أجد شيئاً أقوله. فتح الباب بيده الأخرى، وتبعته إلى الداخل. أصبحت معتادة الآن على دخول أماكن مجهولة من دون تردّد. أبقيت أنفاسي هادئة، وأمسكت جيّداً بيد فور.

قال: "لنرَ إن كنت تستطيعين أن تعرفي لماذا ينادونني فور".

أُغلق الباب خلفنا، وأخذ معه كلّ أثر للضوء. كان الجوّ في ذلك المكان بارداً، حيث شعرت بكلّ ذرّة منه وهي تدخل رئتيّ. اقتربت منه أكثر، حيث التصقت ذراعي بذراعه، وأصبح ذقني بالقرب من كتفه.

سألته: "ما اسمك الحقيقي؟".

"لنرَ إن كنت ستكتشفين هذا أيضاً".

دخلنا في المحاكاة. لم تعد الأرض التي أقف عليها من الإسمنت، بل أصبحت تصدر صريراً كالمعدن. تسلّل الضوء من كلّ الجهات، وامتدّت المدينة حولنا، بأبنيتها الزجاجية، وسكك الحديد، بينما كنّا نقف عالياً فوقها. مضى زمن طويل منذ أن رأيت سماء زرقاء. لذا، عندما ظهرت السماء فوقي، قطع المنظر أنفاسي، وسبّب لي الدوار.

فجأة، هبّت الرياح. عصفت بقوّة حيث توجّب عليّ الاستناد على فور لأحافظ على توازني. سحب فور يده من يدي، ثمّ لفّ ذراعه حول كتفيّ. ظننت في البداية أنّه أراد حمايتي. لكن في الواقع، كان يعاني من صعوبة في التنفّس، وأراد الاستناد عليّ. راح يشهق ويزفر من فمه، وهو يصرّ على أسنانه.

أنا أحبّ المرتفعات. لكن، إن كانت موجودة هنا، فهذا يعني أنّها من أفظع كوابيسه.

سألته بصوت عالٍ، بسبب عويل الرياح: "علينا أن نقفز، أليس كذلك؟".

هزّ رأسه موافقاً.

"عندما أعدّ إلى الثلاثة، اتّفقنا؟".

هزّ رأسه مرّة أخرى.

"واحد... اثنان... ثلاثة!". جررته معي وأنا أركض. بعدما قطعنا الخطوة الأولى، أصبح الباقي سهلاً. ركضنا كلانا ثمّ قفزنا عن طرف المبنى. سقطنا بسرعة مثل صخرتين، وقاومنا الهواء، بينما

أخذت الأرض تقترب منّا. فجأة، اختفى المنظر، وأصبحتُ جاثية على يديّ وركبتيّ على الأرض وأنا أبتسم. أحببت سرعة الهبوط في اليوم الذي اخترت فيه الشجاعة، كما أحببتها اليوم.

بالقرب منّي، كان فور يشهق واضعاً يده على صدره. فوقفت وساعدته على الوقوف. "ما التالي؟".

"إنّه –".

في تلك اللحظة، ارتطم شيء صلب بظهري. فاصطدمت بفور، وارتطم رأسي بأعلى صدره. ظهرت جدران إلى يميني ويساري، وضاق المكان إلى أن أصبح فور مضطرّاً لثني ذراعيه إلى صدره. ثمّ أطبق سقف على الجدران، محدثاً صوتاً قوياً، فانحنى فور وهو يئنّ.

بالكاد كانت الغرفة تتّسع له، ولا تزيد عن حجمه.

قلت: "حبس".

خرج صوت من حلقه، فأملت رأسي قليلاً، وابتعدت لأتمكّن من النظر إليه. بالكاد تمكنت من رؤية وجهه، فالظلام دامس، والهواء ثقيل؛ حيث كنّا نتشارك الأنفاس. تقلّص وجهه وكأنّه يتألّم.

قلت: "لا بأس. تعال".

ووضعت ذراعيه حول جسدي، لكي يحصل على مجال أوسع. فأمسك بظهري وقرّب وجهه من وجهي، وبقي ظهره منحنياً. كان جسده دافئاً، لكنني لم أشعر سوى بعظامه، والعضلات الملتفّة حولها. احمرّت وجنتاي. هل يستطيع أن يعرف أنّ بنيتي ما زالت مثل بنية الأولاد؟

"هذه هي المرّة الأولى التي أشعر فيها بالسرور لأنّني قصيرة القامة". ضحكت؛ إذ ربّما يساعد المزاح على تهدئته، وإبعاد أفكاري عنه.

لم تصدر عنه سوى همهمة متوتّرة.

قلت: "لا يمكننا الخروج من هنا، من الأفضل لك مواجهة الخوف برأس مرفوع، أليس كذلك؟". لم أنتظر جواباً، بل تابعت قائلة: "لذلك، ما عليك فعله هو جعل المكان ضيّقاً أكثر. عليك أن تجعل الوضع أسوأ لكي يتحسّن، أليس كذلك؟".

"أجل". كانت كلمة صغيرة وتعبّر عن توتّره.

"حسناً، إذاً علينا أن نركع، هل أنت مستعدّ؟".

شددت على خصره لأجرّه معي إلى الأسفل. أحسست بأضلاعه تحت يدي، وسمعت حفيف الألواح الخشبية على بعضها بعضاً؛ مع انخفاض السقف فوقنا. أدركت أنّ الأمر لن ينجح مع كلّ هذا المجال بيننا، فأدرت له ظهري، وتكوّرت، ثمّ التصقت بصدره. كانت إحدى ركبتيه بالقرب من

رأسي، والأخرى منثنية تحتي، حيث جلست على كاحله. أصبحنا عبارة عن كومة من الأطراف، وشعرت بأنفاسه على أذني.

قال بصوت خشن: "آه، هذا أسوأ، هذا حتماً...".

قلت له: "اهدأ. ضع ذراعيك حولي".

أطاعني، وأحاط خصري بذراعيه، فابتسمت للجدار. أنا لا أستمتع بما يجري. لا أستمتع به إطلاقاً. حتماً لا.

قلت بصوت هادئ: "تقيس المحاكاة استجابتك في حالة الخوف". كنت أكرّر ما قاله لنا، لكنّ التذكير قد يفيده. "لذا، إن استطعت أن تهدّئ نبضات قلبك، فستنتقل إلى المحاكاة التالية. أتذكر؟ حاول إذاً أن تنسى أنّنا هنا".

"حقّاً؟!". شعرت بشفتيه تتحرّكان بالقرب من أذني وهو يتكلّم، واجتاحت الحرارة جسدي إثر ذلك. "هذا سهل، هاه؟".

قلت له ممازحة: "أتعلم؟ معظم الفتيان يحبّون أن يحبسوا في مكان ضيّق مع فتاة".

"ليس من يعانون من رهاب الأماكن المغلقة تريس!". بدا يائساً الآن.

"حسناً، حسناً". وضعت يدي فوق يده، ثمّ قرّبتها من صدري، فوق قلبـي تماماً. "هل تشعر بنبض قلبـي؟".

"أجل".

"هل تشعر كم هو منتظم".

"إنّه سريع".

"هذا صحيح. في الواقع، لا علاقة لذلك بالصندوق". أجفلت حالما أنهيت كلامي. لقد اعترفت بشيء للتوّ. آمل ألاّ يدرك ذلك. "كلّما أحسستَ أنّني أتنفّس، تنفّس معي. ركّز على ذلك".

"حسناً".

تنفّست بعمق، فارتفع صدره وهبط مع صدري. بعد بضع ثوان، قلت له بهدوء: "لماذا لا تخبرني من أين أتى هذا الخوف. ربّما ساعدنا التحدّث... بطريقة ما".

لا أعرف كيف، لكن بدا لي ذلك منطقياً.

"آه... حسناً". تنفّسَ معي مجدّداً. "هذه المسألة ترجع إلى طفولتي الباهرة. عقوبات الطفولة في الخزانة الصغيرة في الطابق العلوي".

صررت على شفتيّ. أذكر أنّني كنت أُعاقب بإرسالي إلى غرفتي من دون عشاء، أو بحرماني من هذا الشيء أو ذاك، أو بالتوبيخ الصارم. لكن لم يتم سجني مطلقاً في خزانة. قسوة هذا العقاب فاجأتني، وشعرت بالألم من أجله. لم أعرف ماذا أقول، لذلك حاولت التحدّث بعفوية.

"كانت أمّي تضع معاطفنا الشتوية في خزانتنا".

شهق قائلاً: "لم أعد... لم أعد أريد التحدّث عن هذا الأمر".

"حسناً. إذاً... أنا سأتحدّث. اسألني شيئاً".

"حسناً". ضحك بصوت مرتجف قرب أذني. "لماذا ينبض قلبك بهذه السرعة تريس؟".

ارتجفت، وقلت: "في الواقع، أنا...". بحثت عن عذر لا يتضمّن ذراعيه المحيطتين بـي. "أنا بالكاد أعرفك". هذا ليس جيّداً بما فيه الكفاية. "أنا بالكاد أعرفك، لكنّني وجدت نفسي مسجونة معك في صندوق ضيّق فور، لماذا برأيك؟".

قال: "لو كنّا في عالم الخوف الخاصّ بك، فهل سأكون فيه؟".

"أنا لا أخاف منك".

"بالطبع لا تخافين منّي. لكن، ليس هذا ما عنيته".

ضحك مجدّداً، وعندئذٍ تشقّقت الجدران محدثة صوتاً، وانهارت تاركة إيّانا في بقعة ضوء.

تنهّد فور، ورفع ذراعيه عنّي. فوقفت، ونفضت ثيابـي، مع أنّني لم أرَ عليها أيّ غبار. مسحت كفّيّ بسروالي، وشعرت بالبرد يلفح ظهري إثر غيابه المفاجئ.

وقف أمامي. كان يبتسم، ولست واثقة ممّا إذا كانت نظرة عينيه تعجبني.

قال: "ربّما كانت جماعة النزاهة تناسبك؛ لأنّك فاشلة جدّاً في الكذب".

"أظنّ أنّ اختبار الجدارة استبعد هذا الخيار بشكل حاسم".

هزّ رأسه قائلاً: "اختبار الجدارة لا يثبت شيئاً".

ركّزت نظراتي عليه. "ماذا تحاول أن تقول لي؟ إنّ الاختبار لم يكن السبب الذي دفعك إلى الانضمام إلى الشجاعة؟".

اجتاحتني موجة من الحماسة، ولّدها الأمل في أن يؤكّد لي أنّه جامح، أنّه مثلي، وأنّنا نستطيع أن نفهم معاً معنى ذلك.

"ليس بالضبط، لا. أنا...".

نظر إلى الخلف، وبقيت جملته معلّقة. وقفت امرأة على بعد عدّة ياردات، مصوّبة مسدّسها نحونا.

كانت ساكنة تماماً، وتعابيرها جامدة. إن ذهبنا الآن، فلن أتذكّرها. ظهرت إلى يميني طاولة، عليها مسدّس ورصاصة واحدة. لماذا لا تطلق علينا النار.

أوه. لا علاقة للخوف بالخطر الذي يهدّد حياته، بل بالمسدّس الموجود على الطاولة.

قلت له بصوت خافت: "عليك قتلها".

"في كلّ مرّة".

"إنّها ليست حقيقية".

"لكنّها تبدو كذلك". عضّ على شفته. "تبدو حقيقية جدّاً".

"لو كانت حقيقية، لكنتَ ميتاً الآن". هزّ رأسه قائلاً: "لا بأس، سأفعل... ذلك. هذا ليس... سيّئاً جدّاً. لا يسبب إحساساً كبيراً بالذعر".

لا يسبّب ذعراً كبيراً، لكنّه مخيف أكثر بكثير. يمكنني رؤية ذلك في عينيه وهو يمسك بالمسدّس، ويفتح الحجرة، كما لو أنّه قام بذلك آلاف المرات، وربّما فعل. وضع الرصاصة في مكانها، وحمل المسدّس أمامه بيديه الاثنتين، ثمّ أغمض إحدى عينيه، وأخذ نفساً بطيئاً.

زفر، وأطلق الرصاص، فارتدّ رأس المرأة إلى الخلف. رأيت وميضاً أحمر، ثمّ نظرت بعيداً. غير أنّني سمعت جسدها وهو يسقط أرضاً.

سقط مسدّس فور، مصدراً صوتاً مكتوماً. نظرنا إلى جسدها الممدّد على الأرض. ما قاله صحيح، يبدو هذا حقيقياً بالفعل. لا تكوني سخيفة. أمسكت بذراعه.

قلت: "هيّا، لنذهب. يجب أن نستمرّ بالتحرّك".

شددت ذراعه مرّة أخرى، فخرج من شروده وتبعني. مع مرورنا من أمام الطاولة، اختفى جسد المرأة، لكنّه بقي في ذاكرتي، وفي ذاكرته. بماذا سأشعر إن كان عليّ أن أقتل شخصاً ما في كلّ مرّة أدخل فيها عالم الخوف الخاصّ بي؟ قد أكتشف ذلك.

لكنّ شيئاً ما حيّرني. إذ يفترض بهذه المخاوف أن تكون مخاوف فور. ومع أنّه شعر بالذعر في الصندوق، وعلى سطح المبنى، إلاّ أنّه قتل المرأة من دون صعوبة تذكر. يبدو أنّ المحاكاة تتعلّق بأيّ خوف تجده بداخله، غير أنّها لم تجد الكثير.

همس: "ها نحن ذا".

تحرّك أمامنا شكل داكن، يمشي ببطء على طرف دائرة الضوء، وينتظر أن نتقدّم خطوة نحوه. من هذا؟ من يتردّد على كوابيس فور؟

كان الرجل الذي ظهر نحيلاً وطويل القامة، وذا شعر قصير، ويرتدي ملابس نكران الذات الرمادية، ويضع يديه خلف ظهره.

همست: "ماركوس".

قال فور بصوت مرتجف: "هذا هو الجزء الذي ستحزرين فيه اسمي".

"هل هو..." وحوّلت نظري من ماركوس الذي كان يقترب منّا ببطء، إلى فور الذي أخذ يتراجع بخطوات بطيئة، واتّضح كلّ شيء. كان لدى ماركوس ابن انضمّ إلى جماعة الشجاعة. يدعى... "توبياس".

أظهر ماركوس يديه، فرأيت حزاماً ملتفّاً حوهما. راح يحلّه ببطء.

قال: "هذا لمصلحتك". وتردّد صوته عشر مرّات.

فجأة، ظهرت عشر نسخ من ماركوس حول دائرة الضوء، وكلّهم يحملون الأحزمة السوداء نفسها، وعلى وجوههم التعابير الجامدة نفسها. عندما رفّوا جفونهم، تحوّلت أعينهم إلى حفر سوداء مجوّفة. تلوّت الأحزمة كالأفاعي على الأرض التي أصبحت الآن مكسوّة ببلاط أبيض اللون. في تلك اللحظة، سرت قشعريرة في جسدي. لقد اتّهمت جماعة المعرفة ماركوس بالقسوة، وكانت على حقّ في ذلك.

نظرتُ إلى فور – توبياس – وكان جامداً كالصخر. تراخى جسده، وبدا أكبر من سنّه بأعوام، وأصغر من سنّه بأعوام في آن معاً. رفع ماركوس الأوّل ذراعه إلى الخلف، وطار الحزام من فوق كتفه وهو يستعدّ لضرب توبياس الذي انكمش، وتراجع إلى الخلف رافعاً ذراعيه لحماية وجهه.

اندفعتُ أمامه، فهوى الحزام على معصمي، والتفّ حوله. شعرت بألم مبرح، امتدّ من معصمي إلى مرفقي. صررت على أسناني، وشددت يدي بأقصى قوّتي. أفلت ماركوس الحزام، فحللته عن معصمي، وأمسكته من الإبزيم.

لوّحت بذراعي بأسرع ما يمكن، وآلمتني كتفي إثر الحركة المفاجئة، قبل أن يضرب الحزام كتف ماركوس. عندئذٍ، صاح واندفع نحوي مادّاً ذراعيه إلى الأمام، حيث بدت أظافره كالمخالب. عندها، دفعني توبياس خلفه، ووقف بيني وبين ماركوس. بدا في تلك اللحظة غاضباً وليس خائفاً.

فجأة، اختفى ماركوس مع كلّ نسخه، وعاد الضوء لينير غرفة ضيّقة وطويلة ذات جدران من الطوب وأرضية إسمنتية.

قلت: "أهذا كلّ شيء؟ تلك أسوأ مخاوفك! لماذا لا تملك سوى أربعة..." ولم أكمل جملتي... أربعة مخاوف.

التفتّ إليه: "أوه. لهذا السبب يسمّونك –".

لزمت الصمت عندما رأيت تعبير وجهه. كانت عيناه مذهلتين، وبدا ضعيفاً تقريباً في ضوء الغرفة. ولو لم نكن في هذا المكان، لوصفت النظرة التي تعلو وجهه، بشفتيه المنفرجتين، بأنّها إعجاب. لكنّني لا أفهم السبب الذي قد يدفعه إلى النظر إليّ بإعجاب.

وضع يده حول مرفقي، وضغط إبهامه على بشرة ساعدي الناعمة، ثمّ احتضنني. كان معصمي لا يزال يؤلمني، كما لو أنّ الحزام كان حقيقياً، لكنّ لونه لا يختلف عن لون بقيّة جسدي. تحرّكت شفتاه ببطء على خدّي، ثمّ شدّ ذراعيه حول كتفيّ، ودفن وجهه في عنقي، حيث شعرت بأنفاسه على بشرتي.

وقفت جامدة للحظة، ثمّ أحطته بذراعيّ، وتنهّدت.

قلت له بصوت خافت: "لقد خرجنا منه".

رفع وجهه، ومرّر أصابعه في شعري، ثمّ أرجعه خلف أذني. تبادلنا النظرات بصمت، بينما تحرّكت أصابعه على خصلة من شعري.

قال أخيراً: "أنت أخرجتني منه".

"في الواقع". شعرت بجفاف في حلقي، وحاولت أن أتجاهل الكهرباء التي تنبض بداخلي كلّما لمسني. "من السهل التحلّي بالشجاعة ما دمتُ لا أواجه مخاوفي".

أخفضت يديّ، ومسحتهما على سروالي على نحو عرضيّ، أتمنّى ألاّ يكون قد لاحظ ذلك.

إن فعل، فإنّه لم يقل شيئاً، بل شبك أصابعه بأصابعي، ثم قال: "تعالي، أريد أن أريك شيئاً آخر".

الفصل السادس والعشرون

مشينا يداً بيد نحو السرداب. حاولت السيطرة على ضغط يدي. أحياناً أشعر أنّني لا أشدّ على يده بما فيه الكفاية، وأحياناً أخرى، أشدّ عليها بشكل زائد. لم أكن أفهم قطّ سبب تكبّد الناس عناء الإمساك بأيدي بعضهم وهم يسيرون. غير أنّه مرّر إحدى أصابعه على كفّي، فأحسست برعشة، وفهمت السبب تماماً.

"إذاً..." تمسّكت بآخر فكرة منطقية أذكرها. "أربعة مخاوف".

قال وهو يهزّ رأسه: "كانت أربعة، وظلّت أربعة؛ لم تتغيّر. أستمرّ بالذهاب إلى هناك، لكن... لم أحرز أيّ تقدّم".

قلت له: "لا يمكنك أن تكون بلا مخاوف، كما تعلم، لأنّك ما زلت تكترث لأمور معيّنة؛ تكترث لحياتك".

"أعرف".

مشينا على طريق ضيّق ممتدّ على حافّة السرداب، ويؤدّي إلى الصخور في أسفل الهاوية. لم يسبق لي أن لاحظت هذا الطريق من قبل، فهو مموّه بالجدار الصخري. لكن يبدو أنّ توبياس يعرفه جيّداً.

لم أكن أرغب في إفساد تلك اللحظة، لكن أردت أن أعرف نتيجته في اختبار الجدارة. أريد أن أعرف ما إذا كان جامحاً.

قلت: "كنت تنوي إخباري بالنتيجة التي حصلت عليها في اختبار الجدارة".

"آه". حكّ مؤخّر عنقه بيده الأخرى. "وهل هذا مهمّ؟".

"أجل، أريد أن أعرف".

ابتسم قائلاً: "كم أنت متطلّبة".

وصلنا إلى آخر الطريق، ووقفنا في أسفل الهاوية. هناك، كانت الصخور تشكّل أرضاً غير ثابتة، وترتفع في زوايا حادّة عن تيّار الماء. قادني إلى الأعلى، ومن ثمّ إلى الأسفل، فوق فجوات صغيرة ونتوءات حادّة. تنقّلت بخطىً ثابتة على الصخور الخشنة، وخلّف حذائي أثراً رطباً على كلّ صخرة خطوت عليها.

وجد صخرة مسطّحة نسبياً على ضفّة النهر، ولم يكن التيار الذي يمرّ بجانبها قوياً. فجلس،

وتدلّت قدماه عن حافّتها. جلست بالقرب منه. بدا مرتاحاً هنا، على بعد إنشات قليلة من تيار الماء العنيف.

ترك يدي، ونظرت إلى الصخور المسنّنة.

قال: "هذه أمور لا أخبرها للناس كما تعلمين. ولا حتّى لأصدقائي".

شبكت أصابعي وشددت عليها. هذا هو المكان الأنسب ليخبرني أنّه جامح؛ هذا إن كان كذلك بالفعل. فهدير النهر سيطغى على صوتينا. لا أدري لماذا كنت أشعر بالتوتّر.

قال: "كانت نتيجتي كما هو متوقّع؛ نكران الذات".

"أوه". شعرت بالخيبة، لقد أخطأت بشأنه.

فقد افترضت أنه إن لم يكن جامحاً فلا بدّ أن تكون نتيجته الشجاعة. لكن تقنياً، أنا أيضاً حصلت على نكران الذات؛ بحسب النظام. هل حدث معه الشيء نفسه؟ وفي هذه الحال، لماذا لا يقول لي الحقيقة؟

سألته: "غير أنّك اخترت الشجاعة، أليس كذلك؟".

"هذا بدافع الضرورة".

"لماذا أردت الرحيل؟".

حوّل نظره عنّي، إلى الفراغ الممتدّ أمامه، وكأنّه يفتّش في الهواء بحثاً عن الجواب. لم يكن مضطرّاً للإجابة، فما زلت أشعر بلسعة الحزام على معصمي.

قلت: "أردتَ الابتعاد عن أبيك. ألهذا السبب ترفض أن تكون قائداً في هذه جماعة؟ لكي لا تضطرّ لرؤيته مرّة أخرى؟".

رفع إحدى كتفيه مجيباً: "هذا أحد الأسباب؛ إذ لطالما شعرت أنّني لا أنتمي تماماً إلى الشجاعة. ليس كما هي الآن، على أيّ حال".

قلت: "لكنّك... ممتاز". صمتُّ، ثمّ تنحنحت، وأضفت: "أعني بالنسبة إلى مقاييس الشجاعة. فأربعة مخاوف شيء لم يسبق له مثيل. كيف يعقل ألاّ تنتمي إلى هذا المكان؟".

هزّ كتفيه. لا يبدو أنّه يكترث حقّاً لمواهبه، أو لمنصبه بين الشجعان، وهذا ما أتوقّعه من شخص ينتمي إلى نكران الذات. لا أعرف ماذا يمكنني أن أستنتج من كلّ ذلك.

قال: "لديّ نظرية تفيد أنّ عدم الأنانية والشجاعة صفتان غير مختلفتين إلى هذا الحدّ. لقد تدرّبتِ طوال حياتك على نسيان ذاتك، حيث يصبح هذا همّك الأوّل عندما تكونين في خطر. يمكنني

الانتماء إلى نكران الذات بالسهولة نفسها".

شعرت فجأة بالكآبة. فحياة كاملة من التدريب لم تكن كافية بالنسبة إليّ. فما زال همّي الأوّل هو الحفاظ على الذات.

قلت: "أجل. في الواقع، لقد تركت نكران الذات لأنّني لم أكن عديمة الأنانية بما فيه الكفاية؛ على الرغم من كلّ محاولاتي".

ابتسم لي قائلاً: "هذا ليس صحيحاً تماماً. فالفتاة التي قبلت أن يرمي أحدهم الخناجر عليها لتنقذ صديقها، والتي ضربت أبـي بحزام لحمايتي، تلك الفتاة غير الأنانية، أليست أنت؟".

لقد عرفني أكثر ممّا أعرف نفسي. ومع أنّه يبدو من المستحيل أن يشعر بشيء تجاهي؛ نظراً لكلّ ما أفتقر إليه... غير أن الحقيقة قد تكون عكس ذلك. "كنت تراقبني عن كثب، أم أنا مخطئة؟".

"أحبّ مراقبة الناس".

"ربّما كانت جماعة النزاهة تناسبك؛ لأنّك فاشل جدّاً في الكذب فور".

وضع يده على الصخرة بالقرب منه، فنظرت إلى يدينا المتوازيتين. كانت أصابعه طويلة ونحيلة، ومناسبة للحركات الرشيقة والسريعة. لم تكن يداه مثل أيدي الشجعان؛ ضخمة، وخشنة، وجاهزة لكسر الأشياء.

"حسناً". قرّب وجهه من وجهي، وركّز نظراته على ذقني، وشفتيّ، وأنفي. "راقبتك لأنّك تعجبينني". قالها ببساطة وجرأة، ونظره مثبّت على عينيّ. "ولا تناديني فور، مفهوم؟ أحبّ أن أسمع اسمي مجدّداً".

وهكذا، أعلن أخيراً عن إحساسه تجاهي، ولم أعرف كيف أجيب. احمرّ خدّاي، وكلّ ما استطعت قوله كان: "لكنّك أكبر منّي... توبياس".

ابتسم لي. "أجل، فارق العامين الهائل ذاك لا يمكن تخطّيه، أليس كذلك؟".

قلت: "لا أحاول أن أنتقص من ذاتي، لكنّني لا أفهم. أنا أصغر منك، ولست جميلة. أنا –".

ضحك من أعماق قلبه.

قلت بصوت خافت: "لا تكذب، أنت تعرف أنّني لست كذلك. أنا لست قبيحة، لكنّني بالتأكيد لست جميلة".

"حسناً، أنت لست جميلة. ماذا إذاً؟". قبّل خدّي مضيفاً: "يعجبني شكلك. كما أنّك خارقة الذكاء، وجريئة؛ وحتّى عندما عرفتِ بأمر ماركوس..." لانَ صوته. "لم تنظري إليّ كما لو كنت كلباً شريداً".

قلت: "حسناً، أنت لست كذلك".

نظر إليّ للحظة بعينيه الداكنتين، وظلّ صامتاً. ثمّ لمس وجهي، وانحنى نحوي. هدر النهر في أذنيّ، وشعرت برذاذه على كاحليّ. ابتسم، وعانقني.

توتّرت في البداية؛ غير واثقة من نفسي. لذلك، عندما ابتعد، شعرت أنّني ارتكبت خطأً فادحاً. غير أنّه أحاط وجهي بيديه، حيث أحسست بأصابعه القويّة على بشرتي، وعانقني مجدّداً، بثقة أكبر هذه المرّة. فلففت ذراعيّ حوله، ومرَّت يدي على عنقه، قبل أن تداعب أصابعي شعره القصير.

مرّت علينا بضع دقائق في أعماق الهاوية، لم نسمع خلالها سوى هدير المياه. وعندما وقفنا، يداً بيد، أدركت أنّه لو كان خيارنا مختلفاً، لكنّا نفعل ذلك معاً، في مكان أكثر أماناً، وبملابس رمادية لا سوداء.

الفصل السابع والعشرون

في الصباح التالي، شعرت أنّني سخيفة وخفيفة الوزن. كلّما أبعدت الابتسامة عن وجهي، وجدَت طريق العودة إليه. أخيراً، توقّفت عن كبحها. تركت شعري مسدلاً، واستبدلت القمصان الواسعة التي اعتدت على ارتدائها بقميص بلا كمّين يظهر أوشامي.

قالت كريستينا ونحن في طريقنا إلى قاعة الطعام: "ما خطبك اليوم؟". كانت عيناها منتفختين من أثر النوم، وشعرها المشعّث يشكّل هالة حول وجهها.

أجبت: "أوه، كما تعلمين. الشمس ساطعة، والعصافير تزقزق".

رفعت حاجبها باستغراب، وكأنّها تذكّرني أنّنا نعيش تحت الأرض.

قال ويل: "دعي الفتاة في مزاج حسن، فقد لا ترينها على هذه الحال مرّة أخرى".

صفعت ذراعه، وأسرعت إلى قاعة الطعام. كان قلبي ينبض بحماسة لأنّني أعرف أنّني سأرى توبياس خلال النصف ساعة القادمة. جلست في مكاني المعتاد؛ بالقرب من يوريا، وجلس ويل وكريستينا أمامنا. بقي الكرسي الموجود بجانبي خالياً. هل سيجلس عليه توبياس؟ هل سيبتسم لي وهو يتناول الفطور؟ هل سيسترق النظر إليّ كما أتخيّل أنّني سأفعل؟

تناولت قطعة خبز محمّص من الطبق، وبدأت أدهنها بالزبدة، بشيء من الحماسة الزائدة.

شعرت أنّني أتصرّف كالمجانين، لكنني لم أستطع المقاومة؛ إذ سيكون ذلك كمن يرفض أن يتنفّس.

فجأة، دخل قاعة. كان شعره أقصر، وبدا لونه داكناً أكثر؛ أقرب إلى السواد. ثمّ أدركت أنّه بطول شعر أبناء نكران الذات. ابتسمت له، ورفعت يدي لألوّح له، غير أنّه جلس بالقرب من زيك؛ من دون أن يلتفت إليّ حتّى، فأخفضت يدي.

حدّقت إلى قطعة الخبز، وأصبح عدم الابتسام سهلاً.

سألني يوريا بفمه الممتلئ: "هل أنت بخير؟".

هززت رأسي، وتناولت قضمة. ماذا توقّعت؟ ما حدث بيننا لا يعني أنّ شيئاً قد تغيّر. ربّما غير رأيه ولم أعد أعجبه، وربّما وجد أنّ ما جرى كان غلطة.

قال ويل: "اليوم هو يوم عالم الخوف. هل تظنّون أنّنا سنرى عوالم الخوف الخاصّة بنا؟".

هزّ يوريا رأسه قائلاً: "كلا. سندخل عالم أحد مدرّبينا. هذا ما قاله لي أخي".

سألته كريستينا بحماسة مفاجئة: "أوه، أيّ مدرّب؟".

قال ويل وهو يحدّق إلى يوريا: "أتعلم؟ ليس عدلاً أن تحصلوا أنتم على معلومات من الداخل، بينما نعجز نحن عن ذلك".

أجابه يوريا: "وكأنّك لن تستخدم هذه الأفضلية لو توفّرت لك".

تجاهلَتهما كريستينا، وقالت: "أتمنّى أن ندخل عالم فور".

"لماذا؟". خرج السؤال من فمي بنبرة عدم تصديق، حيث عضضت على شفتي، وتمنّيت لو كنت أستطيع استرجاعه.

نظرت إلى الأعلى بسأم، وقالت: "ثمّة من يعاني من تقلّبات مزاجية هنا. تبدين كما لو أنّك لا تريدين أن تعرفي ما هي مخاوفه. فهو يتصرّف بصلابة شديدة كمن يخاف في الواقع من المهلّبية والشمس الساطعة، أو شيء من هذا القبيل، وكمن يحاول التعويض عن شيء ما".

هززت رأسي قائلة: "لن يكون هو".

"وما أدراك؟".

"إنّه توقّع وحسب".

تذكّرت والد توبياس في عالم الخوف الخاصّ به. لن يسمح لهم جميعاً برؤية ذلك. ألقيت نظرة عليه، وللحظة، وقع نظره عليّ أيضاً. غير أنّ نظرته كانت خالية من الأحاسيس، وسرعان ما تحوّلت عنّي.

* * *

وقفت لورين، مدرّبة مبتدئي جماعة الشجاعة، واضعة يديها على خصرها، أمام غرفة عالم الخوف.

قالت: "قبل عامين، كنت أخاف من العناكب، والاختناق، والجدران التي تطبق عليّ ببطء وتحبسني داخلها، والطرد من جماعة الشجاعة، والنزف حتّى الموت، والسحق تحت عجلات قطار، وموت أبي، والتعرّض للإهانة أمام الناس، والتعرّض للخطف على أيدي رجال بلا وجوه".

حدّق إليها الجميع بوجوه مذهولة.

"سيكون لدى معظمكم ما يتراوح بين عشرة وخمسة عشر مخاوف في العوالم الخاصة بكم. فهذا معدّل عددها".

سألتها لين: "ما هو أقلّ عدد من المخاوف سُجّل حتّى اليوم؟".

أجابت لورين: "في السنوات الأخيرة، أربعة".

لم أعاود النظر إلى فور منذ أن كنّا في المقهى، لكنّني لم أستطع المقاومة هذه المرّة. كان ينظر إلى الأرض. عرفت أنّ هذا العدد منخفض جداً إلى حدّ أنه يجعله يستحقّ لقباً، لكنّني لم أدرك أنّه أقلّ من نصف المعدّل.

نظرت إلى قدميّ. إنّه استثنائيّ. وهو الآن يمتنع حتّى عن النظر إليّ.

قالت لورين: "لن تعرفوا عدد مخاوفكم اليوم. فالمحاكاة مبرمجة على عالم الخوف الخاص بـي. لذلك، ستخوضون مخاوفي، وليس مخاوفكم".

ألقيت على كريستينا نظرة ذات مغزى. فقد كنت على حقّ؛ لن ندخل عالم فور.

"لكن، لأغراض خاصّة بهذا التمرين، سيواجه كلّ منكم أحد مخاوفي فقط؛ لفهم كيفية عمل المحاكاة".

اختارتنا لورين بشكل عشوائي، وحدّدت عالم خوف لكلّ منّا. كنت أقف في آخر المجموعة تقريباً، وكان من نصيبـي مشهد الخطف.

بما أنّني لم أكن موصولة إلى جهاز الكومبيوتر وأنا أنتظر دوري، لم يكن بإمكاني مشاهدة المحاكاة، بل ردّ فعل المبتدئ عليها وحسب. وكانت هذه طريقة ممتازة لتشتيت أفكاري عن توبياس. فشددت قبضتيّ بينما كان ويل ينفض عن جسده عناكب لا أستطيع رؤيتها، ويوريا يضغط على جدران غير مرئية، وابتسمت ساخرة عندما احمرّ وجه بيتر بسبب ما يمر به في مشهد الإهانة أمام الناس. أخيراً، حان دوري.

لن تكون هذه المحاكاة مريحة بالنسبة إليّ. لكن، بما أنّني تمكّنت من التحكّم بكل جلسة خضعت لها، وليس هذه فقط، وبما أنه سبق لي أن دخلت عالم توبياس، لم أشعر بالخوف عندما غرزت لورين الإبرة في عنقي.

فجأة تغيّر المشهد، وبدأت أحداث الخطف. أصبحت الأرض تحت قدميّ مكسوّة بالعشب، وأطبقت أيدٍ على ذراعيّ وفمي. كان الظلام دامساً.

كنت أقف بالقرب من الهاوية، وأسمع هدير النهر. رحت أصرخ بصوت كتمته اليد التي تغطّي فمي، وأتخبّط لتحرير نفسي، لكنّ الأذرع كانت قويّة جدّاً. كان خاطفوي أقوياء جدّاً. لمعت في ذهني صورتي وأنا أسقط في الظلام؛ الصورة نفسها التي بتّ أراها في كوابيسي. صرخت مجدّداً، وواصلت الصراخ إلى أن آلمتني حنجرتي، وسالت الدموع من عينيّ.

عرفت أنّهم سيعودون، عرفت أنّهم سيحاولون مجدّداً. فالمرّة الأولى لم تكن كافية. صرخت مجدّداً، ليس طلباً للمساعدة؛ لأنّ أحداً لن يهبّ لنجدتي، بل لأنّ هذا ما يفعله المرء عندما يكون على وشك الموت، من دون أن يتمكّن من ردعه.

قال صوت صارم: "توقّفي".

اختفت الأيدي، وعادت الأنوار، ووجدت نفسي أقف على أرض إسمنتية في غرفة عالم الخوف. هويت على ركبتيّ وأنا أرتجف، وخبّأت وجهي بيديّ. لقد فشلت. فقدت كلّ أثر للمنطق، فقدت كلّ إدراكي، وتحوّل خوف لورين إلى خوفي.

ورآني الجميع، بمن فيهم توبياس.

سمعت وقع خطىً. مشى توبياس نحوي، ورفعني لأقف على قدميّ.

"ما هذا أيّتها المتزمّتة؟".

"أنا...". خرجت أنفاسي بشكل متقطّع. "لم –".

"تماسكي! هذا مثير للشفقة".

فجأة، ثار شيء في داخلي، وتوقّفت عن ذرف الدموع، واجتاحت جسدي حرارة طردَت من داخلي كلّ أثر للضعف، فوجّهت إليه لكمة قويّة، آلمَت عقد أصابعي. حدّق إليّ مذهولاً، بينما غزا احمرار جانب وجهه من أثر الضربة، وبادلته النظرات.

قلت: "اخرس". ثمّ حرّرت ذراعي من قبضته، وغادرت الغرفة.

الفصل الثامن والعشرون

شددت سترتي حول كتفيّ. مرّ زمن طويل على خروجي إلى الهواء الطلق. أرسلت الشمس أشعّة باهتة على وجهي، وشاهدت أنفاسي وهي تتصاعد في الهواء.

حقّقت على الأقلّ إنجازاً واحداً. فقد أقنعت بيتر وأصدقاءه أنّني لم أعد مصدر تهديد لهم. عليّ أن أحرص غداً، حين أدخل عالم الخوف الخاص ب.ي، على الإثبات لهم أنّهم مخطئون. كان الفشل يبدو بالأمس مستحيلاً، أمّا اليوم، فلم أعد واثقة.

أدخلت أصابعي بين خصل شعري. لقد زالت رغبتي في البكاء. جدلت شعري، وربطته بالشريط المطّاطي المحيط بمعصمي. شعرت أنّني أشبه نفسي أكثر على هذا النحو. هذا كلّ ما أحتاج إليه؛ أن أتذكّر من أكون. أنا فتاة لا تسمح لأمور لا طائل منها – كالفتيان وتجارب الاقتراب من الموت – بإيقافها.

ضحكت، ورحت أهزّ رأسي. أهذا صحيح؟

سمعت صفّارة القطار. كانت سكك الحديد تلتفّ حول مجمّع الشجاعة، ثمّ تتابع طريقها أبعد من مرمى بصري. أين تبدأ؟ أين تنتهي؟ كيف هو العالم خارج عالمهم؟ مشيت نحوها.

أريد الذهاب إلى البيت، لكنّني لا أستطيع. فقد حذّرنا إريك من إظهار تعلّق كبير بأهالينا في يوم الزيارة، ما يعني أنّ زيارة بيوتنا تعتبر خيانة لجماعة الشجاعة، ولا يمكنني الإقدام على ذلك. غير أنّ إريك لم يمنعنا من زيارة أناس في جماعات غير تلك التي أتينا منها، وقد طلبت منّي أمّي زيارة كاليب.

أعرف أنّه ليس من المسموح لنا مغادرة المجمّع من دون مراقبة، لكنّني لم أستطع المقاومة. رحت أسرع في مشيتي إلى أن بدأت أركض، ومددت ذراعيّ، وأخذت أجري بالقرب من آخر مقطورة؛ إلى أن أمسكت المقبض، ورميت بنفسي في الداخل، فاستبدّ الألم بجسدي المتعب أساساً.

عندما أصبحت في الداخل، تمدّدت على ظهري بجانب الباب، ورحت أراقب مجمّع الشجعان وهو يختفي خلفي. لا أريد العودة، لكنّ اختيار الرحيل والتحوّل إلى فتاة منبوذة، سيكون الأمر الأكثر شجاعة الذي أقدم عليه في حياتي كلّها، واليوم أشعر أنّني جبانة.

لفح الهواء جسدي، والتفّ حول أصابعي. تركت يدي تجول على طرف المقطورة، بعكس اتّجاه الهواء. ليس بإمكاني العودة إلى البيت، لكنّني أستطيع إيجاد جزء منه. فكاليب موجود في كلّ ذكرى

من ذكريات طفولتي، إنّه جزء منّي.

ابطأ القطار من سرعته وهو يقترب من وسط المدينة، فجلست لمشاهدة الأبنية الصغيرة وهي تكبر حجماً. يعيش أهل جماعة المعرفة في مبانٍ حجرية كبيرة تطلّ على المستنقع. أمسكت مقبض الباب، وانحنيت قليلاً إلى الخارج لأرى إلى أين تمتدّ السكك. كانت تنخفض إلى مستوى الشارع قبل أن تنعطف شرقاً. تنشّقت رائحة الرصيف الرطب وهواء المستنقع.

انخفض القطار، ثمّ أبطأ من سرعته، فقفزت. ارتجفت ساقاي بفعل الصدمة، وركضت بضع خطوات لأستعيد توازني. مشيت وسط الشارع، متوجّهة جنوباً، نحو المستنقع. كانت الأرض الخالية تمتدّ على مدّ نظري، وتبدو كسهلٍ بنّي يعانق الأفق.

انعطفتُ يساراً، فوجدت أمامي مباني جماعة المعرفة، بلونها الداكن، وشكلها غير المألوف. كيف سأجد كاليب هنا؟

تحتفظ جماعة المعرفة بسجلاّت، فهذا من طبيعتها. إذ عليهم الاحتفاظ بسجلاّت لمبتدئيهم. غير أنّه ثمّة من يشرف على هذه السجلاّت، وعليّ إيجاده. تأمّلت المباني. منطقياً، يجب أن يكون المبنى الأوسط هو الأهمّ، لذا، سأبدأ من هناك.

كان أعضاء الجماعة في كلّ مكان. تملي قواعد جماعة المعرفة على أعضائها ارتداء شيء واحد أزرق على الأقلّ؛ لأنّ اللون الأزرق يحفز الجسد على إفراز كيميائيات مهدّئة، و"الذهن الهادئ ذهنٌ صافٍ". وهكذا أصبح اللون الأزرق رمزاً لجماعتهم أيضاً. بدا المكان مشرقاً جدّاً بالنسبة إليّ. فقد اعتدت على الإضاءة الخافتة والملابس الداكنة.

توقّعت أن أضطرّ للمرور بين الناس، والاعتذار منهم وأنا أدفعهم بمنكبيّ – كما أفعل عادة – لكن تبيّن أنّه لا حاجة بي إلى ذلك. فبعدما انضممت إلى الشجاعة، أصبحت لافتة للنظر. أفسح لي الناس المجال، وتعلّقت أنظارهم بي وأنا أمرّ. نزعت الشريط المطّاطي عن شعري، وتركته ينسدل على كتفيّ بحرّية، قبل أن أعبر الباب الأماميّ.

وقفت في المدخل، وأرجعت رأسي إلى الخلف. كانت الغرفة ضخمة، وصامتة، تفوح منها رائحة شبيهة برائحة صفحات الورق المغبرّة. أصدرت الأرضية الخشبية صريراً تحت قدميّ. اصطفّت الكتب على الجدران من الجانبين، لكنّها بدت أقرب إلى الزينة، لأنّ أجهزة الكومبيوتر احتلت الطاولات في وسط القاعة، ولا أحد يقرأ. كان الجميع يحدّقون إلى الشاشات بتركيز.

كان يجب أن أعرف أنّ المبنى الرئيس لجماعة المعرفة سيكون مكتبة. لفتت انتباهي لوحة بورتريه

على الجدار المقابل، يبلغ حجمها ضعف طولي وأربعة أضعاف عرضي، وتصوّر امرأة جميلة، ذات عينين رماديّتين، تضع نظّارة، إنّها جانين. شعرت بحرارة في حلقي لدى رؤيتي صورتها. بما أنّها ممثّلة جماعة المعرفة، فهي التي نشرت ذلك التقرير عن أب.ي. شعرت بالنفور منها منذ أن بدأت الإشاعات حول أب.ي، والآن أصبحت أكرهها.

عُلّقت تحت صورتها لوحة كبيرة كتب عليها: المعرفة تقود إلى الازدهار.

الازدهار. لهذه الكلمة معنى سلبي في ذهني. إذ إنّ جماعة نكران الذات تستخدمها لوصف الانغماس الذاتي.

كيف اختار كاليب أن يكون واحداً من هؤلاء الناس؟! فما يفعلونه، وما يريدونه خاطئ برمّته. لكن، ربّما كان رأيه مشابهاً لجماعة الشجاعة.

اقتربت من المكتب الموجود تحت صورة جانين. لم يرفع الرجل الجالس خلفه رأسه وهو يسألني: "بماذا أساعدك؟".

قلت: "أنا أبحث عن شخص يدعى كاليب. هل تعرف أين يمكنني إيجاده؟".

أجاب ببرودة، وهو ينقر على الشاشة أمامه: "لا يحقّ لي إعطاؤك معلومات شخصية".

"إنّه أخي".

"لا يحقّ لي –".

ضربت بكفّي على المكتب، فأجفل وخرج من شروده. حدّق إليّ من خلف نظّارته، بينما التفتت الرؤوس نحوي.

قلت له بصوت حازم: "قلت إنّني أبحث عن شخص. إنّه مبتدئ. هل يمكنك إخباري على الأقلّ أين أستطيع إيجادهم؟".

قال أحدهم خلفي: "بياتريس؟!".

التفتّ، فوجدت كاليب خلفي؛ حاملاً كتاباً بيده. لقد ازداد شعره طولاً حيث غطّى أذنيه، وكان يرتدي قميصاً قطنياً أزرق، ويضع نظّارة. مع أنّه يبدو مختلفاً، ولم يعد يُسمح لي بأن أحبّه بعد اليوم، إلاّ أنّني ركضت إليه بأقصى سرعتي، واحتضنته.

قال بصوت خافت: "لديك وشم".

"ولديك نظّارة". ابتعدت عنه، ونظرت إليه مضيفة: "نظرك ممتاز كاليب، لِمَ النظارة؟".

نظر إلى الطاولات المحيطة بنا، وقال: "تعالي، لنخرج من هنا".

خرجنا من المبنى، وعبرنا الشارع. رحت أهرول لأجاري خطواته. كانت تقع أمام مقرّ المعرفة في الماضي حديقة عامة. نحن نسمّيها اليوم "ميلينيوم"، وقد أصبحت عبارة عن مساحة من الأرض الجرداء التي تضمّ عدداً من المنحوتات المعدنية الصدئة. إحداها منحوتة تجريدية، والأخرى تمثال ضخم مصفّح، وثمة منحوتة على شكل حبّة فاصولياء أبدو قزمة بجانبها.

وقفنا على أرض إسمنتية، تحيط بحبّة الفاصولياء المعدنية. هناك، جلس أبناء جماعة المعرفة في مجموعات صغيرة، حاملين بأيديهم صحفاً أو كتباً. خلع كاليب نظارته، ودسّها في جيبه، ثمّ مرّر يده في شعره، ونظر إليّ بعصبيّة وكأنّه يشعر بالخجل. ربّما هذا ما يجب أن أشعر به أنا أيضاً، فقد وشمت نفسي، وأسدلت شعري، وارتديت ملابس ضيّقة. لكنني لا أشعر بذلك.

سألني: "ماذا تفعلين هنا؟".

"أردت العودة إلى البيت، وكنتَ أقرب شخص فكّرت فيه".

ضغط على شفتيه.

قلت: "لا يبدو عليك السرور برؤيتي".

قال وهو يضع يديه على كتفيّ: "اسمعي، أنا مسرور جدّاً لرؤيتك، هل تفهمين؟ لكنّ هذا غير مسموح. ثمّة قوانين".

"لا آبه بها، لا آبه بها إطلاقاً".

قال بصوت ناعم وقد بدت على وجهه ملامح الاستنكار: "ربّما عليك ذلك. لو كنت مكانك، لما افتعلت مشاكل مع جماعتي".

"ماذا يفترض بهذا أن يعني؟".

كنت أعرف تماماً ما يعنيه. فهو يعتقد أنّ جماعتي هي الأكثر قسوة بين الجماعات الخمس، ولا شيء غير ذلك.

قال وهو يميل رأسه: "أنا لا أريد أن تتعرّضي لمكروه. لا تستائي منّي إلى هذا الحدّ. ماذا حلّ بك هناك؟".

"لا شيء. لم يحلّ بي أيّ شيء". أغمضت عينيّ، وفركت مؤخّر عنقي بيدي. حتّى لو تمكّنت من شرح كلّ شيء له، إلاّ أنّني لا أريد ذلك. حتّى إنّني لا أملك الإرادة الكافية للتفكير بذلك.

نظر إلى حذائه وقال: "هل تظنّين... هل تظنّين أنّك قمت بالاختيار المناسب؟".

"لا أظنّ أنّه كان ثمّة اختيار مناسب. ماذا عنك؟".

نظر حوله. كان الناس يحدّقون إلينا وهم يمرّون بجانبنا، فنظر إلى وجوههم. ما زال يشعر بالتوتّر، لكن ربّما ليس بسبب مظهره، بل بسببي أنا. ربّما كانوا هم السبب. أمسكت بذراعه، وسحبته لنقف تحت قوس حبّة الفاصولياء المعدنية. مشينا تحت تجويفها، ورأيت انعكاس صورتي في كلّ مكان، تشوّهها الجدران، وتتخلّلها بقع الصدأ والسخام.

شبكت ذراعيّ وسألته: "ماذا يجري؟". لم ألاحظ من قبل الهالتين السوداوين حول عينيه. "ما مشكلتك؟".

وضع كاليب يده على الجدار المعدني. بدا رأسه صغيراً في صورته المنعكسة على السطح الأملس، ومضغوطاً من أحد جانبيه، فيما بدت ذراعه وكأنها مثنية إلى الخلف. أمّا صورتي، فبدت صغيرة وقصيرة.

"يتمّ الإعداد لشيء ما بياتريس، شيء كبير". بدت عيناه مذهولتين وجامدتين. "لا أعرف ماهيّته، لكنّ الناس هنا في نشاط دائم، وهم يتكلّمون همساً، وجانين تلقي خطابات عن فساد نكران الذات طوال الوقت؛ بشكل يوميّ تقريباً".

"هل تصدّقها؟".

"كلاّ. ربّما... لا أدري...". وهزّ رأسه قائلاً: "لا أعرف ماذا أصدّق".

قلت له بجدّية: "بلى، أنت تعرف؛ تعرف أبوينا جيداً، وتعرف أصدقاءنا. هل تظنّ أنّ والد سوزان فاسد؟".

"كم أعرف؟ كم سمحوا لي بأن أعرف؟ لم يكن يحقّ لنا بطرح الأسئلة بياتريس، ولم يحقّ لنا الاطّلاع على حقيقة ما يجري! وهنا...". نظر إلى الأعلى، فرأيت في المرآة الدائرية المسطّحة فوقنا وجهين صغيرين بحجم الأنملة، أعتقد أنّهما الانعكاس الحقيقي لصورتنا. فهما صغيران تماماً؛ كما نحن في الواقع. تابع يقول: "هنا، المعلومات مجّانية، ومتاحة دائماً".

"هذه ليست جماعة النزاهة، بل يوجد كذّابون هنا كاليب. ثمّة أشخاص يتمتّعون بذكاء خارق، ويعرفون كيفيّة التحكّم بكم".

"هل تظنّين أنّني سأعرف إن كنت ضحيّة تلاعب؟".

"إن كانوا بالذكاء الذي تظنّه، لا. لا أعتقد أنّك ستعرف".

قال وهو يهزّ رأسه: "أنت لا تعرفين عمّا تتحدّثين".

"صحيح. بربّك، من أين لي أن أعرف كيف تكون الجماعة الفاسدة؟ فأنا أتدرّب لأكون شجاعة.

على الأقلّ، أنا أعرف ما أنا جزء منه كاليب. أمّا أنت، فقد اخترت أن تتجاهل ما عرفناه طوال حياتنا. هؤلاء الناس مغرورون، وطمّاعون، ولن تصل معهم إلى أيّ مكان".

قال لي بصوت قاسٍ: "أظنّ أنّه عليك الرحيل بياتريس".

"بكلّ سرور. آه، كدت أنسى، مع أنّ هذا الأمر لا يهمّك، لكنّ أمّي تريدك أن تجري أبحاثاً حول مصل المحاكاة".

بدا مجروحاً وهو يسألني: "هل رأيتها؟ لماذا لم –".

"لأنّ جماعة المعرفة لم تعد تسمح للمنتمين إلى نكران الذات بدخول مجمّعها. ألم تكن هذه المعلومة متاحة لك؟".

مررت من أمامه، وخرجت من تحت المنحوتة، ثمّ بدأت أسير على الرصيف. لم يكن يجدر بي الرحيل، فقد أصبح مجمّع الشجاعة مثل بيتي الآن. على الأقلّ، أنا أعرف هناك أين أقف؛ حتّى إن كانت الأرض غير مستقرّة.

تفرّق الحشد على الرصيف، فنظرتُ إليهم لمعرفة السبب. على بعد عدّة ياردات منّي، رأيت رجلين من المعرفة واقفين وقد شبك كل منهما ذراعيه على صدره.

قال أحدهما: "عذراً، عليك المجيء معنا".

* * *

مشى أحد الرجلين خلفي، حيث شعرت بأنفاسه على عنقي. أمّا الآخر، فقادني إلى المكتبة، ومنها عبر ثلاثة أروقة، إلى أحد المصاعد. بعد قاعة المكتبة، تبدّلت الأرض من الخشب إلى البلاط الأبيض، وأصبحت الجدران لامعة؛ مثل سقف غرفة اختبار الجدارة. ارتدّ الوهج عن باب المصعد الفضّي، فأغمضت عينيّ نصف إغماضة لكي أرى.

حاولت البقاء هادئة. ورحت أطرح على نفسي أسئلةً أذكرها من فترة التدريب. ماذا ستفعلين إن هاجمك أحد من الخلف؟ تخيّلت نفسي وأنا أُرجع مرفقي إلى الخلف لأضرب معدة أحدهم، أو أسفل بطنه. وتخيّلت أنني أركض، وتمنيت لو كنت أملك مسدّسًا. هذه من أفكار الشجعان، وقد أصبحَت أفكاري أنا أيضاً.

ماذا ستفعلين إن هاجمك شخصان معاً؟ تبعت الرجل عبر ممر خالٍ، ومنه إلى داخل مكتب. كانت الجدران مصنوعة من الزجاج. أظن أنّني عرفت الآن أيّ جماعة صمّمت مدرستنا.

جلست امرأة خلف مكتبٍ معدني. نظرتُ إلى وجهها، وعرفت أنّه الوجه نفسه الذي تحتل صورته

جدار المكتبة. إنّه الوجه الذي يظهر بجانب كلّ مقال تنشره جماعة المعرفة. منذ متى وأنا أكره هذا الوجه؟ لا أذكر.

قالت جانين: "اجلسي". بدا صوتها مألوفاً، لا سيّما وهي مستاءة. وركّزت نظرات عينيها الرماديّتين على عينيّ.

"أُفضّل عدم الجلوس".

أمرتني مجدّداً: "اجلسي". حتماً سبق لي أن سمعت هذا الصوت.

لقد سمعته في رواق مجمّع الشجاعة، وهي تتحدّث مع إريك، قبل أن أتعرّض للهجوم. سمعتها وهي تذكر الجامحين. كما سمعته مرّة من قبل...

قلت: "كان ذاك صوتك في جلسة المحاكاة، أعني في اختبار الجدارة".

هي الخطر الذي حذّرتني منه توري وأمّي؛ خطر كوني جامحة. إنّها جالسة أمامي بلحمها ودمها.

أجابت: "صحيح. فاختبار الجدارة أعظم إنجاز لي كعالمة. لقد اطّلعت على نتائج اختبارك بياتريس، ويبدو أنّ مشكلةً ما قد اعترضته. إذ لم يتمّ تسجيله مطلقاً، بل تمّ إدخال النتائج يدوياً. هل كنت تعرفين ذلك؟".

"كلاّ".

"هل تعلمين أنّك واحدة من بين شخصين حصلا على نتيجة نكران الذات، واختارا الانضمام إلى الشجاعة؟".

أخفيت دهشتي، وأجبت: "كلاّ". هل أنا وتوبياس الوحيدان؟ لكنّ نتائجه حقيقيّة، ونتيجتي مجرّد كذبة. وبالتالي، نتيجته فريدة من نوعها.

شعرت بغصّة عندما فكّرت فيه. لا يهمّني الآن كونه فريداً إلى هذا الحدّ، فقد قال عنّي إنّني مثيرة للشفقة.

سألتني: "لماذا اخترت الشجاعة؟".

"ما علاقة هذا بوجودي هنا؟". حاولت أن أليّن صوتي، لكنّني لم أنجح. "ألن توبخيني على ترك جماعتي بحثاً عن أخي؟ فالجماعة قبل الدم، أليس كذلك؟ أساساً، لماذا أنا موجودة في مكتبك؟ ألا يفترض أنّك شخصيّة هامّة، وما شابه ذلك؟".

ربّما يخفّف هذا الكلام بعضاً من غرورها.

تقلّص فمها للحظة، ثمّ قالت وهي تستند إلى ظهر كرسيّها: "سأترك التوبيخ لجماعتك".

وضعت يديّ على ظهر الكرسيّ الذي رفضتُ الجلوس عليه، وشددت أصابعي. كانت خلفها نافذة تطلّ على المدينة، رأيت منها القطار وهو ينعطف ببطء من بعيد.

قالت: "بالنسبة إلى سبب وجودك هنا... فإنّ من صفات جماعتي الفضول. فبينما كنت أراجع سجلاتك، صادفت خطأً آخر في إحدى الجلسات الأخرى التي خضعت لها. تلك أيضاً لم يتمّ تسجيلها. هل كنت تعرفين؟".

"كيف وصلتِ إلى سجلاّتي؟ وحدهم قادة جماعتي يمكنهم معرفتها".

"بما أن جماعة المعرفة هي التي طوّرت جلسات المحاكاة، فثمة... تفاهم بيننا وبين الشجاعة، بياتريس". أمالت رأسها، وابتسمت لي. "أنا مهتمة وحسب بكفاءة التكنولوجيا التي ابتكرناها. فإن كانت قد فشلت معك، فأنا أودّ أن أضمن عدم تكرار هذا الفشل في المستقبل، هل فهمت؟".

لم أفهم سوى شيء واحد: إنّها تكذب عليّ. فهي لا تكترث للتكنولوجيا، بل تشكّ في صحّة نتائجي. إنّها تبحث عن الجامحين؛ شأنها شأن قادة الشجاعة. وإن كانت أمّي تريد من كاليب إجراء أبحاث حول مصل المحاكاة، فهذا لأنّ جانين طوّرته على الأرجح.

لكن، ما المخيف في قدرتي على التحكم بالمحاكاة؟ لماذا تهتم ممثّلة جماعة المعرفة – دون كلّ الناس – بهذه المسألة؟

لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال. لكنّ نظرة عينيها ذكّرتني بنظرة الكلب في اختبار الجدارة؛ نظرة شريرة وشرسة. أحسست أنّها تودّ لو تمزّقني إرباً. لكنّني لن أركع أمامها بخضوع، فقد تحوّلت أنا أيضاً إلى كلب شرس.

شعرت وكأنّ قلبي ينبض في حلقي.

أجبتها: "لا أعرف كيف تعمل هذه الأمور، لكنّ السائل الذي حقنوني به سبّب لي الغثيان، وربّما تشتّت ذهن المدرّب لأنّه خشي أن أتقيّأ، ونسي تسجيل الجلسة. هذا ما حدث بعد اختبار الجدارة أيضاً".

"هل معدتك حسّاسة عادةً بياتريس؟". كان صوتها حاداً كالسكين. وأخذت تطرق بأظافرها القصيرة على سطح المكتب الزجاجي.

أجبتها بألطف ما يمكن: "منذ صغري". ورفعت يديّ عن الكرسيّ، والتففت حوله للجلوس عليه. لا يجب أن أبدو متوتّرة؛ حتّى لو كنت أشعر بالنيران تضطرم بداخلي.

قالت: "لقد أحرزتِ نجاحاً باهراً في جلسات المحاكاة. إلى ماذا تعزين السهولة التي خضتها بها؟".

أجبتها وأنا أحدّق إلى عينيها: "أنا جريئة". للجماعات الأخرى رأي محدّد بالشجعان. إذ يعتبرونهم متهوّرين، وعدوانيين، ومندفعين. ويعتبرونهم مغرورين. يجب أن أكون عند ظنّها. ابتسمت لها ساخرة: "أنا أفضل مبتدئة حصلوا عليها".

انحنيت إلى الأمام، ووضعت مرفقيّ على ركبتيّ. عليّ الذهاب إلى أبعد من ذلك لأكون مقنعة.

سألتها: "هل تريدين أن تعرفي لماذا اخترت الشجاعة؟ لأنّني كنت أشعر بالملل". أبعَد، أبعَد؛ فالكذب يتطلّب الالتزام. "سئمت من كوني الفتاة الصغيرة الطيّبة فاعلة الخير، وأردت مخرجاً".

سألتني بحذر: "إذاً، ألا تشتاقين إلى أبويك؟".

"أأشتاق إلى التعرّض للتوبيخ كلّما نظرت إلى المرآة؟ أأشتاق إلى إسكاتي كلّما تحدّثت إلى طاولة الطعام؟". هززت رأسي مضيفة: "كلاّ، لا أشتاق إليهما. لم يعودا أسرتي بعد اليوم".

أحرقت تلك الكذبة حلقي وهي تخرج، أو ربّما كانت الدموع التي أقاومها هي التي فعلت ذلك. تخيّلت أمّي واقفة خلفي، حاملة المشط والمقصّ، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة وهي تقصّ شعري، فأحسست بالرغبة في الصراخ عوضاً عن إهانتها بهذه الطريقة.

"هل أفهم من هذا..." وزمّت جانين شفتيها، وصمتت لبضع ثوانٍ قبل أن تتابع: "... أنّك توافقين على التقارير التي نُشرت عن القادة السياسيين في هذه المدينة؟".

أتعني التقارير التي تصف جماعتي بالفساد، والطمع بالسلطة، والطغاة الواعظين؟ التقارير التي تحمل بين سطورها تهديدات مباشرة وتحضّ على الثورة؟ إنّها تسبّب لي الغثيان. ومعرفتي أنّها هي من نشرها تجعلني أرغب في خنقها بيديّ.

ابتسمتُ مجيبة: "من أعماق قلبي".

* * *

قام أحد أتباع جانين، وكان يرتدي قميصاً أزرق ويضع نظارة شمسية، بإعادتي إلى مجمّع الشجاعة في سيّارة فضّية لامعة، لم يسبق لي أن رأيت مثلها من قبل. كان محرّكها صامتاً تقريباً. وعندما سألت الرجل عنه، قال لي إنّه يعمل بالطاقة الشمسية، ثمّ استغرق في شرح طويل لكيفية قيام الألواح على سقفها بتحويل أشعّة الشمس إلى طاقة. توقّفت عن الإصغاء إليه بعد ستين ثانية، ونظرت من النافذة.

لا أعرف ما الذي ينتظرني عند عودتي، لكن أظنّ أنّ حسابي سيكون عسيراً. تخيّلت قدميّ متدلّيتين من فوق الهاوية، وعضضت على شفتي.

عندما توقّفت السيّارة عند المبنى الزجاجي فوق مجمّع الشجاعة، رأيت إريك ينتظرني عند الباب. أمسك بذراعي، وقادني إلى الداخل من دون أن يشكر السائق. عرفت أنّ أصابعه ستخلّف رضوضاً على ذراعي نظراً إلى قوّة قبضته.

وقف بيني وبين الباب الزجاجي المؤدّي إلى الداخل، وبدأ يطقطق أصابعه. في ما عدا ذلك، كان ساكناً تماماً.

ارتجفتُ رغماً عنّي.

كانت طقطقة أصابعه الخافتة هي كلّ ما أسمعه، باستثناء أنفاسي التي راحت تزداد سرعة مع مرور كلّ ثانية. وعندما انتهى، شبك أصابعه أمامه.

"أهلاً وسهلاً تريس".

"إريك".

اقترب منّي، وهو يضع قدماً أمام الأخرى بحذر.

"بماذا..." كانت كلمته الأولى بصوت منخفض، ثم أضاف بصوت أعلى: "كنت تفكّرين بالضبط".

"أنا..." كان قريباً منّي كثيراً، حيث استطعت رؤية ثقوب الأقراط المعدنية. "لا أعرف".

قال: "أشعر بالرغبة في نعتك بالخائنة تريس. هل سبق لك أن سمعت بعبارة: الجماعة قبل الدم؟".

سبق لي أن رأيت إريك يفعل أشياء رهيبة. وسبق لي أن سمعته يتفوّه بكلام فظيع. لكن، لم يسبق لي أن رأيته على هذه الحال. لم يكن مجنوناً، بل كان يسيطر تماماً على نفسه، وفي غاية التوازن. كان حذراً وهادئاً.

للمرة الأولى أعرف إريك على حقيقته؛ فهو عضو من جماعة المعرفة متنكّر في زيّ شجاع. إنه عبقريّ وساديّ في آن؛ صيّاد جامحين.

أردت الفرار.

"هل سئمت من حياتك هنا؟ هل ندمت على اختيارك؟". ارتفع حاجبا إريك المزيّنين بالأقراط، وظهرت تجاعيد على جبينه. "أرغب في سماع تفسيرك لسبب خيانتك للشجاعة، ولنفسك، ولي..." وربّت على صدره، مضيفاً: "... بذهابك إلى مقرّ جماعة أخرى".

"أنا..." أخذت نفساً عميقاً. سيقتلني إن عرف حقيقتي. رأيته وهو يشدّ قبضتيه. كنت بمفردي معه، وإن حدث لي شيء، فلن يعرف بـي أحد، ولن يراني أحد.

قال بصوت رقيق: "إن كنت عاجزة عن التبرير، فقد أضطرّ لإعادة النظر بمرتبتك، أو... بمراتب

أصدقائك؛ بما أنّك متعلّقة بجماعتك القديمة إلى هذا الحدّ. فربّما تأخذ فتاة نكران الذات الصغيرة بداخلك هذا الاحتمال بجدية أكبر".

فكّرت في البداية أنّه لا يستطيع فعل ذلك؛ فهذا ليس عادلاً. غير أنّني سرعان ما بدّلت رأيي، فهو يستطيع بالطبع، ولن يتردّد لحظة واحدة. كما أنّه محقّ؛ ففكرة أن يتسبّب تهوّري بإخراج شخص آخر من الجماعة أخافتني إلى درجة الألم.

حاولت مجدّداً: "أنا...".

لكنّ التنفّس كان صعباً عليّ.

فجأة فُتح الباب، ودخل توبياس.

سأله إريك: "ماذا تفعل؟".

ثمّ أمره بصوت أعلى، وأقلّ رتابة: "ارحل". بدا الآن أقرب إلى إريك المألوف لديّ. حتّى إنّ تعابير وجهه تغيّرت، وأصبحت أكثر حيوية. نظرت إليه بذهول، وفوجئت بقدرته على إظهار شخصيته الحقيقية وإخفائها بهذه السهولة، وتساءلت عمّا يهدف إليه من وراء ذلك.

قال توبياس: "كلاّ، إنّها مجرّد فتاة متهوّرة. لا داعي لجرّها إلى هنا واستجوابها".

ضحك إريك ساخراً: "مجرّد فتاة متهوّرة! لو كانت مجرّد فتاة متهوّرة، لما حلّت في المرتبة الأولى، أليس كذلك؟".

حكّ توبياس أنفه، ونظر إليّ من بين أصابعه. كان يحاول أن يقول لي شيئاً. فكّرت بسرعة. ما هي النصيحة التي أعطاني إيّاها مؤخّراً؟

لم يخطر في بالي سوى قوله: ادّعي بعض الضعف.

وقد نجح ذلك معي من قبل.

"لقد... لقد شعرت بالإحراج، ولم أعرف ماذا أفعل". دسست يديّ في جيبيّ، ونظرت إلى الأرض، ثمّ قرصت ساقي بقوّة إلى أن ترقرقت الدموع في عينيّ، وبعد ذلك نظرت إلى إريك، وأنا أشهق. "حاولت... و..." رحت أهزّ رأسي.

سألني إريك: "ماذا حاولت؟".

أجاب توبياس: "تقبيلي. ورفضتها، فهربت مثل ابنة خمس سنوات. حقّاً، لم ترتكب ذنباً سوى الغباء".

انتظرنا نحن الاثنان بصمت.

انتقل نظر إريك منّي إلى توبياس، ثمّ انفجر في ضحكة عالية وطويلة. كان صوته مخيفاً ومزعجاً. وقال وهو يبتسم مجدّداً: "أليس كبيراً عليك بعض الشيء، يا تريس؟".

مسحت خدّي كمن يمسح دمعة وسألته: "هل يمكنني الذهاب الآن؟".

قال إريك: "حسناً. لكن، لا تقدمي على مغادرة المجمّع مرّة أخرى من دون مراقبة، هل سمعتِ؟". ثمّ التفت إلى توبياس. "وأنت... احرص على ألاّ يغادر أحد من المبتدئين الموجودين تحت إشرافك هذا المجمّع مجدّداً، وألاّ تحاول الأخريات تقبيلك أيضاً".

نظر توبياس إلى الأعلى مجيباً: "حسناً".

خرجت من الغرفة، ووقفت في الخارج مجدّداً، وأنا أهزّ يديّ لأتخلّص من غضبي. جلست على الرصيف، وأحطت ركبتيّ بذراعيّ.

لا أعرف كم جلست هناك، محنيّة الرأس ومغمضة العينين، قبل أن يفتح الباب مرّة أخرى. ربما انقضت عشرون دقيقة، أو حتّى ساعة. اقترب توبياس منّي.

وقفت، وشبكت ذراعيّ، بانتظار التوبيخ. فقد صفعته، ثمّ تورّطت في مشاكل مع الجماعة، ولا بدّ أنّ توبيخاً ينتظرني.

قلت: "ماذا؟".

"هل أنت بخير؟". ظهرت ثنية بين حاجبيه، وهو يلمس خدّي بلطف. غير أنّني أبعدت يده بخشونة.

قلت: "أوّلاً، أتعرّض للإهانة أمام الجميع، ثمّ أضطرّ للتحدّث مع المرأة التي تحاول تدمير جماعتي القديمة، وبعدها يوشك إريك على طرد أصدقائي من الجماعة. كما ترى، كان يومي رائعاً فور".

هز رأسه، ونظر إلى المبنى المهدّم إلى يمينه، المكوّن من الطوب، والذي يشبه بالكاد البرج الزجاجي الذي يرتفع خلفي. لا بدّ أنّه قديم جدّاً؛ إذ لم يعد أحد يبني بالطوب بعد اليوم.

سألته: "وما شأنك على أيّ حال؟ يمكنك إمّا أن تكون مدرّباً قاسياً، أو حبيباً عطوفاً". وشدّدت على كلمة "حبيب". لم أكن أقصد استخدامها بالنبرة التهكّمية التي تفوّهت بها، لكن فات الأوان. "لا يمكنك لعب الدورين في آن واحد".

عبس قائلاً: "أنا لست قاسياً، بل كنت أحميك هذا الصباح. ماذا سيفعل بيتر وأصدقاؤه الأغبياء برأيك إن اكتشفوا أنّنا كنّا..." تنهّد، وتابع: "عندها، لن تفوزي أبداً. سيزعمون دائماً أنّك نلت مرتبتك بسبب تحيّزي لك، وليس بفضل مهاراتك".

فتحت فمي للاعتراض، لكنّني لم أستطع. خطر في بالي عدد من الملاحظات الذكية، لكنّني امتنعت عن قولها، فهو محقّ. غزا الاحمرار خدّيّ، فبرّدتهما بيديّ.

قال: "ولم يكن يجدر بك الهرب إلى أخيك لمجرّد أنّني جرحتك". فرك مؤخّر رقبته مضيفاً: "علماً أنّ الأمر نجح، أليس كذلك؟".

"على حسابي".

"لم يخطر لي أنّ كلامي سيؤثّر بك إلى هذا الحدّ". ثمّ طأطأ رأسه، وهزّ كتفيه، وقال: "أحياناً أنسى أنّني أستطيع إيذاءك، وأنّك قابلة للانكسار".

وضعت يديّ في جيبيّ، ورحت أؤرجح جسدي إلى الأمام والخلف على عقبيَ قدميّ. انتابني في تلك اللحظة شعور غريب؛ ضعفٌ حلو ومؤلم. لقد فعل ما فعله لأنّه مقتنع بقوّتي.

في أسرتي، كان كاليب هو القويّ بيننا؛ لأنّه قادر على نسيان نفسه. فكلّ الصفات التي يقدّرها أبوانا يتصف بها بشكل طبيعي. غير أنّ أحداً لم يقتنع يوماً بقوّتي إلى هذا الحدّ.

وقفت على رؤوس أصابعي، ورفعت رأسي، ثمّ عانقته بخفّة.

" هل تعلم أنّك ذكيّ جدّاً؟". هززت رأسي مضيفة: "أنت تعرف دائماً ما ينبغي فعله بالضبط".

قال: "هذا لأنّني فكّرت بهذا الأمر مطوّلاً. ماذا سنفعل إن أصبحنا أنا وأنت..." وصمت عن الكلام، ثمّ ابتسم وقال: "هل قلت عنّي إنّني حبيبك تريس".

"ليس بالضبط". هززت كتفيّ. "لماذا؟ هل تريدني أن أدعوك كذلك؟".

وضع يديه على عنقي، ورفع ذقني بإبهاميه، دافعاً رأسي إلى الخلف، حيث تلامست جبهتانا. وقف هكذا للحظة، مغمض العينين، ونحن نتنفّس الهواء نفسه. وبدا عليه التوتّر.

قال أخيراً: "أجل". ثمّ تلاشت ابتسامته وقال: "هل تظنّين أنّنا أقنعناه أنّك مجرّد فتاة سخيفة؟".

"آمل ذلك، فقصر القامة مفيد أحياناً. لكن، لا أعتقد أنّني أقنعت جانين".

انخفضت زاويتا فمه، ونظر إليّ بجدّية. "ثمّة أمر عليّ إخبارك إيّاه".

"ما هو؟".

"ليس الآن". نظر حوله مضيفاً: "قابليني هنا عند الساعة الحادية عشرة والنصف، ولا تخبري أحداً عن وجهتك".

هززت رأسي موافقة، بينما استدار ورحل بالسرعة التي أتى بها.

* * *

عندما عدت إلى العنبر، سألتني كريستينا: "أين كنت طوال النهار؟". كانت الغرفة خالية، لا بدّ أنّ الجميع يتناولون العشاء. "بحثت عنك في الخارج، لكنّني لم أجدك. هل كلّ شيء على ما يرام؟ هل واجهت أيّ مشاكل بسبب ضربك فور؟".

هززت رأسي نافية. فكرة إخبارها أين كنت سبّبت لي الإرهاق. كيف سأشرح لها السبب الذي دفعني إلى القفز في قطار لزيارة أخي؟ أو الهدوء المخيف في صوت إريك وهو يستجوبني؟ أو السبب الذي دفعني إلى ضرب فور من الأساس؟

أجبت: "أردت الابتعاد وحسب، فمشيت في الجوار طويلاً. كما أنّني لم أواجه أيّ مشاكل. صرخ في وجهي، فاعتذرت... هذا كلّ شيء".

بينما كنت أتحدّث، حرصت على تركيز نظري على عينيها، وإبقاء يديّ ثابتتين.

قالت: "جيّد، لأنّني أودّ إخبارك شيئاً".

نظرَت إلى الباب خلفي، ثمّ وقفَت على رؤوس أصابعها تتفحّص الأسرّة، لتعرف ما إذا كانت خالية، على الأرجح. بعد ذلك، وضعت يديها على كتفيّ.

"هل يمكنك أن تكوني فتاة لبضع ثوانٍ؟".

أجبتها عابسة: "أنا فتاة دائماً".

"تعرفين ما أعنيه، أعني فتاة سخيفة ومملّة".

لففت خصلة من شعري على إصبعي، وقلت: "حسناً".

ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، حيث رأيت صفّ أضراسها الخلفية. "ويل عانقني".

سألتها: "ماذا؟! متى؟ كيف؟ ماذا حدث؟".

"يمكنك أن تكوني فتاة!". استقامت في وقفتها، ورفعت يديها عن كتفيّ. "في الواقع، بعد الحادثة الصغيرة التي جرت معك، خرجنا نتنزّه بالقرب من سكّة الحديد. كنّا نتحدّث عن... لا أذكر ما كنّا نتحدّث عنه. فجأة، توقّف ثمّ انحنى، و... عانقني".

"وهل كنت تعرفين أنّك تعجبينه؟ أعني، من هذه الناحية".

"كلاّ!". ضحكت، مضيفة: "والجميل في الأمر، أنّ هذا كلّ شيء. تابعنا بعد ذلك التنزّه والحديث، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث؛ إلى أن عانقته أنا".

"منذ متى وأنت تعرفين أنّه يعجبك؟".

"لا أدري. لا أظنّ أنّني كنت أعرف. لكن، حدثت أمور صغيرة... حين أحاط كتفيّ في الجنازة،

وحين يفتح لي الأبواب كما لو كنت فتاة مميّزة ولست شخصاً ضربه حتّى أغمي عليه".

ضحكت من أعماق قلبي. أردت فجأة إخبارها عن توبياس وعن كلّ ما حدث بيننا. لكنّ الأسباب نفسها التي برّر بها توبياس ادّعاءه أن لا شيء بيننا هي التي منعتني. لم أشأ أن تظنّ أنّ مرتبتي نتيجة للعلاقة التي تجمعني به.

لذا، اكتفيت بالقول: "أنا سعيدة من أجلك".

قالت: "شكراً، أنا أيضاً سعيدة. اعتقدت أنّه سيمضي وقت طويل قبل أن أعرف هذا الإحساس... أنت تفهمين".

جلسَت على طرف سريري، ونظرَت حولها. كان بعض المبتدئين قد حزموا حقائبهم منذ الآن. قريباً، سننتقل إلى شقق في الطرف الآخر للمجمّع. ومن سيتمّ تعيينهم في وظائف حكومية سينتقلون إلى المبنى الزجاجي الذي يعلو السرداب. عندئذٍ، سأكفّ عن القلق من هجوم بيتر عليّ في أثناء نومي. كما أنّني لن أضطرّ للنظر إلى فراش آل الخالي.

قالت: "لا أصدّق أنّ التدريب على وشك الانتهاء. أشعر أنّنا وصلنا للتوّ. لكن في الوقت نفسه، أشعر... أنّ دهراً قد مضى على غيابي عن المنزل".

استندتُ إلى إطار السرير. "هل تشتاقين إليه؟".

"أجل". هزّت كتفيها مضيفة: "مع أنّ بعض الأمور بقيت على حالها. فأفراد أسرتي صاخبون؛ كما هو حال الجميع هنا، وهذا جيّد. لكنّ الحياة هناك أسهل. هناك، أنت تعرفين تماماً كيف تتعاملين مع الجميع، لأنّهم واضحون. ما من... تلاعب".

أومأت برأسي موافقة. لقد أعدّتنا جماعة نكران الذات لهذا الجانب من حياة الشجعان. فأعضاؤها لا يتلاعبون بالآخرين، غير أنّهم ليسوا صريحين أيضاً.

هزّت رأسها قائلة: "لكن، لا أظنّ أنّني كنت سأتمكّن من اجتياز التلقين في جماعة النزاهة. هناك، عوضاً عن المحاكاة، يخضع المبتدئ لاختبارات كشف الكذب على مدار اليوم، وعلى مدار مدّة التلقين. وفي الاختبار الأخير..." كشّرت، وتابعت قائلة: "يعطونك ذاك الشيء الذي يسمّونه مصل الحقيقة، ويجلسونك أمام الجميع، ثمّ يطرحون عليك كمّاً هائلاً من الأسئلة الشخصية. فبحسب نظريّتهم، عندما تبوحين بكلّ أسرارك، لن تحتاجي إلى الكذب ثانية. وبعدما يكون الناس قد عرفوا الأسوأ عنك، ما الذي يمنعك من أن تكوني صادقة؟".

لا أعرف متى جمعتُ هذا العدد من الأسرار. كَوني جامحة، ومخاوفي، وإحساسي الحقيقي تجاه

أصدقائي، وأسرتي، وآل، وتوبياس. لا شكّ أنّ تلقين جماعة النزاهة سيكشف أسراراً لا يمكن حتّى لجلسات المحاكاة الوصول إليها. إنه سيدمّرني حتماً.

قلت: "يبدو مريعاً".

"لطالما عرفت أنّني لا أستطيع الانتماء إلى النزاهة. أعني، أنا أحاول أن أكون صادقة، لكن ثمّة أمور لا ترغبين في مشاركتها مع الناس بكلّ بساطة. بالإضافة إلى ذلك، لا أحبّ أن يتحكّم أحد بعقلي".

ومن منّا يحبّ ذلك؟

قالت: "على أيّ حال". وفتحت خزانة إلى يسار أسرّتنا. في تلك اللحظة، طارت فراشة، وحملتها أجنحتها البيضاء إلى وجه كريستينا. فأطلقَت صرخة مدوّية بعثت القشعريرة في جسدي، ثمّ راحت تصفع خدّيها.

وصرخت قائلة: "أبعديها! أبعديها أبعديها أبعديها!".

طارت الفراشة.

قلت لها: "لقد ذهبت!". ثمّ انفجرتُ ضاحكة. "أتخافين من... الفراشات؟".

ارتعدت قائلة: "إنّها مقرفة، بتلك الأجنحة الشبيهة بالورق، وأجسام الحشرات المسبّبة للقشعريرة...".

ضحكتُ من أعماق قلبي؛ إلى أن اضطررت للجلوس والضغط على معدتي.

قالت بحدّة: "هذا ليس مضحكاً. حسناً... ربّما كنت محقّة؛ قليلاً".

* * *

عندما قابلت توبياس في وقت متأخّر من تلك الليلة، لم يقل شيئاً، بل أمسك بيدي، وقادني إلى سكّة الحديد.

قفز في إحدى المقطورات في أثناء مرور القطار، بسهولة عجيبة، وسحبني معه، فاصطدمت به، إلاّ أنّه أمسك بذراعيّ خلال ارتجاج القطار على السكّة الفولاذية. راقبت المبنى الزجاجي فوق مجمّع الشجاعة وهو ينكمش خلفنا مع ابتعادنا عنه.

رفعت صوتي فوق صوت الهواء، وسألته: "ماذا كنت تريد أن تقول لي؟".

أجاب: "ليس الآن".

جلس على الأرض، وأجلسني معه، حيث استند هو إلى الجدار، وجلست بمواجهته، ومددت ساقيّ على الأرض المكسوّة بالغبار. دفع الهواء خصل شعري إلى الأمام فغطّت وجهي، فوضع كفّيه على

وجهي وعانقني.

سمعت صرير السكّة مع إبطاء القطار من سرعته، ما يعني أنّنا نقترب من وسط المدينة. كان الهواء بارداً، لكن قربـي منه منحني الدفء.

تمايل القطار، وفقدت توازني، فأخفضت يدي للاستناد إلى الأرض... قال لي مرّة إنّ عليّ أن أكون جريئة. ومع أنّني وقفت بثبات بينما كان يرمي الخناجر حول وجهي، وقفزت من فوق سطح مبنى، إلاّ أنّني لم أعتقد يوماً أنّني سأحتاج إلى الشجاعة في اللحظات الصغيرة من حياتي. أنا أحتاج إليها فعلاً.

... وضعت يديّ على ساقيّ لمنعهما من الارتجاف. لا يجب أن أشعر بالتوتّر، فهذا توبياس.

لفح الهواء البارد كتفيّ. ابتعد عنّي ونظر إلى الأوشام تحت عنقي، ثمّ ابتسم.

قال: "طيور! أهي غربان؟ دائماً أنسى أن أسألك".

حاولت أن أردّ له الابتسامة. "غربان سوداء، كلّ واحد منها يمثّل فرداً من أفراد أسرتي. هل تعجبك؟".

لم يعبّر عن إعجابه بما قلته.

قال أخيراً: "أكره قول ذلك، لكن علينا النزول قريباً".

هززت رأسي. وقفنا، وقادني إلى باب المقطورة المفتوح. لم يعد الهواء قوياً الآن بعد تباطؤ القطار. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، لذلك أطفئت جميع مصابيح الشارع، وبدت الأبنية كالوحوش العملاقة التي تلوح في الظلام ثمّ تختفي مجدّداً. رفع توبياس يده، وأشار إلى مجموعة بعيدة جدّاً من الأبنية، بدت بحجم الأنملة. كانت تشكّل البقعة الوحيدة المضيئة في بحر الظلام المحيط بنا. إنّه مقرّ جماعة المعرفة مجدّداً.

قال: "من الواضح أنّ أنظمة المدينة لا تعني لهم شيئاً، لأنّ مصابيحهم ستبقى مضاءة طوال الليل".

سألته عابسة: "ألم يلاحظ أحد آخر ذلك؟".

"أنا واثق أنّهم لاحظوا، لكنّهم لم يفعلوا شيئاً لإيقافه. ربّما فضّلوا عدم افتعال مشكلة لهذا السبب البسيط". هزّ كتفيه، لكنّ توتّر ملامحه أشعرني بالقلق. "مع ذلك، أتساءل عمّا يفعله أعضاء جماعة المعرفة ليحتاجوا إلى الإضاءة ليلاً".

التفت إليّ، واستند إلى الجدار.

قال: "يجب أن تعرفي عنّي أمرين. الأوّل هو أنّني متشكّك جدّاً حيال الناس عموماً. بطبيعتي، أتوقّع الأسوأ منهم. والأمر الثاني هو أنّني بارع جدّاً في استخدام أجهزة الكومبيوتر؛ على نحو غير متوقّع".

أومأت برأسي. سبق أن قال إنّ وظيفته تقوم على العمل على أجهزة الكومبيوتر، لكنّني ما زلت أجد صعوبة في تخيّله جالساً أمام شاشة طوال اليوم.

قال: "قبل بضعة أسابيع خلت، قبل بدء التدريب، كنت أعمل، ووجدت طريقة لدخول ملفّات الشجاعة السرّية. يبدو أنّهم غير بارعين في مجال الأمن بقدر جماعة المعرفة. وما اكتشفته يشبه مخطّطات حرب. أوامر مبطّنة، وقوائم معدّات، وخرائط... أشياء من هذا القبيل. وتلك الملفّات مرسلة من قبل جماعة المعرفة".

"حرب؟!". أبعدت شعري عن وجهي. أمضيت حياتي وأنا أسمع أب.ي يحقّر من شأن جماعة المعرفة؛ حيث أصبحت حذرة إزاءهم. كما أنّ تجارب.ي في مجمّع الشجاعة جعلتني أحترس من السلطة ومن البشر عموماً. لذلك، لم يصدمني كلامه عن نية إحدى الجماعات شنّ حرب.

تذكّرت أيضاً كلام كاليب. يتمّ الإعداد لشيء كبير بياتريس. نظرت إلى توبياس.

"أتعني أنها ستكون حرباً على جماعة نكران الذات؟".

أمسك بيديّ، وشبك أصابعه بأصابعي، ثمّ قال: "الجماعة التي تسيطر على الحكم، أجل".

غاص قلب.ي.

قال وهو ينظر إلى المدينة من حيث يقف عند باب المقطورة: "تهدف كلّ تلك التقارير إلى تحريض الناس ضدّ جماعة نكران الذات. ومن الواضح أنّ جماعة المعرفة ترغب الآن في المضيّ قدماً بهذه الخطط. لا أعرف ماذا سنفعل حيال ذلك... أو ما إذا كان ثمّة ما يمكن فعله".

"لكن، لماذا تتعاون المعرفة مع الشجاعة؟".

خطر الجواب في بالي على نحو مباغت، وقلب كياني. فجماعة المعرفة لا تملك السلاح، ولا تتقن استعماله، على عكس الشجعان.

حدّقت إلى توبياس بذهول تامّ.

قلت: "سيستخدموننا".

" أتساءل كيف سيحملوننا على القتال".

قلت لكاليب إنّ أعضاء المعرفة يعرفون كيف يتحكّمون بالناس. يمكنهم أن يجبروا بعضنا على

القتال من خلال معلومات خاطئة، أو باستغلال الطمع لديهم. في الواقع، لن تنقصهم الوسائل. غير أنّ أولئك الأشخاص دقيقون جدّاً، ولن يتركوا شيئاً للصدف، بل سيحرصون على التعويض عن كلّ نقاط ضعفهم. لكن، كيف؟

هبّ الهواء، ودفع شعري على وجهي، حيث تخلّلت خصله المشهد الممتدّ أمام ناظري.

قلت: "لا أعرف".

الفصل التاسع والعشرون

كنت أحضر احتفال التلقين في جماعة نكران الذات سنوياً، ما عدا هذا العام. وكان عبارة عن اجتماع هادئ، يجلس فيه المبتدئون على مقعد، جنباً إلى جنب، بعد أن أمضوا ثلاثين يوماً في أداء خدمات اجتماعية. ثمّ يقوم أحد الأعضاء الأكبر سناً بقراءة بيان جماعة نكران الذات، وهو عبارة عن مقطع قصير يتناول نسيان الذات ومخاطر الأنانية. بعد ذلك، يعمد الأعضاء الأكبر سناً إلى غسل أقدام المبتدئين، ثمّ يتشاركون وجبة طعام يقوم فيها كلّ شخص بتقديم الطعام إلى الشخص الجالس إلى يساره.

الشجعان لا يفعلون ذلك.

في يوم التلقين، يغرق مجمّع الشجاعة في الجنون والفوضى. ويمتلئ المكان بالناس، ويفقد معظمهم إدراكهم بحلول الظهيرة. شققت طريقي بينهم لأخذ طبق من طعام الغداء، وحملته إلى العنبر. في طريقي، رأيت أحدهم يسقط عن أحد الممرّات في السرداب. وبالنظر إلى صراخه والطريقة التي أمسك فيها قدمه، لا بدّ أن يكون قد كسر شيئاً.

كان العنبر هادئاً على الأقلّ. نظرت إلى طبقي. كنت قد وضعت فيه ما اعتبرته مناسباً، وعندما نظرت إليه الآن، أدركت أنّني اخترت قطعة دجاج، مع ملعقة من حبوب البازيلاء، وقطعة خبز أسمر. هذا طعام نكران الذات.

تنهّدتُ. نكران الذات هو ما أنا عليه. إنّه شخصيّتي الحقيقية عندما أتصرّف من دون تفكير، وعندما أخضع للاختبار، وحتّى عندما أبدو شجاعة. هل أنا في الجماعة الخاطئة؟

أحسست برعدة تسري في أوصالي حين فكّرت بجماعتي القديمة. عليّ تحذير أسرتي من الحرب التي تنوي جماعة المعرفة شنّها عليها، لكن لا أعرف كيف أفعل ذلك. سأجد طريقة حتماً، لكن ليس اليوم. اليوم، عليّ التركيز على ما ينتظرني. لكلّ شيء وقته.

أكلت مثل الروبوت؛ من الدجاج، إلى البازيلاء، إلى الخبز، وهكذا دواليك. لا يهمّ إلى أيّ جماعة أنتمي فعلاً. بعد ساعتين من الآن، سأدخل غرفة عالم الخوف مع بقيّة المبتدئين، وسأعبر عالم الخوف الخاصّ بـي، وأصبح واحدة من الشجعان. لقد فات الأوان على العودة إلى الوراء.

عندما أنهيت طعامي، دفنت وجهي في الوسادة. لم أكن أنوي الاستغراق في النوم، لكن هذا ما حدث بعد برهة. ولم أستيقظ إلاّ على صوت كريستينا وهي تهزّ كتفي.

قالت: "حان وقت الذهاب". وبدت شاحبة الوجه.

فركت عينيّ لأزيل عنهما أثر النعاس. كنت قد نمت منتعلة حذائي. رأيت بقيّة المبتدئين في العنبر يربطون أحذيتهم ويزرّرون ستراتهم، وهم يوزّعون الابتسامات حولهم. سرّحت شعري على شكل كعكة، وارتديت سترتي، وأغلقتها حتّى العنق. قريباً سينتهي العذاب، لكن هل سنتمكّن يوماً من نسيان المحاكاة؟ هل سنتمكّن يوماً من النوم بشكل طبيعي مجدّداً، ورؤوسنا حافلة بذكريات عن مخاوفنا؟ أم سننسى مخاوفنا اليوم، مثلما يفترض بنا أن نفعل؟

ذهبنا إلى السرداب، وصعدنا الممرّ المؤدّي إلى المبنى الزجاجي. نظرت إلى السقف الزجاجي، لكنّني لم أستطع رؤية شيء، لأنّ نعال الأحذية تغطّي الزجاج الذي يعلونا تماماً. وللحظة، شعرت أنّني أسمع صوت تكسّر الزجاج، لكنّها مخيّلتي وحسب. صعدت الدرجات مع كريستينا، وخنقني الازدحام.

لم يكن طولي يسمح لي بالنظر من فوق الرؤوس، فحدّقت إلى ظهر ويل، ومشيت في أعقابه. أحسست بصعوبة في التنفّس بسبب حرارة الأجساد المحيطة بـي، وأخذت ذرّات العرق تتجمّع على جبيني. تفرّق المحتشدون قليلاً، فظهر سبب هذا التجمّع: سلسلة من الشاشات المعلّقة على جدار إلى يساري.

علا الهتاف، فتوقّفت للنظر إلى الشاشات. رأيت على شاشة إلى اليسار فتاة بملابس سوداء في عالم الخوف. إنّها مارلين. رأيتها وهي تمشي، بعينين مذهولتين، لكنّني لم أعرف ما هي العقبة التي تواجهها. أحمد الله لأن أحداً لن يرى مخاوفي، بل ردود أفعالي عليها وحسب.

أظهرت الشاشة الوسطى وتيرة نبضها التي ارتفعت للحظة، ثمّ انخفضت. عندما استعاد نبضها وتيرته الطبيعية، ومضت الشاشة بلون أخضر، وهتف الشجعان، بينما عرضت الشاشة اليمنى الوقت الذي استغرقته.

أبعدت نظري عن الشاشة، وهرولت لألحق بكريستينا وويل. كان توبياس واقفاً في الجهة اليسرى من الغرفة، قرب باب لم أره في المرّة السابقة. كان الباب مجاوراً لغرفة عالم الخوف، غير أنّني مررت من أمامه من دون أن أنظر إليه.

كانت الغرفة كبيرة، وتحتوي على شاشة أخرى، شبيهة بتلك الموجودة في الخارج. جلس أمامها صفّ من الأشخاص، من بينهم إريك وماكس. أمّا الآخرون فكانوا أكبر سنّاً. عرفت من الأسلاك الموصولة برؤوسهم، ومن أعينهم الخالية من التعابير، أنّهم يراقبون ما يجري في المحاكاة.

خلفهم، وُضع صفّ آخر من الكراسي، وكانت كلّها مشغولة. وبما أنّني كنت آخر الوافدين، لم أحصل على مقعد.

ناداني يوريا: "تريس!". كان جالساً مع بقيّة المبتدئين المنتمين أساساً إلى الشجاعة. لم يتبقَّ منهم سوى أربعة، بعد أن عبر الآخرون عوالم الخوف الخاصّة بهم. ربّت على ساقه قائلاً: "يمكنك الجلوس هنا، إن أردت".

أجبته مبتسمة: "عرض مغرٍ، لكنّني مرتاحة".

في الواقع، لم أرغب أيضاً في أن يراني توبياس جالسة على ركبتيه.

أنيرت الأضواء في غرفة عالم الخوف، فبدت مارلين راكعة على الأرض، ووجهها مكسوّ بالدموع. خرج إريك والباقون من استغراقهم في المحاكاة، وغادروا الغرفة. ثمّ رأيتهم بعد لحظات على الشاشة، يهنّئونها على اجتيازها المحاكاة.

قال توبياس: "بالنسبة إلى المنتقلين من الجماعات الأخرى، إنّ الترتيب الذي ستدخلون به يستند إلى المراتب التي حصلتم عليها في آخر اختبار لكم. بالتالي، إنّ درو سيدخل أوّلاً، وتريس أخيراً".

هذا يعني أنّ خمسة أشخاص سيدخلون قبلي.

وقفت في آخر الغرفة، على بعد عدّة أقدام من توبياس. تبادلنا أنا وهو النظرات، عندما قام إريك بحقن درو بالإبرة، ثمّ أرسله إلى غرفة عالم الخوف. عندما يحين دوري، سأكون قد عرفت نتائج الآخرين، وكم عليّ أن أبذل من مجهود لأتفوّق عليهم.

لم تكن عوالم الخوف مثيرة للاهتمام من الخارج. كنت أرى درو وهو يتحرّك، لكنّني لا أعرف ماذا يجري له. بعد بضع دقائق، أغمضت عينيّ عوضاً عن المشاهدة، وحاولت ألاّ أفكّر بأيّ شيء. فلا جدوى حالياً من محاولة توقّع المخاوف التي سأواجهها، وعددها. كلّ ما عليّ فعله هو تذكّر أنّني قادرة على التحكّم بالمحاكاة، وأنّني فعلت هذا من قبل.

كانت مولي هي التالية. ومع أنّها استغرقت نصف الوقت الذي استغرقه درو، إلاّ أنّها واجهت المشاكل هي أيضاً. فقد أمضت وقتاً طويلاً جدّاً وهي تلهث وتحاول السيطرة على حالة الذعر التي انتابتها. وفي مرحلة من المراحل، راحت تصرخ بأعلى صوتها.

تدهشني السهولة التي أتجاهل بها كلّ شيء. فقد تبدّدت أفكار الحرب ضدّ نكران الذات، وأفكاري حيال توبياس، وكاليب، وأهلي، وأصدقائي، وجماعتي الجديدة من ذهني. كل ما عليّ فعله الآن هو تجاوز هذه العقبة.

كريستينا هي التالية، ومن بعدها ويل، ومن ثمّ بيتر. لم أشاهدهم، بل عرفت الوقت الذي استغرقوه وحسب؛ فقد استغرقوا اثنتي عشرة دقيقة، وعشر دقائق، وخمس عشرة دقيقة. ثمّ سمعت اسمي.

"تريس".

فتحت عينيّ، وذهبت إلى مقدّمة غرفة المراقبة. هناك، وقف إريك حاملاً حقنة مليئة بالسائل البرتقالي. بالكاد أحسست بالإبرة وهي تغرز في عنقي، وبالكاد رأيت وجه إريك المزين بالأقراط وهو يضغط على الحقنة. تخيّلت أنّ المصل سائل أدرينالين يسري في شراييني، ويمنحني القوة.

سألني: "هل أنت جاهزة؟".

الفصل الثلاثون

أنا جاهزة. دخلت الغرفة متسلّحة، ليس بمسدّس أو خنجر، بل بالخطّة التي وضعتها في الليلة الفائتة. فقد قال توبياس إنّ المرحلة الثالثة تعتمد كلّياً على الاستعداد الذهني؛ أي إيجاد استراتيجيات للتغلّب على مخاوفي.

ليتني كنت أعرف بأيّ ترتيب ستأتي المخاوف. رحت أتأرجح على عقبيّ بانتظار ظهور الخوف الأوّل. وبدأت أشعر بضيق في تنفّسي.

تغيّرت الأرض تحتي، ونبت العشب من الإسمنت، وتمايل بفعل هواء لم أشعر به. حلّت سماء خضراء محلّ الأنابيب الظاهرة فوقي. أصغيت إلى أصوات الطيور، وأحسست أنّ خوفي بعيد؛ عبارة عن قلب ينبض بجنون، وصدر ضيّق، لكنّه موجود في عقلي. قال لي توبياس إنّه عليّ أن أكتشف معنى المحاكاة، وكان على حقّ. فالأمر لا يتعلّق بالطيور، بل بالسيطرة.

رفرفت أجنحة بالقرب من أذني، وغرز غراب مخالبه في كتفي.

هذه المرّة، لم أضرب الطائر بأقصى قوّتي، بل عوضاً عن ذلك ركعت، وأصغيت إلى عاصفة الأجنحة التي هبّت خلفي، ثمّ مرّرت يدي عبر الأعشاب، فوق الأرض تماماً. ما الذي يحارب الضعف؟ إنّها القوّة. والمرّة الأولى التي شعرت فيها أنّني قوية في مجمّع الشجاعة، هي حين حملت مسدّساً.

شعرت بكتلة في حلقي، وأردت إبعاد المخالب. زعق الطائر، وتقلّصت معدتي، لكنّني أحسست فجأة بشيء صلب ومعدني الملمس على العشب. إنّه مسدّسي.

صوّبت المسدّس إلى كتفي، ودوى صوت الرصاص محوّلاً الطائر إلى أشلاء من الدم والريش. استدرت على عقبيّ، ووجّهت المسدّس إلى السماء، فرأيت سحابة من الريش الأسود تهبط نحوي. عندئذٍ، ضغطت على الزناد مراراً وتكراراً، مطلقة النار على بحر الطيور التي تحوم فوقي، ورحت أشاهد أجسادها السوداء وهي تسقط على العشب.

تحرّكت قليلاً، فشعرت بصرير تحت قدميّ. انحنيت ومرّرت يدي على سطح ناعم وبارد؛ زجاج. إنّه الخزّان الزجاجيّ مجدّداً. أنا لا أخاف من الغرق. المسألة لا تتعلّق بالمياه، بل بعجزي عن الخروج من الخزّان. ما أخاف منه فعلاً هو الضعف. كلّ ما عليّ هو إقناع نفسي أنّني قوية بما فيه الكفاية لكسر الزجاج.

أضيئت المصابيح الزرقاء، وأخذت المياه تتدفق على الأرض. لن أسمح للمحاكاة بالاستمرار أكثر من ذلك. لذا، لكمت الجدار أمامي؛ متوقّعة أن ينكسر.

غير أنّ يدي ارتدّت إليّ من دون أن تسبّب أيّ ضرر.

تسارعت نبضات قلبي. ماذا لو أنّ ما نجح في جلسة المحاكاة الأولى لم ينجح هنا؟ ماذا لو لم أستطع كسر الزجاج إلاّ إن كنت تحت الضغط؟ ارتفعت المياه إلى كاحليّ، وازدادت سرعة تدفّقها مع كلّ ثانية. عليّ أن أهدأ. عليّ أن أهدأ وأركّز. استندت إلى الجدار خلفي، وركلت بأقصى قوّتي. مجدّداً، آلمتني أصابع قدمي، لكن من دون جدوى.

لديّ خيار آخر. يمكنني انتظار امتلاء الخزّان، وسأحاول أن أبقى هادئة وأنا أغرق. أساساً، أصبحت المياه بمستوى ركبتيّ. ألصقت نفسي على الجدار، ورحت أهزّ رأسي. كلاّ، لا يمكنني أن أستسلم للغرق. لا يمكنني ذلك.

شددت قبضتيّ، ولكمت الجدار. أنا أقوى من الزجاج. الزجاج رقيق مثل طبقة جديدة من الجليد؛ عقلي سيجعله كذلك. أغمضت عينيّ. الزجاج جليد. الزجاج جليد. الزجاج –

تحطّم الزجاج تحت يدي، وانسكب الماء منه، ثمّ عاد الظلام.

نفضت يديّ. كان ينبغي لهذه العقبة أن تكون سهلة، فقد واجهتها من قبل. لا يمكنني أن أضيع الوقت على هذا النحو مرّة أخرى.

اصطدم بي شيء بدا أشبه بجدار صلب قطع أنفاسي. فسقطت بقوّة وأنا أشهق. أنا لا أتقن السباحة. ولم يسبق لي أن رأيت مساحات مائية بهذا الحجم، وهذه القوّة؛ إلاّ في الصور. امتدّ تحتي جرف من الصخور المسنّنة التي صقلتها المياه، وأخذت الأمواج تشدّ قدميّ إلى الأسفل. فتعلّقت بالصخور، وأحسست بطعم الملح في فمي. رأيت من زاوية عيني سماء داكنة، وقمراً أحمر بلون الدم.

ضربتني موجة أخرى على ظهري، فاصطدم ذقني بالصخر، وتقلّص وجهي ألماً. كانت مياه البحر باردة، لكنّ دمي سال حارّاً على عنقي. مددت يدي، ووجدت طرف الصخر. راح تيار الماء يسحب ساقيّ بقوّة هائلة، فتمسّكت بإحدى الصخور بكلّ قوّتي، لكنّني لم أكن قوية بما فيه الكفاية لأقاوم تيار الماء الذي سحبني إلى الخلف، ليرميني الموج مجدّداً. انقلبت ساقاي فوق رأسي، وتباعدت ذراعي، بينما ارتطم ظهري بالصخر، وغمر الماء وجهي. استغاثت رئتاي طلباً للهواء، فاستدرت، وتمسّكت بطرف صخرة، ثمّ خرجت من الماء. شهقت، بينما ضربتني موجة عنيفة، لكنّني كنت متمسّكة جيّداً بإحدى الصخور.

لا يجب أن أخاف من الماء. لا بدّ أنّ ما أخاف منه حقّاً هو فقداني السيطرة على ما يجري. لمواجهة هذا الخوف، عليّ استعادة سيطرتي على الأمور.

صرخت من شدّة الإحباط، ثمّ دفعت يدي إلى الأمام، ورفعت قدمي إلى الأعلى من تحتي، قبل أن تسحبني موجة أخرى. ما إن حرّرت ساقيّ من تيار الماء حتّى نهضت، وبدأت أركض بخطوات سريعة فوق الصخور، أمامي القمر الأحمر، وورائي ابتعد البحر.

فجأة، اختفى كلّ شيء، وأصبح جسدي ساكناً جدّاً.

حاولت تحريك ذراعيّ، غير أنّهما كانتا مقيّدتين بإحكام إلى جانبيّ. نظرت إلى الأسفل، فرأيت حبلاً ملفوفاً حول صدري، وذراعيّ، وساقيّ. أحاطت بقدميّ رزم من الحطب، ورأيت عموداً خلفي. كنت عالية عن الأرض.

خرج من الظلال أناس بوجوه مألوفة. كانوا المبتدئين، وكانوا يحملون مشاعل، ويسير في مقدّمتهم بيتر. بدت عيناه مثل حفرتين سوداوين، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ساخرة، ظهرت على أثرها تجاعيد في خدّيه. انطلقت ضحكة من المحتشدين، ثمّ انضمّت إليها الأصوات الأخرى؛ واحداً تلو الآخر، إلى أن تحوّلت إلى صخب مبهم.

مع ارتفاع الصخب، أخفض بيتر مشعله نحو الحطب، فزحفت النيران على الأرض، ثم تراقصت عند أطراف الحطب، وبدأت بالتهام اللحاء. لم أناضل لفكّ الحبال كما فعلت في المرّة الأولى التي واجهت فيها هذا الخوف، بل عوضاً عن ذلك، أغمضت عينيّ، وأخذت نفساً عميقاً قدر الإمكان. هذه محاكاة، ولا يمكنها إيذائي. ارتفعت حرارة النار حولي، فرُحت أهزّ رأسي.

قال بيتر، وكان صوته أعلى من الصخب: "هل تشمّين هذه الرائحة، أيّتها المتزمّتة؟".

أجبته: "كلاّ". بينما أخذت النيران ترتفع.

ضحك قائلاً: "إنّها رائحة لحمك".

عندما فتحت عينيّ، غشيت الدموع بصري.

"هل تعرف ماذا أشمّ؟". جاهدت لرفع صوتي فوق صوت الضحك الصادر من حولي؛ ذاك الضحك الذي أطبق على أنفاسي أكثر من الحرارة. انتفضت ذراعاي، وأردت أن أقاوم الحبال، لكنّني لن أفعل. لن أناضل عبثاً، لن أصاب بالذعر.

حدّقت إلى بيتر من خلال الدخان، وشعرت أنّ الحرارة دفعت الدماء إلى وجهي، وتخلّلت جسدي، وأذابت مقدّم حذائي.

قلت: "أشمّ رائحة المطر".

فجأة، دوى الرعد فوقي، وصرختُ حين لفحت ألسنة النار أناملي، واجتاح الألم بشرتي. أرجعت رأسي إلى الخلف، وركّزت على السحب التي أخذت تتجمع فوق رأسي، مثقلة بالمطر، ومسودّة بفعل المطر. شقّ البرق السماء، وأحسست بأولى قطرات الماء تسقط على جبيني. أسرَع، أسرَع! تدحرجت القطرة على جانب أنفي، وسقطت الثانية على كتفي. كانت كبيرة كما لو أنّها مصنوعة من الجليد أو الصخر، وليس من الماء.

هطل المطر بغزارة حولي، وطغت هسهسة النار على صوت الضحك. ابتسمتُ مرتاحة حين أطفأ المطر اللهب، وبرّد حروق يديّ، ثمّ تساقطت القيود، فمرّرت يديّ في شعري.

ليتني كنت مثل توبياس، لا أملك سوى أربعة مخاوف، لكنّني لست جريئة إلى هذا الحدّ.

سوّيت قميصي، ثمّ نظرت إلى الأعلى، فوجدت نفسي في غرفة نومي في مقاطعة نكران الذات.

لم يسبق لي أن واجهت هذا الخوف من قبل. انطفأت الأنوار، لكنّ الغرفة ظلّت مضاءة بنور القمر المتسلّل من النوافذ. كان أحد الجدران مكسوّاً بالمرايا. فالتفتّ إليه باستغراب، إذ لا يسمح لي بامتلاك مرايا.

نظرت إلى الصورة المنعكسة على المرآة؛ إلى عينيّ الكبيرتين، والسرير بأغطيته الرمادية المرتّبة، والخزانة التي تحتوي على ملابسي، والجدران الخالية. انتقل نظري إلى النافذة خلفي، وإلى الرجل الواقف في الخارج.

سرت رعشة باردة في عمودي الفقري مثل قطرة عرق، وتصلّب جسدي. عرفته على الفور. إنّه الرجل ذو الندوب الذي رأيته في اختبار الجدارة. كان يرتدي ملابس سوداء، ويقف جامداً كالتمثال. رففت عينيّ، فظهر رجلان آخران، واحد إلى يمينه، والآخر إلى يساره. وقفا ساكنين مثله، لكنّ وجهيهما كانا خاليين من أيّ تعبير؛ عبارة عن جمجمتين مكسوّتين بالجلد.

استدرت نحوهم، ووجدتهم واقفين في غرفتي. فألصقت كتفيّ بالمرآة.

للحظة، خيّم على الغرفة صمت تامّ. ثمّ بدأت الأيدي تضرب على نافذتي. ليست يدين أو أربعاً أو ستّاً، بل عشرات الأيدي وعشرات الأصابع التي تطرق على الزجاج. تردّدت ذبذبات الضربات في قفصي الصدري لشدّة قوّتها، ثمّ بدأ الرجل ذو الندوب ورفيقاه بالتقدّم نحوي بخطوات بطيئة وحذرة.

لقد أتوا لأخذي، مثلما فعل بيتر ودرو وآل. أتوا لقتلي، أعرف ذلك.

هذه محاكاة، وما يجري ليس حقيقياً. أخذ قلبي ينبض في صدري كالمطرقة، فضغطتُ يدي على الزجاج خلفي، وأزحته يساراً. هذه ليست مرآة، بل باب خزانة. أخبرت نفسي أين سيكون المسدّس. سيكون معلّقاً على الجدار الأيمن؛ على بعد إنشات وحسب من يدي. لم أحوّل نظري عن الرجل ذي الندوب، بل وجدت المسدّس بأصابعي، ثمّ لففت يدي حول مقبضه.

عضضت على شفتي، وأطلقت الرصاص على صاحب الندوب. لم أنتظر لأرى ما إذا كانت الرصاصة قد أصابته، بل رحت أطلق النار على الرجلين اللذين يقفان إلى جانبيه بأسرع ما يمكن، وآلمتني شفتي لشدّة ما عضضت عليها. توقّف الطرق على النافذة ليعقبه صوت صرير، في حين تحوّلت الأيدي إلى أصابع معقوفة تخدش الجدار، محاولة الدخول. تشقّق الزجاج بفعل الضغط، ثمّ تكسّر، وتحطّم.

صرخت مرعوبة.

لم أكن أملك ما يكفي من الرصاص في مسدّسي.

كانت الأجساد البشرية شاحبة، لكنّها مشوّهة، وأذرعها ملويّة على نحو غريب، والأفواه عريضة جدّاً، والأسنان دقيقة، أمّا الأعين فكانت خالية. أخذوا يترنّحون في غرفتي وهم يدخلون واحداً تلو الآخر، ويحرّكون أقدامهم ببطء... نحوي. تراجعتُ إلى داخل الخزانة، وأغلقت الباب خلفي. أحتاج إلى حلّ. ركعت على الأرض، وضغطت جانب المسدّس على رأسي. لا يمكنني مواجهتهم، ولا مقاومتهم، بل عليّ أن أهدأ. سيسجّل عالم الخوف نبض قلبي البطيء، وأنفاسي المنتظمة، وسينتقل إلى العقبة التالية.

جلست على أرضية الخزانة. أخذ الجدار خلفي يتشقّق، وسمعت طرق الأيدي مجدّداً، لكن على باب الخزانة هذه المرّة. فاستدرت وحدّقت في الظلام إلى اللوح الخشبي فوقي. هذا ليس جداراً، بل إنه باب آخر. تلمّسته بيديّ لأدفعه، فانفتح على الرواق العلوي. ابتسمت، ثمّ زحفت عبر الفجوة، ووقفت. اشتممت رائحة شهيّة منبعثة من الفرن، وأدركت أنّني في البيت.

أخذت نفساً عميقاً، وشاهدت بيتي وهو يختفي. لقد نسيت أنّني في مقرّ الشجاعة.

فجأة، رأيت توبياس واقفاً أمامي.

لكنّ توبياس لا يخيفني. نظرت خلفي، ظنّاً منّي أنّه ثمّة ما يجب أن أركّز عليه. لكن لا، لم يكن خلفي سوى سرير بأربعة أعمدة.

سرير؟!

اقترب منّي توبياس ببطء.

ماذا يجري؟!

حدّقت إليه بذهول. ابتسم لي، وبدت ابتسامته لطيفة، ومألوفة.

عانقني. ظننت أنّه من المستحيل أن أنسى أنّني في مشهد محاكاة، لكنّني كنت مخطئة، فهو قادر على جعل أيّ شيء آخر يختفي...

إنّني أخاف من كوني معه. فقد كنت متحفّظة إزاء العواطف طوال حياتي، لكنّني لم أكن أعرف مدى عمق هذا التحفّظ.

غير أنّ هذه العقبة لا تشبه العقبات الأخرى. إنها نوع مختلف من الخوف؛ أقرب إلى الذعر العصبي منه إلى الرعب الأعمى.

دفعته إلى الخلف، ووضعت يديّ على جبيني. لقد هاجمتني الغربان، ورجال بوجوه مرعبة، وأضرم النيرانَ تحتي الفتى نفسُه الذي كاد أن يرميني في الهاوية، وأوشكت على الغرق؛ مرّتين، لأجد نفسي عاجزة عن مواجهة هذا الموقف؟ أهذا هو الخوف الذي لا حلّ له؟ فتى يعجبني، ويريد...

حاولت التفكير. عليّ أن أواجه هذا الخوف، وأن أسيطر على الوضع وأجد طريقة لجعله أقلّ رعباً.

نظرت إلى عيني توبياس الافتراضي، وقلت له بجدّية: "لن أكون معك وأنا في حالة هلوسة، هل هذا مفهوم؟".

ثمّ أمسكت بكتفيه، واستدرنا. دفعته على العمود، وشعرت بشيء غير الخوف؛ برغبة في الضحك.

فجأة، اختفى.

وضعت يدي على فمي وضحكت إلى أن احمرّ وجهي. لا بدّ أنّني المبتدئة الوحيدة التي تعاني من هذا الخوف.

في تلك اللحظة، سمعت طقطقة قرب أذني.

كدت أنسى هذا الخوف. شعرت بمسدّس يوضع في يدي، فأحطته بأصابعي، ومرّرت سبّابتي على الزناد. توهّج ضوء من السقف مجهول المصدر، ووقف في وسط الدائرة المضيئة كلّ من أمّي، وأبي، وأخي.

همس صوت بجانبي: "اقتليهم". كان صوت امرأة، لكنّه خشن، وكأنّه ممزوج بالصخور وحطام الزجاج. بدا وكأنّه صوت جانين.

شعرت بفوهة مسدّس باردة تضغط على صدغي. انتقل البرد عبر جسدي مسبّباً لي القشعريرة، فمسحت كفّيّ المتعرّقين ببنطالي، ونظرت إلى المرأة من زاوية عيني. إنّها جانين. كانت نظارتها مائلة، وعيناها خاليتين من المشاعر.

هذا هو أسوأ مخاوفي؛ أن تموت أسرتي، وأن أكون أنا المسؤولة عن ذلك.

كرّرَت قائلة، بإصرار أكبر هذه المرّة: "اقتليهم، افعلي ذلك وإلاّ قتلتك".

حدّقت إلى كاليب الذي هزّ رأسه إلى الأسفل، وانخفض حاجباه تعاطفاً معي، وقال بصوت خافت: "هيّا، تريس. أنا أتفهّمك، لا بأس".

أحرقت الدموع عينيّ. "كلاّ". كانت حنجرتي مشدودة إلى حدّ مؤلم. ورحت أهزّ رأسي رافضة.

صاحت المرأة: "لديك عشر ثوانٍ! عشرة! تسعة!".

حوّلت نظري من أخي إلى أبي. آخر مرّة رأيته فيها كان ينظر إليّ بازدراء، لكنّ عينيه الآن واسعتان ومليئتان بالحنان. لم أرَ يوماً هذا التعبير على وجهه في الواقع.

قال: "تريس، أنت لا تملكين الخيار".

"ثمانية!".

قالت أمّي: "تريس". وارتسمت ابتسامتها الحلوة على وجهها. "نحن نحبّك".

"سبعة!".

صرخت بها: "اخرسي!". ورفعت المسدّس. يمكنني فعل ذلك، يمكنني قتلهم، فهم يتفهّمون ما يجري، لا بل يطلبون منّي ذلك. إنهم لا يريدون مني أن أضحّي بنفسي من أجلهم. حتّى إنّهم ليسوا حقيقيّين، فهذه محاكاة.

"ستّة!".

هذا ليس حقيقياً، ولا يعني شيئاً. شعرت أنّ عيني أخي اللطيفتين قد تحوّلتا إلى مثقبين يحفران وجهي، فيما انزلق المسدّس عن رأسي بفعل العرق.

"خمسة!".

ليس لديّ خيار آخر. أغمضت عينيّ، وفكّرت. عليّ أن أفكّر، فالعجلة التي تجعل قلبي ينبض بسرعة تعتمد على شيء واحد لا غير: الخطر الذي يهدّد حياتي.

"أربعة! ثلاثة!".

ما الذي قاله لي توبياس؟ نكران الذات والشجاعة ليسا متناقضين.

"اثنان!".

أفلتُّ الزناد، وأسقطت المسدّس عن الأرض. وقبل أن أفقد شجاعتي، استدرت، وضغطت جبيني على فوهة المسدّس المرفوع خلفي.

اقتليني أنا.

"واحد!".

سمعت طقطقة، وصوتاً مدوّياً.

الفصل الحادي والثلاثون

أضيئت المصابيح. وقفت بمفردي في الغرفة الخالية ذات الجدران الإسمنتية، وأنا أرتجف. أخيراً، ركعت على ركبتيّ، وشبكت ذراعيّ على صدري. لم أكن أشعر بالبرد عندما دخلت، لكنّني أشعر بالبرد الآن. لذا، رحت أفرك ذراعيّ لأتخلّص من الإحساس بالقشعريرة.

لم يسبق لي أن أحسست يوماً بهذه الراحة. فقد استرخت كلّ عضلات جسدي دفعة واحدة، واتّسع صدري مجدّداً. لا يمكنني أن أتخيّل دخولي عالم الخوف الخاص بـي مرّة أخرى في وقت فراغي؛ مثلما يفعل توبياس. فقد بدا لي ذلك عملاً شجاعاً من قبل، أمّا الآن فبتّ أعتبره تعذيباً للنفس.

فُتح الباب، فوقفت. دخل ماكس وإريك وتوبياس وبضعة أشخاص آخرين لا أعرفهم، ثمّ وقفوا أمامي. كان توبياس يبتسم لي.

قال إريك: "تهانينا تريس، لقد أتممت اختبار التقييم النهائي بنجاح".

حاولت الابتسام، لكنني لم أستطع. فذكرى المسدّس الملتصق برأسي لم تفارقني بعد. ما زلت أشعر بفوهته بين حاجبيّ.

قلت: "شكراً".

قال: "ثمّة أمر آخر قبل أن تخرجي للاستعداد للمأدبة". وأشار إلى أحد الأشخاص الذين لا أعرفهم. كانت بينهم امرأة ذات شعر أزرق، ناولته حقيبة سوداء. فتحها وأخرج منها إبرة طويلة.

توتّرت عندما رأيتها، فقد ذكّرني السائل البرتقالي بذاك الذي يحقنوننا به قبل جلسات المحاكاة التي يفترض أن أكون قد انتهيت منها.

قال: "على الأقلّ، أنت لا تخشين الإبر. يوجد في هذا السائل جهاز تعقّب يتمّ تشغيله في حال ضياعك؛ إنّه مجرّد تدبير احترازي".

سألته عابسة: "وهل يضيع الناس غالباً؟".

أجاب مبتسماً: "كلاّ، ليس غالباً. هذا ابتكار جديد قدّمته لنا جماعة المعرفة من باب الذوق. لقد حقنّا به كلّ المبتدئين اليوم، وأظنّ أنّ كلّ الجماعات الباقية ستعتمده بأسرع ما يمكن".

شعرت بانقباض في معدتي. لا يمكنني أن أسمح له بحقني بأيّ شيء، لا سيّما إن كان من ابتكار جماعة المعرفة، لا بل ربّما جانين نفسها. غير أنّني لا أستطيع الرفض أيضاً. لا يمكنني ذلك، وإلاّ شكّ بولائي مجدّداً.

قلت بصوت مشدود: "حسناً".

اقترب منّي إريك حاملاً الحقنة بيده، فأبعدت شعري عن عنقي، وأملت رأسي جانباً. نظرت بعيداً، بينما كان إريك يمسح عنقي بمنديل معقّم،

ثمّ يغرز الإبرة في جلدي. انتشر الألم في كلّ أنحاء عنقي، لكنّه استمرّ لفترة وجيزة. بعد ذلك، أعاد الإبرة إلى الصندوق، ووضع شريطاً لاصقاً على موضع الإبرة.

قال: "المأدبة بعد ساعتين. وسيتمّ خلالها الإعلان عن مرتبتك أنت وبقيّة المبتدئين؛ بمن فيهم المنتمون أساساً إلى الشجاعة. بالتوفيق".

خرجت المجموعة من الغرفة، لكنّ توبياس تأخّر عنهم. وقف عند الباب، وأشار إليّ لأتبعه، ففعلت. كانت القاعة الزجاجية فوق السرداب مليئة بالشجعان، منهم من يتنقّل على الحبال فوق رؤوسنا، ومنهم من يتحدّث ويضحك في مجموعات. ابتسم لي. لا ينبغي أن يكون قد شاهد ما جرى معي.

قال: "سمعت شائعة، وهي أنّك لم تواجهي إلاّ سبعة مخاوف. عملياً، هذا شيء لم يسبق له مثيل".

"أنت... لم تكن تشاهد المحاكاة، أليس كذلك؟".

"على الشاشات فقط. فقادة الجماعة وحدهم من يحقّ لهم بمشاهدة كلّ شيء. وقد بدوا معجبين بما فعلته".

أجبته: "حسناً، سبعة مخاوف ليست مثيرة للإعجاب بقدر أربعة، لكن هذا كافٍ".

"سأفاجأ إن لم تحلّي في المرتبة الأولى".

دخلنا القاعة الزجاجية. ما زال الحشد هناك، لكنّه أصبح أقلّ عدداً بعد خروج آخر شخص، أي أنا.

لاحظ الناس وجودي بعد بضع ثوانٍ. بقيت إلى جانب توبياس وهم يشيرون إليّ، لكنّني لم أستطع الإسراع بما فيه الكفاية لتجنّب بعض الهتاف، والتربيت على الكتف، والتهاني. وعندما نظرت إلى من حولي، أدركت كم سيبدو هذا الحشد غريباً بالنسبة إلى أبي وأخي، وكم يبدو عادياً بالنسبة إليّ؛ على الرغم من كلّ الأقراط المعدنية الصغيرة التي تزيّن وجوههم، والأوشام التي تكسو أذرعهم وحناجرهم وصدورهم. ابتسمت لهم.

نزلنا الأدراج المؤدّية إلى السرداب، وقلت: "لديّ سؤال". عضضت على شفتي، وتابعت قائلة: "كم أخبروك عن عالم الخوف الذي مررت فيه؟".

أجاب: "لا شيء، حقّاً. لماذا؟".

"ليس لسبب معيّن". ركلت حجراً على جانب الطريق.

"هل عليك العودة إلى العنبر؟ لأنّك إن كنت تريدين بعض الهدوء والسلام، فبإمكانك البقاء معي حتّى يحين موعد المأدبة".

تقلّصت معدتي.

سألني: "ماذا؟".

لا أريد العودة إلى العنبر، ولا أريد أن أخاف منه.

قلت: "فلنذهب".

* * *

أغلق البابا خلفه، وخلع حذاءه.

سألني: "هل ترغبين في بعض الماء؟".

رفعت يديّ قائلة: "لا، شكراً".

قال، وهو يلمس خدّي: "هل أنت بخير؟". وضع كفّ يده على خدّي، وتسلّلت أصابعه الطويلة عبر شعري. ثم ابتسم وعانقني، فشعرت كأنّ ناقوس الخطر يقرع في صدري، واستبدّ بـي الخوف.

أبعدته عنّي، وأحرقتني عيناي. لا أعرف سبب هذا الشعور، فأنا لم أشعر به عندما كنت معه في القطار. وضعت يديّ على وجهي، وغطّيت عينيّ.

"ماذا؟ ما الأمر؟".

رحت أهزّ رأسي.

قال بصوت بارد: "لا تقولي إنه لا يوجد شيء". أمسك بذراعي. "انظري إليّ".

أبعدت يديّ عن وجهي، ونظرت إليه. فاجأني الألم الذي بدا في عينيه، والغضب الذي تجلّى في فكّه المشدود.

قلت بهدوء قدر الإمكان: "أتساءل في بعض الأحيان، عمّا يعنيه لك هذا... أيّاً يكن".

ردّد قائلاً: "ما يعنيه لي؟!". وتراجع وهو يهزّ رأسه: "أنت غبية تريس".

"أنا لست غبية. ولهذا السبب، أستغرب بعض الشيء أن يقع اختيارك عليّ أنا، من بين كلّ الفتيات. لذا، إن كنت تبحث فقط عن... أنت تعرف... هذا...".

عبس مجيباً: "ماذا؟ إن كنت تظنّين أنّ هذا كلّ ما أريده، فلن تكوني على الأرجح أوّل فتاة أذهب

إليها".

شعرت كما لو أنّه لكمني في معدتي. بالطبع، لست أوّل فتاة يذهب إليها، لست الأولى، ولا الأكثر جمالاً؛ لست مرغوبة. وضعت يديّ على معدتي، ونظرت بعيداً، وأنا أقاوم الدموع. في الواقع، أنا لست كثيرة البكاء، كما أنّني لست كثيرة الصراخ. رفّفت عينيّ عدّة مرات، ثمّ أخفضت ذراعيّ، ونظرت إليه.

قلت له بهدوء: "سأذهب الآن". واستدرت نحو الباب.

"كلاّ، تريس". أمسك بمعصمي، وشدّني إلى الخلف. دفعته بعيداً بقوّة، لكنّه أمسك بمعصمي الآخر، وامتدّت أذرعنا المتقاطعة بيننا.

قال: "أنا آسف على ما قلته. ما عنيته هو أنّك لست من هذا النوع. عرفت ذلك منذ أن رأيتك".

"كنتَ إحدى العقبات في عالم الخوف الخاص بـي". ارتجفت شفتي السفلى وأنا أخبره بذلك. "هل عرفت بذلك؟".

"ماذا؟!". ترك يديّ، وعادت نظرة الألم إلى عينيه. "هل تخافين منّي؟".

"ليس منك". عضضت على شفتي لمنعها من الارتجاف. "بل من كوني معك... أو مع أيّ أحد. لم يسبق لي أن أقمت علاقة من قبل، و... أنت تكبرني سنّاً، ولا أعرف ماذا تتوقّع، و...".

"تريس". كان صوته جادّاً. "أنا لا أعرف على أساس أيّ وهمٍ يعمل ذهنك، لكن كلّ هذا جديد عليّ أنا أيضاً".

"وهم! أتعني أنّك لم..." ورفعت حاجبيّ بدهشة. "أوه، أوه. افترضت..." أنّه بما أنّني مأخوذة به إلى هذا الحدّ، فلا بدّ أن تكون كلّ الفتيات كذلك. "أنت تعرف".

"حسناً، افتراضك خاطئ". وحوّل نظره عنّي وقد بدا على خدّيه بعض الاحمرار، وكأنّه مرتبك. "يمكنك إخباري أيّ شيء، كما تعرفين". وحضن وجهي بيديه. كانت رؤوس أصابعه باردة، وكفّاه دافئتين. "أنا ألطف ممّا بدوت لك في أثناء التدريبات، أعدك بذلك".

صدّقته، لكن لا علاقة لذلك باللطف.

طبع قبلة على جبيني، ثمّ عانقني بحذر. كنت متوتّرة الأعصاب، وأحسست وكأنّ تيّاراً كهربائياً يجري في عروقي عوضاً عن الدم. لم يكن قربـي منه ما يخيفني، بل ما يمكن أن يؤدّي إليه ذلك.

وضع يديه على كتفيّ، فاحتكّت أصابعه بطرف الشريط اللاصق، وتراجع مقطّباً حاجبيه.

سألني: "هل أنت مصابة؟".

"كلاّ، هذا وشم آخر. لقد شفي، لكنّني... فضّلت إبقاءه مخفياً".

"هل يمكنني رؤيته؟".

أومأت برأسي موافقة، غير أنّ حنجرتي كانت مشدودة. أنزلت كمّي نحو الأسفل، وكشفت عن كتفي...

نزع طرف الشريط اللاصق، فجالت عيناه على رمز نكران الذات، وابتسم.

قال وهو يضحك: "لديّ مثله، على ظهري".

"حقّاً! هل بإمكاني رؤيته؟".

ضغط على الشريط اللاصق مجدّداً، وأعاد القميص إلى كتفي.

"هل تطلبين منّي أن أخلع ملابسي تريس؟".

ضحكت بعصبية وقلت: "فقط... جزئياً".

هزّ رأسه، وتبدّدت ابتسامته فجأة. نظر إلى عينيّ، وفتح سترته. فانزلقت عن كتفيه، ووضعها على الكرسيّ. لم أعد أشعر بالرغبة في الضحك، بل اكتفيت بالنظر إليه.

عبس وهو يخلع قميصه القطني، وسحبه بحركة سريعة من فوق رأسه.

رأيت ألسنة من نيران رمز الشجاعة تغطّي جانبه الأيمن. بخلاف ذلك، كان صدره خالياً. نظر إليّ.

عبست، وسألته: "ما الأمر؟". فقد بدا... مرتبكاً.

قال: "لا أدعو الكثير من الناس للنظر إليّ، لا أسمح لأحد بالنظر إلى وشومي عادة".

قلت له برقّة: "لا أفهم لماذا. أعني، انظر إلى نفسك".

مشيت حوله. كان الحبر يغطّي ظهره تقريباً. فقد وشم عليه رموز كلّ جماعة من الجماعات. في أعلى عموده الفقري ظهر رمز الشجاعة، وتحته تماماً رمز نكران الذات، تَلتهُما رموز الجماعات الأخرى بحجم أصغر. نظرت لبضع ثوانٍ إلى الميزان الذي يمثّل النزاهة، والعين التي ترمز إلى المعرفة، والشجرة التي تشير إلى الوئام. أفهم السبب الذي يدفعه إلى وشم نفسه برمز الشجاعة؛ التي تشكّل ملجأه. حتّى إنّني أفهم سبب وجود رمز نكران الذات على جلده – تماماً كما فعلت – لأنّها جماعته الأمّ. لكن، ماذا تفعل الرموز الثلاثة الأخرى؟

قال بصوت خافت: "أظنّ أنّنا ارتكبنا خطأ. بدأنا كلّنا بتحقير فضائل الجماعات الأخرى لكي نرفع من قيمة جماعتنا. غير أنّني لا أريد أن أفعل ذلك. أريد أن أكون شجاعاً، ومحبّاً للغير، وذكياً،

وصادقاً". تنحنح ثمّ أضاف: "ما زلت أناضل مع اللطف".

همستُ قائلة: "لا أحد يتمتّع بالكمال، فالأمور لا تسير على هذا النحو. تتخلّص من صفة سيّئة، فتحلّ مكانها صفة سيّئة أخرى".

لقد قايضتُ الجبن بالقسوة، والضعف بالشراسة.

مرّرت أصابعي على رمز نكران الذات.

"علينا تحذيرهم، قريباً".

قال: "أعرف، سنفعل".

التفت إليّ، غير أنّني خفت من الاقتراب منه.

"هل تخيفك هذه الأوشام تريس؟".

أجبته بصوت مبحوح: "كلاّ، ليس حقّاً. أنا... خائفة ممّا أريده".

"وماذا تريدين".

...

ابتسمت قليلاً، وأحطته بذراعيّ. شعرت بضربات قلبه بالقرب من خدّي، وكانت سريعة مثل ضربات قلبي.

"هل أنت أيضاً خائف منّي توبياس؟".

أجاب مبتسماً: "أنا مرعوب".

التفتّ إليه وتمتمت: "ربّما لن تعود موجوداً في عالم خوفي".

"عندئذٍ، سيدعوك الجميع سيكس (ستّة)".

"فور وسيكس".

عانقني مجدّداً، وبدا هذا الشعور مألوفاً هذه المرّة. أعرف تماماً كيف نكون منسجمين معاً. هكذا نتذكّر بعضنا.

الفصل الثاني والثلاثون

راقبت وجه توبياس بعناية ونحن ذاهبان إلى قاعة الطعام؛ بحثاً عن أيّ أثر لخيبة الأمل. فقد أمضينا الساعتين ونحن ممدّدان على سريره نتحدّث، وغفونا في النهاية، إلى أن تناهت إلينا أصوات من الرواق، فعرفنا أنّ الناس بدأوا يتوجّهون إلى المأدبة.

الشيء الوحيد الذي بدا عليه هو أنّه أكثر مرحاً من ذي قبل. فقد كان يبتسم أكثر.

انفصلنا عندما وصلنا إلى المدخل. دخلت أوّلاً، وتوجّهت إلى الطاولة التي أتشاركها عادة مع ويل وكريستينا. ودخل هو بعد دقيقة، وجلس بالقرب من زيك الذي أعطاه زجاجة شراب، لكنّه رفضها.

سألتني كريستينا: "أين كنت؟ فقد عاد الجميع إلى العنبر".

أجبتها: "تجوّلت قليلاً، فقد كنت متوتّرة جدّاً ولم أشعر بالرغبة في التحدّث مع أحد".

قالت كريستينا وهي تهزّ رأسها: "ولماذا تشعرين بالتوتّر؟ لم أكد ألتفت إلى ويل وأتحدّث معه لثانية حتّى انتهيت".

أحسست بشيء من الحسد في صوتها، وتمنّيت مجدّداً لو أستطيع أن أشرح لها أنّني أجتاز المحاكاة بسهولة بسبب ما أنا عليه. غير أنّني اكتفيت بهزّ كتفيّ.

سألتها: "أيّ وظيفة ستختارين؟".

أجابت: "أفكّر في اختيار وظيفة مثل وظيفة فور؛ تدريب المبتدئين، وبثّ الرعب في قلوبهم، أي هذا النوع من الأعمال المسلّية. ماذا عنك؟".

كان كلّ تركيزي منصبّاً على اجتياز المحاكاة بنجاح؛ حيث لم تسنح لي الفرصة للتفكير في ذلك. يمكنني العمل عند قادة الشجاعة، لكنّهم سيقتلونني إن عرفوا حقيقتي. ماذا يمكنني أن أفعل أيضاً؟

قلت: "أظنّ أنّه... يمكنني أن أكون سفيرة لدى الجماعات الأخرى. إذ أعتقد أنّ كوني منتقلة سيساعدني".

تنهّدت كريستينا قائلة: "كنت أتمنّى أن تقولي قائدة قيد التدريب في جماعة الشجاعة؛ لأنّ هذا ما يريده بيتر. فهو لم يكفّ عن الحديث عن ذلك منذ قليل".

أضاف ويل: "وهذا ما أريده. آمل أن تكون رتبتي أعلى من رتبته... آه، ومن كلّ المبتدئين الآتين من جماعة الشجاعة؛ فقد نسيت أمرهم". صدر عنه أنين وهو يتابع قائلاً: "ربّاه، سيكون هذا مستحيلاً".

قالت كريستينا: "كلاّ، لن يكون كذلك". ثمّ مدّت يدها، وشبكت أصابعها بأصابعه، كما لو كانت تلك الحركة طبيعية للغاية، بينما شدّ ويل هو أيضاً على يدها.

قالت كريستينا، وهي تنحني إلى الأمام: "لديّ سؤال، القادة الذين كانوا يشاهدون المحاكاة التي مررت بها... ضحكوا لسبب ما".

"أوه؟". عضضت على شفتي. "يسرّني أن أعرف أن رعبي أضحكهم".

"هل لديك فكرة عن العقبة التي كنت تواجهينها في تلك اللحظة؟".

"كلاّ".

قالت: "أنت تكذبين. دائماً تعضّين على باطن خدّك عندما تكذبين. هذه الحركة تفضح أمرك".

توقّفت فوراً عن عضّ باطن خدّي.

قالت: "أمّا ويل، فيشدّ على شفتيه؛ إن كانت هذه المعلومة تريحك".

وضع ويل يده على فمه على الفور.

أجبت: "حسناً. كنت خائفة من... العلاقة الحميمة".

ردّدت كريستينا: "العلاقة الحميمة؟".

أحسست بالتوتّر، وأجبرت نفسي على هزّ رأسي موافقة. حتّى لو كنّا أنا وكريستينا بمفردنا، ولا أحد حولنا يسمع، إلاّ أنّني سأظلّ أرغب بخنقها. فكّرت بطرق لتوجيه أكبر قدر من الأذى بأقلّ حركة من رأسي. حتّى إنّني حاولت أن أطلق نيراناً من عينيّ.

ضحك ويل.

قالت: "ماذا جرى؟ أعني، هل حاول أحدهم... فعل ذلك معك؟ من كان؟".

"أوه، تعرفين. بلا وجه... رجل بلا ملامح. كيف كانت فراشاتك؟".

صاحت كريستينا وهي تصفعني على يدي: "وعدت ألاّ تخبري أحداً!".

قال ويل: "فراشات! أتخافين من الفراشات؟".

قالت: "لم تكن مجرّد سحابة من الفراشات، بل... كانت سرباً. كانت في كلّ مكان... كلّ تلك الأجنحة، و..." ارتعدت وراحت تهزّ رأسها.

قال ويل بجدّية تغلب عليها السخرية: "شيء مرعب. هذه هي فتاتي، قويّة مثل كرة من القطن".

"آه، اصمت".

صدر صفير عن أحد مكبّرات الصوت، فوضعت يديّ على أذنيّ لشدّة ارتفاعه، ونظرت إلى إريك

الذي وقف أمام إحدى الطاولات حاملاً مكبّر الصوت بإحدى يديه، وهو يربّت عليه بأنامله. بعدما انتهى، وهدأ الحضور، بدأ يتكلّم.

قال: "نحن لسنا متكلمين بارعين هنا، فالفصاحة من صفات جماعة المعرفة". ضحك الحاضرون. أتساءل عمّا إذا كانوا سيضحكون لو عرفوا أنّه كان ينتمي إلى المعرفة، وأنه على الرغم من ادّعائه أنّه شجاع ومقدام وقاس، فهو أقرب إلى جماعة المعرفة من أيّ جماعة أخرى. "لذا، سيكون خطابي قصيراً. هذا عام جديد، استقبلنا فيه وفداً جديداً من المبتدئين، ووفداً أصغر بقليل من الأعضاء. لذا، نقدّم إليهم التهاني".

عندما لفظ كلمة "التهاني"، انفجرت القاعة، ليس بالتصفيق، بل بالضرب على الطاولات. تردّد الصوت في صدري، وابتسمت.

"نحن نعتقد بالجرأة، ونعتقد بالعمل. نعتقد بضرورة التحرّر من الخوف، وباكتساب المهارات التي تطرد الأشرار من عالمنا لكي يسود الخير ويزدهر. فإن كنتم أنتم أيضاً تعتقدون بهذه المبادئ، فأهلاً وسهلاً بكم".

مع أنّني أعرف أنّ إريك لا يعتقد على الأرجح بأيّ من هذه الأمور، إلاّ أنّني ابتسمت؛ لأنّني مقتنعة بها. مهما يكن قادة الشجاعة قد شوّهوا مُثُل هذه الجماعة، إلاّ أنّني أستطيع الاستمرار بالتمسّك بتلك المثل.

سُمع المزيد من الطرق على الطاولات، مصحوباً بالهتاف هذه
المرّة.

"غداً، في أوّل أعمالهم كأعضاء، سيختار المبتدئون العشرة الأوائل مهنهم بحسب مراتبهم. أعرف أنّ الجميع ينتظرون المراتب. لقد تم تحديدها وفقاً لنتائج المراحل الثلاث؛ النتيجة الأولى من مرحلة التدريب على القتال، والنتيجة الثانية من مرحلة جلسات المحاكاة، والثالثة من الاختبار الأخير؛ أي عالم الخوف. وستعلن المراتب على الشاشة خلفي".

ما إن أنهى جملته، حتّى ظهرت الأسماء على الشاشة التي كانت بحجم الجدار نفسه. بالقرب من الرقم واحد، رأيت صورتي واسم "تريس".

أحسست أنّ ثقلاً أزيح عن صدري. لم أدرك أنّه كان موجوداً قبل أن يزول. ابتسمت، وسرت قشعريرة في جسدي. الأولى. سواء أكنت جامحة أم لا، فهذه هي الجماعة التي أنتمي إليها.

نسيت الحرب، ونسيت الموت. احتضنني ويل بقوّة، بينما رحت أهتف، وأضحك، وأصرخ. أمّا

كريستينا، فكانت تشير إلى الشاشة وعيناها مغرورقتان بالدموع.

1. تريس
2. يوريا
3. لين
4. مارلين
5. بيتر

بيتر سيبقى. كبحت تنهيدة، ثمّ قرأت بقيّة الأسماء.

6. ويل
7. كريستينا

ابتسمت، وانحنت كريستينا من فوق الطاولة لمعانقتي. كنت مشوّشة جدّاً لأعترض على إظهار العواطف، بينما ضحكت هي بالقرب من أذني.

أمسك أحدهم بكتفيّ من الخلف وصاح في أذني. كان يوريا. لم أستطع الالتفات، فمددت يدي، وشددت على يده.

هتفت: "تهانينا!".

فأجاب: "لقد هزمتهم!". ثمّ تركني وهو يضحك، وعاد لينضمّ مجدّداً إلى مبتدئي الشجاعة.

أملت رأسي لأنظر إلى الشاشة مجدّداً، وتابعت قراءة اللائحة.

حل في المرتبة الثامنة، والتاسعة، والعاشرة مبتدئون من جماعة الشجاعة لا أعرفهم.

أمّا مولي ودرو، فقد حلاّ في المرتبتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

لقد تم استبعادهما. درو الذي فرّ هارباً بينما أمسك بيتر بعنقي فوق الهاوية، ومولي التي راحت تنشر أكاذيب جماعة المعرفة عن أب.ي، أصبحا منبوذين.

لم يكن هذا هو النصر الذي أردته تماماً، غير أنّه يبقى نصراً.

عانق ويل وكريستينا بعضهما؛ على نحو جريء جدّاً برأيي. ولم أكن أسمع سوى طرق الأيدي على الطاولات. فجأة، شعرت بيد على كتفي، واستدرت لأرى توبياس واقفاً خلفي، فنهضت مبتسمة.

قال: "هل تظنّين أنّني إن احتضنتك فسيفتضح أمرنا؟".

أجبته: "أتعلم؟ لا يهمّني".

ثمّ وقفت على رؤوس أصابعي، وعانقته.

هذه أجمل لحظة في حياتي.

بعد لحظة، مرّ إبهام توبياس على موضع الحقنة في عنقي. فجأة، اتّضحت لي بعض الأمور. لا أعلم لماذا لم يخطر لي ذلك قبل الآن.

أوّلاً: المصل البرتقالي يحتوي على أجهزة إرسال.

ثانياً: أجهزة الإرسال تربط الذهن ببرنامج محاكاة.

ثالثاً: جماعة المعرفة هي التي ابتكرت المصل.

رابعاً: إريك وماكس يعملان لصالح المعرفة.

ابتعدت عن توبياس، وحدّقت إليه بذهول.

قال باستغراب: "تريس!".

هززت رأسي قائلة: "ليس الآن". كنت أعني ليس هنا، ليس أمام ويل وكريستينا الواقفين على بعد قدم واحدة منّي، وهما يحدّقان إلينا وقد فغرا فميهما. وليس وسط كلّ هذا الهرج والمرج الذي يحيط بنا. لكن، يجب أن يعرف مدى أهمية ذلك.

قلت: "لاحقاً، اتّفقنا".

هزّ رأسه موافقاً. لا أدري حتّى كيف سأشرح له الأمر، حتّى إنّني لا أعرف كيف أفكّر بشكل سويّ.

غير أنّني بتّ أعلم كيف ستحملنا جماعة المعرفة على القتال.

الفصل الثالث والثلاثون

حاولت أن أختلي بتوبياس بعدما تمّ الإعلان عن المراتب، لكنّ حشد المبتدئين وأعضاء الجماعة كان كثيفاً، حيث دفعته قوّة حماستهم بعيداً عنّي، فقرّرت التسلّل من العنبر بعد استغراق الجميع في النوم لإيجاده. إلاّ أنّ عالم الخوف أرهقني، وغفوت رغماً عنّي.

استيقظت على صوت صرير الأسرّة ووقع الخطوات المكتومة. كان الظلام دامساً، ولم أستطع الرؤية بوضوح. لكن، عندما اعتادت عيناي على الظلام، رأيت كريستينا تربط شريط حذائها. فتحت فمي لأسألها عمّا تفعله، ثمّ لاحظت أنّ ويل يرتدي قميصه. كان الكلّ مستيقظين، لكنّهم صامتون.

همست: "كريستينا". غير أنها لم تنظر إليّ، فوضعت يدي على كتفها وهززتها. "كريستينا!".

غير أنّها واصلت ما تقوم به.

تقلّصت معدتي عندما رأيت وجهها. كانت عيناها مفتوحتين، لكنّهما شاردتان، وعضلات وجهها مرتخية. كانت تتحرّك من دون أن تنظر إلى ما تفعله، وفمُها شبه مفتوح، وغير مستيقظة مع أنّها تبدو كذلك. وكان الآخرون مثلها.

قلت وأنا أعبر الغرفة: "ويل". غير أنّ المبتدئين اصطفّوا خلف بعضهم بعدما انتهوا من ارتداء ملابسهم، ثمّ بدأوا يغادرون العنبر بصمت. أمسكت بذراع ويل لمنعه من الخروج، غير أنّه تقدّم إلى الأمام بقوّة لا تقاوم. صررت على أسناني، وتمسّكت به بشدّة، مثبّتة قدميّ على الأرض؛ إلاّ أنّه شدّني معه.

إنّهم يسيرون في نومهم.

رحت أتحسّس الأرض بحثاً عن حذائي، إذ لا يمكنني البقاء هنا بمفردي. ربطت شريط الحذاء على عجل، ثمّ ارتديت سترة، وخرجت من الغرفة. لحقت بصفّ المبتدئين بسرعة، ثمّ جاريت مشيتي مع مشيتهم. استغرقت بضع ثوانٍ لأدرك أنّهم يتحرّكون معاً؛ القدم نفسها تتحرّك إلى الأمام، والذراع نفسها تتأرجح إلى الخلف. قلّدتهم قدر الإمكان، مع أنّ وتيرة حركتهم بدت لي غريبة.

مشينا نحو السرداب، لكن عندما وصلنا إلى المدخل، استدار الصفّ يساراً. كان ماكس واقفاً في الرواق يراقبنا. أخذ قلبي ينبض في صدري بعنف وأنا أحاول التحديق بشرود أمامي قدر الإمكان، والتركيز على إيقاع قدميّ. توتّرت وأنا أمرّ من أمامه وأفكّر: لا شكّ في أنّه سيلاحظ. سيدرك أنّ دماغي ليس نائماً مثل الباقين، وسيقضي عليّ، أعرف ذلك.

نظر إليّ ماكس بعينيه الداكنتين.

صعدنا سلّماً، ثمّ مشينا بالوتيرة نفسها عبر أربعة أروقة. بعد ذلك، انفتح الرواق على كهف ضخم، يضمّ مجموعة كبيرة من الشجعان.

رأيت صفوفاً من الطاولات التي تعلوها أكوام سوداء اللون. لم أستطع أن أعرف ماهيّة تلك الأشياء إلاّ بعدما اقتربت منها. إنّها بنادق.

بالطبع، قال إريك إنّه قد تمّ حقن كلّ أعضاء جماعة الشجاعة أمس. والآن، أصبحت الجماعة بأكملها منوّمة، ومطيعة، ومدرّبة على القتل. إنهم جنود مناسبون تماماً.

حملت بندقية، وقراباً، وحزاماً، وأنا أقلّد حركات ويل الذي يقف أمامي مباشرة. حاولت أن أجاري حركاته، لكنّني لم أكن أستطيع أن أتوقّع ماذا سيفعل تالياً، لذلك ارتبكت أكثر ممّا يفترض بـي. صررت على أسناني، ما عليّ سوى أن أثق أنّ لا أحد يراقبني.

ما إن حملت سلاحي حتّى تبعت ويل وبقيّة المبتدئين إلى الباب المؤدّي إلى الخارج.

لا يمكنني أن أخوض حرباً ضدّ نكران الذات وضدّ أسرتي. أفضّل الموت على ذلك. هذا ما أثبته عالم خوفي أساساً. ضاقت لائحة الخيارات المتاحة لي. عليّ الادّعاء قدر الإمكان حتّى نصل إلى مقاطعة نكران الذات، وعندئذٍ سأنقذ عائلتي. ومهما حدث بعد ذلك، فأنا لن أهتمّ. حينها فقط، أحسست بالسكينة تغمرني.

مرّ صفّ المبتدئين في رواق مظلم، حيث عجزت عن رؤية ويل الذي يسير أمامي، أو ما يوجد أمامه.

ارتطمت قدمي بشيء صلب فتعثّرت، ومددت يديّ إلى الأمام. ثمّ ارتطمت ركبتي بشيء آخر؛ درجة. استقمت، وتوتّرت إلى درجة أنّ أسناني كانت تصطكّ تقريباً. بالتأكيد لم يروا ذلك، فالظلام دامس. تمنّيت أن يكون الظلام قد أخفاني.

مع انعطاف السلّم، انتشر الضوء في الكهف؛ إلى أن تمكّنت أخيراً من رؤية كتفَي ويل مجدّداً. ركّزت على مجاراة إيقاع مشيته مع وصولي إلى أعلى السلّم، ومروري أمام قائد آخر من قادة جماعتنا. أصبحت الآن أعرف من هم قادة جماعة الشجاعة؛ لأنّهم الوحيدون المدركون لما يجري.

في الواقع، ليس هم وحدهم، بل أنا أيضاً؛ لأنّني جامحة على الأرجح. وبما أنّني مستيقظة، فهذا يعني أنّ توبياس واعٍ هو أيضاً؛ ما لم أكن مخطئة بشأنه.

عليّ إيجاده.

وقفت بالقرب من سكّة الحديد، ضمن مجموعة امتدّت على مدّ نظري. كان القطار متوقّفاً أمامنا، وكلّ مقطوراته مفتوحة الأبواب. صعد المبتدئون واحداً تلو الآخر إلى المقطورة التي أمامنا.

لم يكن بإمكاني الالتفات للبحث عن توبياس بين الموجودين، لكنّني حوّلت نظري يمنة ويسرة. كانت الوجوه إلى يساري غير مألوفة، لكنّني لمحت فتىً طويل القامة، وقصير الشعر، على بعد عدّة ياردات إلى يميني. قد لا يكون هو، ولا يمكنني التأكّد، لكنّها فرصتي الوحيدة. لا أعرف كيفيّة الوصول إليه من دون أن ألفت النظر. ومع ذلك، عليّ المحاولة.

امتلأت المقطورة التي أمامي، فاستدار ويل إلى المقطورة التالية. تحرّكت معه، لكن عوضاً عن التوقّف حيث توقّف، انحرفت بضع خطوات إلى اليمين. كان الأشخاص المحيطون بـي أطول منّي قامة، حيث اختبأت بينهم. خطوت إلى اليمين مجدّداً، وأنا أصرّ على أسناني. لقد أكثرت من الحركة، سيكتشفون أمري. أرجو ألاّ يفعلوا.

وقف عند باب المقطورة التالية رجل مبهم الملامح، ومدّ يده للفتى الواقف أمامي، فاستعان بها بحركة آلية. فيما استعنت باليد التالية من دون أن أنظر إليها، وصعدت إلى المقطورة برشاقة قدر الإمكان.

وقفت أمام الشخص الذي ساعدني، ثمّ حوّلت نظري لثانية واحدة لرؤية وجهه. إنّه توبياس. كانت نظراته مبهمة مثل الباقين تماماً. هل كنت مخطئة؟ أليس جامحاً؟ اغرورقت عيناي بالدموع، فرففتهما، واستدرت.

تجمّع الناس في العربة حولي، فوقفنا في أربعة صفوف، بجوار بعضنا بعضاً. فجأة، حدث أمر غير متوقّع. إذ أحسست بأصابع تتشابك مع أصابعي، وكفّ يضغط على كفّي. كان توبياس يمسك بيدي.

أحسست بجسدي ينبض بالطاقة مجدّداً. شددنا على يدي بعضنا. إنّه واعٍ؛ كنت محقّة.

أردت النظر إليه، لكنّني ركّزت نظري إلى الأمام مع بدء القطار بالتحرّك. مرّر إبهامه بشكل دائريّ على ظاهر يدي. لقد أراد طمأنتي، لكنّ تلك الحركة جعلتني أشعر بالإحباط. كنت أحتاج إلى التكلّم معه، والنظر إليه.

لم أستطع أن أعرف وجهة القطار لأنّ الفتاة التي كانت تقف أمامي طويلة جدّاً. فحدّقت إلى ظهرها، وركّزت تفكيري على يد توبياس الممسكة بيدي؛ إلى أن صدر صرير قويّ عن سكّة الحديد. لا أعرف كم مضى على وقوفي هناك، لكنّني أحسست بألم في ظهري، ما يعني أنّ وقتاً طويلاً قد

مضى على ذلك. توقّف القطار، وأخذ قلبي ينبض بعنف حيث صعب عليّ التنفّس.

قبل أن نقفز من العربة، رأيت توبياس يلتفت نحوي، فنظرت إليه. بدا الإصرار في عينيه الداكنتين وهو يقول: "اهربي".

قلت: "أسرتي".

نظرت إلى الأمام مجدّداً، وقفزت من العربة عندما حان دوري. مشى توبياس أمامي. عليّ التركيز على ظهره، لكنّ الشوارع التي أسير فيها بدت لي مألوفة، حيث شتّتت انتباهي عن صفّ الشجعان الذين أتبعهم. مررت بالمكان الذي كنت أقصده كلّ ستّة أشهر مع أمّي لشراء ملابس جديدة لأسرتنا، وبمحطّة الحافلات التي كنت أنتظر فيها كلّ صباح للذهاب إلى المدرسة، والرصيف المشقّق الذي كنّا نقفز عليه أنا وكاليب من فوق الحُفَر لعبوره.

كانت كلّها مختلفة الآن. فالمباني مظلمة وخالية، والطرقات مليئة بجنود من جماعة الشجاعة. كانوا كلّهم يمشون بالوتيرة نفسها، باستثناء الضبّاط الذين وقفوا على بعد بضع مئات من الياردات، وهم يراقبون مرورنا، أو وقفوا في مجموعات يناقشون أمراً ما. لا يبدو أنّ أحداً يفعل شيئاً. هل نحن هنا حقّاً لنخوض حرباً؟

مشيت نصف ميل قبل أن أحصل على جواب عن هذا السؤال.

بدأت أسمع فرقعات. لم يكن بمقدوري النظر حولي لأعرف مصدرها، لكن كلّما تقدّمت، أصبحت أعلى وأكثر حدّة؛ إلى أن عرفت أنّها طلقات رصاص. شددت فكّي. عليّ أن أتابع السير، وأن أستمرّ بالنظر إلى الأمام.

على مسافة بعيدة أمامنا، رأيت جندية من الشجاعة تدفع رجلاً أشيب وتُركعه على الأرض. عرفت الرجل على الفور، فهو عضو في البرلمان. نزعت الجندية بندقيتها عن كتفها، ثمّ أطلقت رصاصة على مؤخّر رأس الرجل من دون أن يرفّ لها جفن.

كانت للجندية خصلة رمادية في شعرها. إنّها توري. في تلك اللحظة، أوشكت أن أتعثّر.

تقدّمي. أحرقت الدموع عينيّ. تقدّمي.

مررنا من أمام توري والرجل المطروح أرضاً. وعندما خطوت فوق يده، أوشكت أن أنفجر باكية.

بعد ذلك، توقّف الجنود أمامي، وتوقّفت معهم. وقفت جامدة قدر الإمكان، لكن كلّ ما كنت أفكّر فيه هو العثور على جانين وإريك وماكس وقتلهم جميعاً. أخذت يداي ترتجفان، ولم أستطع فعل شيء لإيقافهما. ورحت أتنفّس بسرعة من أنفي.

سمعت طلقة أخرى، ورأيت من زاوية عيني جسداً رمادياً آخر يتهاوى على الرصيف. إن استمرّ الحال على هذا المنوال، فسيموت كلّ أفراد جماعة نكران الذات.

كان جنود جماعة الشجاعة ينفّذون أوامر غير معلنة ومن دون اعتراض. تمّ اقتياد بعض الأشخاص الراشدين من نكران الذات نحو أحد المباني المجاورة، مع عدد من الأطفال، بينما قام عدد من الجنود المتّشحين بالسواد بحراسة الأبواب. الأشخاص الوحيدون الذين لا أراهم هم قادة نكران الذات. ربّما قُتلوا أساساً.

ابتعد جنود جماعة الشجاعة الواقفين أمامي واحداً تلو الآخر للقيام بمهام مختلفة. قريباً، سيلاحظ القادة أنّ الإشارات التي تصل للباقين لا تصلني. ماذا سأفعل عندئذٍ؟

قال صوت ذكوريّ إلى يميني: "هذا لا يُصدّق". رأيت خصلة من الشعر الطويل الدهني، وقرطاً فضّياً. إنّه إريك. وكز خدّي بسبّابته، فقاومت رغبة جامحة في إبعاد يده.

سأله صوت أنثوي: "أليس بمقدورهم رؤيتنا أو سماعنا حقّاً؟!".

أجابها إريك: "بل يرون ويسمعون، غير أنّهم لا يحلّلون ما يرونه ويسمعونه بالطريقة نفسها. إنّهم يتلقّون الأوامر من الكومبيوتر عبر أجهزة الإرسال التي حقنّاهم بها...". ثمّ ضغط بأصابعه على موضع الحقنة ليظهر للمرأة مكانها. رحت أردّد في سرّي: ابقي ساكنة، ساكنة، ساكنة، ساكنة. "... وينفّذونها حرفياً".

ابتعد إريك خطوة، ومال نحو توبياس، وهو يبتسم.

قال: "والآن، هذا منظر مفرح. فور الأسطوري. لا أحد سيتذكّر الآن أنّني حللت في المرتبة الثانية، أليس كذلك؟ لا أحد سيسألني: ما هو شعورك وأنت تتدرّب مع الشابّ الذي لا يملك سوى أربعة مخاوف". سحب بندقيّته، وصوّبها على صدغ توبياس الأيمن. فراح قلبي ينبض بعنف، وكأنّه في جمجمتي. لا يمكن أن يطلق النار، لن يفعل. أمال إريك رأسه وقال: "هل تظنّين أنّ أحداً سيلاحظ إن أصيب بالرصاص عن طريق الخطأ؟".

قالت المرأة التي بدا عليها الضجر: "افعل ما يحلو لك، فهو لا يشعر بشيء الآن". لا بدّ أنّها من قادة الجماعة؛ ما دام باستطاعتها إعطاء الإذن لإريك.

قال إريك بصوت خافت: "من المؤسف أنّك لم تقبل عرض ماكس، يا فور. أنت الخاسر على أيّ حال". ثمّ قدح مطرقة بندقيّته.

شعرت بالألم في صدري، وأدركت أنّني لم أتنفّس منذ دقيقة تقريباً. رأيت يد توبياس من زاوية

عيني وهي تنتفض، فحملت بندقيّتي ورفعتها إلى جبين إريك. نظر إليّ بذهول، وارتخت عضلات وجهه، وبدا للحظة مثل أيّ جندي منوّم.

مرّرت سبّابتي فوق الزناد.

قلت: "أبعد سلاحك عن رأسه".

أجاب إريك: "لا يمكنك إطلاق النار عليّ".

قلت: "هذه نظرية مثيرة للاهتمام". لكن، لا يمكنني قتله، لا أستطيع. صررت على أسناني، ثمّ أخفضت فوهة بندقيتي، وأطلقت النار على قدمه. فصرخ، وأمسك قدمه بكلتا يديه. حالما أبعد سلاحه عن رأس توبياس، شهر هذا الأخير بندقيته وأطلق النار على ساق صديقته. لم أنتظر لأعرف ما إذا كانت الرصاصة قد أصابتها، بل أمسكت بذراع توبياس وبدأت أجري.

إن استطعنا الوصول إلى الوادي، فبإمكاننا الاختفاء بين الأبنية، ولن يعثروا علينا. لكن، علينا اجتياز مائتي ياردة. سمعت وقع خطى خلفنا، لكنّني لم ألتفت. أمسك توبياس بيدي وشدّ عليها، ثمّ جرّني معه إلى الأمام، أسرع ممّا جريت يوماً، وأسرع ممّا يمكنني أن أجري. رحت أتعثّر خلفه. فجأة، سمعت صوت رصاص.

كان الألم الذي شعرت به حادّاً ومفاجئاً، بدأ في كتفي، ثم انتشر مثل تيّار كهربائي. اختنقت صرخة في حنجرتي، وسقطت، حيث احتكّ خدّي بالرصيف. رفعت رأسي، ورأيت ركبة توبياس أمامي، فصرخت: "اهرب!".

كان صوته هادئاً وهو يجيب: "كلاّ".

تمّ تطويقنا خلال ثوانٍ. ساعدني توبياس على الوقوف، وأسندني إليه. كنت أعاني من صعوبة في التركيز بسبب الألم. أحاط بنا جنود جماعة الشجاعة وصوّبوا أسلحتهم علينا.

قال إريك وهو يقف على قدم واحدة: "أيّها المتمرّدان الجامحان". كان وجهه شاحباً بشكل مخيف. "استسلما".

الفصل الرابع والثلاثون

اتّكأت على توبياس بكلّ ثقلي. كانت فوهة البندقية المضغوطة على عمودي الفقري تحثّني على التقدّم إلى الأمام، عبر مدخل مقرّ جماعة نكران الذات. كان المقرّ عبارة عن مبنى رمادي عادي، مؤلّف من طابقين. سال الدم على جسدي. في الواقع، لم أكن أخشى ما ينتظرني؛ وذلك لأنّ الألم كان مبرحاً حيث لم أستطع التفكير بشيء آخر.

دفعتني البندقية نحو باب يحرسه جنديان من الشجاعة. دخلنا أنا وتوبياس مكتباً بسيطاً يحتوي على طاولة، وجهاز كومبيوتر، وكرسيين خاليين. جلست جانين خلف المكتب، واضعة سماعة هاتف على أذنها.

قالت: "حسناً، أعِد إرسال بعضهم بالقطار. يجب أن يخضع لحراسة جيدة، فهذا هو الجزء الأهمّ، عليّ إنهاء الاتصال". وأعادت السمّاعة، وركّزت نظرات عينيها الرماديتين عليّ. ذكّرتني عيناها بالفولاذ الذائب.

قال أحد الشجعان: "متمرّدان جامحان". لا بدّ أنّه أحد قادة الجماعة، أو مجنّد تمّ إخراجه من المحاكاة.

"أجل، أرى ذلك". نزعت نظارتها، وطوتها، ثمّ وضعتها على الطاولة. على الأرجح، كانت تضع النظّارة من باب التباهي، وليس لأنّها تحتاج إليها فعلاً. فهي تعتقد أنّها تضفي عليها مظهراً ذكياً. هذا ما كان أبي يقوله.

قالت مشيرة إليّ: "أنت، توقّعتُ أن تكوني كذلك. فالمشاكل التي واجهت نتائج اختبار الجدارة جعلتني أشكّ فيك منذ البداية. لكن أنت...".

وهزّت رأسها وهي تنظر إلى توبياس.

"أنت، توبياس – أم يجدر بي مناداتك فور؟ – تمكّنتَ من الإفلات منّي. كلّ ما يتعلّق بك كان سليماً: نتائج الاختبار، وجلسات المحاكاة في التلقين، كلّ شيء. لكن ها أنت ذا؛ على الرغم من كلّ شيء". وضعت يديها فوق بعضهما، ثم أسندت ذقنها عليهما. "هلاّ شرحت لي".

أجابها ببرودة: "أنت العبقرية، فلماذا لا تقولين لي كيف حدث ذلك؟".

التوى فمها بابتسامة. "بحسب نظريّتي، أنت تنتمي في الواقع إلى نكران الذات، وجموحك أضعف". اتّسعت ابتسامتها وكأنّها مستمتعة بما يجري. صررت على أسناني، وفكّرت بالاندفاع نحوها

وخنقها بيديّ. ربما كنت سأفعل ذلك، لو أنّ كتفي لم تكن مصابة.

قال توبياس: "قدراتك على التفكير الاستدلالي مذهلة، لقد انبهرت".

ألقيت عليه نظرة جانبية. كدت أنسى هذا الجانب منه؛ ذاك الاستعداد للانفجار عوضاً عن الاستسلام والموت.

"والآن، بعدما تحقّقتِ من ذكائك، يمكنك المضيّ قدماً وقتلنا". أغمض عينيه مضيفاً: "فأمامك عدد كبير من قادة نكران الذات للتخلّص منهم".

إن كان تعليق توبياس قد أزعج جانين، فهي لم تُظهر ذلك، بل واصلت الابتسام، ووقفت برشاقة. كانت ترتدي ثوباً أزرق، يعانق جسدها من كتفيها وحتّى ركبتيها؛ مُظهراً انتفاخاً حول وسطها. دارت الغرفة بي وأنا أحاول التركيز على وجهها، واستندت إلى توبياس خوفاً من السقوط، فأحاط خصري بذراعه لدعمي.

قالت بخفّة: "لا تكن سخيفاً، لا داعي للعجلة. أنتما الاثنان هنا لسبب في غاية الأهمية. كما ترى، أنا محتارة من سبب مناعة الجامحين تجاه المصل الذي طوّرتُه. لذلك، حاولت معالجة هذه المسألة. وقد ظننت أنّني نجحت مع آخر دفعة، لكن كما تعلم، كنت مخطئة. لحسن الحظّ، لديّ دفعة أخرى لإجراء الاختبارات عليها".

سألتها: "ولماذا تتكبّدين هذا العناء؟". فهي وقادة الشجاعة لم يواجهوا أيّ مشاكل في قتل الجامحين في الماضي، فلماذا ستختلف الأمور الآن؟

ابتسمت لي ساخرة.

"كان لديّ سؤال منذ أن بدأت مشروع جماعة الشجاعة، وهو التالي". دارت حول مكتبها، ومرّرت إصبعها على سطحه. "لماذا معظم الجامحين هم أشخاص ضعفاء الإرادة، ويخافون الله، وينتمون إلى نكران الذات؛ دوناً عن كلّ الجماعات الأخرى؟".

لم أكن أعرف أنّ معظم الجامحين أتوا من جماعة نكران الذات، ولا أعرف ما هو السبب. على الأرجح، لن أعيش حتّى أعرف.

قال توبياس ساخراً: "ضعفاء الإرادة! الأمر يحتاج إلى إرادة قوية للتحكّم بالمحاكاة؛ حسبما لاحظت. أمّا ضعيف الإرادة فعلاً فهو من يتحكّم بعقول جيش لأنّه عاجز عن تدريب جيش بنفسه".

قالت جانين: "أنا لست غبية. لا يمكن لجماعة من المفكّرين أن تؤلّف جيشاً. لقد تعبنا من الخضوع لهيمنة مجموعة من الأغبياء الذين يدّعون الصلاح، ويرفضون الثروة والتقدّم، لكن لا يمكننا

فعل ذلك بمفردنا. لذلك استعنت بقادة جماعتكم الذين أبدوا استعدادهم لمدّ يد العون إن ضمنت لهم مكاناً في حكومتنا الجديدة المحسّنة".

قال توبياس وهو يضحك ساخراً: "محسّنة!".

قالت جانين: "أجل، محسّنة، وتسعى إلى عالم يعيش فيه الناس في ترف ورخاء وازدهار".

سألتها بصوت ثقيل: "على حساب من؟ كلّ هذا الترف... لا يأتي من تلقاء نفسه".

"حالياً، يشكّل المنبوذون عبئاً على مواردنا؛ شأنهم شأن جماعة نكران الذات. أنا واثقة أنّه ما إن يتم استيعاب من يتبقّى من جماعتك القديمة في جيش الشجعان حتى تتعاون مع جماعة النزاهة، وسنتمكّن أخيراً من تنفيذ مخطّطاتنا".

فهمت ما عنته بقولها: استيعابهم في جيش الشجعان. فهي تريد أن تتحكّم بهم هم أيضاً. إنها تريد أن يكون الكلّ مطيعين، وأن تسهل السيطرة عليهم.

كرّر توبياس كلامها بمرارة: "تنفيذ مخطّطاتكم!". ورفع صوته قائلاً: "كوني واثقة أنّك ستكونين في عداد الأموات قبل شروق الشمس، أيّتها –".

قاطعته جانين بحدةّ قائلة: "ربّما لو كنت تعرف كيف تتحكّم بغضبك، لما وجدت نفسك في هذا الوضع توبياس".

قال: "أنا في هذا الوضع لأنّك أنت التي وضعتني فيه؛ منذ اللحظة التي خطّطت فيها لهجوم على الأبرياء".

ضحكت قائلة: "الأبرياء! يضحكني أن أسمع هذا الكلام منك أنت. كنت أتوقّع أن يفهم ابن ماركوس أنّ الناس ليسوا كلّهم أبرياء". وجلست على طرف المكتب، وارتفعت تنورتها فوق ركبتيها اللتين تظهر عليهما آثار تمدّد البشرة. "قل لي بصراحة، ألن يفرحك خبر مقتل أبيك في الهجوم؟".

أجابها وهو يصرّ على أسنانه: "كلاّ. فعلى الأقلّ، شروره لم تصل إلى درجة التحكّم بجماعة بأكملها، والقتل المنهجي لكلّ قادتنا السياسيين".

حدّقا إلى بعضهما لبضع ثوانٍ؛ إلى أن أحسست بتوتّر رهيب. أخيراً، تنحنحت جانين وقالت: "ما أردت قوله هو إنّني سأصبح قريباً مسؤولة عن الحفاظ على نظام العشرات من أسر نكران الذات وأبنائهم. ولا يعجبني أن يكون الكثيرون منهم جامحين مثلكما، ولا يمكن التحكّم بهم بواسطة المحاكاة".

وقفَت، ثمّ مشت بضع خطوات إلى اليسار، ويداها مضمومتان أمامها. كانت أظافرها مقضومة عن بكرة أبيها؛ تماماً مثل أظافري.

توقّفَت عن السير، والتفتت إلينا. أسندتُ رأسي على كتف توبياس. كان الألم مبرحاً في الدقائق الأخيرة حيث اعتدت عليه؛ مثل من يعتاد على صوت صفّارة إنذار متواصلة.

ضغطت راحتيها معاً. لم أرَ شماتة في عينيها، ولا النظرة السادية التي توقّعتها. كانت أقرب إلى آلة، منها إلى امرأة مجنونة. فهي ترى المشاكل، وتضع الحلول استناداً إلى البيانات التي تجمعها. وبما أنّ جماعة نكران الذات تشكّل حجر عثرة أمام رغبتها في السلطة، فقد وجدت طريقة للقضاء عليها. ولتحقيق هذه الغاية، كانت بحاجة إلى جيش، وقد وجدته في جماعة الشجاعة. وكانت تعرف أنّها بحاجة إلى السيطرة على مجموعات كبيرة من الناس؛ فابتكرت طريقة تمكّنها من ذلك بواسطة المصل وأجهزة الإرسال. والجموح مشكلة أخرى يتعيّن عليها حلّها؛ وهذا ما يجعلها مخيفة إلى هذا الحدّ. فهي ذكية بما فيه الكفاية لحل أيّ مسألة، بما في ذلك مشكلة وجودنا.

قالت: "بمقدوري التحكّم بما ترونه وتسمعونه؛ لذلك ابتكرت مصلاً جديداً يعدّل محيطكم لكي أتمكّن من التحكّم بإرادتكم. والأشخاص الذين يرفضون قبول قيادتنا يجب أن يخضعوا للمراقبة عن كثب".

المراقبة، أو سلب إرادتهم الحرة. كم هي موهوبة في التعبير.

ابتسمت متابعة: "ستكون أوّل من يخضع للاختبار توبياس. أمّا أنت، بياتريس... فإصابتك تجعلك بلا فائدة بالنسبة إليّ. لذلك، سيتمّ إعدامك بعد انتهاء هذا الاجتماع".

حاولت إخفاء الرعدة التي اجتاحتني عندما لفظت كلمة "إعدام"، ونظرت إلى توبياس وكتفي تستغيث ألماً. كان من الصعب عليّ مقاومة الدموع عندما رأيت الرعب في عيني توبياس الداكنتين والمذهولتين.

قال: "كلاّ". ارتجف صوته، لكن نظرته كانت صارمة وهو يهزّ رأسه. "أفضّل الموت على ذلك".

أجابته جانين بخفّة: "أخشى أنّك لا تملك الخيار في هذه المسألة".

احتضن توبياس وجهي بين يديه، وعانقني. نسيت ألمي ورعب الموت الوشيك للحظة، وشعرت بالامتنان لأنّ هذه الذكرى ستكون حيّة في ذهني وأنا ألقى حتفي.

وعندما أفلتني، اضطررت للاستناد إلى الجدار. أمّا توبياس، فقد اندفع نحو جانين من فوق المكتب، وأطبق يديه على عنقها. غير أنّ حرّاس الشجاعة انقضّوا عليه، حاملين أسلحتهم، فصرخت مرعوبة.

تطلّب الأمر اثنين من الجنود لإبعاد توبياس عن جانين، ودفعه على الأرض. ثبّته أحد الجنود

على ركبتيه، وضغط بيده على رأسه دافعاً إيّاه على السجادة. اندفعت نحوهم، فقام جندي آخر بدفع كتفيّ على الجدار، فأحسست بالضعف بسبب الدماء التي خسرتها، وقصر قامتي مقارنة به.

اتّكأت جانين على المكتب وهي تقحّ وتشهق. وأخذت تفرك عنقها الذي ظهرت عليه آثار حمراء مكان أصابع توبياس. مهما بدت آلية، إلاّ أنّها تبقى من البشر؛ فقد رأيت دموعاً في عينيها وهي تخرج صندوقاً من درج مكتبها، وتفتحه. كان يحتوي على حقنة.

حملتها، واقتربت من توبياس وهي ما زالت تتنفّس بصعوبة. شدّ توبياس على فكّه، ولكم أحد الجنود على وجهه بمرفقه. فضربه الحارس على رأسه بطرف بندقيته، بينما قامت جانين بغرز الإبرة في عنقه فتخدّر تماماً.

خرج من فمي صوت، ليس شهقة ولا صرخة، بل أنين أجشّ وكأنّه يصدر عن شخص آخر.

قالت جانين بصوت خشن: "دعوه يقف".

وقف الحارس، وكذلك توبياس. لم يكن يبدو مثل جنود الشجاعة المنوّمين، بل كانت عيناه متيقّظتين. نظر حوله لبضع لحظات، وكأنّه يستغرب محيطه.

قلت: "توبياس! توبياس!".

قالت جانين: "إنّه لا يعرفك".

نظر توبياس خلفه، ثمّ ضاقت عيناه وبدأ يتقدّم منّي. وقبل أن يتمكّن الحارس من إيقافه، أطبقت يده على عنقي، وقطع أنفاسي. رحت أختنق، واحتقن وجهي بالدماء.

قالت جانين: "المحاكاة هي التي تحرّكه". غير أنّني بالكاد سمعتها بسبب نبض قلبي الذي كان يضجّ في أذنيّ. "فهي تعدّل ما يراه، وتجعله يخلط بين عدوّه وصديقه".

أبعد أحد الحرّاس توبياس عنّي، فأخذت أشهق وخرجت أنفاسي أقرب إلى الحشرجة.

لم يعد لتوبياس وجود. تحت تأثير مصل المحاكاة، سيقتل الناس الذين وصفهم منذ ثلاث دقائق بالأبرياء. لو قتلته جانين، لما تألّمت إلى هذا الحدّ.

قالت وعيناها تقدحان شرّاً: "من يُحقن بهذا النوع من المصل يستطع أن يتصرّف بشكل مستقلّ، حيث يكون أكثر فاعلية من الجنود العاجزين عن استخدام عقولهم". نظرتُ إلى الحرّاس الذين يمسكون بتوبياس. كان يقاومهم بعضلاته المشدودة، مركّزاً نظره عليّ من دون أن يراني؛ ليس كما كان يراني على أيّ حال. "أرسِلوه إلى غرفة المراقبة. نحن بحاجة إلى شخص واعٍ ليراقب الأمور. وكما فهمت، كان يعمل هناك".

ضغطت راحتيها معاً أمام وجهها، ثمّ أضافت: "أمّا هي، فخذوها إلى الغرفة ب13". ولوّحت بيدها لتصرفني. تلك الحركة كانت أمراً بإعدامي. لكن بالنسبة إليها، كانت تشطب بها بنداً في قائمة مهامها، لتمضي قدماً في مخطّطاتها. راقبتني من دون أيّ تعاطف، بينما أخرجني جنديان من الشجعان من المكتب.

قاما بجرّي في الرواق. كانت أحاسيسي مخدّرة، لكنّ جسدي يصيح ويقاوم. عضضت يد الرجل إلى يميني، وابتسمت عندما أحسست بطعم الدماء في فمي. عندئذٍ ضربني، ففقدت وعيي.

الفصل الخامس والثلاثون

استيقظت في الظلام، ووجدت نفسي في زاوية ضيّقة. كانت الأرض تحتي ملساء وباردة. لمست رأسي الذي كان يؤلمني، فتلطخت أصابعي بسائل أحمر اللون؛ دم. عندما أخفضت يدي، ارتطم مرفقي بجدار. أين أنا؟

أضيء مصباح فوقي، وتوهّج بضوء أزرق، فرأيت حولي جدران خزّان، وانعكست صورتي الباهتة أمامي. كانت الحجرة صغيرة، وذات جدران بلا نوافذ، وأنا فيها بمفردي. في الواقع، لم أكن وحيدة تماماً، فقد لاحظت وجود كاميرا مثبّتة على أحد الجدران.

رأيت فتحة صغيرة بالقرب من قدمي. كانت موصولة بأنبوب، والأنبوب موصول بخزّان ضخم موجود في زاوية الغرفة.

بدأت الرعشة من أناملي، وامتدّت إلى ذراعيّ، وسرعان ما بدأ جسدي يرتعد.

هذه المرّة، لم أكن في محاكاة.

كانت ذراعي مخدّرة. وعندما حاولت الوقوف، رأيت بركة دماء في مكاني. لا يمكنني أن أصاب بالذعر الآن. وقفت، واتّكأت على الجدار، ورحت أتنفّس. أسوأ ما يمكن أن يحدث لي الآن هو الغرق في هذه الحجرة. ضغطت جبيني على الزجاج، وضحكت. هذا أسوأ ما خطر في بالي، وسرعان ما تحوّل ضحكي إلى بكاء.

إن رفضت الاستسلام الآن، فسأبدو شجاعة لمن يراقبني عبر تلك الكاميرا. لكن، في بعض الأحيان، لا تكمن البطولة في المقاومة، بل في مواجهة الموت الذي نعرف أنّه آتٍ. بكيت وأنا مستندة إلى الحائط الزجاجي. أنا لا أخشى الموت، لكنّني أودّ أن أموت بطريقة مختلفة، لا بل بأيّ طريقة أخرى.

الصراخ أفضل من البكاء. لذلك، رحت أصرخ وأضرب الجدار خلفي بعقب قدمي. بقي صامداً في مكانه، فركلته بقوّة أكبر إلى أن شعرت بالألم. ركلته مراراً وتكراراً، ثمّ تراجعت، وارتميت على الجدار بكتفي اليسرى. سبّبت لي الضربة ألماً مبرحاً في كتفي اليمنى؛ كما لو أن سيخاً حامياً غُرز فيها.

بدأت المياه تنبع من أسفل الحجرة.

تعني الكاميرا أنّهم يراقبونني، لا بل يدرسونني؛ مثلما تفعل جماعة المعرفة وحدها. إنهم يريدون أن يعرفوا ما إذا كان رد فعلي في الواقع مشابهاً لرد فعلي في المحاكاة. يريدون أن يثبتوا أنّني جبانة.

أرخيت قبضتيّ، وأخفضت يديّ عن الجدار. أنا لست جبانة. رفعت رأسي، ونظرت إلى الكاميرا. إن ركّزت على التنفّس، فسأنسى أنّني على وشك الموت. حدّقت إلى الكاميرا؛ إلى أن ضاق حقلي البصري ولم أعد أرى سواها. غمرت المياه كاحليّ، ومن ثمّ ساقيّ، وارتفعت إلى فخذيّ، ثمّ بلغت أناملي. شهيق، زفير. كانت المياه ناعمة كالحرير.

شهيق؛ ستغسل المياه جراحي. زفير، غمرتني أمّي بالمياه عندما كنت طفلة. مضى وقت طويل منذ أن دعوت آخر مرّة، غير أنّني أخذت أدعو الآن؛ فهذا طبيعيّ. فجأة، أحسست بالسرور لأنّني أطلقت النار على قدم إريك وليس على رأسه.

ارتفع جسدي مع ارتفاع منسوب المياه. لكن، عوضاً عن تحريك قدميّ لكي أعوم على السطح، زفرت كلّ الهواء من رئتيّ، وغرقت في القعر. عزلت المياه أذنيّ عن الأصوات الخارجية، وشعرت بحركتها على وجهي. فكّرت بتنفّس الماء، لكي تدخل رئتيّ وتقتلني على نحو أسرع، لكنّني لم أستطع حمل نفسي على فعل ذلك. ورحت أنفخ فقاعات الهواء من فمي.

استرخي. أغمضت عينيّ، وبدأت رئتاي تؤلمانني.

تركت يديّ تعومان فوق رأسي إلى أعلى الحجرة، والماء يطويني بين ذراعيه الحريريّتين.

عندما كنت صغيرة، كان أبـي يحملني فوق رأسه، ويركض بـي لأشعر أنّني أطير. أذكر كيف كنت أحسّ بالهواء وهو يحتكّ بجسدي، ولست خائفة. فتحت عينيّ.

رأيت أمامي شخصاً غامضاً. لا بدّ أنّني أوشكت على الموت ما دمت أرى أشياء لا وجود لها. استغاثت رئتاي ألماً. لم أكن أعرف أنّ الاختناق مؤلم. ضغط كفّ على الزجاج أمام وجهي، فحدّقت عبر المياه للحظة، وظننت أنّني أرى وجه أمّي الضبابيّ.

سمعت ضربة، وما لبث الزجاج أن تشقق. أخذت المياه تتدفّق من ثقب في أعلى الخزّان، قبل أن ينشقّ اللوح إلى نصفين. فالتفتُّ بعيداً عن حطام الزجاج، غير أنّ قوّة المياه دفعتني على الأرض. رحت أشهق وأنا أبتلع الماء والهواء، ثمّ أقحّ وأشهق مجدّداً، قبل أن تطبق يداها على ذراعيّ، وأسمع صوتها.

قالت: "بياتريس، بياتريس، علينا أن نهرب".

مرّرَت ذراعي فوق كتفيها، ورفعتني لأقف على قدميّ. كانت تشبه أمّي بملابسها وملامحها، لكنّها تحمل مسدّساً. كما أنّ نظرة عينيها ليست مألوفة بالنسبة إليّ. رحت أتعثّر بجانبها على حطام الزجاج، وفوق الماء، إلى أن خرجنا من باب مفتوح. كان حرّاس جماعة الشجاعة مطروحين أرضاً

بالقرب من الباب.

راحت قدماي تنزلقان على البلاط ونحن نسير في الرواق بأسرع ما تمكنت ساقاي الضعيفتان القيام به. عندما انعطفنا عند الزاوية، أطلقَت النار على حارسين كانا يقفان عند أحد الأبواب في آخر الممرّ. أصابتهما في رأسيهما فسقطا أرضاً. دفعتني على الجدار، وخلعت سترتها الرمادية.

كانت ترتدي قميصاً بلا كمّين تحتها. وحين رفعت ذراعها، رأيت زاوية وشم تحت إبطها. لا عجب أنّها لم تقم يوماً بتبديل ملابسها أمامي.

قلت لها بصوت مخنوق: "أمّي، أكنت من الشجعان؟".

أجابت مبتسمة: "أجل". صنعت من سترتها رباطاً لذراعي، وربطت الكمّين حول عنقي. "وقد ساعدني ذلك كثيراً اليوم. والدك وكاليب مختبئان مع بعض الأشخاص الآخرين في قبو عند تقاطع شارعي نورث وفيرفيلد. علينا الذهاب إليهما".

حدّقت إليها. كنت أجلس بجانبها مرّتين في اليوم إلى المائدة في المطبخ، لمدّة ستة عشر عاماً، ولم يخطر لي يوماً أنّها ولدت في جماعة غير نكران الذات. هل عرفتها حقّاً؟

قالت: "سيكون لدينا وقت للأسئلة". رفعت قميصها، وأخرجت مسدّساً من تحت حزام سروالها، ثمّ أعطتني إيّاه. لمست خدّي قائلة: "والآن، علينا الذهاب".

أخذت تركض نحو نهاية الممرّ، وركضت خلفها.

نحن في قبو مقرّ نكران الذات. عملت أمّي هنا طوال حياتها، لذلك لم أستغرب عندما قادتني عبر عدد من الأروقة، قبل أن نصعد سلّماً تفوح منه رائحة الرطوبة، لنخرج بعد ذلك إلى ضوء النهار، من دون أن يعترض طريقنا أحد. ما هو عدد الحراس الذين قتلتهم قبل أن تعثر عليّ؟

سألتها: "كيف عرفت مكاني؟".

أجابت وهي تلتفت إلى الخلف لتنظر إليّ: "كنت أراقب القطار منذ بدء الهجوم. لم أعرف ماذا سأفعل عندما أجدك، لكنّني كنت أنوي إنقاذك حتماً".

أحسست بضيق في حلقي. "لكنّني خنتكم، وتركتكم".

"أنت ابنتي، ولا آبه بالجماعات". هزّت رأسها مضيفة: "انظري إلى أين قادتنا. لا يمكن للخير أن يسود بين البشر طويلاً قبل أن يتسلّل الشرّ إلى قلوبهم ويسمّم حياتهم من جديد".

توقّفت عند تقاطع الزقاق مع الطريق.

كنت أعرف أنّ الوقت ليس مناسباً للحديث، لكنّني أردت معرفة شيء واحد.

سألتها: "أمّي، كيف تعرفين بوجود جامحين؟ ما معنى ذلك؟ لماذا...".

فتحت حجرة مسدّسها، ونظرت إلى الداخل لترى كم بقي لديها من رصاص. ثمّ أخرجت عدّة رصاصات من جيبها، وأعادت ملء حجرة المسدّس. كان تعبير وجهها شبيهاً بذاك الذي يكسو ملامحها وهي تدخل خيطاً في الإبرة.

قالت وهي تضغط على الرصاصة لتدخل في مكانها: "أعرفهم لأنّني واحدة منهم. لكنّني بقيت بأمان لأنّ أمّي كانت قائدة في جماعة الشجاعة. وفي يوم الاختيار، طلبت منّي أن أترك جماعتي وأختار واحدة أكثر أماناً، فاخترت نكران الذات". وضعت الرصاصة المتبقّية في جيبها، ووقفت مستقيمة. "لكنّني أردتك أن تختاري بنفسك".

"لا أفهم لماذا نشكّل تهديداً بالنسبة إلى القادة".

"تقوم كلّ جماعة بترويض أعضائها لكي يفكّروا ويتصرّفوا بطريقة معيّنة. يسهل على الكثير من الناس تعلّم ذلك، وإيجاد نمط تفكير للبقاء على هذه الحال". لمست كتفي السليمة وابتسمت. "لكنّ عقولنا تتحرّك بعشرات الاتّجاهات المختلفة. وعدم إمكانية حصرنا في نمط فكري معيّن يرعب قادتنا. فهذا يعني أنّه لا يمكن التحكّم بنا، كما يعني أنهم مهما فعلوا، فسنبقى بالنسبة إليهم مصدراً للمتاعب".

أحسست كما لو أنّ أحداً نفخ هواءً جديداً في رئتيّ. أنا لا أنتمي إلى نكران الذات، ولا إلى الشجاعة.

أنا جامحة.

لا يمكنهم التحكّم بي.

قالت وهي تلقي نظرة من المنعطف: "ها قد وصلوا". نظرتُ من فوق كتفها، ورأيت عدداً من الشجعان المسلّحين الذين يتقدّمون بإيقاع واحد نحونا. نظرَت أمّي إلى الخلف، ورأينا مجموعة أخرى من الشجعان يركضون عبر الزقاق بحركة واحدة.

أمسكَت بيديّ، ونظرت إلى عينيّ. رأيت رموشها الطويلة تتحرّك وهي ترفّ عينيها. تمنّيت لو أنّني ورثت شيئاً من ملامحها في وجهي الصغير العادي. غير أنّني على الأقلّ ورثت شيئاً من صفاتها في عقلي.

"اذهبي إلى أبيك وأخيك عبر الزقاق إلى اليمين، وصولاً إلى القبو. اطرقي على الباب مرّتين، ومن ثمّ ثلاث مرات، ومن ثمّ ستّ مرات". احتضنت وجهي بيديها. كانتا باردتين، وخشنتين. "سألهيهم عنك. عليك أن تركضي بأسرع ما يمكن".

هززت رأسي وقلت: "كلاّ، لن أتحرّك من دونك".

ابتسمت: "كوني شجاعة بياتريس. أنا أحبّك".

أحسست بشفتيها على جبيني قبل أن تنطلق إلى وسط الشارع. رفعت مسدّسها فوق رأسها، وأطلقت النار ثلاث مرّات في الهواء. عندئذٍ، بدأ الشجعان يركضون.

قطعت الشارع، ودخلت الزقاق. بينما كنت أركض، التفتُّ إلى الخلف لأرى ما إذا كان أحد منهم يتبعني. لكنّني رأيت أمّي تطلق النار على حشد الحراس، وكان تركيزهم منصبّاً عليها حيث لم يلاحظني أحد منهم.

دار رأسي إلى الخلف مجدّداً عندما سمعتُهم يردّون على إطلاق النار، ثم ترنّحتُ، ووقفتُ جامدة.

تصلّب جسد أمّي، وتقوّس ظهرها إلى الخلف، بينما تدفّقت الدماء من بطنها، وصبغت قميصها بلون قرمزي. كما ظهرت بقعة من الدماء على كتفها. رفّفت عينيّ، وانعكس اللون الأحمر الداكن داخل حدقتيّ. رفّفت عينيّ مرّة أخرى، ورأيت ابتسامتها وهي تكنس شعري المقصوص، وتجمعه في كومة على الأرض.

سقطَت على ركبتيها أوّلاً، وارتخت ذراعاها، قبل أن تتمدّد على جنبها على الرصيف، بلا حراك، مثل دمية من قماش.

وضعتُ يدي على فمي، وكتمت صراخي. كان خدّاي حارّين ومبلّلين بدموع لم أشعر بها. شعرت أنّ دمي يناديها مطالباً بالعودة إليها، بينما تردّدت كلماتها في ذهني وهي تطلب منّي أن أكون شجاعة.

أحسست بألم مبرح بينما كان كلّ ما فيّ ينهار. فقد تفكّك عالمي بأكمله في لحظة واحدة. خدش الرصيف ركبتيّ. إن تمدّدت أرضاً الآن، فستكون هذه هي النهاية. ربّما كان إريك على حقّ عندما قال إنّ اختيار الموت تصرّف شجاع.

أحسست بتوبياس يمسح على شعري قبل أوّل جلسة محاكاة. وسمعته يطلب منّي أن أكون شجاعة. وسمعت أمّي وهي تقول لي كوني شجاعة.

استدار الجنود وكأنّ عقلاً واحداً يحرّكهم، فنهضتُ وبدأت أركض.

أنا شجاعة.

الفصل السادس والثلاثون

لحق بـي ثلاثة جنود من جماعة الشجاعة. ركضوا وكأنّهم رجل واحد، وتردّد وقع خطواتهم في الزقاق. أطلق أحدهم النار فانبطحتُ، واحتكّت كفّاي بالأرض. أصابت الرصاصة جداراً من الطوب، فتناثرت شظاياه في كل مكان. اختبأت عند المنعطف، وقدحت مطرقة مسدّسي.

لقد قتلوا أمّي. صوّبت المسدّس على الزقاق، وأطلقت النار عشوائياً. لم يكونوا هم بالفعل من قتلها، لكن لم يعد الأمر هامّاً. تماماً مثل الموت نفسه، لا يمكن لما يجري أن يكون واقعياً.

أصبحت أسمع الآن وقع خطوات رجل واحد، فحملت المسدّس بيدي الاثنتين، ووقفت في آخر الزقاق، ثمّ صوّبته على الجنديّ. ضغطت على الزناد، لكن ليس بما فيه الكفاية لأطلق النار. فالجندي الذي كان يركض نحوي لم يكن رجلاً، بل فتى يافعاً، مشعّث الشعر، يملك تجعيدة بين حاجبيه.

ويل. صحيح أنّه لم يكن يدرك ما يفعله، لكنّه يبقى ويل. توقّف، ونظر إليّ. ثبّت قدميه على الأرض، وشهر بندقيّته. في لحظة واحدة، رأيت إصبعه على الزناد، وسمعت صوت الرصاصة وهي تسقط في حجرتها، فأطلقت النار. أغمضت عينيّ، وتوقّفت على التنفّس.

أصابت الرصاصة رأسه. عرفت ذلك لأنّني صوّبتها عليه.

استدرت من دون أن أفتح عينيّ، وابتعدت عن الزقاق بخطىً متعثّرة. نورث وفيرفيلد. عليّ النظر إلى اللافتات لأعرف مكاني، لكنّني لم أستطع القراءة، فقد كان كلّ ما حولي ضبابياً. رففت عينيّ بضع مرّات. كنت أقف على بعد ياردات عدّة من المبنى الذي يختبئ فيه من تبقّى من أسرتي.

ركعت قرب الباب. سيعتبرني توبياس متهوّرة لأنّني أسبّب كلّ هذه الضجّة. فالضجّة تلفت انتباه الجنود.

ضغطت جبيني على الجدار، وصرخت. بعد بضع ثوانٍ، وضعت يدي على فمي لأكتم صوتي، وصرخت مجدّداً، ثمّ تحوّلت صرختي إلى نحيب، وسقط المسدّس على الأرض. ما زلت أرى ويل.

تراءت لي ابتسامته؛ شكل فمه وأسنانه المستقيمة، وعيناه اللتان تلمعان، وضحكه، ومزاحه. كان حيّاً في ذاكرتي أكثر ممّا أنا حيّة في الواقع. لم يكن من الممكن سوى لأحدنا أن يبقى على قيد الحياة، وقد اخترت نفسي؛ لكنّني أشعر أنّني متّ أنا أيضاً.

* * *

طرقت الباب مرّتين، ومن ثمّ ثلاث مرّات، ومن ثمّ ستّ مرّات؛ كما طلبت منّي أمّي.

مسحت الدموع عن وجهي. هذه هي المرّة الأولى التي سأرى أب.ي فيها منذ أن تركته، ولا أريد أن يراني وأنا أبكي وشبه منهارة.

فُتح الباب، ورأيت كاليب أمامي. فوجئت برؤيته. أمّا هو، فحدّق إليّ لبضع ثوان، ثمّ أحاطني بذراعيه، وضغط على جرحي. عضضت على شفتي لكي لا أصرخ، لكن خرج منّي أنين على الرغم من ذلك. فأفلتني، وتراجع.

"بياتريس. ربّاه، أنت مصابة؟".

قلت بصوت ضعيف: "فلندخل".

مرّر إبهامه تحت عينيه يمسح دموعه، ثم أغلق الباب خلفنا.

كانت الإضاءة خافتة، لكنّني رأيت وجوهاً مألوفة، من جيران سابقين، ورفاق مدرسة، وزملاء أب.ي في العمل. كان أب.ي يحدّق إليّ؛ كما لو أنّ رأساً آخر قد نبت لي. وماركوس كان هناك أيضاً. آلمتني رؤيته كثيراً؛ توبياس...

كلاّ، لن أفعل ذلك، لن أفكّر فيه.

سألني كاليب: "كيف عرفت بمكاننا؟ هل وجدتك أمّي؟".

أومأت برأسي. لا أريد التفكير بأمي أيضاً.

قلت: "كتفي".

بعد أن أصبحت بأمان، بدأ الأدرينالين الذي ساعدني على الوصول إلى هنا يهبط، وازداد الألم. فركعت على ركبتيّ، وأخذ الماء يقطر من ملابسي على الأرض الإسمنتية. ارتفعت شهقة إلى حنجرتي، وتاقت إلى الخروج، لكنّني كبحتها.

قامت امرأة تدعى تيسّا، تعيش في الشارع نفسه الذي كنت أقطن فيه، بمدّ فراش على الأرض. كانت زوجة عضو في البرلمان، لكنّني لم أرَ زوجها؛ الذي قتل على الأرجح.

نقل أحدهم مصباحاً من زاوية إلى أخرى لمنحنا مزيداً من الضوء. ثمّ أخرج كاليب صندوق إسعافات أوّلية، وأحضرت سوزان زجاجة ماء. ما من مكان أفضل لمن يحتاج إلى المساعدة من غرفة مليئة بأناس من جماعة نكران الذات. نظرتُ إلى كاليب. كان يرتدي ملابس رمادية من جديد. ورؤيته في مجمّع الشجاعة بدت أقرب إلى الحلم الآن.

أتى أب.ي إليّ، ورفع ذراعي فوق كتفه، ثمّ ساعدني على السير.

سألني كاليب: "لماذا أنت مبتلّة؟".

أجبت: "لقد حاولوا إغراقي. لمَ أنت هنا؟".

"فعلت ما طلبته منّي، أقصد ما طلبته أمّي. أجريت أبحاثاً حول مصل المحاكاة، واكتشفت أنّ جانين كانت تعمل على تطوير أجهزة إرسال طويلة المدى لكي تمتدّ إشارة المصل لمسافة أبعد، وهذا ما أوصلني إلى معلومات عن جماعتَي المعرفة والشجاعة... على أيّ حال، انسحبت من التلقين عندما اكتشفت حقيقة ما يجري. كنت أنوي تحذيرك، لكن فات الأوان. أصبحت الآن منبوذاً".

قال أب.ي بجدّية: "كلاّ، لست كذلك. أنت معنا".

ركعتُ على الفراش، وقام كاليب بقصّ جزء من قميصي بمقصّ طبّي عند الكتف. فظهر أوّلاً وشم نكران الذات على كتفي اليمنى، ومن ثمّ الطيور الثلاثة تحت عنقي. حدّق أب.ي وكاليب إلى الوشمين بنظرة الاستغراب والصدمة نفسها، لكنّهما لم يقولا شيئاً.

تمدّدت على بطني. وشدّ كاليب على يدي، بينما أخرج أب.ي المعقّم من الصندوق.

سألته بصوت ضاحك تشوبه رجفة قلق: "هل سبق لك أن أخرجت رصاصة من جسد أحد قبل الآن؟".

أجاب: "الأمور التي أعرفها قد تفاجئك".

الكثير من الأشياء لدى أبويّ قد يفاجئني. فكّرت بالوشم على ذراع أمّي، وعضضت على شفتي.

قال: "هذا سيؤلمك".

لم أرَ السكين، لكنّني أحسست بها. انتشر الألم في أنحاء جسدي، وصرخت وأنا أصرّ على أسناني، بينما سحقتُ أصابع كاليب بيدي. سمعت أب.ي يصرخ طالباً منّي أن أرخي عضلات ظهري. بدأ الألم مجدّداً، وأحسست بالسكين وهي تتحرّك تحت جلدي، بينما واصلت الصراخ.

قال: "وجدتها". ثمّ أسقط شيئاً على الأرض.

نظر كاليب إلى أب.ي، ومن ثمّ إليّ، وضحك. مضى زمن طويل منذ أن سمعته يضحك، حيث أبكاني صوته.

سألته: "ما الذي يضحكك؟".

قال: "لم يخطر لي مطلقاً أن أراكما معاً مرّة أخرى".

نظّف أب.ي الجلد المحيط بالجرح بسائل بارد، ثمّ قال: "حان الوقت لتقطيب الجرح".

هززت رأسي، بينما كان يمرّر خيطاً في الإبرة وكأنّه فعل ذلك آلاف المرات.

قال: "واحد، اثنان... ثلاثة".

صررت على أسناني، وبقيت هادئة هذه المرّة. فبعد كلّ الألم الذي عانيته اليوم؛ بدءاً من الألم الناجم عن الإصابة بالرصاص، إلى الغرق الوشيك، وصولاً إلى فقداني أمّي وتوبياس، كان هذا الألم هو الأسهل.

أنهى أب.ي تقطيب الجرح، وربط الخيط، وغطّى القطب برباط. بعد ذلك، ساعدني كاليب على الجلوس، ثمّ خلع قميصه الخارجي ذا الكمين الطويلين، وأعطاني إيّاه.

ساعدني أب.ي على إدخال ذراعي اليمنى عبر كم القميص، ثمّ مرّرته فوق رأسي. كان واسعاً وزكيّ الرائحة؛ مثل رائحة كاليب.

سألني أب.ي بصوت خافت: "إذاً، أين أمّك؟".

نظرت إلى الأسفل. لم أكن أرغب في أن أبلغهما هذا النبأ، ولا أن يكون لديّ نبأ كهذا من الأساس.

قلت: "توفيت، لقد أنقذتني".

أغمض كاليب عينيه، وأخذ نفساً عميقاً.

بدت الصدمة على وجه أب.ي للحظات، ثمّ استعاد السيطرة على عواطفه، وبدت عيناه دامعتين وهو يشيح بنظره ويهزّ رأسه.

قال بصوت مخنوق: "من الجيّد أنّها ماتت لسبب خيّر".

إن تكلّمت فسأنهار، ولا وقت لذلك الآن. لذا، اكتفيت بهزّ رأسي موافقة.

قال إريك إنّ انتحار آل عمل شجاع، غير أنّه كان مخطئاً. فموت أمّي هو الشجاعة بعينها. أذكر تماماً مدى هدوئها وتصميمها. لم تكن شجاعة لأنّها ماتت من أجلي فحسب، بل لأنّها فعلت ذلك من دون أن تخبرني، ومن دون تردّد، ومن دون أن يبدو عليها أنّها فكّرت بخيار آخر.

ساعدني كاليب على الوقوف. لقد حان الوقت لمواجهة بقية الموجودين في الغرفة؛ فقد طلبت منّي أمّي إنقاذهم. لهذا السبب، ولأنّني شجاعة، فإنّ واجب.ي هو تولّي زمام القيادة الآن. مع أنّني لا أملك أيّ فكرة عن كيفية القيام بهذه المهمّة.

نهض ماركوس. عندما رأيته، عادت إلى ذهني ذكراه وهو يضرب ذراعي بالحزام، فشعرت بانقباض في صدري.

قال ماركوس أخيراً: "نحن آمنون هنا لمدّة محدودة وحسب. علينا مغادرة المدينة، وخيارنا الوحيد هو الوصول إلى مجمّع الوئام على أمل إدخالنا. هل تعرفين شيئاً عن مخطّطات الشجاعة، بياتريس؟

هل سيتوقّفون عن القتال ليلاً؟".

أجبته: "هذه ليست مخطّطات الشجاعة. كلّ هذا من تدبير جماعة المعرفة، ويبدو أنّهم يعطونهم أوامر".

قال أب.ي: "يعطونهم أوامر! ماذا تعنين؟".

قلت: "أعني، إنّ تسعة وتسعين بالمائة من الشجعان منوّمون الآن. إنّهم تحت تأثير مصل المحاكاة، ولا يعرفون ماذا يفعلون. والسبب الوحيد لكوني لست مثلهم هو أنّني...". وتردّدت في لفظ الكلمة، ثم تابعت: "التحكّم بالعقل لا يؤثّر عليّ".

سألني أب.ي بعينين مذهولتين: "التحكّم بالعقل؟! هم لا يعرفون إذاً أنّهم يقتلون الناس، أليس كذلك؟".

"كلاّ".

"هذا... رهيب". هزّ ماركوس رأسه. غير أنّ نبرته المتعاطفة بدت لي مصطنعة. "كيف سيكون شعورهم عندما يستيقظون ويدركون ما فعلوه...؟".

غرقت الغرفة كلها في الصمت؛ بينما كان أهل نكران الذات يتخيّلون أنفسهم على الأرجح مكان الشجعان. في تلك اللحظة، خطرت لي فكرة.

قلت: "علينا إيقاظهم".

قال ماركوس: "ماذا؟".

"إن أيقظنا جماعة الشجاعة، فقد ينتفضون عندما يدركون ما يجري. عندئذٍ، لن يكون لدى المعرفة جيش، وسيتوقّف قتل جماعة نكران الذات، وستنتهي هذه الأزمة".

قال أب.ي: "الأمر ليس بهذه البساطة. فحتّى لو خسرت جماعة المعرفة مساعدة الشجعان، فستبحث عن وسيلة أخرى من أجل -".

قال ماركوس: "وكيف يفترض بنا إيقاظهم".

قلت: "يجب أن نبحث عن أجهزة الكومبيوتر التي تتحكّم بالمحاكاة، وندمّر البيانات والبرنامج وكل شيء".

قال كاليب: "الكلام أسهل من الفعل. يمكن أن تكون تلك الأجهزة في أيّ مكان. لا يمكننا الذهاب ببساطة إلى مجمّع المعرفة والبدء بعمليّة تفتيش".

"إنّها...". قطّبت جبيني. جانين. كانت جانين تتحدّث بأمر هامّ عندما دخلنا أنا وتوبياس مكتبها؛

هامّ بما فيه الكفاية لمقاطعة شخص ما. لا يمكنك تركه بلا حماية. ثمّ قالت وهي ترسل توبياس إلى خارج المكتب: أرسله إلى غرفة المراقبة. غرفة المراقبة هي المكان الذي كان توبياس يعمل فيه، مع شاشات المراقبة، وأجهزة الكومبيوتر الخاصّة بجماعة الشجاعة.

قلت: "إنّها في مجمّع الشجاعة، فهذا منطقيّ. فذلك هو المكان الذي تخزّن فيه كلّ البيانات المتعلّقة بالشجعان، فلماذا لا يتمّ التحكّم بهم من هناك؟".

لاحظت بشكل خاطف أنّني قلت هم. أمس فقط، أصبحت فعلياً من الشجعان، لكنّني لا أشعر أنّني واحدة منهم الآن. كما أنّني لا أنتمي إلى نكران الذات أيضاً.

أظنّ أنّني ما كنت عليه دائماً. لست شُجاعة، ولا ناكرة لذاتي، ولا منبوذة، بل جامحة.

سألني أب.ي: "هل أنت واثقة؟".

أجبته: "تخميني ليس اعتباطياً، وهذه أفضل نظرية لديّ".

قال: "إذاً، علينا أن نقرّر من يذهب، ومن يتابع الطريق إلى مجمّع الوئام. ما هو نوع المساعدة التي تحتاجين إليها بياتريس؟".

أذهلني سؤاله، تماماً مثل التعبير الذي بدا على وجهه. نظر إليّ وتحدّث إليّ كما لو كنت ندّاً له. إمّا أن يكون قد تقبّل فكرة نضوجي الآن، أو تقبّل أنّني لم أعد ابنته. كان الاحتمال الثاني هو الأرجح، والأكثر إيلاماً.

قلت: "كلّ من يستطيع استخدام مسدّس ويقبل بذلك، ولا يخشى المرتفعات".

الفصل السابع والثلاثون

كانت قوّات المعرفة والشجاعة مركّزة في مقاطعة نكران الذات. وبالتالي، إن هربنا بعكس اتّجاه المقاطعة، فسيخفّ احتمال تعرّضنا للخطر.

لم تتسنّ لي الفرصة لأقرّر من يأتي معي. كان مجيء كاليب أمراً بديهياً؛ لأنّه أكثر من يعرف عن خطّة جماعة المعرفة. وأصرّ ماركوس على المجيء – على الرغم من اعتراضي – لأنّه بارع في استخدام الكومبيوتر. أمّا أب.ي، فتصرّف وكأنّ أمر مجيئه معنا محسوم منذ البداية.

راقبت الآخرين وهم يفرّون بالاتّجاه المعاكس؛ نحو الأمان، نحو مقاطعة الوئام. لكن بعد بضع ثوان فقط، استداروا على أعقابهم، وتوجّهوا نحو المدينة، نحو الحرب. أما نحن، فوقفنا بالقرب من سكة الحديد التي ستحملنا إلى الخطر.

سألت كاليب: "كم الساعة؟".

نظر إلى ساعة يده وقال: "إنها الثالثة واثنتا عشرة دقيقة".

قلت: "سيصل القطار في أيّ لحظة".

سألني: "هل سيتوقّف؟".

هززت رأسي نافية. "يمرّ ببطء في المدينة. سنركض بالقرب من المقطورة لبضع أقدام، ثمّ سنقفز إلى الداخل".

أصبح القفز في القطارات المتحرّكة يبدو لي سهلاً وطبيعياً الآن. ولكنه لن يكون كذلك بالنسبة إلى الباقين، لكن لا يمكننا الآن العودة إلى الوراء. التفتّ خلف كتفي اليسرى، ورأيت المصابيح الأمامية تضيء بلون ذهبي بين الطرقات والأبنية الرمادية. رحت أقفز بخفّة مع اقتراب المصابيح وازديادها حجماً، ثمّ مرّت مقدّمة القطار من أمامي، فبدأت أهرول. حين رأيت مقطورة مفتوحة الأبواب، أسرعت لمجاراتها، ثمّ أمسكت بالمقبض الأيسر، وتأرجحت إلى الداخل.

قفز كاليب، وسقط في الداخل، ثمّ تدحرج على جنبه قبل أن يقف لمساعدة ماركوس. أمّا أب.ي، فحطّ على بطنه، وجرّ قدميه خلفه. ابتعدوا عن الباب، أمّا أنا، فوقفت عند الحافّة، وشاهدت المدينة وهي تعبر من أمامي.

لو كنت جانين، لأرسلت معظم الجنود إلى مدخل مجمّع الشجاعة فوق السرداب، خارج المبنى الزجاجي. لذلك، سيكون الدخول من الباب الخلفي أكثر حكمة، لكنّ هذا سيتطلّب منّا القفز عن سطح

مبنى.

قال ماركوس: "أظنّ أنّك ندمت الآن على اختيار جماعة الشجاعة".

فوجئت لأنّ أب.ي لم يطرح عليّ هذا السؤال، غير أنّه كان يشاهد المدينة مثلي. مرّ القطار من أمام مجمّع المعرفة الذي كان مظلماً. بدا مسالماً من بعيد، وعلى الأرجح، كان السلام يخيّم بين هذه الجدران. فهي بعيدة جدّاً عن حقيقة ما فعلوه.

هززت رأسي نافية.

قال ماركوس بحدّة: "حتّى بعد أن قرّر قادة جماعتك المشاركة في مؤامرة للإطاحة بالحكومة؟".

"ثمّة بعض الأمور التي كنت بحاجة لتعلّمها".

سألني أب.ي بصوت خافت: "أي كيف تكونين شجاعة؟".

أجبته: "بل كيف أكون غير أنانية. فهما وجهان لعملة واحدة في أغلب الأحيان".

قال كاليب: "ألهذا السبب قمت بوشم رمز نكران الذات على كتفك؟". أنا واثقة تقريباً أنّني رأيت ابتسامة في عيني أب.ي.

ابتسمت قليلاً، وأومأت برأسي مضيقة: "ورمز الشجاعة على الأخرى".

* * *

انعكست أشعّة الشمس على المبنى الزجاجي الذي يعلو السرداب، وبهرت عينيّ. وقفت وأنا أمسك بمقبض الباب للحفاظ على توازني. لقد أوشكنا على الوصول.

قلت لهم: "عندما أطلب منكم القفز، اقفزوا إلى أبعد ما يمكنكم".

قال كاليب: "نقفز!! نحن على ارتفاع سبعة طوابق تريس".

أضفت: "سنقفز على سطح". حين رأيت الدهشة على وجهه، قلت له: "لهذا السبب يسمّونه اختبار شجاعة".

الشجاعة نصفها نسبيّ. في المرّة الأولى التي أقدمت فيها على هذا العمل، كان ذلك من أصعب ما قمت به في حياتي. أمّا الآن، فقد أصبح الاستعداد للقفز من قطار متحرّك لا يعني لي شيئاً؛ لأنّني قمت في الأسابيع القليلة الفائتة بأمور أكثر صعوبة ممّا يقوم به الناس طوال حياتهم. ومع ذلك، لا شيء منها يقارن بما أنا على وشك فعله في مجمّع الشجاعة. وإن بقيت على قيد الحياة، فسأقوم من دون شكّ بأعمال أصعب بكثير؛ كالعيش بلا جماعة، وهو أمر لم أتخيّل أن يحدث لي يوماً.

قلت: "أب.ي، أنت أوّلاً". وتراجعت إلى الخلف ليقف على الحافّة. إن قفز هو وماركوس أوّلاً،

فبإمكاني توقيت الأمر ليقفزا عبر المسافة الأكثر قصراً. وأملت أن أتمكّن أنا وكاليب من القفز بعيداً بما فيه الكفاية للنجاة، لأنّنا أصغر سنّاً. هذه مجازفة عليّ القيام بها.

انحرفت سكة الحديد، وعندما أصبحت متوازية مع حافّة السطح، صحت: "اقفز!".

ثنى أب.ي ركبتيه، ثمّ اندفع إلى الأمام. لم أنتظر لأرى ما إذا كان قد نجح في الوصول، بل دفعت ماركوس إلى الأمام وصرخت: "اقفز!".

هبط أب.ي على السطح قريباً من الحافّة وجلس على الأرض؛ فشهقت حينما رأيته، بينما دفعت كاليب أمامي. وقف على حافّة المقطورة، وقفز من دون أن أطلب منه ذلك. عندها، تراجعت بضع خطوات إلى الخلف لأعطي نفسي زخماً، ثمّ قفزت من المقطورة في اللحظة التي أوشك فيها القطار على تجاوز السطح.

للحظة، شعرت أنّني معلّقة في الفراغ، قبل أن ترتطم قدماي بالإسمنت وأترنّح جانباً؛ بعيداً عن الحافّة. آلمتني ركبتاي، وارتجّ جسدي نتيجة هبوطي على السطح بقوّة سبّبت لي ألماً مبرحاً في كتفي. جلست وأنا ألهث، ونظرت إلى السطح. كان أب.ي وكاليب واقفين على حافّة السطح، ممسكَين بذراعَي ماركوس الذي لم يبلغ السطح، غير أنّه لم يسقط بعد.

سمعت صوتاً شرّيراً في داخلي يردّد: "اسقط، اسقط، اسقط".

غير أنّه لم يفعل، بل قام أب.ي وكاليب بإنقاذه. وقفت، ونفضت الغبار عن بنطالي. كنت مشغولة بما سيلي ذلك. فعليّ الآن أن أطلب منهم القفز عن سطح المبنى... لن يكون هذا أمراً سهلاً.

قلت: "ما سنفعله الآن هو السبب الذي جعلني أطلب أشخاصاً لا يهابون المرتفعات". ثمّ توجّهت إلى حافّة السطح. سمعت صوت وقع خطواتهم خلفي وأنا أقف على الحافّة. هبّ الهواء من جانب المبنى، وأبعد قميصي عن جسدي. حدّقت إلى الحفرة في الأرض التي تفصلها عنّي سبعة طوابق، ثمّ أغمضت عينيّ مع هبوب الهواء على وجهي.

قلت لهم وأنا أنظر إليهم من فوق كتفي: "ثمّة شبكة في الأسفل". بدا عليهم الارتباك؛ إذ لم يدركوا بعد ما سأطلبه منهم.

قلت أخيراً: "لا تفكّروا، بل اقفزوا وحسب".

استدرت، وفي أثناء ذلك ملت إلى الخلف، حيث اختلّ توازني. سقطت كالصخرة، مغمضة العينين، ومددت إحدى ذراعيّ للإحساس بالهواء. استرخيت قدر الإمكان قبل أن أرتطم بالشبكة التي بدت مثل لوح من الإسمنت يضرب كتفي. صررت على أسناني، وتدحرجت إلى الحافّة، ثمّ أمسكت

بالعمود الذي يثبّت الشبكة، وأنزلت ساقيّ، وقفزت على الأرض. هبطتُ على ركبتيّ على المنصّة، واغرورقت عيناي بالدموع من شدّة الألم.

صاح كاليب لدى سقوطه على الشبكة، ثمّ استقام. أمّا أنا، فوقفت بشيء من الصعوبة.

همست: "كاليب، انزل إلى هنا!".

زحف كاليب إلى طرف الشبكة وهو يلهث، ونزل بقوّة على المنصّة، ثم وقف على قدميه فاغراً فمه من شدّة الذهول.

سألني من بين أنفاسه: "كم مرّة... فعلت... هذا؟".

أجبت: "مرّتين حتّى الآن".

هزّ رأسه متعجّباً.

عندما سقط أبي على الشبكة، ساعده كاليب على النزول. وحين وقف على المنصّة، انحنى وتقيّأ كلّ ما في جوفه. نزلت السلّم، وعندما وصلت إلى الأسفل، سمعت ماركوس يهبط فوق الشبكة مطلقاً أنيناً عالياً.

كان الكهف خالياً، والأروقة معتمة.

بدا من كلام جانين كما لو أنّ مجمّع الشجاعة أصبح خالياً؛ باستثناء الجنود الذين أرسلتهم لحراسة أجهزة الكومبيوتر. إن تمكّنّا من العثور على جنود، فسنعثر على أجهزة الكومبيوتر. نظرتُ إلى الخلف، فرأيت ماركوس واقفاً على المنصّة، شاحب الوجه كالأموات، لكنّه بخير.

قال ماركوس: "إذاً هذا هو مجمّع الشجاعة".

قلت: "نعم، هل لديك اعتراض؟".

أجاب وهو يمرّر يده على أحد الجدران: "لم أعتقد يوماً أنّني سأدخله. لا حاجة لأن تكوني دفاعية إلى هذا الحدّ بياتريس".

لم يسبق لي أن لاحظت يوماً البرودة في عينيه.

قال أبي: "هل لديك خطّة بياتريس؟".

"أجل". وكان هذا صحيحاً. لديّ خطّة، مع أنّني لا أدري متى وضعتها.

كنت واثقة أنّها ستنجح، إذ يمكنني الاعتماد على بضعة أمور: لا يوجد عدد كبير من الشجعان في المجمّع، وهم لا يتمتّعون بحدّة الذهن؛ كما أنّني سأفعل ما في وسعي لإيقافهم.

مشينا في الرواق المؤدّي إلى السرداب الذي يتخلّله مصباح كلّ عشر أقدام. وعندما وصلنا إلى

أوّل بقعة ضوء، سمعت طلقة رصاص فانخفضت. لا بدّ أنّ أحدهم قد رآنا. زحفت إلى البقعة المظلمة التالية. كانت الشرارة قد لمعت من الباب المؤدّي إلى السرداب.

سألتهم: "هل أنتم بخير؟".

قال أبـي: "أجل".

"لا تتحرّكوا من هنا".

ركضت إلى طرف الغرفة. كانت المصابيح تبرز من الجدار، حيث امتدّ تحت كلّ منها شريط من الظلّ. أنا قصيرة القامة بما فيه الكفاية للاختباء فيه؛ إن استدرت جانباً. ويمكنني بذلك التسلّل إلى طرف الغرفة، ومباغتة الحارس الذي يطلق علينا النار قبل أن يجد الفرصة لإصابتي برصاصة في الرأس. على الأقلّ، آمل ذلك.

من الأمور التي أدين بها لجماعة الشجاعة الاستعداد الذي يبدّد الخوف.

صاح صوت: "كائناً من تكون، سلّم سلاحك، وارفع يديك إلى الأعلى!".

استدرت جانباً، وضغطت ظهري على الجدار. مشيت بضع خطوات جانبية سريعة، وأنا أجهد عينيّ لأرى في الظلام شبه الدامس. تردّد صدى طلقة أخرى في الغرفة المظلمة. وصلت إلى المصباح الأخير، ووقفت للحظة في الظلّ، لأسمح لعينيّ بالاعتياد على الضوء الخافت.

لا يمكنني الفوز في مواجهة كهذه، لكن إن استطعت التحرّك بسرعة كافية، فلن أحتاج إلى مواجهة أحد. مشيت بخطوات خفيفة باتّجاه الحارس الواقف بالقرب من الباب. أدركت وأنا على بعد ياردات قليلة منه أنّني أعرف هذا الشعر الداكن دائم اللمعان – حتّى تحت الضوء الخافت – وهذا الأنف الطويل.

إنّه بيتر.

أحسست بقشعريرة تسري في جسدي، وتلفّ قلبـي، ثمّ شعرت بانقباض في معدتي.

كان وجهه متوتّراً، وهذا يعني أنّه ليس منوّماً. نظر حوله، لكنّ عينيه كانتا تفتّشان الفضاء فوقي وخلفي. صمته يعني أنّه لن يتفاوض معنا، بل سيقتلنا من دون تردّد.

لعقت شفتيّ، ثمّ ركضت لأقطع المسافة القصيرة المتبقّية، ولكمته بأسفل يدي. أصابت الضربة أنفه فصرخ، ورفع يديه الاثنتين إلى الأعلى ليغطّي وجهه. نبض جسدي بطاقة عصبيّة، وبينما كان يحاول أن يستفيق من الصدمة، ركلته أسفل بطنه. عندها، ركع على ركبتيه، وسقط مسدّسه على الأرض. فحملته، وضغطت الفوهة على أعلى رأسه.

سألته: "لماذا أنت واعٍ؟".

رفع رأسه، فقدحت المسدّس، رافعة أحد حاجبيّ.

قال: "إنّهم قادة الشجاعة... فقد قيّموا نتائجي وأخرجوني من المحاكاة".

قلت: "هذا لأنّهم أدركوا أنّك تملك ميولاً إجرامية، ولن تمانع في قتل بضع مئات من الأشخاص وأنت بكامل وعيك. هذا منطقيّ".

"أنا لست... قاتلاً!".

"لم ألتق يوماً شخصاً من النزاهة يكذب إلى هذا الحدّ". طرقت بفوّهة المسدّس على جمجمته، مضيفة: "أين أجهزة الكومبيوتر التي تتحكّم بالمحاكاة بيتر؟".

"لن تقتليني".

قلت بهدوء: "يميل الناس إلى المبالغة في تقدير طباعي، ويظنّون أنّه بسبب كوني قصيرة القامة، أو فتاة، أو متزمّتة، لا يمكنني أن أكون قاسية. لكنّهم مخطئون".

غيّرت اتّجاه المسدّس ثلاثة إنشات إلى اليسار، وأطلقت النار على ذراعه.

ملأ صراخه المكان، ونفر الدم من جرحه، وأخذ يصرخ مجدّداً وهو يضغط جبهته على الأرض. أرجعت المسدّس إلى رأسه، وتجاهلت الإحساس بالذنب الذي اجتاح صدري.

قلت: "والآن، بعدما عرفت خطأك، سأعطيك فرصة أخرى لتخبرني بما أريد معرفته، قبل أن أصيبك في مكان أسوأ".

هذا أمر آخر يمكنني الاعتماد عليه، فبيتر ليس شخصاً غير أناني.

التفت وركّز نظره عليّ، ثم عضّ على شفته السفلى، وارتجفت أنفاسه وهو يزفر ثمّ يشهق، ثم يزفر مجدّداً.

قال: "إنّهم يصغون إلينا. وإن لم تُجهزي عليّ، فهم سيفعلون ذلك. شرطي الوحيد لإخبارك هو أن تخرجيني من هنا".

"ماذا؟".

قال متألّماً: "خذيني... آه... معك".

قلت: "أتريدني أن آخذك أنت، الشخص الذي حاول قتلي... معي أنا؟".

أنّ قائلاً: "أجل، هذا إن كنت تريدين جواباً عن سؤالك".

بدا الأمر وكأنّه خيار، لكنّه لم يكن كذلك. ففي كلّ دقيقة تمرّ وأنا أحدّق إلى بيتر، وأفكّر في

كيفية ملاحقته لي في كوابيسي ومدى الأذى الذي سبّبه لي، يموت عدد آخر من أفراد جماعة نكران الذات على أيدي أفراد جيش الشجاعة المنوَّمين.

قلت وأنا أكاد أختنق: "حسناً، حسناً".

سمعت وقع خطوات خلفي، فأحكمت قبضتي على المسدّس، ونظرت إلى الخلف، ورأيت أب.ي وأخي وماركوس آتين نحونا.

خلع أب.ي قميصه ذا الكمين الطويلين، وكان يرتدي تحته قميصاً قطنياً. ثمّ ركع بالقرب من بيتر، ولفّ القماش حول ذراعه، وربطه جيداً. وبينما كان يضغط الرباط على جرح بيتر النازف، نظر إليّ وقال: "هل كان إطلاق النار عليه ضرورياً حقّاً؟".

لم أجبه.

قال ماركوس بهدوء: "أحياناً، يكون الألم لمصلحة خير أكبر".

تراءت لي صورته وهو واقف أمام توبياس، حاملاً الحزام في إحدى يديه، وسمعت صدى صوته وهو يقول: هذا لمصلحتك. نظرت إليه لبضع ثوانٍ. هل يعتقد ذلك حقّاً؟ تبدو هذه الجملة من عِبَر الشجعان.

قلت: "هيّا، انهض يا بيتر".

سألني كاليب: "أتريدين منه أن يمشي؟! هل أنت مجنونة؟".

أجبته: "وهل أصبته في ساقه؟ كلاّ، يمكنه السير. إلى أين سنذهب يا بيتر؟".

قام كاليب بمساعدة بيتر على الوقوف.

قال بصعوبة: "المبنى الزجاجي، الطابق الثامن".

قادنا عبر الباب.

مشيت في السرداب الذي يضجّ بهدير النهر ويتوهّج بالضوء الأزرق. لم يسبق لي أن رأيته خالياً على هذا النحو من قبل. فتّشت جدرانه بحثاً عن أيّ إشارة للحياة، لكنّني لم أرَ أيّ حركة، ولم ألحظ أشخاصاً يقفون في الظلام. أبقيت المسدّس في يدي، وتوجّهت إلى الممرّ المؤدّي إلى المبنى الزجاجي. سرت رعشة في جسدي بسبب خلوّ المكان الذي ذكّرني بالحقل اللامتناهي في كوابيسي التي تسيطر عليها الغربان.

سألني أب.ي وهو يتبعني عبر الممرّ: "كيف تظنّين أنّ لديك الحقّ بإطلاق النار على الناس؟". مررنا بصالة الأوشام. أين توري الآن؟ وكريستينا أيضاً؟

قلت: "الوقت غير مناسب لمناقشة الأخلاق".

قال: "بل هذا هو الوقت الأنسب؛ لأنّك قد تجدين فرصة لإطلاق النار على شخص آخر، وإن لم تدركي –".

أجبته من دون أن ألتفت إليه: "أدرك ماذا؟ أنّه في كلّ ثانية أضيعها يموت عضو آخر من جماعة نكران الذات، ويتحوّل شجاع آخر إلى قاتل؟! لقد أدركت هذا، والآن حان دورك".

"ثمّة طريقة صحيحة لفعل الأمور".

"ما الذي يجعلك واثقاً إلى هذا الحدّ أنّك تعرفها؟".

قاطعنا كاليب قائلاً: "رجاء، توقّفا عن الجدال. لدينا أمور أهمّ من ذلك الآن".

تابعت الصعود، بينما احتقن وجهي بالدماء. قبل بضعة أشهر، ما كنت لأجرؤ على الردّ على أب.ي. وقبل بضع ساعات، ما كنت لأفعل ذلك أيضاً. لكنّ شيئاً ما تغيّر عندما قتلوا أمّي، وأخذوا توبياس.

تناهت إليّ أنفاس أب.ي على الرغم من هدير النهر. لقد نسيت أنّه يكبرني سنّاً، وأنّ وزن جسده أصبح عبئاً عليه.

قبل أن أصعد الدرجات المعدنية التي ستقودني فوق السقف الزجاجي، انتظرت في الظلام، وراقبت جدران السرداب التي تتلقّى ضوء الشمس. أخيراً، مرّ ظلّ على الجدار، فبدأت أعدّ إلى أن مرّ الظلّ التالي. يقوم الحرّاس بجولتهم كلّ دقيقة ونصف، ويقفون لمدة عشرين ثانية، ثمّ يبتعدون.

قلت لأب.ي بصوت خافت: "ثمّة مسلّحون في الأعلى، وإن رأوني فسيقتلونني". نظرت إلى عينيه، وأضفت: "هل يجب أن أتركهم يفعلون ذلك؟".

حدّق إليّ لبضع ثوانٍ، ثم قال: "اذهب.ي، كان الله في عونك".

صعدت الدرجات بحذر، وتوقّفت قبل أن يظهر رأسي. انتظرت قليلاً، وراقبت الظلال وهي تتحرّك، وعندما توقّف أحدها، ظهرت، وصوّبت سلاحي إليه، ثمّ أطلقت النار.

لم تصب الرصاصة الحارس، بل حطّمت نافذة خلفه. أطلقت النار مجدّداً، ثمّ انخفضت مع تساقط الرصاص على الأرض من حولي. حمداً لله، كان المبنى الزجاجي مقاوماً للرصاص، وإلاّ لكنت قد لقيت حتفي إثر تحطّم الأرض الزجاجية.

تخلّصت من أحد الحرّاس، ثم أخذت نفساً عميقاً، ونظرت عبر الزجاج لرؤية هدفي. أرجعت المسدّس إلى الخلف، وأطلقت النار على الحارس الذي كان يركض نحوي. أصابت الرصاصة ذراعه،

لكنّها كانت لحسن الحظّ الذراع التي يستعملها لإطلاق النار؛ إذ أسقط مسدّسه الذي انزلق على الأرض.

رميت جسدي المرتجف عبر فتحة السقف، واستوليت على المسدّس قبل أن يصل إليه. سمعت أزيز رصاصة بالقرب من رأسي، وكانت قريبة جداً إلى حدّ أنّها حرّكت شعري. فتحت عينيّ مذهولة، ثمّ طويت ذراعي فوق كتفي، مسبّبة لنفسي ألماً مبرحاً، وأطلقت النار ثلاث مرّات خلفي. أصابت إحدى الرصاصات حارساً بأعجوبة، فيما طفرت الدموع من عينيّ رغماً عنّي؛ بسبب الألم الذي استبدّ بكتفي. أنا واثقة أنّ إحدى القطب قد انحلّت.

وقف أمامي حارس آخر، فاستلقيت على بطني، وصوّبت السلاحين نحوه، ممدّدة ذراعيّ على الأرض، وحدّقت إلى فوهة مسدّسه.

بعد ذلك، حدث أمر عجيب. فقد أومأ برأسه وطلب منّي الذهاب.

لا بدّ أنّه جامح.

صحت: "الطريق آمن!".

أمّا الحارس، فدخل غرفة عالم الخوف، واختفى هناك.

وقفت على قدميّ ببطء، واضعة ذراعي على صدري. أحسست أنّني في نفق، وأنّني أركض فيه، ولن أتمكّن من التوقّف أو التفكير بشيء آخر قبل أن أبلغ هدفي.

أعطيت كاليب مسدّساً، ودسست الآخر تحت حزامي.

قلت وأنا أشير برأسي إلى بيتر: "أظنّ أنّه عليك البقاء هنا معه أنت وماركوس. إن أتى معنا فسيؤخّرنا. احرص على ألاّ يلحق بنا أحد".

أتمنّى ألاّ يفهم أنّني أحاول حمايته بإبقائه هنا؛ مع أنّني أعرف أنّه على استعداد للتضحية بحياته من أجل هذا. إن صعدتُ إلى المبنى، فقد لا أتمكّن من العودة. وكلّ ما أتمنّاه هو تدمير نظام المحاكاة قبل أن يقتلني أحد. متى قرّرت خوض هذه المهمّة الانتحارية؟! لماذا لم يكن اتّخاذي هذا القرار أكثر صعوبة؟

قال كاليب: "لا يمكنني البقاء هنا بينما تجازفين بحياتك".

قلت: "ما أطلبه منك ضروري".

ركع بيتر على ركبتيه، ولمعت قطرات العرق على جبهته. للحظة، أشفقت على حاله، لكن عندما تذكّرت إدوارد، والعصابة التي أحاطت بعينيّ وأنا أتعرّض للهجوم، تحوّلت الشفقة إلى كره. أخيراً، هزّ

كاليب رأسه موافقاً.

اقتربت من أحد الحرّاس الممدّدين أرضاً، من دون أن أنظر إلى الإصابة التي أودت بحياته. كان رأسي ينبض ألماً. فأنا لم آكل، ولم أنم، ولم أبكِ أو أصرخ أو أسترح ولو للحظة واحدة. عضضت على شفتي، ودفعت نفسي نحو المصعد، إلى يمين الغرفة. الطابق الثامن.

ما إن أغلق باب المصعد حتّى أسندت رأسي إلى الزجاج، ورحت أصغي إلى رنينه كلّما تجاوزنا طابقاً.

نظرت إلى أب.ي.

قال: "شكراً لك لأنّك حميت كاليب. بياتريس، أنا –".

وصل المصعد إلى الطابق الثامن، وفتح الباب. كان بانتظارنا حارسان مسلّحان، بوجهين خاليين من التعابير. نظرت إليهما مذهولة، وانبطحت على الأرض مع انطلاق الرصاص. سمعت صوت الرصاص وهو يرتطم بالزجاج، ثمّ سقط الحارسان أرضاً، أحدهما حيّ يئنّ، والآخر قضى نحبه بسرعة. وقف أب.ي أمامهما شاهراً مسدّسه.

وقفت مترنّحة. لكن، سرعان ما رأينا حرّاساً يركضون باتّجاهنا عبر الرواق الأيسر. ونظراً إلى تزامن خطواتهم، فهم تحت تأثير المحاكاة من دون شكّ. يمكنني أن أركض عبر الرواق الأيمن، لكن إن أتى الحراس من الاتجاه المعاكس، فهذا يعني أنّ أجهزة الكومبيوتر هناك. تمدّدت على الأرض، بين الحارسين الذين أطلق عليهما أب.ي النار للتوّ، وحاولت البقاء جامدة قدر الإمكان.

خرج أب.ي من المصعد، وأخذ يركض في الرواق الأيمن؛ حيث جذب الحراس خلفه. وضعت يدي على فمي لأمنع نفسي من مناداته. إنّه يضحّي بحياته.

حاولت أن أخبّئ وجهي لكي لا أرى ما يجري، لكنّني لم أستطع. نظرت من خلف ظهر الحارس المطروح أرضاً، فرأيت أب.ي يطلق النار من فوق كتفه على الحراس الذين يلاحقونه. غير أنّه لم يكن سريعاً بما فيه الكفاية؛ إذ أصابه أحدهم في بطنه، فأطلق أنيناً عالياً، شعرت وكأنّه يخرج من صدري.

وضع يديه على بطنه، وارتطمت كتفه بالجدار، ثمّ راح يطلق النار تكراراً. وبما أنّ الحراس كانوا تحت تأثير المحاكاة، فقد واصلوا التقدّم على الرغم من إصاباتهم. وظلّوا يقاتلون إلى أن سكتت قلوبهم؛ لكنّهم لم يصلوا إلى أب.ي. تدفّق الدم من بين أصابعه، وشحب وجهه. أطلق رصاصة أخرى، وسقط آخر حارس.

قلت: "أب.ي". كانت صرخة، لكنّها خرجت همساً.

تهاوى أرضاً، والتقت نظراتنا كما لو أنّ المسافة التي تفصل بيننا اختفت فجأة.

فتح فمه وكأنّه يريد قول شيء ما، لكنّ رأسه سرعان ما انخفض على صدره، وارتخى جسده.

أحرقت الدموع عينيّ، وأحسست بضعف شلّ قدميّ. فرائحة العرق الممزوجة بالدم سبّبت لي الغثيان. أردت أن أترك رأسي يستريح على الأرض، وأن تكون هذه النهاية. أردت النوم، وعدم الاستيقاظ من جديد.

غير أنّ ما قلته لأبي كان صحيحاً. فكلّ ثانية تمرّ، يموت فيها شخص آخر من نكران الذات. بقي عليّ واجب واحد في هذا العالم؛ ألا وهو تدمير نظام المحاكاة.

أجبرت نفسي على الوقوف، وركضت في الرواق، ثمّ استدرت إلى اليمين في آخره. لم يكن أمامي سوى باب واحد، ففتحته.

رأيت أمامي جداراً من الشاشات، كلّ منها بطول قدم، وعرض قدم. كانت بالعشرات، تُظهر كلّ منها جزءاً من المدينة؛ السياج، المحور، شوارع مقاطعة نكران الذات التي تعجّ بالجنود، الطابق الأرضي من المبنى تحتنا، حيث يقف كاليب وماركوس وبيتر بانتظار عودتي. كان الجدار يجمع كلّ ما رأيته، وكلّ ما عرفته حتّى اليوم.

كانت إحدى الشاشات تعرض سطراً من الرموز عوضاً عن الصور؛ غير أنّه كان يمر بسرعة، ولم أتمكّن من قراءته. هذا من دون شكّ نظام المحاكاة، وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الرموز، لائحة معقّدة من الأوامر التي تستبق وتنتج آلاف النتائج المختلفة.

أمام الشاشة، كان ثمّة كرسي ومكتب. وعلى الكرسي، جلس جندي من الشجعان.

قلت: "توبياس".

الفصل الثامن والثلاثون

التفت توبياس، ووقع نظر عينيه الداكنتين عليّ. عقد حاجبيه، ثمّ وقف وبدا عليه الارتباك. أخيراً، رفع مسدّسه في وجهي وقال: "ضعي سلاحك أرضاً".

قلت: "توبياس، أنت تحت تأثير المحاكاة".

ردّد قائلاً: "ضعي سلاحك أرضاً، وإلاّ أطلقت النار".

قالت جانين إنّه لا يعرفني. كما قالت إنّ المحاكاة حوّلت أصدقاء توبياس إلى أعداء. وبالتالي، إن اضطر فسيقتلني.

وضعت سلاحي على الأرض بالقرب من قدميّ.

صاح: "ضعي سلاحك أرضاً!".

"لقد فعلت". قال صوت في داخلي إنّه لا يسمعني، ولا يراني، ولا يعرفني. وأحسست كما لو أنّ ألسنة من النار اشتعلت خلف عينيّ. لا يمكنني الوقوف هنا ببساطة، والسماح له بقتلي.

ركضت نحوه، وأمسكت بمعصمه. أحسست بعضلاته تتحرّك وهو يضغط على الزناد، فأخفضت رأسي في الوقت المناسب، حيث أصابت الرصاصة جداراً خلفي. شهقت وأنا أركله على أضلاعه، ثمّ ألوي معصمه جانباً بكلّ قواي. عندئذٍ أفلت المسدّس.

لا يمكنني أن أتغلّب على توبياس في القتال، أعرف هذا مسبقاً، لكن عليّ أن أدمّر جهاز الكومبيوتر. اندفعت للاستيلاء على المسدّس، لكن قبل أن أصل إليه أمسك بـي، ودفعني جانباً.

نظرت إلى عينيه الداكنتين الناريّتين للحظة، قبل أن يلكم فكّي. استدار رأسي جانباً من قوّة الضربة، وابتعدت عنه، ثمّ رفعت يديّ إلى الأعلى لحماية وجهي. لا يمكنني السقوط، فلو سقطت سيركلني، وسيكون هذا أسوأ؛ أسوأ بكثير. ركلت المسدّس بعقب قدمي لكي لا يصل إليه، وتجاهلت ألم فكّي، ثمّ ركلته على معدته.

قبض على قدمي، وشدّني إلى الأسفل، فوقعت على كتفي. أعمى الألم أطراف حقلي البصري للحظات، ثم نظرت إليه، ورأيته يرجع قدمه إلى الخلف استعداداً لركلي، فركعت على ركبتيّ، ومددت ذراعي لأخذ المسدّس. لا أعرف ماذا سأفعل به. لن أطلق النار عليه، لن أطلق النار عليه، لن أفعل. توبياس هنا، في مكان ما.

أمسك بشعري، ولوى رأسي جانباً. فمددت يدي إلى الخلف، وأمسكت بمعصمه، لكنّه قويّ جدّاً،

وسرعان ما ارتطم جبيني بالجدار.

لا بدّ أن يكون في مكان ما.

قلت: "توبياس".

هل ارتخت قبضته؟ التفتّ وركلته، فأصبت ساقه. عندما أفلت شعري، انخفضت نحو المسدّس، وأطبقت أصابعي على المعدن البارد، ثم استدرت، وصوّبت المسدّس عليه.

قلت: "توبياس، أعرف أنّك موجود".

لكن، لو كان كذلك، لما اندفع نحوي على الأرجح وكأنّه على وشك قتلي فعلاً هذه المرّة.

نبض رأسي ألماً وأنا أقف.

"توبياس، أرجوك". كنت أتوسّل إليه على نحو مثير للشفقة، والدموع تسيل على وجهي الساخن. "أرجوك، ألا تراني؟". مشى نحوي بحركة خطيرة، وسريعة، وعنيفة. ارتجف المسدّس بيديّ. "أرجوك توبياس، أرجوك!".

حتّى عندما يعبس، يبدو التفكير في عينيه، وأتذكّر انحناء فمه حين يبتسم.

لا يمكنني أن أقتله. أنا لست واثقة ما إذا كنت أحبّه؛ لست واثقة ما إذا كان هذا هو السبب. لكنّني أكيدة ممّا سيفعله لو كان في مكاني. أنا أكيدة أنّه ما من شيء بنظره يستحقّ القتل.

لقد فعلت هذا من قبل، في عالم الخوف الخاص ب.ي. يومذاك، حملت المسدّس، بينما أمرني صوت بإطلاق النار على من أحبهم، ففضّلت التضحية بحياتي عوضاً عن ذلك، لكن لا أدري كيف سيفيدني هذا الأمر الآن. مع ذلك، أعرف، أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل.

يقول أب.ي دائماً، بل كان يقول: ثمّة قوّة في التضحية بالذات.

قلبت المسدّس في يدي، ووضعت مقبضه في كفّ توبياس.

ضغط الفوهة على جبيني، فتوقّفت دموعي عن الانهمار، وأحسست ببرودة الهواء على بشرتي. مددت يدي، ووضعتها على صدره لأشعر بنبضات قلبه. فنبضه هو الشيء الوحيد الذي ما زال على حاله.

قدح مطرقة المسدّس. ربّما كان من السهل أن أتركه يقتلني؛ تماماً كما هو الحال في عالم الخوف، وكما هو في أحلامي. قد تكون مجرّد طلقة، فتنطفئ الأنوار، وأجد نفسي في عالم آخر. وقفت ساكنة، وانتظرت.

هل يمكن أن تغتفر كلّ أخطائي التي ارتكبتها لأصل إلى هنا؟

لا أدري، لا أدري.

أرجوك.

الفصل التاسع والثلاثون

لم تخرج الطلقة. حدّق إليّ بالنظرة الشرسة نفسها، لكنّه لم يتحرّك. لماذا لا يطلق النار عليّ؟ كان قلبه ينبض تحت كفّي، بينما داعب الأمل قلبي. إنّه جامح، ويمكنه مقاومة هذه المحاكاة، لا بل أيّ محاكاة أخرى.

قلت: "توبياس، هذه أنا".

اقتربت منه خطوة، وأحطته بذراعيّ. كان جسده متصلّباً، بينما أخذ قلبه ينبض بسرعة أكبر؛ فقد شعرت به تحت خدّي. صوت نبضة، تبعه صوت المسدّس وهو يسقط على الأرض. أمسك كتفيّ بقوّة، وضغطَت أصابعه على موضع الجرح. صرخت وهو يبعدني عنه. ربّما يفكّر بقتلي على نحو أكثر وحشية.

قال: "تريس!". لقد استعاد رشده.

أحاطني بذراعيه، وضمّني بقوّة إليه. كان العرق يكسو وجهه وعنقه، بينما كان جسده يرتجف، والألم يكوي كتفي. غير أنّني لم آبه بألمي، إطلاقاً.

تركني ونظر إليّ، ثمّ مرّر أصابعه على جبيني، وخدّيّ، وشفتيّ.

صدر عنه صوت تراوح بين النشيج والتنهّد والأنين، ثمّ عانقني مجدّداً، ولمعت الدموع في عينيه. لم أفكّر يوماً أنّني قد أرى توبياس يبكي، وقد آلمني ذلك.

دفنت وجهي في صدره، وبكيت. وعاد إليّ كلّ الإرهاق، وألم كتفي، وشعرت وكأنّ جسدي يزن أطناناً. اتّكأت عليه، فأسندني.

سألته: "كيف خرجت منها؟".

"لا أدري، سمعت صوتك".

* * *

بعد بضع ثوانٍ، تذكّرت سبب وجودي هنا. فابتعدت عنه، ومسحت الدموع عن عينيّ، ثمّ استدرت نحو الشاشات مجدّداً. رأيت الشاشة التي تشرف على النافورة. كان توبياس خائفاً جدّاً عندما استنكرت تصرّفات جماعة الشجاعة هناك. وكان ينظر طوال الوقت إلى الجدار الذي يعلوها. الآن، بتّ أعرف السبب.

وقفنا هناك أنا وتوبياس لبعض الوقت، وأظنّ أنّه فكّر بما فكّرت فيه: كيف يمكن لشيء بهذا

الحجم أن يتحكّم بهذا العدد من الناس؟

سألني: "هل كنت أشغّل المحاكاة؟".

"لا أدري إن كنت تشغّلها أم تراقبها فقط. فهي تعمل أساساً، ولا أدري كيف. لكنّ جانين وجدت طريقة لجعلها تعمل من تلقاء نفسها".

هزّ رأسه متعجّباً. "هذا... لا يصدّق. إنّه شيء فظيع، ورهيب... ولا يصدّق".

رصدتُ حركة على إحدى الشاشات، ورأيت أخي وماركوس وبيتر واقفين في الطابق الأوّل من المبنى وقد أحاط بهم عدد من الجنود بالملابس السوداء، وكلّهم يحملون الأسلحة؟

قلت باقتضاب: "توبياس، أوقفها حالاً!".

اندفع إلى شاشة الكومبيوتر، وضغط عليها بضع مرّات بإصبعه. لم أنظر إلى ما يفعله، بل كان كلّ اهتمامي منصبّاً على أخي. فقد شهر المسدّس الذي أعطيته إيّاه، وبدا جاهزاً لاستعماله. عضضت على شفتي. لا تطلق النار. ضغط توبياس على الشاشة بضع مرّات أخرى، وطبع أحرفاً لا معنى لها بالنسبة إليّ. لا تطلق النار.

رأيت وميضاً وشرارة تنطلق من إحدى البنادق، فشهقت فزعاً. انخفض أخي، وماركوس، وبيتر على الأرض، ورفعوا أذرعهم فوق رؤوسهم. تحرّكوا جميعاً بعد قليل، فعرفت أنّهم ما زالوا على قيد الحياة. تقدّم الجنود، وأحاطت مجموعة منهم بشقيقي.

قلت: "توبياس".

ضغط على الشاشة مجدّداً، فجمد كلّ الموجودين في الطابق الأوّل، ثم انخفضت أذرعهم إلى الأسفل.

أخيراً، تحرّك الجنود، وراحوا يلتفتون يميناً ويساراً، قبل أن تسقط الأسلحة من أيديهم، وتتحرّك شفاههم وكأنّهم يصرخون. تدافعوا، وركع بعضهم أرضاً، ثمّ أمسكوا برؤوسهم، وأخذوا يهزّون أجسادهم إلى الأمام والخلف.

تبدّد كلّ التوتّر من صدري، وجلست وأنا أتنهّد بارتياح.

ركع توبياس بالقرب من الكومبيوتر، ونزع غطاء صندوق القرص الصلب.

قال: "يجب أن أخرج قرص البيانات، وإلاّ سيعيدون تشغيل المحاكاة من جديد".

راقبت حالة الجنون التي تسيطر على الشاشة. لا بدّ أنّه الجنون نفسه الذي يسود في الشوارع. نظرت إلى الشاشات، واحدة تلو الأخرى، بحثاً عن تلك التي تظهر مقاطعة نكران الذات في المدينة.

كانت ثمّة شاشة واحدة مثبّتة في آخر الغرفة، في الأسفل. بدا الشجعان في تلك الشاشة وهم يطلقون النار على بعضهم بعضاً، ويتدافعون، ويصرخون في جوّ من الفوضى العارمة. سقط رجال ونساء بالملابس السوداء على الأرض، وركض الناس في كلّ اتّجاه.

قال توبياس وهو يحمل القرص الصلب: "أنهيت". كان عبارة عن قطعة معدنية بحجم كفّه. أعطاني إيّاه، فدسسته في جيب.ي الخلفيّ.

قلت وأنا أقف: "علينا الرحيل". وأشرت إلى الشاشة إلى اليمين.

"أجل، أنت على حقّ". ثمّ لفّ ذراعه حول كتفيّ، وأضاف: "هيّا بنا".

خرجنا معاً إلى الرواق، وانعطفنا عند الزاوية. ذكّرني المصعد بأب.ي، ولم أستطع منع نفسي من النظر إلى جثّته.

كانت ممدّدة على الأرض بالقرب من المصعد، ومحاطة بجثث عدد من الجنود. خرجت مني صرخة مخنوقة، وأشحت بنظري، لكنّني لم أستطع منع الشعور بالغثيان الذي باغتني، فتقيّأت بالقرب من الجدار.

أحسست للحظة أنّ كلّ ما في داخلي ينهار. ركعت قرب إحدى الجثث، وأنا أتنفّس من فمي لكي لا أشمّ رائحة الدماء، ثمّ وضعت يدي على فمي لأكتم شهقة بكاء. خمس ثوانٍ بعد. خمس ثوانٍ من الضعف، ثمّ سأنهض. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... خمسة.

* * *

لم أكن مدركة تماماً لما يحيط ب.ي. كان ثمة مصعد، وغرفة زجاجية، وهبّة هواء بارد. رأيت حشداً من جنود الشجاعة بالملابس السوداء وهم يصيحون. بحثت عن وجه كاليب، لكنّه لم يكن بين الوجوه؛ إلى أن خرجنا من المبنى الزجاجي إلى ضوء الشمس.

ركض إليّ كاليب عندما خرجت من الباب، فارتميت عليه، واحتضنني بقوّة.

قال: "أب.ي؟".

اكتفيت بهزّ رأسي.

قال وهو يختنق بالكلمات: "حسناً، بالتأكيد كان سيحب أن يموت بهذه الطريقة".

من خلف كتف كاليب، رأيت توبياس وهو يتوقّف فجأة. تصلّب جسده بأكمله، وركّز نظره على ماركوس. في غمرة الأحداث، نسيت أن أخبره بوجود ماركوس معنا.

رأيت حنجرته وهي تعلو وتنخفض، ونظره يرتفع إلى السقف.

تنهّد ماركوس قائلاً: "بنيّ".

أجفل توبياس.

قلت وأنا أبتعد عن كاليب: "مهلاً!". تذكّرت الحزام الذي التفّ حول معصمي في عالم الخوف الخاصّ بتوبياس، فوقفت بينهما، ودفعت ماركوس إلى الخلف قائلة: "ابتعد عنه".

شعرت بأنفاس توبياس المتوتّرة على عنقي.

همست: "إيّاك أن تقترب منه".

سألني كاليب: "بياتريس، ما الذي تفعلينه؟".

قال توبياس: "تريس".

نظر إليّ ماركوس مذهولاً، غير أن تلك النظرة بدت لي مصطنعة. فقد كانت عيناه واسعتين، وفمه مفتوحاً على نحو مبالغ فيه. لو كنت أستطيع إيجاد طريقة لمسح تلك النظرة عن وجهه لما قصّرت.

قلت وأنا أنظر إليه: "لم تكن كلّ تلك المقالات التي نشرتها جماعة المعرفة عارية عن الصحّة".

قال ماركوس: "ما الذي تتحدّثين عنه؟ لا أدري ما قيل لك بياتريس، لكن –".

قلت: "أنا لم أقتلك حتّى الآن لسبب واحد؛ هو من يجب أن يفعل ذلك. ابتعد عنه، وإلاّ لن أكون مسؤولة عن أفعالي".

وضع توبياس يديه على ذراعيّ، وضغط بقوّة. أمّا ماركوس، فظلّ ينظر إليّ لبضع ثوانٍ، ولم أستطع أن أرى عينيه سوى كحفرتين سوداوين؛ تماماً كما كانتا في عالم خوف توبياس. أخيراً، أبعد نظره عنّي.

قال توبياس بصوت مرتجف: "علينا الذهاب. سيصل القطار في أيّ لحظة".

مشينا على أرض صلبة، باتّجاه سكّة الحديد. كان فكّ توبياس مشدوداً وهو ينظر أمامه مباشرة. فجأة شعرت بالندم؛ ربّما كان يجدر بي أن أتركه يواجه أباه بمفرده.

تمتمت: "أنا آسفة".

أجابني وهو يمسك بيدي: "لم تفعلي شيئاً يستدعي الاعتذار". كانت أصابعه لا تزال ترتعش.

قلت: "إن استقللنا القطار بالاتّجاه المعاكس، أي إلى خارج المدينة وليس إلى داخلها، فبإمكاننا الذهاب إلى مقرّ الوئام؛ وهو المكان الذي قصده الباقون".

سألني أخي: "وماذا عن النزاهة؟ ماذا تظنّين أنّهم فاعلون؟".

لا أدري ما هو ردّ فعل جماعة النزاهة على الهجوم. لا أعتقد أنّهم سيقفون إلى جانب المعرفة،

فهم لن يُقدِموا أبداً على عمل مخادع كهذا، غير أنّهم قد لا يحاربونهم أيضاً.

وقفنا بالقرب من السكّة لبضع دقائق؛ بانتظار وصول القطار. أخيراً، حملني توبياس لأنّني لم أعد أقوى على الوقوف. فأسندت رأسي على كتفه، وأخذت أنفاساً عميقة. بما أنّه هو من أنقذني من الهجوم، فقد اقترنت رائحته بالأمان. وما دام تفكيري مركّزاً عليها الآن، فسأشعر أنّني في مأمن من الخطر.

في الواقع، لا يمكن أن أشعر بالأمان ما دام ماركوس وبيتر معنا. حاولت عدم النظر إليهما، لكنّني شعرت بوجودهما مثل بطانية ملقاة على وجهي. فمن سخرية القدر أن أكون برفقة من أكره، بينما تركت أحبّائي خلفي جثثاً هامدة.

إمّا أن يكونوا جثثاً، أو قتلة عادوا إلى رشدهم للتوّ. أين كريستينا وتوري الآن؟ هل تهيمان في الشوارع والإحساس بالذنب يتآكلهما على ما اقترفته أيديهما؟ أم حوّلتا سلاحيهما إلى الناس الذين أجبروهما على فعل ذلك؟ أم قُتلتا أساساً؟ أتمنّى أن أعرف.

في الوقت نفسه، أتمنّى ألاّ أعرف أبداً. فإن كانت كريستينا لا تزال على قيد الحياة، فستعثر على جثّة ويل. وإن التقينا مجدّداً، فسترى عيناها الخبيرتان أنّني من قتله، أعرف ذلك. أعرف ذلك، والإحساس بالذنب يقتلني، لذا عليّ أن أنسى ما فعلته. أجبرت نفسي على نسيان ما فعلته.

وصل القطار، فأنزلني توبياس لأتمكّن من القفز. هرولت بضع خطوات بالقرب من المقطورة، ثمّ رميت نفسي إلى الداخل، وسقطت على كتفي اليسرى. جررت نفسي، ثمّ جلست واستندت إلى الجدار. جلس كاليب أمامي، وتوبياس بجانبي؛ مشكّلاً حاجزاً بيني وبين ماركوس وبيتر؛ عدوّيّ وعدوّيه.

انعطف القطار، فنظرت إلى المدينة خلفنا. ستتضاءل تدريجياً إلى أن نرى آخر سكّة الحديد، والغابات والحقول التي رأيتها آخر مرّة في طفولتي، حينها لم أقدّر جمالها كما ينبغي. سيريحنا لطف جماعة الوئام لبعض الوقت، مع أنّنا لا نستطيع البقاء هناك إلى الأبد. فقريباً، ستبدأ جماعة المعرفة وقادة الشجاعة الفاسدون بالبحث عنّا، وسنضطرّ للرحيل.

جذبني توبياس نحوه. ثنينا رُكبَنا وأحنينا رأسينا حيث شعرنا كما لو أننا في غرفة من صنع أيدينا؛ لا نرى فيها الأشخاص الذين سبّبوا لنا الأذى، فيما اتّحدت أنفاسنا في أثناء خروجها ودخولها.

قلت: "لقد مات أبواي اليوم".

مع أنّني قلت ذلك، ومع أنّني أعرف أنّه حدث، إلاّ أنّه كان لا يزال يبدو غير واقعي.

أضفت: "ماتا من أجلي". بدا لي هذا التفصيل هامّاً.

أجاب: "كانا يحبّانك. وبالنسبة إليهما، ما من طريقة أفضل من تلك لإظهار ذلك".

هززت رأسي موافقة، ونظرت إلى خطّ فكّه.

قال: "لقد أوشكتِ على الموت اليوم، كدتُ أقتلك. لماذا لم تقتليني تريس؟".

"لم أقدر. أحسست أنّني سأقتل نفسي".

بدا ألم في عينيه وهو يقترب منّي أكثر، وقال: "أوّد إخبارك بشيء".

مرّرت أصابعي على أوتار يده، ونظرت إليه مجدّداً.

ابتسم قليلاً وهو يقول: "أظنّ أنّني مغرم بك. لكنّني كنت أنتظر لأتأكّد من ذلك قبل إخبارك".

أجبته مبتسمة: "كم هذا لطيف من جانبك. علينا أن نجد لك ورقة لتكتب لائحة أو جدولاً أو شيئاً من هذا القبيل".

ضحك قائلاً: "ربّما كنت متأكّداً، لكنّني لم أشأ إخافتك".

ضحكت قليلاً: "أنت أكثر معرفة بنفسك".

قال: "حسناً إذاً، أنا أحبّك".

عانقته على الرغم من وجود أخي على مقربة منّا، بينما كان القطار يشقّ طريقه في أرض مظلمة وغامضة.

مددت يدي إلى جيبـي، وأخرجت القرص الصلب الذي يحتوي على بيانات المحاكاة. قلّبته بيديّ، فانعكست عليه أشعّة شمس الغروب. تعلّقت عينا ماركوس بتلك الحركة بنهم. فكّرت: المكان ليس آمناً، ليس تماماً.

* * *

انهارت جماعتا نكران الذات والشجاعة، وتشتّت أعضاؤهما. أصبحنا مثل المنبوذين الآن. لا أعرف ما هي الحياة التي تنتظرني، فأنا بلا انتماء؛ مثل ورقة سقطت من الشجرة التي تمدّها بالحياة. لقد خسرنا وتركنا كلّ شيء خلفنا. فقدت المأوى، والطريق، واليقين. لم أعد تريس الناكرة لذاتها، ولا تريس الشجاعة.

أظنّ أنّه عليّ أن أصبح الآن شيئاً أهمّ من هذه وتلك.

انتهى